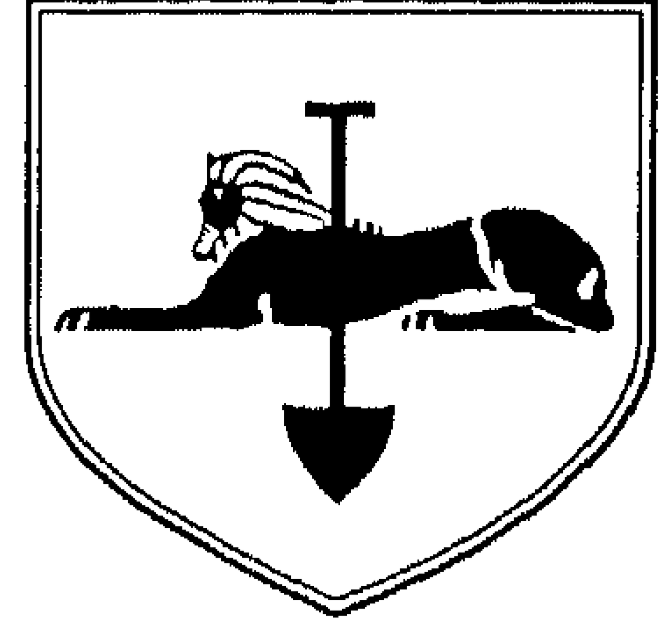
مؤلفات
المكتب الثقافى النمساوى
بالقاهرة
الجزء السادس



الجسر الذهبي

مختارات من الأدب النمساوى المعاصر

فى القصة والشعر

إعداد وتقديم أدولف أوبل

ترجمة وتقديم دكتور مصطفى ماهر



الجسر الذهبي

مختارات من الأدب النساوى المعاصر

فى القصة والشعر

إعداد وتقديم أدولف أويل

ترجمة وتقديم دكتور مصطفى ماهر

كلمة رئيس جمهورية النمسا

هذا الكتاب جدير حقاً بتقدير خاص : فلأول مرة تُقَدّم بين يدي العالم العربي مختارات من أعمال أهم الأدباء النمساويين في الخمسين سنة الماضية، في صورة قريبة المنال.

وعنوان هذه المختارات « إنما يفوز عند الجسر الذهبي من يعرف الكلمة... » مستوحى من قصيدة لإنجبورج باخمان. كانت هذه الشاعرة النمساوية العظيمة بما أوتيت من حدس فائق وقوة لغوية متميزة قادرة على سبر أغوار ما يقوّم في أعماق الفكر من ارتباطات. كانت «تعرف الكلمة» وأتاحت بمعرفتها هذه للكثير من البشر إدراك المعنى العميق للحياة، متجاوزة أيضاً كل الجسور الثقافية والدينية، وكل الجسور القومية والاجتماعية.

وهذه هي بالضبط في تقديري السمة الخاصة التي يتسم بها هذا الكتاب : إنه بما يضمه بين دفتيه من مختارات كتاب يتناول لحظات هامة في تاريخ النمسا وعلامات على

طريقها، ولكنه في الوقت نفسه يتجاوز حدود القومية على خير ما يكون التجاوز، فهو جزء لا يتجزأ من الأدب العالمي.

لهذا أوجه الشكر باسم جمهورية النمسا إلى المعهد الثقافي النمساوي بالقاهرة على نشره هذا الكتاب وإلى الأستاذ أدولف أوبل عالم الأدب، من أبناء ڤيينا، على الاختيار الواعي المتمكن من المادة، وأشكر كل من أسهموا في هذا المشروع. فقد قدمت مبادرتهم للقراء العرب كاتبات وكتّاب نمساويين مرموقين استخلصتهم بأسمائهم من بين ثنايا «الأدب الناطق بالألمانية» الذي قد يغفل الأسماء، فبدوا بملامح محددة جديدة واضحة. وهكذا تمثُل النمسا بلد الثقافة في عالم الثقافة العربية بصورة واضحة المعالم في مجال الأدب.

أما القراء العرب الذين يبرهن اهتمامهم مرة أخرى على الروابط العاطفية الوثيقة بين عالمهم الثقافي والنمسا، فأتمنى لهم لقاء مثمراً بتاريخ بلدنا والحياة الفكرية فيه. وهذا، في تقديري، أجمل استثمار من أجل مشاركة تتحقق في المستقبل.

توماس كليستيل

Der Bundespräsident

Das vorliegende Buch verdient tatsächlich besondere Beachtung: erstmals wird hier eine Auswahl der wichtigsten österreichischen Autoren der vergangenen fünfzig Jahre der arabischen Welt vorgestellt und nähergebracht.

Der Titel dieser Anthologie "Wer an der goldenen Brücke das Wort noch weiß, . . ." ruft ein Gedicht von Ingeborg Bachmann in Erinnerung. Diese große österreichische Lyrikerin war durch ihre besondere Intuition und Sprachgewalt imstande, tief in geistige Zusammenhänge einzudringen. Sie "wußte das Wort" und erschloß auf diese Weise vielen Menschen den tieferen Sinn des Lebens - auch jenseits aller kulturellen und religiösen, aller nationalen und sozialen Brücken.

Genau das scheint mir das Besondere dieses Buches zu sein: durch seine Auswahl gleichzeitig ein Lesebuch wichtiger historischer Augenblicke und Wendemarken österreichischer Geschichte und doch auch im besten Sinn übernational und Teil der Weltliteratur zu sein.

So danke ich namens der Republik Österreich dem österreichischen Kulturinstitut in Kairo für die Herausgabe, dem Wiener Literaturwissenschaftler Prof. Adolf Opel für die so sachkundige Zusammenstellung und allen anderen an diesem Projekt Beteiligten. Ihre Initiative macht es möglich, daß nun auch für arabische Leser namhafte österreichische Autorinnen und Autoren aus der anonymen "deutschsprachigen Literatur" herausgelöst werden und damit neue, deutliche Konturen gewinnen. Auf diese Weise nimmt das Kulturland Österreich auch auf dem Gebiet der Literatur für den arabischen Kulturraum Gestalt an.

Den arabischen Lesern aber, deren Interesse einmal mehr die besonders engen emotionalen Bande zwischen ihrem Kulturkreis und Österreich unter Beweis stellt, wünsche ich eine fruchtbare Begegnung mit der Geschichte und dem Geistesleben unseres Landes. Ich sehe darin die wohl schönste Investition in eine künftige Gemeinsamkeit.

Wien, Februar 1994

مقدمة

هذه المختارات من الأدب النمساوي الحديث

المكتب الثقافي النمساوي بالقاهرة من أقدم المعاهد الثقافية في العالم، وقد عاد إلى استئناف نشاطه في عام ١٩٥٩. ويقوم نشاطه الواسع المنوع غاية التنوع في جانب كبير منه على تشجيع العلاقات العلمية بين بلدينا.

ومن دواعي السرور أن تكون في مصر هذه الصفوة العديدة من محبي اللغة الألمانية وآدابها الذين يدركون عن بيّنة أن الأدب النمساوي يعيش حياة خاصة به، يشهد على ذلك المجلد الذي بين أيدينا بما يضمه بين دفتيه من شواهد من النثر والشعر، وبما يحمله من عنوان مقتبس من شعر إنجبورج باخمان التي توفيت في عام ١٩٧٣، وكانت باخمان، مثلها مثل طائفة من الكتّاب والشعراء الذين يضمهم الكتاب، قد زارت مصر سعياً إلى التعرف عن كثب إلى ثقافتها. وأود في ختام كلمتي أن أوجه أخلص الشكر إلى الأستاذ الدكتور مصطفي ماهر علي ما بذله من جهد جهيد في ترجمة هذا الكتاب وإعداده للنشر.

أرجو أن يجد قراء الكتاب فيه متعة كبيرة وأن يوقظ فيهم الرغبة إلى المزيد.

دكتورة بريجيته أجستنرجيرينج

Zum Geleit

Das Österreichische Kulturinstitut in Kairo ist eines der ältesten weltweit und hat bereits im Jahre 1959 seine Tätigkeit aufgenommen. Seine vielfältige und breitest gefächerte Arbeit basiert zu einem großen Teil auf der Förderung der wissenschaftlichen Beziehungen zwischen unseren beiden Ländern.

Es ist erfreulich, daß es in Ägypten so viele Freunde der deutschen Sprache und Literatur gibt, die sehr wohl erkennen, daß die österreichische Literatur ein Eigenleben führt. Der vorliegende Band legt davon Zeugnis ab. Er gibt Beispiele österreichischer Lyrik und Prosa und hat als Titel ein Wort von Ingeborg Bachmann, die vor 20 Jahren gestorben ist. Ingeborg Bachmann selbst war, wie einige der in dieser Anthologie zur Sprache kommenden Interpreten, in Ägypten, die Begegnung mit der fremden Kultur suchend.

Zuletzt möchte ich Herrn Prof. Dr. Moustafa Maher meinen herzlichsten Dank aussprechen, daß er sich der mühevollen Arbeit des Übersetzens und Redigierens unterzogen hat.

Ich wünsche allen zukünftigen Lesern viel Freude bei der Lektüre und hoffe, daß sie den Wunsch nach mehr erwecken möge.

Dr. Brigitte Agstner-Gehring

Direktorin des Österreichischen Kulturinstituts Kairo

Kairo, Februar 1994

مقدمة

«إنما يفوز عند الجسرالذهبي من يعرف الكلمة...»

النمسا وأدبها

بقلم أدولف أوپل

ليس الهدف من هذه المختارات من الأدب النمساوي المعاصر نثراً وشعراً أن تقدم إلى القاريء قطاعاً عرضياً يمثل الأساليب والمضامين على اختلافها، بل أن تعطي القاريء في العالم العربي صورة عن الإنسان النمساوي من خلال أدبه. ولهذا اختيرت المواد إما لأنها تتناول موقفاً نمساوياً- تاريخياً كان أو سياسياً أو اجتماعياً أو نفسياً، أو لأنها تتناول خبرة بموقف عربي إسلامي انعكست في عمل من أعمال هذا أو ذاك الكاتب النمساوي.

والحق أن أبعاد كيان الإنسان، في كل المجالات الثقافية، بكل ما ترتفع إليه من ذرى وما تتنزل إليه من مهاوٍ، تظهر أوضح ما تظهر في علاقات الفرد بعالمه المحيط به؛ ولهذا اخترنا، بخاصة في النثرية، طائفة من النصوص تتناول مثل هذه العلاقات : العلاقات بين الرجل والمرأة، بين القاتل والضحية، بين الأب وابنته، بين الأم وابنتها، وكذلك العلاقة بين الرجال والرجال، بين الإنسان والرب، بين الحاضر والماضي، بين أشكال الحياة المألوفة وأشكالها الغريبة.

ومن المواقف ما تلوح كأنما مسّتها لحظات حاسمة قدرية تغيِّر فجأة مساراً للحياة خطط تخطيطاً محكماً...

والكلمة التي تُسَمِّي موقفاً باسْمِهِ والتي تتيح لنا معرفته والتعبير عنه تعبيراً يحيط به كالسحر فيبقى ولا يتلاشى : مثل هذه الكلمة التي قد تعني التحررمن كل إسار هي نقطة بداية الأدب أياً كان وأينما كان. ولهذا اخترنا عنواناً لهذه المختارات وشعاراً لها كلمات من قصيدة للشاعرة النمساوية إنجبورج باخمان Ingeborg Bachmann تقول فيها :

إنما يفوز عند الجسرالذهبي من يعرف الكلمة

عندما يَلقَى الجنية حارسة الياقوتة الجمرية

كلمات من القصيدة الأولي من الديوان الأول «نداء الدب الأكبر» الذي أصدرته في عام ١٩٥٦ هذه الشاعرة التي تعتبر قمة من قمم الأدب النمساوي، والتي اختطفتها يد المنون في عام ١٩٧٣ مبكرة في ظروف مأساة أليمة.

وأتوجه بالشكر إلى وزارة الخارجية النمساوية ووزارة التعليم والفنون النمساوية في ڤيينا، وإلى المعهد الثقافي النمساوي بالقاهرة وبصفة خاصة الدكتورة بريجيته أكستنر-جيرينج على المساعدة في نشر هذا الكتاب؛ وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور مصطفى ماهر على ما قام به من جهد في نقل الكتاب وتقديمه. ولا يفوتني أن أشيد هنا بالأدباء والشعراء الذين اخترنا نصوصاً من أعمالهم، وبدور النشر التي أتاحتها لنا.

* * *

لم يكن النمساويون في يوم من الأيام، على عكس ذلك الرأي الذي ذاع بين الناس قديماً وما زال يتردد حتى اليوم، أمة من الأمم الألمانية كالفرنكيين والأليمانيين والساكسونيين، إنما

نشأ الشعب النمساوي من مزيج من الأمم المختلفة أشد الاختلاف التقى هنا في هذه البقاع بالأمة الإلليرية illyrisch الأولى، صاحبة الحضارة الهالليشتيتية Hallstätter Kultur. ثم أتى الرومان بعد حين، فأنشأ التجار الرومان مدناً هنا وهناك، وأتت من بعد الرومان أمم جرمانية وسلافية إلى هذه الأرض التي كان الرومان قد أقاموا فيها ما أقاموا من المدنية. وكان الخط الفاصل بين الجرمانية من ناحية، والسلافية من ناحية أخرى، يخترق الموقع الذي تتخذه النمسا الحالية، وظل على هذه الحال أمداً طويلاً. وظلت غالبية الشعب النمساوي، ومن بينه أهل ڤيينا، حتى القرن الرابع الميلادي تتكلم السلافية لا الألمانية. أما الألمانية فكانت لغة السادة، اللغة التي يتكلمها سكان القصور الحصينة والأديرة والمدن، أما الشعب فكان كما ذكرنا يتكلم السلافية، وظلت السلافية لغة الفلاحين قروناً عديدة باستثناء الربوع الغربية من النمسا. ولم تنتشر اللغة الألمانية في النمسا لتصبح لغة الشعب إلا نتيجة الجهود التي بذلتها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

ومن سائل : لماذا لم تنشأ لغة نمساوية خاصة، كما نشأت الهولندية التي كانت لهجة ثم أصبحت لغة خاصة؟ كانت الشروط الأساسية لتكوين لغة خاصة قائمة في النمسا، وظلت قائمة طوال قرون، ولكن الشعب النمساوي لم يخض غمار حرب تحرير وطنية ضد الهيمنة الأجنبية، كما فعل الهولنديون، ولهذا لم يكن هناك مبرر لتكوين لغة قومية خاصة. ولعلنا نذكر في هذا المقام أنه في الوقت الذي نشبت فيه الحروب البروسية - في القرن الثامن عشر - وكانت تلك أول مرة يظهر فيها إحساس قومي نمساوي، شرع اليسوعيون في وضع نحوٍ نمساوي لتقوم على أساسه لغة نمساوية خاصة؛ ولكن المشروع كان يفتقرإلى قاعدة شعبية عريضة، وضاعت اللحظة التاريخية، وبقيت هذه المحاولة تشير إليها كتب تاريخ الأدب إشارتها إلى الطرائف.

وليس غريباً أن نجد أن اللغة الواحدة التي يتكلمها النمساويون والألمان، والعلاقات السياسية والثقافية بين البلدين، تغري الكثير من النمساويين إلى يومنا هذا باعتبار الأدب

النمساوي مجرد جزءٍ من الأدب الألماني. ولكن الملاحظة الدقيقة تبين أننا حيال أدبين مستقلين لكل منهما سماته النوعية، سلكا في نموهما سبيلين متجاورين. كذلك الأدب السويسري الألماني اللغة، وأدب جمهورية ألمانيا الديموقراطية، قبل أن تنتهي، أدبان يشتركان في اللغة ويختلفان في الظروف الاجتماعية التي خرجا إلى الوجود في ظلها، ولكل منهما قيمه الخاصة التي لا يخطئها التقدير. ولهذا فإن لنا أن نتحدث عن أربعة آداب ألمانية اللغة، وتلك ظاهرة لا نكاد نعرف لها مثيلاً في بيئة ثقافية أخرى في أوروبا.

فابتداء من أدب القسيسين والرهبان الذين مكنوا لأنفسهم في بدايات العصر الوسيط في البقاع التي تعرف اليوم باسم النمسا، مروراً بملحمة النيبلونجنليد وشعر الغزل الذي قرضه ڤالتر فون در فوجلڤايده Walter von der Vogelweide متأثراً بشعراء جنوب فرنسا الذين يعرفون باسم الطروبادور Troubadour نلاحظ تطوراً يتخذ سمات نمساوية أكثر تحدداً، نراه ينطلق نحو ڤيينا وما أبدعته - في القرن السابع عشر - من ثقافة الباروك Barock الخلابة، والفنون المهرجانية التي تألقت في أوبرا البلاط، وفي المسرح الشعبي بڤيينا الذي وطد أركان تراثه فبقي راسخاً إلى يومنا هذا.

وإذا كان عصر الباروك هو آخرعصر يتسم بسمات أوروبية جامعة تعلو على كل ما عداها من سمات قومية، قبل أن تعرف أوروبا أسلوب اليوجندستيل Jugendstil وما عرف باسم الفن الجديد Art nouveau لار نوڤو، فإننا نجد هنا جذور وعي قومي نمساوي وأدب نمساوي خاص. هذا الوعي القومي النمساوي الذي بزغ آنذاك كان على حد تعبير هايميتو فون دودرر «ذا بنية فوق قومية... لأنه لم يكن لصيقاً بمفهوم محدد عن الأرض والناس.»

ولقد ظلت مقومات تراث الباروك باقية مؤثرة حتى اليوم، وتجاوزت عصرها تجاوزاً يعلو على الزمان، وطبعت بطابعها الأدب النمساوي في القرنين التاسع عشر والعشرين، على نحو أقوي مما فعلت الاتجاهات الأدبية السائدة في ألمانيا في الفترة نفسها. هناك خط متتابع مباشر

سلكه تراث الباروك من نيكولاوس ليناو (١٨٠٢-١٨٥٠) الذي لا يمكن ضمه إلى أي مدرسة أدبية محددة في القرن التاسع عشر، إلى هوجو فون هوفمنستال (١٨٧٤ - ١٩٢٩) وراينر ماريا ريلكه (١٨٧٥ - ١٩٢٦) وجيورج تراكل (١٨٨٧ - ١٩١٤). ولا زلنا نجد سمات من الباروك اليوم في أعمال هانس كارل أرتمان متمثلة في كلفه بالتهويم وبالتحليق في عالم الخيالات وبحبه للأشكال التنكرية.

وما لنا لا ننظر إلى الممثلين الكلاسيكيين لتلك الحركة الفنية التي عرفت باسم البيدرماير Biedermeier، والذين خرجوا بأعمالهم إلى الناس في النصف الأول من القرن التاسع عشر: فرانتس جريلپارتسر، وفرديناند رايموند، ويوهان نيستْرُوي، وأدالبرت شتيفتر، ونيكولاوس ليناو، لنرى أنهم هم الذين أسسوا ما نسميه اليوم «الأدب النمساوي». فقد كانت أعمالهم هي الأعمال الأولى التي أبرزت، بما انضوت عليه من وعي أدبي خاص، اختلاف النمسا عن ألمانيا، وكانت هي التي سلكت بالأدب النمساوي السبيل إلى العالمية. وكان هذا الجيل من الشعراء النمساويين، فوق هذا وذاك، هو الذي شَرُف، بعد انتهاء الكلاسيكية الألمانية بوفاة جوته، بتأكيد حق الأدب الناطق بالألمانية في التقدير العالمي. ثم تغيرت الأحوال ولم يجد هذا المركز البارز بين الناطقين بالألمانية من يؤكده على مر العقود التالية حتى نهاية القرن؛ إلا أن التراث النمساوي وجد من بين أهله من حمل عبء الاستمرار به، وهم أدباء نسيت أسماؤهم اليوم أو أنكرت قيمتهم ، أو ربما اختيرت من أعمالهم، طبقاً لما يسمى بوجهات نظر«تربوية»، بعض الشذرات توضع في كتب القراءة المدرسية، فتبقى الأسماء بقاء هزيلاً مسكيناً وتؤدي نتيجة لسوء الاختيار إلى نفور الناس من الاشتغال بالأدب كليةً. من هؤلاء الأدباء فرديناند فون زار، وماري فون إبنر إيشينباخ؛ وكذلك ليوپولد فون زاخارمازوك وكارل إميل فرانتسوز، وكلاهما من جاليسيا، من ذلك الإقليم الذي كان على تخوم المملكة النمساوية - بين أوكراينا وپولندة - والذي دخل الأدب باسم "مشارف أوروبا" أو "نصف آسيا". ونذكر بصفة خاصة

زاخارمازوك Sacher-Masoch (١٨٣٦-١٨٩٥)، الذي يردد الناس جميعاً اسمه في كلمة مازوكية أو مازوشية التي تعني التمتع بعذاب الآخرين، وقد تناول في أعماله قصص الجيتو، واعتبر رائد الناتورالية، ورائد الرواية السيكولوجية التي ازدهرت في القرن العشرين. وكان معروفاً في عصره يدلنا على ذلك أنه عندما احتفل في عام ١٨٨٣ بالعام الخامس والعشرين على دخوله عالم الأدب،احتفلوا به خليفةً لجوته، وجاءت رسائل التهنئة من العالم كله، وبخاصة من إميل زولا وڤيكتور هوجو وفرنسيس بريت هارت، ومنحته فرنسا نيشان الليچيوندونير..

كان الانفتاح على الشرق يعني بالنسبة للمملكة النمساوية، التي عرفت أيضاً باسم مملكة الدانوب، فرصة للثراء الإبداعي والفكري المتزايد بما أتيح لها في جاليسيا وپولندة وموراڤيا والمجر. ولكن هذا التيار الوارد من الأقاليم الحدودية للمملكة أو للإمبراطورية، كان يحمل في طياته أحاسيس الأقلية النمساوية التي كانت تعيش هناك وكانت تهفو إلى الوطن الأم، وهكذا كان هذا التيارمن الأسباب التي أكدت تدريجياً الإحساس بالقلق وبالرغبة في الرحيل الذي يميز العقود الأخيرة من المملكة النمساوية المزدوجة (اتخذت الإمبراطورية النمساوية في عام ١٨٦٧ اسم المملكة المزدوجة النمساوية المجرية). وأياً كانت الأقاليم التي أتوا منها فإن هؤلاء المجددين والثوار في عالم الأدب وعلم النفس والرسم والعمارة والموسيقى كان يتحولون إلى نمساويين بالتعليم. وهذا المصطلح - نمساويون بالتعليم - يكفي وحدة شاهداً على ما ألمحنا إليه من سمة الفوق- قومية التي اتسم بها الوعي القومي النمساوي. من بين هؤلاء الوافدين نذكر : زيجموند فرويد، وجوستاف مالر، وكارل كراوس، ويوزف روت، وفي مجال العمارة : أدولف لوس، ويوزف هوفمان، ويوزف ماريا أولبريش.

كانت ڤيينا حاضرة المملكة، ومقر الملك، وقلب الثقافة والسياسة لدولة آل هابسبورج، وكانت في الوقت نفسه مركز الروعة والفتنة، ومركز أساطير المملكة الإمبراطورية الخلابة التي كانوا

يختصرون اسمها إلى كا وكا (كا وكا .K.und K أي امبراطورية Kaiserreich مملكة Königreich). ولقد أقيمت في السنوات الأخيرة معارض تذكر بما كان هذا العصرالماضي يتسم به من أبهة واحتفالات و ولائم، منها معارض أقيمت في الخارج، نذكر منها «ڤيينا ١٩٠٠» في معرض الفن الحديث في نيو يورك (١٩٨٦)، و«النبوءة البهيجة.. ڤيينا ١٨٨٠-١٩٣٨» في مركز پومپيدو بباريس (١٩٨٦)، و«الفنون في ڤيينا من حرب الخلافة على العرش إلى نهاية الإمبراطورية الهابسبورجية» الذي أقيم إبان البيينالي في البندقية (١٩٨٤) و«حلم وحقيقة.. ڤيينا بين ١٨٧٠ و١٩٣٠» في بيت الفنانين في ڤيينا ١٩٨٥، وكلها لقيت صدى لدى الجمهور فاق كل التوقعات وطبعت لزمن طويل بطابعها الصورة التي كونها العالم المتحضر عن ڤيينا والنمسا.

أطلق شتيفان تسڤايج (١٨٨١-١٩٤٢) اسم «العصر الذهبي للأمان» على العالم قبل عام ١٩١٤، العصر الجميل belle époque لمملكة الدانوب، المملكة النمساوية المجرية المزدوجة التي كانت نهايتها تعني نهاية أوروبا القديمة وما كانت تنعم به من اتزان صوري. وكانت هذه النهاية تعني إيضاً توديع بنيةٍ من قِيَمٍ كانوا يظنونها أبدية لا تبلى. يذكر الناس اليوم ما عرف باسم «امبراطورية الوسط» الأوروبية، يذكرون عصبة دول أوروبية جامعة، كانت تمثلها مملكة الكا و كا. كانت المملكة مجمعاً من الأمم لا يمكن أن يتكرر مرة أخرى، بما اتسم به من تنوع محيّر هائل من الوجوه المختلفة والأفكار المتضاربة والاتجاهات المتضادة، كانت تحفظ البناء الكلي في في حالة من التوازن. لقد أصبحت النمسا القديمة نفسها أسطورة وأصبح الكتّاب من أمثال روبرت موزيل Robert Musil وهيرتسمانوڤسكي أورلاندو Herzmanovsky-Orlando يبثون فيها في أعمالهم حياة في عالم الأدب فيسميها أولهما كاكانيا والآخر تاروكانيا.

وكان الرباط الوحيد الذي أمسك بهذه الدولة المتعددة الشعوب في هزيعها الأخير يتمثل في الجيش؛ وهنا يرتسم أمامنا مجال للمقارنة التاريخية بما كان في الاتحاد السوفييتي من تعددية أممية في إطار دولة كانت قائمة في وقت قريب ثم بادت. كان جنود جيش المملكة النمساوية المجرية، مملكة الكاوكا، يأتون من كل البلاد التابعة للتاج الملكي الإمبراطوري، وكان الجيش كثير اللغات، الألمان يتكلمون لغتهم وبجانبهم السلوڤاك والأوكرانيين والسلوڤينيين والإيطاليين والكروات والتشيك تتكلم كل أمة لغتها. كان ذلك الجيش أول جيش أممي يخرج للناس بعد زوال الإمبراطورية الرومانية. وكان ذلك الجيش أكثر من أداة للحرب وللسلطة المركزية للقيصر، كان على نحوٍ ما هو الإمبراطورية نفسها. كان كل مواطني الإمبراطورية قد خدموا مرة في حياتهم في ذلك الجيش. وكان يتيح للجميع فرص الصعود لأنه كان في جوهره ديموقراطياً - على عكس النظام الاجتماعي الطبقي الشديد الطبقية في المملكة الهابسبورجية. بعد أن انقضى عشرون عاماً على تحلل الإمبراطورية إلى دول قومية متناحرة فيما بينها وتحلل الجيش، أقام الأديب الشاعر فرانتس تيودور تشوكور نصباً تذكارياً لهما في مسرحيته « ٣ نوفمبر ١٩١٨ ».

كان الجيش يرتسم في هذه الصورة الجادة حيناً، ويرتسم في صورة ساخرة أحياناً، فقد أتاحت العسكرية النمساوية المجرية للأدباء أسباباً للتهكم والسخرية على نحو ما نرى في فكاهات رودارودا Roda Roda (١٨٧٢- ١٩٤٥) في «تل القائد»، وما كتبه كارل كراوس في نبوءته «أيام الإنسانية الأخيرة».

كانت معركة كونجريتس Königgrätz التي أنزل فيها البروسيون بالنمساويين هزيمة منكرة في عام ١٨٦٦ طويلاً كابوساً فظيعاً لا يذكره النمساويون إلا محزونين، ولكن سنوات السلام الخمسين التي انقضت بين هذه المعركة وبين نشوب الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ لاحت لهم كأنها عصر سلام لن ينتهي أبداً. وتطورت حاضرة الإمبراطورية ڤيينا فأصبحت عاصمة

الاتجاهات العصرية، مثل باريس وفيما بعد برلين. وربما تخيل أبناء الطبقات الحاكمة أن تاريخ الدنيا منذ كونيجريتس قد توقف وأن مهمتهم تتلخص في شيء واحد، هو أن يتشبثوا بمكانتهم، وأن ينعموا بالراحة والدعة والسعة إلى أقصى ما يكون التنعم محافظين في ذلك على الموروث والنظام القائم. ووصف الكاتب الناقد أوتو بازيل Otto Basil هذا العصر الحريص على متع الطعام بأنه «عصر بيدرماير ثان» وأنه من «أشد العصور خلواً من عناصر المأساة في تاريخ العالم، كان ينبغي أن يكون رمزه الواقعي الوحيد هو الدجاجة المشوية المزدوجة، لا النسر الهابسبورجي المزدوج الذي ازدانت به كل القصور الإمبراطورية والمباني الحكومية.»

كذلك كانت المقاهي في ڤيينا قد تطورت في ذلك العصر إلى مؤسسة اجتماعية ذات شهرة عالمية. نذكر على سبيل المثال مقهى Griensteidl جرينشتايدل، أقدم مقهى أدبي في ڤيينا، ارتاده جريلپارتسر، وأشاد به كارل كراوس بكلمة رثاء مشهورة، ومقهى Central تسنترال؛ لم يكن المقهى ملتقى الأدباء فحسب، بل ملتقى الساسة أيضاً، ولم تكن القرارات التي تتخذ فيه قرارات تتصل بالأدب فحسب، بل بالسياسة أيضاً. في المقهى كتب الشعراء قصائدهم، بل كتبت بعض الروائيين روايات بكاملها؛ ونشأ نمط جديد من الكتّاب هو نمط أديب المقاهي الذي يمثله پيتر ألتنبرج أوضح تمثيل. كتب ألفريد پولجار يقول: «مقهى سنترال يقع تحت خط عرض ڤيينا في مدار العزلة. وسكانه هم في أغلبهم أناس بلغت عداوتهم للبشر من الشدة حداً يماثل شدة احتياجهم إلى بشر، فهم يريدون أن يكونوا وحدهم ولكنهم يحتاجون إلى مجتمع لتحقيق هذه الرغبة..». كان من الممكن أن يرى الإنسان في مقهى تسنترال شتيفان تسڤايج، أو ليو تروتسكي الذي قالوا عنهم إنه كان بين دورين شطرنج يعد للثورة الروسية؛ أما أن الثورة في النمسا تعثرت طويلاً فأمرٌ أدركه هذا الثوري في عام ١٩٠٢ عندما نزل ڤيينا بعد أن عبر الحدود على نحو غير مشروع...

كذلك تروتسكي جاء مرة أخرى إلى النمسا في عام ١٩٠٧ بعد أن هرب من سيبريا، وعاش في ڤيينا، وأصدر جريدة «پراڤدا» حتى قامت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤. كان يقيم مع أسرته في حي العمال الفقير، ويعاني من البؤس أكثر من العامل البسيط، ولا يفتأ يرهن حاجياته إذا ضاقت يده...

والمؤكد أن الدجاجة المشوية التي تحدث عنها أوتو بازيل وأصبح الناس من بعده يتمثلون بها فكهين ساخرين لم تكن تتاح لغالبية الناس في ڤيينا وفي النمسا في ذلك العصر، ولهذا فقد كان اختفاؤها أمراً لا يحفل به من لم يذوقوا طعمها. كانت المملكة النمساوية منذ القرن الثامن عشر قد تخلفت اقتصادياً عن غرب أوروبا، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت ڤيينا في عام ١٩١٠ ثالث كبريات المدن في أوروبا، وكان عدد سكانها قد تضاعف أربعة أضعاف ما كان عليه قبل خمسين سنة. ونظراً لتخلف الصناعة فقد كان الوضع في سوق العمالة أقرب ما يكون إلى الكارثة : فمن لم يجد له عملاً في الإدارة أو لم يجد عملاً صغيراً في التجارة، لم يكن أمامه من سبيل آخر إلا العمل بأجر ضئيل.

فلا غرابة أن كانت ظروف حياة العمال، وبخاصة الوافدين بائسة؛ كانوا يعيشون فيما سمي بقشلاقات السكن التي كانت أسوأ مما يخطر ببال إنسان. في حي العمال أوتاكرينج كان ٤٪ فقط هم الذين يسكنون في حجرة خاصة، أما الباقون فكانوا من الذين يدفعون القليل من المال في مقابل استخدام السرير للنوم، ما ينهضون منه حتى ينام فيه غيرهم، وهكذا دواليك. وكانت نسبة الوفيات في أحياء العمال في ڤيينا ضعف النسبة في قلب المدينة الإقطاعي. وكان السل والدفتريا والحصبة من الأوبئة التي تحصد الفقراء الذين يعانون من سوء التغذية، ولا يجدون أمامهم إلا الكحول يلتمسون فيه خلاصاً. هذه الصورة الواقعية نجدها خلف أحداث الرواية المكشوفة المعاصرة «يوزفينه موتسنباخر - أو عشاقي الـ ٣٦٥» التي كان القراء آنذاك يتناقلونها من يد إلى يد : وهذه الرواية تعطينا صورة أوضح من أي دراسة

سوسيولوجية عما كان يجرى وراء الواجهة البراقة للعاصمة ڤيينا . ظهرت هذه الرواية خالية من اسم المؤلف، ونسبت فيما بعد إلى فيلكس زالتن الذي اشتهر اسمه في العالم فيما بعد مؤلفاً لقصص حيوانات بعنوان «بامبي».

ونحن عندما نحاول رسم صورة لهذا العصر الذي قيل عنه إنه «العصر الذهبي للأمان»، ينبغي علينا أن نتناول التيارات الفكرية والتكتلات السياسية التي كانت فعالة في النمسا آنذاك، والتي خرجت من تحت عباءتها تيارات وتكتلات نراها بين ظهرانينا اليوم مع اختلاف في المسميات. كانت الليبرالية، وهي التي طبعت غالبية مؤسسات الحياة العامة في النمسا بطابعها، قد نجحت في الخروج بالنمسا من عصر وسيط طال أمده. وعصر الليبرالية هو الذي ترك بصماته على مدينة ڤيينا كما لم يفعل عصر آخر من قبل : فقد أزال سور العصر الوسيط من حول المدينة القديمة، ومد مكانه طريق النصر الڤيا تريومفاليس ، ذلك الشارع الدائري بمبانيه الخلابة ذات الطابع الذي يقلد أنماطاً من التاريخ، ويعطي إحساساً بعصور قديمة، وهو ما دعا معمارياً مثل أدولف لوس إلى أن يثور ثورته العاصفة على «المدينة ذات الواجهات» التي تشبه الأقنعة التنكرية والتي لا تعبر عن روح العصر. وتغلغل التأثيرالفكري للإيديولوجية الليبرالية في الفن والعلم ورسم حدود التَّوَجُّه الذي توجهه زيجموند فرويد وأرتور شنيتسلر أو شتيفان تسڤايج، وكان هذا التوجه في جوهره بورجوازياً.

كانت شرائح أكبر من المجتمع تتحزب إلى التوجه الإجتماعي المسيحي أو التوجه القومي الألماني. وهذا هو الدكتور كارل لوجر Karl Lueger ، عمدة ڤيينا، يصبح المثل الدال على فكر الاجتماعيين المسيحيين الذين جمعهم حوله وقادهم إلى السلطة. ووصلت إلينا شواهد عن معاداته السامية وانتهازيته، كان يتصرف كأنما لم يكن هناك دستور يفرض مساواة المواطنين أمام القانون، كان الدكتور لوجريطالب كل من يتقدم لشغل وظيفة مدرس تعهداً بشرفه ألا يكون من أتباع الحزب الاجتماعي الديموقراطي. وتناقل الناس كلمة لوجر : «أنا الذي أحدد

من هو اليهودي» التي سارت مثلاً من أمثال الفولكلور الفييناوي. ومازالت الحال إلى اليوم في النمسا تنسج على هذا المنوال، حيث يشترطون تقديم شهادة عن الانتماء الحزبي شرطاً لابد منه لشغل بعض الوظائف؛ ومازالت الشعارات المعادية للسامية تستخدم إلى اليوم للحصول على أصوات الناخبين في المعارك الانتخابية ...

عندما أصبح الحزب الاجتماعي المسيحي حزباً محترماً انضوى تحت جناح الدولة الهابسبورجية التي كان أحياناً يعارضها، وانصهر في طبقة النبلاء العالية ورجال المال والأعمال، وهكذا هيمنت إيديولوجية الكاثوليكية المناضلة على الليبرالية، وأصبحت هي الإيديولوجية التي ادعتها النمسا الرسمية واتبعتها؛ فكان من يمثلونها يتقاسمون المراكز الرئيسية والسلطة، وأصبح على التيارات الفكرية والفنية الجديدة التي ستطبع صورة القرن العشرين بطابعها أن تواجهها.

كانت دعوة القومية الألمانية Deutschnationalismus قوة لا يستهان بها من قوى الرجعية في النمسا في زمن الملكية – وبعده بطبيعة الحال. وكان نجاحها يرتبط بفكرة المواطنة العالمية التي أخذ بها الحزب الليبرالي؛ أضف إلى ذلك أن الحركات القومية القوية في أوروبا وفي البلاد التابعة لتاج الملكية النمساوية المجرية الكاوكا، وبخاصة المجر وتشيكيا وسلوڤاكيا التي كانت كلها تتوق إلى الاستقلال، لم تجد على الساحة نزعة قومية نمساوية معادلة لها. ولهذا وجدت دعوة القومية الألمانية تربة خصبة وهي تشيد في النمسا بالتربية البروسية والعسكرية البروسية وتلهج بالثناء على بسمارك وأسرة هوهنتسولرن الحاكمة. كانت دعوة القومية الألمانية تروج لسيادة الشعب الألماني، وتجعل السيادة من مقومات طبيعته، وتروج لمعادة السامية على أساس عنصري، ولكراهية القومية السلافية. ورفع داعية القومية الألمانية جيورج ريتر فون شونرر Georg Ritter von Schönerer في ذلك الوقت المبكر شعار العودة إلى الرايخ، وكون في مجلس الإمبراطورية في عام ١٨٧٩ حزباً من عضوين، فلما أجريت الانتخابات في عام ١٩٠١ دخل البرلمان ومعه ٢١ من أصدقاء الحزب...

هذا البرنامج الذي دعا إليه فون شونرر ومن لف لفه يعتبر يقيناً بمثابة تمهيد للإيديولوجية النازية، الاشتراكية القومية، والدليل قائم على أن أدولف هتلر الذي عاش من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩١٣ في ڤيينا ، والذي رفضت أكاديمية الفنون التشكيلية قبوله لضعف موهبته، استقى أفكاره من فون شونرر ورفاقه. كذلك كان هتلر قارئاً متحمساً للكراسات التي حملت اسم «كراسات أوستارا» التي كان داعيةُ العصبية الألمانية والمنظِّر للعنصرية لانتس فون ليبنفلس Lanz von Liebenfels يصدرها ، وكان أصلاً من أتباع الطائفة التسيسترتسينية الكاثوليكية، أقام مع أتباعه في صرح رومانتيكي في وادي الدانوب. وإذا أخذنا بعدد النسخ التي بيعت من كتاب Mein Kampf «كفاحي» فقد كان أدولف هتلر واحداً من أنجح الكتاب النمساويين في كل العصور، فلم تكن مكتبة تخلو منه في عصر النازية؛ وكان أدولف هتلر يكره العاصمة ڤيينا لما اجتمع فيها من أجناس مختلفة، وكان يراها «تجسيماً للعار»... ولم يضع فيها قدمه إلا في عام ١٩٣٨ عندما ضمت النمسا بحركة الأنشلوس إلى الرايخ الثالث.

وأدى تعثر النمو الاقتصادي الذي تخلف بالنمسا عن غرب أوروبا منذ عصر ميترنيش إلى تأخر تكوين الحركة العمالية فيها. فلما جاء عام ١٨٨٨ أسس طبيب الفقراء الدكتور ڤيكتور آدلر الحزب الديموقراطي الاجتماعي، وأصبح الجناح الاشتراكي في البرلمان في عام ١٩٠٧ من أقوى الأجنحة، ولكن الاشتركيين لم يهتلبوا الفرصة التي سنحت لهم في عام ١٩١٠. في عام ١٩١٠ مات الزعيم الشعبي، لسان الشعب لوجر فتعرضت أغلبية الحزب الاجتماعي المسيحي في مجلس مدينة ڤيينا لمحنة قاسية وتفرقت إلى مجموعات قومية؛ وعندما قامت الحرب في عام ١٩١٤ وقف أعضاء الحزب إلى جانب آل هابسبورج والعسكرية الألمانية. وكانت صحيفتهم الناطقة باسمهم وهي صحيفة «أربايتر تسايتونج »، صحيفة العمال، تشارك في الإثارة والدعوة إلى الحرب عن كراهية واحتقار القوميات الأخرى. بل إن قيام فريدريش آدلر – ابن

ڤيكتور آدلر - بإطلاق رصاصات قاتلة على رئيس الوزراء الجراف شتورك في عام ١٩١٦ في مطعم فندق مايسل وشادن، على سبيل الاحتجاج على سياسة الحكومة تجاه الحرب، لم يستغل لإشعال نارصراع طبقي ثوري يبدو أنه كان مأمولاً. ثم إن آدلر لم يطلق النار على رئيس الوزراء إلا بعد أن فرغ هو وفرغ القتيل من تناول الطعام وبعد أن دفع الحساب؛ وكان موضوع دفعه الحساب موضوعاً مثيراً حدا ببيتر ألتنبرج الذي كان دائماً يعاني من ضيق اليد إلى السخرية منه بنكتة شكك بها في القوى العقلية لآدلر، فما كان سيلفت النظر في وسط الهيصة العامة لو أنه أطلق النار قبل أن يدفع الحساب ووفر النقود.. أياً كان الأمر فإن مسلك فريدريش آدلر العنيف كان علامة على القلق العام والجو المتأزم، ولكنه ظل تصرفاً فردياً لم تكن له مستتبعات عامة.

وإذا صح أن الشعب، أي شعب، يضطر على الأقل مرة في تاريخه إلى قتل ملكه، فيما يصفونه بأنه عملية تحرر ذاتي أسطوري تحقق الاستقلال الفكري والوجداني، فإن هذا التبرير قد يفسر ما يتسم به الإنسان النمساوي فيما يبدو من خضوع فطري لكل سلطة عليا، خضوع يتغلغل حتى اليوم في غالبية مجالات الحياة العامة والخاصة.. أياً كان من يمثل هذه السلطة العليا. حتى ثورة عام ١٨٤٨ تمسكت باحترام القيصر وإجلاله، واكتفى الشعب باغتيال وزير الحربية المكروه وتعليقه على عمود من أعمدة النور. كانت محاولة الاغتيال الأولى التي يتعرض لها القيصر فرانتس يوزف هي تلك التي جرت في عام ١٨٥٣ وقام بها وطني مجري شاب هو يوهان ليبينيي مستخدماً وسائل غير فعالة؛ أما الإمبراطورة إليزابت فقد ماتت مصادفة بضربة خنجر سددها إليها الفوضوي الإيطالي لويجي لوكيني الذي كان يستهدف شخصاً آخر...

ويبدو أن عمليات التحرر والتخلص بعنف من هيمنة الهياكل الطبقية لم تكن في النمسا إلا من فعل الأفراد المتمسكين بفرديتهم، فنانين وأدباء، أي من فعل أفراد خارجين عما يسمى

«المجتمع»، ظلوا حتى اليوم مشغولين بسبر أغوار هذا التمسك بمفهوم السلطة العليا الذي يأخذ به النمساوي نفسه. وتعتبر موضوعات الاعتداء على السلطة العليا، على الأقل على الورق، من الموضوعات التي يهتم بها الأدب النمساوي الحديث فيما يهتم به من مضامين وأساليب.

ومن التيارات الفكرية التي نشأت قبل نهاية القرن في النمسا وخرجت من النمسا إلى العالم كله، فكرة الصهيونية. والواقع أن نسبة كبيرة من السكان اليهود كانت قد اندمجت اندماجاً كاملاً؛ وإذا كان اليهود قد مُنعوا من دخول الجيش أو من تولي الوظائف الحكومية فقد تركت لهم حرية العمل تجاراً ومحامين وكتاباً وصحفيين. وكان المثقفون المتحررون من اليهود، من أمثال فرويد وشنيتسلر وتسقايج وكراوس، أو الصحفيين أصحاب النفوذ الواسع، من أمثال بينيدكت وسيپس، يسيطرون على الحياة الفكرية والفنية في ڤيينا ويسيطرون على قطاع كبير من الصحافة ووسائل الطبع والنشر. وبدأت نزعة معاداة السامية المتزايدة التي كانت وراء نجاح الدكتور كارل لوجر في الانتخابات تتأهب للهجوم. وكان تيودور هرتسل، وهو كاتب وصحفي من مواليد بودابست، أي من الوافدين على ڤيينا، من أوائل الذين شكوا في ذوبان اليهود في الشعب النمساوي. كان هرتسل يعمل مراسلاً لصحيفة النمسا اليومية آنذاك، صحيفة نويه فرايه پريسّه Neue Freie Presse، وتابع في باريس قضية درايفوس، وشهد بدايات تفجر نزعة كراهية اليهود، وهي نزعة ما تزال إلى اليوم لها تاريخها. واتخذت نتائج انطباعاته شكل منشور، كان يتصوره في البداية على هيئة رواية بعنوان «دولة اليهود»، نشره في عام ١٨٩٦ وأدى إلى تأسيس الحركة الصهيونية. كذلك عندما كتب هرتسل روايته الخيالية «البلد القديم الجديد» عالج فيها موضوع الدعوة إلى إنشاء وطن لليهود في فلسطين.

ولم تكن ردود الفعل التي أثارتها هذه الدعوة مشجعة له، حتى في الأوساط اليهودية نفسها. وعندما مات هرتسل في عام ١٩٠٤، كانت فكرته تبدو من قبيل التصورات الخيالية والتخطيطات الأوطوبية التي لا سبيل إلى تحقيقها، والتي كان ذلك العصر الغني بإبداعاته يعرف عدداً منها.

كذلك الأفكار الأساسية التي انبنى عليها الحريق، الهولوكوست، الذي أهلكت به ألمانيا الهتلرية من أهلكت من اليهود، كانت في البداية أوطوبيا، فكرةً خُطّت على الورق ولم يتصور أحد تنفيذها وتفصيلاته. وما يزال الجيل الجديد من القوميين الألمان الذين ساروا على درب الجيل القديم، ينكرون وجود أفران الغاز التي استهدفت القضاء على غير المرغوب فيهم من السكان،،،

وكثيراً ما تواكب التحولات الكبيرة أحداثٌ صغيرة لا تكاد تلحظ : فعندما ظهر في عام ١٩٠٠ كتاب «تفسيرالأحلام» من تأليف المدرس الجامعي زيجموند فرويد، لم يكد يتنبه إليه أحد. فلم تنفد الطبعة الأولي - ٦٠٠ نسخة - إلا بعد عشر سنوات. ولم يدرك أحد في البداية أن ثورة قد حدثت تحمل اسم «التحليل النفسي» قدر لها أن تخرج من ڤيينا لتصبح ركناً ركيناً من فكرنا اليوم. فعندما بدأ طبيب الأمراض العصبية فرويد عمله كان علم النفس في حالة من الجمود التقليدي، يتصور الإنسان في صورة آلة بيولوجية يمكن قياسها بالمناهج الفزيائية الرياضية وحدها، أو قُل في صورة كائن عادي بلا لون، هيأته الطبيعة لحياة بورجوازية. وكان اكتشاف القوى النفسية، واكتشاف اللاشعور، يعني هدم كل هذه الخرافات والتجريديات التي تعلقت بها الطبقة الوسطى الليبرالية. وبيّن فرويد تأثير الدوافع الجنسية في كل المجالات، فوقفت منه ڤيينا الكاثوليكية المحافظة موقف العداء. ولم يكن فرويد بطبعه ثورياً، بل كانت المعلومات الثورية التي توصل إليها «ضد طبيعته». ولقد بقي طوال حياته في نطاق المجتمع البورجوازي والفكر الليبرالي، لا يكف عن النضال من أجل الحصول على تقدير هذا المجتمع البورجوازي الذي لم يسامحه على تبديده أوهامه. ومن الأشياء ذات الدلالة في هذا المقام أن فرويد أمضى في ڤيينا التي كان ينفر منها نفوراً شديداً وصفه بأنه «نفور عضوي» ، ويعتبرها كالسجن، نحو ٨٠ سنة من حياته، ولم يخرجه منها إلا النازي.

وخرج «التحليل النفسي» من نطاق البحوث الخاصة التي قام بها فرويد وتلاميذه الأول. فأصبح فلسفة وحركة واسعة انتشرت في ربوع العالم كله ، أثرت على الكثير من المجالات الأخرى تأثيراً متزايد القوة : وحفزت على الحداثة في الفن والأدب ، وبخاصة التعبيرية في بداياتها ، لا في النمسا وحدها ، بل في العديد من بلاد العالم . ولا ننسى أن فرويد كان كاتباً له أسلوبه ، متمكناً تمكناًعظيماً من اللغة الألمانية . وقد ترجمت كتبه إلى كل لغات العالم تقريباً ومازالت تطبع منها إلى اليوم طبعات جديدة ، مما يضعه في المرتبة الأولي بين الكتّاب النمساويين من ناحية انتشار أعماله الكاملة في العالم . يليه في المرتبة الثانية شتيفان تسفايج .

في عام ١٩٢٤ ظهر في المجلة الدولية للتحليل النفسي بتشجيع من فرويد البحث الأول الذي كتبه تلميذ من تلاميذه كان عمره في ذلك الوقت ١٩ سمة هو ڤيكتور فرانكلViktor E. Frankl. وإذا كان فرويد قد هاجر من ڤيينا بعد ضم النمسا إلى الرايخ الثالث، فقد بقي فرانكل لأسباب عائلية في ڤيينا . واعتقل في عام ١٩٤٢ وزج به في معسكرات الاعتقال المختلفة، ومن بينها داخاو وأوشڤيتس، حتى وضعت الحرب أوزارها في عام ١٩٤٥. وقد أدت به هذه الخبرات وربما الوعي بالتخطيط الفكري سعياً إلى النجاة إلى صياغة نظرية «التحليل الوجودي» و«العلاج المضموني» ؛ وقد انتشرت نظريته في العالم على اعتبار أنها الاتجاه الڤييناوي الثالث في العلاج النفسي . الاتجاه الأول هو التحليل النفسي لفرويد والثاني علم النفس الفردي لألفريد آدلر . ولفرانكل كتاب « بحث الإنسان عن المعنى» الذي تجاوزت طبعاته ٢٠٦ طبعة . وفرانكل شخصية شبيهة بشخصية فرويد لها وزنها العالمي وتأثيرها على الكثيرين ؛ ولقد استمعت إليه قطاعات كبيرة من الشباب النمساوي في مارس ١٩٨٨ عندما ألقى خطاباً في ميدان الأبطال في ڤيينا في ذكرى ضم النمسا الأنشلوس، تحدث فيه

عن الإنسان كيف يعيش محملاً بالذنب كابتاً ماضيه . وإذا كان فرويد قد شغل بمبدأ اللذة، وآدلر بإرادة القوة، فإن فرانكل يرى أن إرادة المعنى هي التي تحرك الإنسان اليوم وتبرر سلوكه. وينبه فرانكل مراراً إلى توافق بعض عناصرالتحليل الوجودي مع ما تصوره بعض الأعمال الأدبية من حالات، من قبيل ذلك قصة «نل» لكريستينه لاڤانت التي تعرض فيه الشخصية الرئيسية أن تضحي بشخصها في مقابل هدف يقوم عليه الوجود . ذلك هو التدبير الذي عرفه فرانكل أول ما عرفه في خبرة المعاناة ، ثم حوله إلى منظومة علمية وعلاجية .

ما تنظر إلى ڤيينا في هذا العصرالزاهر حتى تطالعنا ألوان منوعة مثيرة للدهشة من التحولات والمبتكرات خرجت من العاصمة النمساوية : في الطب وعلم النفس وفي الرسم والعمارة والموسيقى والأدب . يبرز أمامنا هؤلاء الذين أنشأوا حركات واتحادات ومدارس كانت غامضة في البداية، وأولئك الذي كانوا يسيرون متفردين منعزلين، والثوريون والمصلحون الذين أسسوا علم النفس وأبدعوا فن القرن العشرين في جوهره . وكثيراً ما طرح الباحثون السؤال التالي : هل خرج فرويد وهرتسل وشيله ولوس وشونبرج وتراكل بما خرجوا به إلى الناس متأثرين بالمناخ الخاص الذي تتسم به ڤيينا أم متأثرين بمناخ ملكية الدانوب الغاربة؟ يجيب أوتو بازيل عن هذا السؤال مشيراً إلى أننا إذا نظرنا عن كثب إلى هذه الشخصيات التي دخلت التاريخ على اعتبار أنها ثورية، وجدنا أنها لم تزد عن أن «تناولت إمكانات متطرفة في العالم النمساوي الكاكاني المتناقض لم تكن لتتاح لهم إلا هنا ، فحولوها إلى واقع فكري،» إن دخول القرن العشرين اعتمد في النمسا على وجود «هذه الحالة الثورية الكامنة» التي انعكس فيها جوهر كيان الملكية الهابسبورجية .

كذلك الثورة، أو لنقل التطورالذي شمل أدب هذا العصر والذي ولد إمكانات تعبير جديدة أتاحت التعبير عن أمور لم تسمع بها أذن من قبل، ولم ترها عين أو ربما مرت عليها العين

دون أن تدركها . كل هذه المنجزات التي هدمت المقومات التقليدية الأدبية للقرن التاسع عشر ومكنت من تصوير ألوان جديدة من الواقع، كل هذه المنجزات، أو جُلّها تشكلت في نبوئية النمسا القديمة الغاربة، وتهيأت للمستقبل . فقد بيّن اتجاه المعالجة السيكولوجية المتزايدة أن البناء المستقيم المباشر للسياق بناءٌ معيب تحف به المشكلات، فانتهى عصر بطل الرواية التقليدي ؛ هذه الظاهرة التي حدثت في الرواية واكبها ما حدث عقب إلغاء الملكية من إلغاء كامل لجميع القاب النبلاء . لقد شهد العصراتساعاً في الأفق لم يكن أحد يتوقعه أتاح للأديب مجالات كانت ذلك الحين خاصة بعلماء النفس وعلماء الأمراض : وتعاظم السعي إلى معرفة الدوافع اللاعقلانية التي تكمن وراء واجهة المبررات الظاهرة للحواس . شملت الاكتشافات الكثير من واقع الأحلام Traumrealitäten وانصب عليها التحليل والدرس . وعرف الأدب وسيلة التأمل المتواتر الذي لا ينقطع حبله، ووسيلة «المونولوج الداخلي» اللتين أضفيتا على صورة الإنسان التي كانت قائمة آنذاك أبعاداً جديدة . إلا أن الكشف عما قبل الشعور وعما تحت الشعور أدى إلى التشكك في المادة التي يستخدمها الكاتب، وهي اللغة .

وتحدث أولو البصيرة، وبخاصة كارل كراوس عن المسئولية حيال الكلمة، واعتبروها مطلباً أساسياً في مجال التصدي للكتابة المسلية من حيث هي فلسفة للحياة (على حد تعبير أوتو بازيل) وكانت لغة التسلية مميزة للأسلوب في أواخر عصر الملكية . وتعتبر فلسفة اللغة كما عبر عنها الفيلسوف لودڤيج ڤيتجنشتاين، وفن العبارة المحكمة الذي كان يحظى بالاهتمام في تلك السنوات، والحكمة الساخرة المصقولة رد فعل تجاه لغة التسلية، والصياغة المحكمة الموجزة لها تراثها في النمسا : يتصدر القائمة جريلپارتسر ونيستروي، ويليهم ألتنبرج وكراوس وشنيتسلر وموزيل وكافكا، وكذلك جوترسلو ودودرر في النصف الثاني من قرننا الحالي .

كان رائد الحداثة في ڤيينا عام ١٩٠٠ هو الكاتب والصحفي والناقد هرمان بار Hermann Bahr الذي أمضى سنوات عديدة في باريس وعرف ما كان يتصل هناك من حركات فكرية وفنية جديدة . فلما عاد إلى ڤيينا أصبح أشبه شيء بالبؤرة التي يتركز فيها سعي الحياة الفنية إلى التجديد . كان بار قد صدر عن الليبرالية البورجوازية، فتحمس في ڤيينا لإميل زولا وإبسن، وتحمس على النحو نفسه لأسلوب اليوجندستيل ولحركة الربيع المقدس . كان يتحمس لكل شيء لا لسبب إلا أن يكون جديداً، ولهذا غير معتقداته المرة تلو المرة متواكباً مع روح العصر : فكان على مر أعوام حياته ليبرالياً واشتراكياً وملكياً وقومياً ألمانياً، وواقعياً وانطباعياً وملحداً وكاثوليكياً ومتصوفاً . كان دائم الحرص على الريادة، يريد أن يكون رائد كل موضة من الموضات الفلسفية أو الفنية الجديدة . وكان يجمع في ذاته أنماطاً من المثقفين سبقت ظهور العديد من أنماط المثقفين في عصرنا .

كانت مائدة بار الأدبية المستديرة، التي كان يسميها «ڤيينا الفتاة» في قهوة جرينشتايدل، مكاناً يتحلق حوله جماعة منهم شنيتسلر وألتنبرج وزالتن وهوفمنستال شاباً . ويعتبر أرتور شنيتسلر أشد الأدباء تمثيلاً لڤيينا القيصرية، وأعماله الدرامية والقصصية تعبر عن روح عصرها بدقة دونها دقة الفاحص الإكلينيكي . ولم يكن شنيتسلر فقط أستاذ السكنات الرنانة والنغمات المتداخلة، كما وصفه روبرت موزيل، ولم يكن فقط مؤلف كوميديات صالون وكوميديات حوارية، كما يقول عنه حتى اليوم أولئك الذين يحلو لهم الحط من قدره، بل كان رائداً في علم النفس سبق فرويد، ففي عام ١٨٩٠ ـ قبل ظهور كتاب فرويد «تفسير الأحلام» ـ نحت في مسرحيته ذات الفصل الواحد «سؤال إلى القَدَر» كلمة اللاشعور . وقد وصف شتيكيل Stekel، تلميذ فرويد، تحليلات شنيتسلر النفسية قائلاً إن البحث العلمي يمكنه أن يستخدمها على اعتبار أنها مواد موضوعات دراسة حقيقية . وكان فرويد طوال حياته

يتحاشى لقاء شنيتسلر، كان شيء من قبيل الخوف من القرين يمنعه من الالتقاء به . ولكنهما تبادلا الرسائل، وفي أحد الخطابات التي بعث بها فرويد إلى شنيتسلر يقول له :«اعتناقك لحقائق اللاشعور، والطبيعة الغريزية للإنسان، وتحليلك لصنوف الاطمئنان الثقافي التقليدي، والتصاق أفكارك بثنائية الحب والموت - كل هذا يمسني بألفة هائلة ...» .

في قصة «الملازم جوستل» (١٩٠٠) يحطم شنيتسلر حرمة من حرمات زمانه فيميط اللثام عن سفاهة الشرف العسكري الذي لم يكن أحد يمسه من قريب أو بعيد، ويصور ضابطاً في صور شخصية بين المهزلة والمأساة ؛ وكانت النتيجة أن السلطات انتقمت من شنيتسلر بتجريده من رتبته العسكرية ... وقصة «الملازم جوستل» هي التجسيم الأدبي الأول «لتيار الوعي» الذي يقترب اقتراباً شديداً من التداعي في التحليل النفسي . ولقد سبق شنيتسلر إلى «الحوار الداخلي» الذي كثر الحديث عنه، واستخدمه قبل جيمس جويس (أوليسUlysses) بعشرين سنة .

في مسرحيتيه «ببغاء الكاكادو الأخضر» (١٨٩٩) و«عند ڤورشتل الكبير» (١٩٠٤) وجد شنيتسلر أخيراً أشكال المسرح ذي الأرضيتين أو المستويين الذي يشك في ذاته، ويتحلل من ذاته وتتلاشى فيه الحدود بين التمثيل والواقع علي نحو ما نعرف في مسرح پيرانديللو الذي جاء بعده بعشرين سنة . في هذا المسرح نرى شخصيات المسرحية تستقل بذاتها، ونرى الجمهور يدخل طرفاً في السياق . أو قل إننا نجد هنا بدايات مسرح إغراب، مسرح لامعقول، مسرح احتفالي، يجسم الحداثة في مفهومنا اليوم .

لم تحظ إبداعات شنيتسلر الأدبية بما هي جديرة به من التقدير إلا بعد نصف قرن من خروجها إلى الوجود، فلم يكن قط يحيط نفسه بهالة المجدد أو الثوري؛ كانت المضامين والأشكال الجديدة تنهمر عليه طيعة كأنها تلعب معه لعبة تلقائية ولهذا لم يتنبه النقاد إلى

قيمته حيناً طويلاً، وضموه إلى مدرسة الانطباعيين والطبيعيين الذين انتهى عهدهم، ضموه إلى عالم الأمس .»

من بين التيارات الفكرية التي سيطرت على النمسا قبل الحرب العالمية الأولى نذكر الفلسفة المثالية، وبخاصة فلسفة إرنست ماخ Ernst Mach المسماة النقدية الخبرانية التي أثرت على مجال الأدب في زمانه وعلى غيره من المجالات . جاءت نظرية الإدراك عند إرنست ماخ والاتجاه الفكري المتفتق عنها والذي يعتبر كل ما هو كائن مجرد إحساس، لتهب عصراً كاملاً العمود الفقري الذي يقيم به صلبه . ولقد كان الإشعاع الذي انبثق عن ماخ ونظريته في بعض الأحيان من القوة بما جعل لينين يرى من الضروري أن يخصص دراسة خاصة هي «المادية والنقدية» (١٩٠٨) ينقد فيها هذا الاتجاه الفلسفي الذي انبعث من ڤيينا . مثل هذه الفلسفة المثالية التي تفسر العالم على أنه مجرد تصور يتصوره كل فرد، من شأنها أن تسفه الصراع الطبقي، بل كل صراع حيوي، فتجعله يبدو سخفاً بلا معنى . كذلك ارتفعت أصوات في النمسا تنقد هذه الفلسفة، نذكر لودڤيج بولتسمان، الذي خلف ماخ في عام ١٩٠٢ على كرسي الفلسفة بجامعة ڤيينا، والذي طرح السؤال الساخر : «الإدراكات الحسية فقط هي إذن ما أتيح لنا... في رأي ماخ . ولو اتبع المنطق لكان عليه أن يسأل : وهل أتيحت لنا أيضاً إدراكاتنا الحسية بالأمس».

كان الكثرة من الرمزيين والرومانتيكيين المحدثين يعتبرون الإغراق في ثقافة قائمة على الإحساس والأنوية الكاملة التي اتسم بها العصر والتي كانت ترى في أحداث الحياة الواقعة «زبَد الأشياء» نمطاً انتقالياً ؛ أما الآخرون فلم يتجاوزوا تحلل الإمبراطورية بأعمالهم الأدبية، ولم يعبروا المحنة . نجد ريشارد بيرهوفمان (موت جيورج ١٩٠٠) يسبر بما أنشأ من أعماله أدبية أغوار عالم الأقنعة والدمى «الذي لم يعد يحدث فيه شيء حقيقي»، ولكنه لا يقلب هذا

العالم رأساً على عقب، كما فعل شنيتسلر، ولم يسع إلى اكتشاف أنماط جديدة من الواقع، بل ظل أسير زخرفية اليوجندستيل .

أما الرواية التي تمثل بحق جو نهاية القرن في ڤيينا فهي «حديقة المعرفة» ١٨٩٥ لليوپولد فون أندريان . الشخصية الرئيسية في هذه الرواية شابٌ اسمه أندريان، مصاب بالأنيميا، يحتفل احتفال طلاب اللذة في عزلة بـ «عيد الشباب» ؛ و«عيد الشباب» هو العنوان الذي كان الأديب قد فكر فيه أصلاً للكتاب ؛ ولقد أصبح هذا العيد الذي احتفل به على هذا النحو خيالاً من الخيالات المثالية التي خيم عليها الشك في ذلك العصر . هذا الإغراقُ في الدراسات النفسية وتغلغلها في كل مجال، على نحو يوافق مذهب ارنست ماخ، يصور أزمة الهوية التي ابتلي بها جيل كامل .

كان هوجو فون هوفمنستال واحداً من جماعة "ڤيينا الفتاة" التي تحلقت حول هرمان بار، كتب وهو بعد في السابعة عشرة من عمره، يختلف إلى المدرسة الثانوية، قصائد ومسرحيات صغيرة باسم مستعار هو لوريس، كان جوها يتأرجح بين اللذة والتمتع بمباهج الحياة وبين الاستعداد للموت ؛ وهكذا استطاع أن يتحرر من أغلال الأنا والفلسفة الأنوية التي أصابت كل شيء بالشلل . في عام ١٩,٢ نشر هوفمنستال في مجموعة من الحوارات والخطابات المختلقة نصاً نثرياً باسم «خطاب» يشهد على ما اعترى ذلك العصرمن تحلل في القيم وما ابتليت به اللغة من عجز. ينسب هوفمنستال الخطاب إلى اللورد تشاندوس الذي يقول إنه فقد تماماً القدرة على التفكير في أي شيء تفكيراً مترابطاً وعجز عن التحدث عنه حديثاً متصلاً ... كانت أزمة التعبيرالأدبي عند هوفمنستال تقوم على أساس شك في اللغة زاد على مر الأيام عمقاً،، وتقوم على العلم باستحالة التعبير وباستحالة التواصل مع الآخرين .

وهذا الموقف هو الموقف الذي عاد الأدباء في حاضرنا يتناولونه .

أما هوفمنستال فقد تولدت عن هذه الأزمة التي ألمت به إبداعات لغوية تعتبرمن أجمل ما عرفته اللغة الألمانية . حاول هوفمستال أن يتصدى لمشكلة الإيصال مستعيناً بالنماذج الكلاسيكية ؛ وحاول أن يقيم علاقة بالحوار وبالحياة الواقعة عن طريق الدراما . وأتاح له هذا المفهوم إبداع أعمال تكتسي الثوب اليوناني الروماني القديم، وثوب العصر الوسيط، وثوب ڤينيسيا، وثوب تراث الباروك . وتعاون مع ريشارد شتراوس وماكس راينهارت فنشأت روائع أوپرالية كلاسيكية مازالت حتى اليوم تسيطر على برامج دور الأوپرا، وكتب تمثيلية «كل إنسان» التي تعتبر منذ عام ١٩٢٠ عنواناً ثابتاً في برنامج مهرجان زالتسبورج السنوي، تمثيلية ذات مغزى أخلاقي تقدم النصح والوعظ إلى الطبقة البورجوازية الراسخة في الاقتصاد والسياسة والفن التي تلتقي بها عاماً بعد عام في زالتسبورج .

كان هوفمنستال قد نبه مبكراً إلى «الوجود المزدوج» للفنان بين الرسالة من ناحية الحياة البورجوازية من ناحية ثانية، واعتبر هذه الازدواجية شيئاً «مستحيلاً .. لا أخلاقياً» ولكنه لم يتخذ موقفاً عملياً في حياته لتطبيق هذا المبدأ . ومازالت الحال إلى اليوم على هذاالمنوال، فلا يكاد يكون هناك فنان يمكن أن يخطر بباله ـ حتى ولو كان قد انطلق من موقف مناهض للبوروجوازية واعتبر نفسه يسارياً ـ أن يرفض عرضاً يعرض عليه من جانب إدارة مهرجان زالتسبورج السنوي الذي يضعه في قلب النظام البورجوازي القائم .

وعلى العكس من موقف الفنان ـ وبخاصة الأديب والشاعر – الذي يختلف إلى صالونات الأدب المعتمدة في عصر الكاوكا الغارب، يطالعنا موقف الاعتزالية الذي يقفه الفنان الذي لم يكن يستطيع أو يريد أن يرتب أمره مع الظروف القائمة، وهو موقف اتخذ سمات متزايدة الحدة ؛ كان الفنان – وبخاصة الشاعر والأديب ـ الذي يقف هذا الموقف يعيش حياة مختلطة مرتبكة لا تعرف الاطمئنان والأمان ؛ وكانت محاولاته لوضع قدمه في المجتمع البورجوازي في

يوم قرب أو بعد تبوء بالفشل في كثير من الأحيان . حتي راينر ماريا ريلكه نفسه، أمير الشعراء غير المتوج في زمانه، كان دائماً يناضل لمواجهة مشكلات الحياة وليضمن لنفسه حياة مطمئنة في الشتاء التالي ؛ كان دائم البحث عن الاستقرار، ينتظر الإلهام الشعري، وينتظر المنة الإلهية معاً، كان الشاعر الذي ينعم بالتكريم كل التكريم ؛ كان قد سما في شعره بالإنسان النمساوي إلى أعلى مراتب السمو، ولكنه كان يعيش على كرم النبلاء المحبين للأدب الذين كان يرد جميلهم بكلمات الإهداء . ونحن عندما ندقق في أعماله التي تدور حول خبرة الموت نتبين عناصر من تراث الباروك . مثل هذه العناصر تطالعنا في خيالات الفناء والموت في أعمال الشاعر التعبيري جيورج تراكل، الذي يعكس شعره ونثره الوعي بأفول العصر. ويكفي أن ننظر إلى عناوين بعض قصائده مثل : «تجل وأفول»، «غسق وتحلل»، «حلم وجنون» لنتبين الأرضية التي تتابعت فوقها حلقات المصير المحتوم . كذلك لغته تتكرر فيها كلمات مثل «انحطاط» «ذنب دموي» «تحلل»، وكلها إشارات إلى سلسلة مترابطة من العناصر كامنة في ذات نفسه تتحول إلى شفرة تنبؤية تنطق بخفايا ظواهر العصر التي أحاطت به . لم يعش تراكل ليرى ديوان شعره الثاني «زباستيان حالماً» مطبوعاً، فقد مات في عام ١٩١٥ ضحية مبكرة للحرب العالمية الأولى : كانت فظائع ميدان القتال قد هزت كيان الشاعر الذي أنيطت به صيدلية الحرب فانتحر .

وقد نترك ڤيينا ونقطع مسافة طويلة لنلتقي في براغ بفرانتس كافكا الذي يلوح لنا كأنه كان بعيداً عن أحداث العصر. كان كافكا قد اعتزل المشاركة في الحوار الأدبي وتحاشى كل اتصال مع المعاصرين النمساويين المعترف بهم في عالم الأدب . ولكن تباعده هذا هو الذي جعل منه شاعر أفول نجم الإمبراطورية النمساوية الكاكاوية، على حد قول أوتو بازيل . ونحن إذا تأملنا أمثولاته ذات الرموز الغامضة التي جعلت بعض النقاد يعتبرونه متصوفاً محدثاً، وجدناها تعبر في طياتها عن المضمون الطبقي الهرمي في داخل المملكة ومؤسساتها

البيروقراطية. ويشي بازيل إلى : «المكاتب الحكومية الكافكاوية فوق الأسطح، ومكاتب المحامي المنحرفين، ودواوين الإدارة الخانقة التي يتوه الإنسان في دهاليزها ؛ والأساليب الملتوية التي تتبعها طبقة الموظفين الخانعين المرتشين ؛ ويأس المواطن العادي من الوصول إلى السلطات العالية والعليا في دولة الكاوكا ؛ ومنظومة العملاء السريين والجواسيس والجلادين؛ وهرم التقاضي الذي يرتفع إلى أعلى ويتناهى إلى قمة يتوه من يسعى إليها ؛ والسلطة في القصر تأتلف من صور عجيبة تكتنفها الألغاز، ولكنها صور ظروف ومؤسسات وبيئات وعادات حقيقية تماماً، كانت قائمة في عالم الكاوكا، ما في ذلك أدنى شك . . »

كانت طريقة كافكا في الكتابة الجافة المستغلقة تعكس لغة الدواوين المعاصرة له في الدولة الكاكاوية ؛ واستغلاق المعنى في عالم روايات كافكا يقابله استغلاق لغة ملفات الدواوين النمساوية .

لا يكاد يكون هناك أديب أثر على أدبنا الحالي كما فعل كافكا الذي لم يعرفه في العشرينيات إلا عدد قليل من العارفين بالأدب . وليس كافكا هو الوحيد الذي غفل عنه الناس في زمانه، فكثيراً ما كانت الطليعة التي تعبر عن الاتجاهات الجديدة تنطوي في أستارالنسيان، ولا يقدرها الناس قدرها إلا بعد مرور عشرات السنين، كانت هذه الحال في النمسا آنذاك .

كذلك التعبيرية في الأدب، قبل أن يُعترف بها رسمياً في ألمانيا وفي غير ألمانيا، عُرفت في النمسا حيث قدمتها طائفة من الأدباء كانوا رسامين وأدباء في وقت واحد، منهم أوسكار كوكوشكا بقصته « الصبية الحالمون»، وإيجون شيله بيوميات في السجن، وألبرت پاريس جوترسلوه بروايته «الحمقاء الراقصة» ١٩١١ وهي رواية فيها أيضاً عناصر سبق بها إلى السريالية .

والرواية الوحيدة التي كتبها الرسام ألفريد كوبين «الناحية الأخرى» ١٩٠٧ تصورصعود وهبوط مدينة الأحلام «پيرله» التي تلاشت في مجال سحري، وليس من شك في أن هذه الرواية تعتبر أول نبوءة كبيرة بنهاية مملكة الدانوب . والنبوء الكبيرة الثانية بنهاية المملكة تضمنها كتاب هام، هو الكتاب الدال الثاني في الأدب النمساوي في مطلع القرن (١٩٠٦) : رواية «اضطرابات التلميذ تورليس» لروبرت موزيل . هذه الرواية هي الخلاصة الأدبية لخبرة روبرت موزيل في سنوات التلمذة التي قضاها في المدرسة الثانوية العسكرية الداخلية في ميريش ڤايسكيرشن، وهي نفس المدرسة التي اختلف إليها ريلكه والمخرج السينمائي الكبير إريش فون شتروهايم . لم يكن هدف موزيل هو وصف البيئة الكئيبة أو تناول السياق تناولاً واقعياً، بل وصف منظومة القهر الذي كمن وراء واجهة من السلوك البورجوازي المهذب تولدت عنه الهمجية والشراسة . عندما ظهرت هذه الرواية بما حملته في طياتها من نبوءة في عام ١٩٠٦ أثارت موجة من النقد نتيجة لإغفالها الأخلاقيات . ولكن النقاد لم يتنبهوا إلى أن الصبية الذين عاملوا تورليس معاملة فظيعة، كان يتملكهم شوق إلى «أشياء كبيرة دموية»، إلى إخضاع الآخر إخضاعاً كاملاً، فكانوا يأمرونه بأن ينبح كالكلب وأن ينخر كالخنزير، وأن هذه الفظاعة تؤذن بالإرهاب الذي ستشهده العقود التالية .

وأهم سجل كتب عن احتضار مملكة الدانوب كاكانيا ونهايتها هو ذلك الذي كتبه كارل كراوس، وهو في الوقت نفسه عريضة اتهام ساخرة عنيفة ضد الحرب العالمية – هذا الكتاب هو «آخر أيام الإنسانية» ١٩٢٢ ؛ كتبه كراوس بين عام ١٩١٥ وعام ١٩١٨، وقال عنه إنه دراما بطلها إله الحرب مارس، وهو صورة عريضة تنبؤية صور فيها الانهيار : وجعلها على هيئة قطاع عرضي يمثل كل طبقات المجتمع، من الإمبراطور بجلالة قدره نزولاً إلى ما دونه ؛ كل فقرة في الكتاب، بل كل جملة، تلوح للقاريء كآنها تهكمٌ دامٍ، أو كأنها مبالغة شرانية،

ولكنها في حقيقتها استشهادات جمعها كراوس من أقوال وكتابات أهل زمانه، فهي نصوص توثيقية .

وهذ هو تحلل المملكة الذي تنبأ به المتنبئون من قبل حدوثه بزمن طويل، وأحس به من أحسوا مبكرين، يحدث بالفعل، وكان لحدوثه عواقب مريرة لا راد لها . كانت التقارير القبيحة التي تأتي من الجبهة تتناولها يد التجميل، بل كان الكثيرون من المراسلين يبعثون بتقاريرهم من مكان آمن، من ڤيينا . كان الشعب يعاني من الجوع، ولكن احتفالات البلاط كانت مستمرة، وكانت مراسم تبجيل الإمبراطور القيصرلا تنقطع . وكان القيصر فرانتس يوزف نفسه لا يتلقى الأخبار الفظيعة عن مسار الحرب في الميدان، بل كانت الأخبار تأتيه بعد تنقيتها عن طريق الرقابة . وكانت عروض الأوپريتات مستمرة لا تنقطع تهدف إلى تلهية الشعب عن المحنة، وكان فرانتس ليهار نفسه يقود الأوركسترا عند عرض أوبريت «جراف فون لوكسمبورج» من تأليفه، في مكان على الجبهة الغربية المدحورة .

فلما أوشك عام ١٩١٨ على الانتهاء كان كل شيء قد انتهى، وتفككت المملكة، التي كانت تتصور نفسها ملجأ لكل القوميات في وسط أوروبا، وتحللت إلى أجزائها . في خطاب كتبه شتيفان تسڤايج في عام ١٩٢٢ بمناسبة عيد ميلاد شنيتسلر الستين نقرأ عن التغيرات التي حدثت : «كل الشخصيات التي لا تنسى، التي أبدعها شنيتسلر نقلاً عن الواقع برؤية بارعة، والتي كنا نراها بالأمس في عيد ميلاده الخمسين في الشوارع والمسارح وصالونات ڤيينا، اختفت فجأة من الواقع، وتحورت . البنت اللطيفة تحولت إلى عاهرة، أصبح أناتول ومن على شاكلته مشغولين بمضاربات البورصة . الأرستقراطيون هربوا، الضباط أصبحوا كتبة تجاريين ومندوبي تجارة، رقة الحديث تحولت إلى خشونة، الغزل أصبح فجاً، المدينة غلبت عليها البروليتاريا ...»

بنهاية الحرب العالمية الأولى انتهى عصر أدبي وأصبح من الممكن الإحاطة به من أوله إلى آخره . وهذا هو الكاتب فرانتس بلاي يعلق في «ملحوظات هامشية» على الأدب قائلاً إنه ليس من قبيل المصادفة أن يرسم الأربعة الكبار الذي برزوا في مجال النثر في القرن العشرين بعد الحرب صورة كاملة للعصر، وهم : پروست وچويس وموزيل وبروخ . هؤلاء الأربعة لم يذوبوا في العصر، ولم يقفوا بداخله، بل كانوا يقفون من فوقه أو بجانبه . أما فيما يتصل بمنطقة اللغة الألمانية فقد زاد بلاي على ما اختاره من أسماء : كافكا ويوزف روت وجوترسلو.

وضع موزيل وبروخ في النثر القصصي الألماني بكتابيهما «رجل بلا صفات» ١٩٣١-١٩٤٣ و«السائرون نياماً» ١٩٣١-١٩٣٢ مقاييس جديدة . كانا كلاهما يسعيان إلى «رواية العصر التي يعلو معناها على العصر» على حد قول شونڤيزه E. Schönwiese . هذه النوعية من الرواية كانا يفهمانها على أنها الرواية التي تلقي الضوء على الفرد وعصره بما فيه من مجالات فكرية وشرائح خفية كامنة . أما موزيل فقال عن مملكة النمسا الكاكاوية إنها الدولة «التي لم يعد في مقدورها إلاالمسايرة ...» هذه الدولة أسماها ساخراً كاكانيا . وأما فريتس فون هيرتسمانوڤسكي أورلاندو فقد حفظ هذه الدوله في كتاباته التي استرجع فيها الماضي، وأسماها تاروكانيا وقال عنها إنها دولة ذات مستويين من نوع البيدرماير وأنها شيطانية . كذلك نجد شتيفان تسڤايج ويوزف روت يتذكران عالم الأمس الذي انتهى وتلاشى، وإن لم تخل كتاباتهما من الحنين .

وعلى الرغم من هذا النقد اللاذع، والوصف الساخر الذي يلزم الموضوعية حيناً ويتحرى فضح الأسرار أحياناً، فقد نسجت الأسطورة خيوطها حول الإمبراطورية النمساوية، وزاد تألقها على مرور الأيام في مخيلة الناس، حتى وصل إلى الذروة في أيامنا هذه في شكل معارض

كبيرة عالمية أشرنا إليها . قلنا على الرغم من النقد اللاذع والوصف الساخر، وربما كانا هما السبب في نشأة الأسطورة . أياً كان الأمر فإننا نلاحظ أن بريق أسطورة الامبراطورية النمساوية ظل قوياً مستمراً لم ينقطع حبله، حتى إن بعض كتاب النمسا الآن يحاولون وصل أنفسهم بها، مستبعدين العشرينيات والثلاثينيات والحرب العالمية الثانية وما بعد الحرب . وربما كان مسعاهم هذا الذي يتجاهل مسار الزمن دليلاً على أن هذه الأسطورة هي آخر ما تمتلكه النمسا الآن من تراث ضخم الأبعاد .

كذلك بقيت النزعة الناقدة للغة في الأدب النمساوي، والتي كان كارل كراوس هو أكثر ممثليها تطرفاً والتزاماً . استمرت هذه النزعة إلى يومنا هذا، وإن بدا أنها تقف اليوم في موقع ضائع : فهناك اللغة الألمانية كما تنشرها المجلات والترجمات والسينما والتليفزيون ينساب تيارها من ألمانيا التي هي الجار الأقوى اقتصادياً ؛ هذه الألمانية أصبحت تهيمن هيمنة متزايدة على وسائل الطبع والنشر ووسائل الإعلام الواسعة التي تؤدى إلى تسوية الفروق ومحو سمات اللغة النمساوية القديمة . وهانحن أولاء نرى لغة محصولها فقير يقتصر على تأدية الوظائف الإشارية الأولى ويغطي بصوته العالي على التنوع المنغم الذي عمرت به اللغة النمساوية . كذلك فإن اعتماد الكتاب النمساويين على دور النشر الألمانية يسهم في هذه الظاهرة .

وكان مجيء النازية يعني أن عصراً آخر، لا في تاريخ الأدب وحده، بل في التاريخ عامة قد انتهى . في القصيدة الأخيرة التي كتبها كارل كراوس في عام ١٩٣٣، عام استيلاء النازية على الحكم في ألمانيا، شهد الشاعر على عجز اللغة حيال البربرية ؛ والقصيدة تنتهي بالبيت التالي : «نامت الكلمة عندما صحت تلك الدنيا.» وعندما تحولت النمسا في عام ١٩٣٨ إلى إقليم في الرايخ الألماني الشامل توقف الأدب النمساوي عن الوجود - إلا ما

استمر منه في الهجرة أو في الخفاء تحف به مخاطرالهلاك . كان المؤلفون الذين يبدون عدم استعداد للتعاون يمنعون من النشر، وكانت أعمالهم توصم بالانحراف وبأنها مسببة للانحلال وكانت بهذه التهمة تحرق علناً . وبهذا هاجرت الصفوة من الكتاب النمساويين، وفيها يهود كثيرون ؛ نجا بنفسه كل من استطاع، ومن لم يحتمل الهجرة انتحر، ومن انتهى إلى معسكرات الاعتقال الألمانية تعرض للموت فيما أعد فيها من آلات الهلاك .

ولهذا كانت الصحوة بعد عام ١٩٤٥ صحوة فظيعة، وكان حِمل ما لم يتم استيعابه ومعالجته حملاً ثقيلاً حتى إن تيودور أدورنو، الذي عرف في غير ذلك من الأمور بسعة الصدر في نقد الفلسفة والثقافة اعتبر الحريق الذي تم اجتيازه مؤخراً شيئاً لا مثيل له في ماض أو حاضر أو مستقبل، قائلاً : بعد أوشفيتس أصبحت القصيدة مستحيلة . وتتفق كل الدراسات التي رجعت ببصرها إلى الوراء، وتعمقت أدب ما بعد الحرب، على أن هذا الأدب بدأ بنص نثري قصير بقلم إلزه أيشينجر هو « دعوة إلى عدم الثقة» ظهر في مجلة «پلان» التي كان أوتو بازيل يصدرها . وكانت الأفكار التي تضمنها هذا النص بمثابة برنامج لجيل كامل من الأدباء الذين ظهروا آنذاك ؛ تضمن هذا البرنامج : الشك في الجملة، والشك في الاستعطاف، وفي كل أشكال القهر والضغط، وفي كل المعايير، وفي الذات . وانتهى عهد الصيحة التي أطلقتها التعبيرية والتي كانت تهدف إلى إحداث الثورة الأدبية بعد الحرب العالمية الأولى، والإيمان بإعادة تنظيم وترتيب القيم، والإيمان بنوع ما من التطهير . كل هذا تلاشى بعد ١٩٤٥ .

وهؤلاء هم الكتّاب الذين عاشوا الحرب العالمية الثانية عن وعي ولم يشرعوا في النشر إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، الكتّاب الذين بقوا أحياء بعد الأهوال عندما بدأت السنة رقم صفر، مواليد الأعوام من ١٩١٥ إلى ١٩٣٠، هؤلاء وجدوا أنفسهم دون تراث، ودون نماذج،

ودون قدوة، على العكس من الأكبر منهم سناً الذين ظلوا مرتبطين بالعالم الثقافي الكبير للمملكة . كان على الكتّاب أن يسعوا إلى استعواض ما نجم عن العزلة التي فرضتها الديكتاتورية النازية في تلك السنوات وأن يعالجوا خبراتهم الخاصة في الوقت نفسه . كان الجيل الجديد جيلاً من «المنفيين»، وهذه الكلمة هي التي استخدمها ميلو دور في عام ١٩٦٢ عنواناً لمختارات أصدرها وجمع فيها نصوصاً من أعمال أبرز كتاب هذا الجيل : إلزة أيشينجر، إنجبورج باخمان، كريستينه لاڤانت، كريستينه بوستا، مارلين هاوسهوفر، هانيلوره ڤالنشاك، چانّي إبنر، هربرت أيزنرايش، جرهارد فريتش، هانس هاينتس هانل وغيرهم . ولقد أسماهم المنفيين لأن الأدب النمساوي الذي مثلوه لم تقم بينه وبين أي جمهور متصور أية علاقة . أما الرباط الذي ربط المنفيين معاً فكان : اللغة المشتركة، لغة أبناء هذا الجيل التي كانت تختلف اختلاف أساسياً عما كتب من قبل باللغة الألمانية .

وهذه هي العقود التي انقضت منذ ذلك الحين تغير الظروف وتخلق منظوراً آخر : فأصبحت ألوان التعبير التي كانت توصف بأنها «مستغلقة على الفهم» و «متكلفة» أو «موصدة» تعتبر اليوم جزءاً من «اللغة العالمية للشعر الحديث» وأصبحنا اليوم، عندما ننظر إلى الوراء، نعتبرها سمات مميزة لهذا العصر. هذه العناصر التي تنتمي إلى «اللغة العالمية للشعر الحديث»، والتي نجدها بطبيعة الحال في الأنواع الأدبية الأخرى، أوردها النقاد في دراساتهم المتصلة بهذا العصر، منها مثلاً : رفض المفاهيم العامة الملزمة التي تفترض وجود نظام متماسك للعالم ؛ الحرص على بساطة اللغة أو خلقها من جديد ؛ فضح عيوب اللغة ؛ الاستشهادات ؛ النقد الساخر ؛ اللامعقول ؛ الصوتيات ؛ اللهجات.

والحقيقة أن وصف إبداعات پاول تسيلان وإنجبورج باخمان وهانس كارل أرتمان بأنها «مميزة لعصرها» يعني بلا شك قلب الحقائق وبالتالي تزييفها : فهؤلاء الفنانون كسروا في أعمالهم القواعد والمعاييرالتي كانت قائمة في عصرهم وكانت تعتبر ملزمة، الفنانون الذين مكنوا على

هذا النحو من تطوير الفن وإحداث «التقدم». أما أعمال أولئك الذين يلتزمون بسجل القيم المتفق عليها في عصرهم فإنهم يبددون قواهم في التقليد ولا يحققون إلا اتباع المعايير الحِرَفية القائمة في عصرهم على نحو يصطبغ بصبغة فردية. ويأتي دور الدراسات النقدية فيما بعد، فتلقي نظرة استرجاعية، وتتناول الأعمال التي كتبها هؤلاء الذين كسروا القواعد القائمة، فتستخرج السمات الأسلوبية والمضمونية الخاصة وتطلق عليها اسم «السمات المميزة للعصر»؛ وهي في الوقت نفسه تقدح مؤلفات المعاصرين لهؤلاء «العباقرة» وتلومها على أنها تخلفت عن أعمال العباقرة الذين وضعوا المعايير الجديدة. والحقيقة أن الفنانين الذين نسترجع أعمالهم في إطار عصرهم، فنصفهم بأنهم «فنانون صغار»، هم أولئك الذين استجابوا لمعايير زمانهم وحدها وأطاعوها.

يبرز من بين الناثرين العظام الناطقين بالألمانية في القرن العشرين، الذين ذكرهم فرانتس بلاي، اثنان قاما مقام القدوة بالنسبة إلى جيل الكتّاب الشباب، أديبان ماتا في المهجر هما هرمان بروخ وألبرت پاريس جوتسلرو. يتحدث هرمان بروخ في مقاله الذي تناول فيه نشأة روايته «الأبرياء» ١٩٤٩ عن رواية العصر الجديد في مفهومه، فيطالب بتوسيع «خط عرض المادة» وبمزيد من حدة «التجريد والتنظيم». ويذكر بروخ ما يسميه أسلوب الشيخوخة المجرد الذي لم يعد هو أسلوب الفنان ذاته، بل أسلوب عصرنا، وعصرنا هو الذي شهد أكبر انشطار في تاريخ الفن منذ عصر اليونان والرومان : العلم من ناحية، اعتراه انقلاب كامل، والمجال العملي من الناحية الأخرى اعترى الحياة الاجتماعية والسياسية فيه انقلاب كامل أيضاً. هل يحق للإنسان والحال هذه أن يتوقع من الفن شيئاً آخر؟ بروخ يرفض الرواية القديمة ويرى أنها كانت تغطي مساحات جزئية؛ كانت هناك رواية النشأة والرواية الاجتماعية والرواية النفسية، ومن بين انجازات الرواية الكبيرة نذكر أنها كثيراً ما كانت في هذه المجالات الجزئية تقوم

بالريادة في العلم وبخاصة في مجال علم النفس ». أما اليوم فينبغي أن تدخل الرواية مجال «ما هو خارج العلم »، وأن تعمل على شرائح مختلفة، من الشريحة الغريزية إلى الميتافيزيقية إلى السحرية، ومهمة الرواية هي مهمة الفن كله : «التعبير عن الكلية بعدد محدود من الموتيفات،»

ويذكر هايميتو فون دودرر، وهو أيضاً من أساتذة جيل مابعد الحرب من الأدباء النمساويين، في «أساسيات الرواية ووظيفتها» ١٩٥٩ أن ما تكرر بعد چويس وپروست من حديث عن «أزمة الرواية» هو في الحقيقة «أزمة واقعنا»؛ والأزمة يمكن أن تكون موجودة الآن حتى إن لم تكن هناك رواية؛ أو على الأقل فإن علماء الأدب سيخترعون الأزمة إن لم يكن لها وجود؛ دودرر يطالب بغزو الواقع من جديد ويطالب بـ «الرواية الشاملة»، التي حاول أن يؤلفها على طريقة تطابق حركات سيمفونية لبيتهوفن. وتعتبر رواياته، وبخاصة «سلم شترودلهوف» ١٩٥١ و«الشياطين» ١٩٥٦ اللتين يصور فيهما ڤيينا وطبقاتها الاجتماعية، علامات على طريق تطورالرواية السيكولوجية حتى اليوم.

من بين الكتاب الذين كانت لهم أعمال رائدة قبل ١٩٣٨، ثم جاءت الطبعات الجديدة التي ظهرت في الستينيات فأبرزتهم على الساحة النمساوية وأكدت فاعليتهم، نذكر ألبرت پاريس جوترسلو، أستاذ دودرر؛ ورائعته «شمس وقمر» ١٩٦٢ تنفذ من خلال التخطيط الروائي بأفكار وعبارات محكمة وفذلكات مما يجعل هذا الكتاب الكبير ـ الذي كثيراً ما اشاد بها الناس وقليلاً ما قرأوه ـ بحق تأريخاً شاملاً لزمانه.

كذلك الكتاب القصصي الرئيسي لإيلياس كانيتي الأديب الحاصل على جائزة نوبل ١٩٨١ «الإبهار»، الذي ظهر في الثلاثينيات وتأثر فيه بأحداث وقعت في ڤيينا، منها حريق قصر العدلية في عام ١٩٢٧، دخل دائره الاستقبال على المستوى العالمي عندما ظهرت طبعة جديدة

منه في عام ١٩٦٣. الموضوع الرئيسي للكتاب هو عزلة الفرد حيال العالم المحيط به والعالم الخارجي، وهو موضوع نمساوي في أعمق أعماقه، عالجه من قبل جريلپارتسر وهوفمنستال.

ومن بين الروائيين الكبارالذين برزوا في فترة ما بعد الحرب بأعمالهم الرئيسية نذكر چورج سايكو. منذ نشر چورج سايكو روايتيه «على الطوف» ١٩٤٨ و«الرجل في السمار» ١٩٥٥ ظهر في قائمة المصطلحات الأدبية مصطلح «الواقعية السحرية». والرأي عند سايكو أن فنه ليس شكلاً جديداً بل هو مضمون جديد. فهو يتصور أن أزمة الرواية تكمن في زيادة مفرطة مطّردة في الجانب المرئي على حساب الجانب الاستطرادي : ويرى أن التقريرات الموضوعية والوثائقيات بدأت تتجاوز الرواية. ولهذا فالرواية في عصر التكنولوجيا تحتاج إلى كسب أرض جديدة إذا لم تكن تريد أن تفقد وظيفتها الاجتماعية. هذه الأرض الجديدة تبدأ في الموضع الذي ينتهي فيه التفسير العقلاني للعالم. ولهذا كان الهدف الذي وضعه سايكو نصب عينيه هو « تحويل اللاعقلاني إلى عقلاني عن طريق التفسير الأدبي».

يميل أصحاب الدراسات النقدية التي تتناول الأدب النمساوي إلى القول بأن الخصوصية النمساوية تتلاشى تدريجياً كلما ابتعدنا عن القرن التاسع عشر. وهذا رأي لا يمكن الموافقة عليه إلا مع تحفظات، فليس من شك أن جيل الأدباء الذي اكتسب طابعه المميز في مناخ السنوات العشرينية والثلاثينية المتقلبة أشد التقلب، على حد قول هربرت أيزنرايش، «لم يعرف النمسا إلا من حيث هي مفهوم من شأن الجغرافيا والسياسة اليومية، ولم يعد يعرفها من حيث هي مفهوم روحي » فهو يقدم صورة سليمة عن النمسا ولكنها مختلفة محورة نتيجة لاختلاف المنظور. ينتمي إلى هذا «الجيل الضائع»، وهو الذي سمى نفسه بهذا الاسم، غالبية الكتّاب الذين صنعوا أدب المهجر : يورزف روت، فرانتس ڤرفل، هرمن بروخ، إيلياس كانيتي، مانيس شپيربر، يوهانس أورتسيديل، روبرت نُويْمان وغيرهم. وكثيرون منهم لم

يعودوا إلى ألمانيا بعد الحرب، فمنهم من ماتوا ومنهم من ضربوا جذورهم في البيئات الثقافية واللغوية الأخرى. أوسكار كوكوشكا، وفيليكس براون، ومارتينا ڤيد، وهيلده شپيل، وإريش فريد عاشوا في انجلترة؛ كاري هاوزر وفريتس هوخڤيلدر وهانس ڤايجل عاشوا في سويسرة؛ وفريدريش توربرج شق طريقه في هوليوود، وإرنست فيشر في موسكو؛ فرانتس تيودور شوكور تعرض للاضطهاد، ولاحقته الحرب، فهاجر إلى پولنده، وورومانيا، ثم لاذ بيوغوسلافيا؛ كذلك لاذ بيوغوسلافيا ألكسندر زاخارمازوك وبيدرو ريسموندو. وتجاوزت أعمالهم سنوات الحرب إلى أيامنا، ويرجع إليهم الفضل في الإبقاء على استمرارية الحياة الفكرية النمساوية بعد ضم النازيين النمسا إلى الرايخ الثالث فيما سمي بالأنشلوس.

كان تيار الوافدين إلى النمسا من الدول المجاورة، وبخاصة من البلدان التي كانت تتبع الإمبراطورية النمساوية، سببا من أسباب ثراء الحياة الفكرية في النمسا في السنوات بعد ١٩٤٥. هكذا جاء ميلو دور من يوغوسلافيا وهو أديب له فضل كبير على الأدب النمساوي ويعتبر اليوم واحداً من ممثليه الذين لا يشق لهم غبار. وأتى من تشيكوسلوفاكيا أندرياس أوكوپينكو ويان ريس، وأتت إلزه تيلش فيلتسمان من منطقة الزوديتن القديمة. وكان پاول تسيلان وروزه أوسليندر وألفريد جونج يعتبرون أنفسهم من أهل الأدب النمساوي على الرغم من أنهم قدموا من جاليسيا وبوكوڤينا، وكانت ڤيينا بالنسبة إليهم مرحلة عبور. ومن المجر أتى جيورجي زيبستيين الذي تفاعل مع اللغة الألمانية تفاعلاً خلاقاً. وتمكن من الأسلوب تمكناً فريداً، وكان في أدبه يسعى إلى الانتقال من «لغة المادة» إلى «لغة الرؤى».

وهكذا اكتسبت اللغة النمساوية وقد تهددتها ما تهددتها من مؤثرات خارجية سماتها الخاصة؛ وقد أسمى أوتو بازيا اللغة النمساوية اللغة الأوستورياكية رجوعاً إلى اللغة اللاتينية ليبرز خصوصيتها واختلافها عن ألمانية ألمانيا؛ ويرى أننا لا زلنا نسمع في اللغة النمساوية

رنين التراث اللاتيني الروماني، وأجراس روما الذهبية، التي نشعر في نبضاتها بالروعة الكلتية؛ ظلت هذه الخصوصية النمساوية قائمة حتى أفول نجم دولة الدانوب المتعددة القوميات التي كانت تتيح لها الثراء الحيوي. ويرى بازيل أن اللغة النمساوية تكونت أساساً من اللهجتين : البايوڤارية والأليمانية، ثم انسابت إليها إضافات من التشيكية ومن ألمانية براغ، ومن المجرية والكرواتية واليدِّية، بل ومن التركية، وبقية من فرنسية جنود نابليون الدارجة، ونبرات من لغات الكلتيين والسلاڤيين المصطبغين بالصبغة الرومانية، فإذا هي فسيفساء رنان انصهر على مدى الزمان واستحال إلى كيان رنان منسجم متوائم.

والذين يدرسون الأدب النمساوي من البداية إلى الحاضر يتبينون أن المادة ليست هي التي تصنع خصوصية الأدب النمساوي وإنما تنبع هذه الخصوصية من السمة الخاصة التي يستخرجها الأدباء من هذه المادة. من هذا القبيل أدب أدالبرت شتيفتر الذي صور فيه الطبيعة تصويراً دقيقاً اندمج فيه الإنسان كل الاندماج؛ ولقد برع شتيفتر في تصوير الأشياء الصغيرة، التي لا تلفت الأنظار، واستقى منها «قانونه الرقيق» الذي يجعل الشيء المعروف الذي يلوح في ظاهره عادياً مألوفاً يدخل إلى عالم الأدب عندما يتناوله برؤية جديدة. هذه الخاصية تميز الكثيرين من الكتاب النمساويين المحدثين.

وإذا كان النقاد ، عندما ظهرت أول رواية نمساوية مهمة في فترة ما بعد الحرب وهي رواية «آلأمل الكبير» ١٩٤٧ لإلزه أيشينجر، قدتبينوا فيها تأثير كافكا وتأثير السريالية، فقد أكد تطور هذه الأديبة أنها تستطيع أن تضع مقاييس بنفسها تصبح نموذجاً أو منطلقاً لمؤلفين آخرين من جيلها ومن الجيل الأصغر. وهي في قصتها «قصة في مرآة» تحكي حكاية من حكايات الحياة اليومية العادية ولكنها تحكيها رجوعاً من النهاية إلى البداية : وهي على هذا النحو تستبعد الأسباب والمؤثرات، التي هي شروط أسلوب القص التقليدي، كذلك تضع الواقع

موضع الشك وتميط عنه اللثام فيبدو على شكله الاتفاقي. والإغراب يؤدي إلى الكشف عن أشكال جديدة من الإدراك.

وعلى العكس من إلزه أيشنجر نجد كريستينه بوستا، وهي شاعرة كبيرة كتبت أحياناً شيئاً من النثر، ترفض الإغراب : «أنا لا أريد الإغراب، تكفيني الغرابة التي تكمن في الأشياء ذاتها.» وإذا كانت كريستينه بوستا تعتبر بمثابة الشرط المبدئي لشعرها «أن تركع أمام كرسي اعتراف اللغة» فإن رأيها هذا ينم عن احترام للغة التي هي كل شيء بالنسبة إليها. نجد في شعر كرستينه لاڤانت التواضع أمام اللغة وأمام الأشياء التي تبدو لأول وهلة بسيطة مفهومة؛ اللغة بالنسبة إليها عبارة يستحضر بها الإنسان ما يتوق إلى استحضاره، ووسيلة يحقق بها ما يرجوه من تواصل مع سلطة عالية قد تعطي حياة الفرد معنى واتجاهاً، عندما تلوح كأنها تسير عمياء بلا اتجاه.

وعبارة ڤيتجنشتاين القائلة :« حدود لغتي هي حدود عالمي» تنطبق على أولئك الأدباء الذين استندوا إليه، وتنطبق على غيرهم. ولو قلبنا العبارة فأصبحت «حدود عالمي هي حدود لغتي» لظلت صحيحة كذلك.

وليس من شك في أن ما حدث في عام ١٩٥٥ لم يكن من قبيل المصادفة، ففي هذا العام الذي وقعت فيه اتفاقية الدولة التي أصبحت النمسا بمقتضاها دولة ذات سيادة سياسية كاملة، وانتهت بها سنوات الاحتلال العشر، ظهرت على الساحة طليعة «تقدمية»، تبلورت في مجال الأدب أساساً حول المجموعة التي سميت «جماعة ڤيينا». بدأت المحاولات والتجارب التي قام بها الأدباء والشعراء في منتدياتاهم الخاصة وفي الخفاء الأدبي، تخرج إلى الجمهور : تجارب تقوم على تكوينات لفظية ومونتاج؛ «الشعر الملموس» والذي سمي ملموساً لأن فصل الألفاظ يبين الناحية الملموسة من اللغة. وكانت اللامعقوليات من هذا القبيل قد عرفت من قبل في

العشرينيات فيما عملته الدادئية والفوتورية. كان الهدف هو إجراء تجارب على اللغة التي كان الهدف هو جعلها هي نفسها مادة وموضوعاً للأدب. وكانت مجموعة ڤيينا (هانس كارل أرتمان، أوسڤالد ڤينر، كونراد بايَر، جرهارد روم، فريدريش آخلايتنر) تقيم «حلقات عملية» ـ سبقت ما سمي هاپيننجس Happenings ـ من أجل إبداع «ألوان من الواقع». كانوا يريدون لأعمالهم الأدبية ألا تندرج في أية مقولة من المقولات التقليدية، فليس في عرفهم شيء اسمه رواية أو قصة أو قصيدة، وإنما عندهم فقط «نصوص». وهذا هو أرتمان أكثر ممثلي هذه الجماعة تنوعاً والوحيد الذي حقق شعبية بمعنى الكلمة، أدخل اللهجة الدارجة الڤييناوية في «فن شعره الموسع». وقد نشر أرتمن بالعامية في عام ١٩٥٨ ديواناً من الشعر «بحبر أسود» استهل به موجة من الشعر العامي مازالت مستمرة لا تنقطع إلى اليوم؛ ويمكننا دون مبالغة أن نقول إن أرتمان بديوانه هذا جعل العامية في النمسا لأول مرة لائقة للأدب وللجمهور المحترم. ومن البديهي أن قدراته في الأدب تتجاوزهذا العنصرالجزئي تجاوزاً بعيداً.

إلى جانب أرتمان هناك خاصة إرنست ياندل بقصائده الصوتية المتسمة بالمهارة الحِرَفية، وفريديريكه مايروكر، وأندرياس أوكوپينكو هم كبار ممثلي الاتجاه التجريبي في الأدب النمساوي، وهو اتجاه دخل في تاريخ الأدب في هذه الأثناء. نشط هذا الاتجاه التجريبي في فترة التحول في الخمسينيات والستينيات وشارك في إحداث التحول، وكان التحول انتقالاً من صورة واقعية للعالم إلى صورة مجردة لا معقولة؛ انتقالاً من عرف «الواقعية» إلى عرف معاداة الواقعية. كانت هناك عودة إلى تراث الباروك إذا نحن بحثنا عن حالات مناظرة سابقة. والمحلل الثقافي ڤولفجانج كراوس ذكّرنا بأن العرف في الفترة من الباروك إلى البيدرماير كان يقوم على اللاعقلانية والأليجورية؛ وأن الواقعيين ناهضوا هذا العرف وكانوا آنذاك يمثلون الطليعة.

وعلى الرغم من نسبية المفاهيم من أمثال «التراثية» و«الطليعة» وهي مفاهيم تستهلك وتخضع لقانون الاستهلاك، وتحل أخرى محلها عندما ينقضي وقت كاف، فإن أصحاب المختارات يحبون أن يجعلوا من التضاد بين طريقة التعبير التراثية وطريقة التعبيرالتجريبية سمة مميزة للأدب النمساوي (سواء في ذلك الأدب النمساوي القديم والجديد). وهم هنا يتغاضون عن مفهوم «الجودة» الذي ينبغي أن يكمن في القدرة على إيقاظ اهتمام القارىء بـ «نص» ما والإبقاء على يقظته. وكانت النتيجة أنه بعد أن فتحت «جماعة ڤيينا» الأهوسة تدفقت أعداد كبيرة من الكتبة يتذرعون «بحرية الفن» دون أن تتوافر لديهم الشروط الأولية الشكلية، ولا حتى المعرفة النحوية، ويدعون أنهم كتاب «تجريبيون» و«تقدميون»؛ وإذا كانت هناك سياسة ثقافية تسوي بين الغث والسمين، ولا تخشى شيئاً قدر خشيتها من أن تتهم بالتفرقة، فإنها تسهم إلى اليوم بدور في تكريم غير الجادين والتلاعب الفج بالفنون. وهذا الذي قاله ستندال عن الحب ـ من أن الكثيرين ما كانوا أبداً سيحبون لولم يقرأوا (ونضيف اليوم : يشاهدوا التليڤزيون) ما كانوا سيعرفون أن هناك حباً ـ ينطبق على جانب كبير من الأدب الحديث : كثير من الكتاب ما كان سيخطر ببالهم أن يكتبوا لو لم يسمعوا عن تشجيع الأدب...

و«جماعة ڤيينا» التي كانت فريدة لا تتكرر ولا تقلّد، خلقت موضة، ولكنها لم تنشيء مدرسة. فبعد أن حلت الجماعة نفسها في بداية الستينيات، كان كتّاب جماعة «منبر حديقة المدينة» في جراتس بصفة خاصة ـ وكانوا يتصورون أنفسهم مناهضين لنادي القلم الذي اعتبروه محافظاً ـ هم الذين استأنفوا البحث عن النماذج اللغوية الجديدة. من هنا بدأ تحول واضح في الاتجاه تضمن : الانصراف عن فهم الأدب من حيث هو هدف في ذاته والانصراف عن محاولة اعتبار اللغة شيئاً مطلقاً. من بين الكتاب الذين خرجوا من مجموعة منبر حديقة مدينة جراتس نذكر خاصة پيتر هاندكه الذي ظهر في منتصف الستينيات باللاتمثيليات

واللاروايات التي كانت تهدف عن طريق وصف العمليات بدقة إلى إماطة اللثام عن العادات اللغوية والسلوكية. وأذا نحن نظرنا عن كثب إلى النصوص الأولى ذات الطابع الأمثولي التي كتبها هاندكه وانطلق فيها من أشكال أدبية تقليدية ـ مثل الرواية البوليسية أو رواية النشأة أو السيرة أو السيناريو المكون من لقطات متفرقة، لكي يشكك فيها وفي أشكال الإدراك التقليدية التي تعتمد عليها ـ وجدناها قد مست الوتر الحساس في ذلك العصر. وبدأ جيل كامل من الكتاب من ذلك الحين يقتدي بهاندكه : كانوا كلهم يشتركون في شيء واحد وهو أنهم يريدون أن يحفزوا القارىء على التفكير النقدي المختلف.

واتبع هاندكه منهجه الفعال القائم على هدم الموضوعات التي يريد تناولها، لكي يبنيها بناءً جديداً وليعرضها بمعنى جديد؛ ثم نوع هاندكه منهجه على مر الزمن بما أخذ به نفسه من التزامات إيديولوجية أو موضات إيديولوجية، وبخاصة ما اتصل منها بالماركسية والحركة النسائية. وما من شك في أن هاندكه نفسه أعاد النظر، بمرور الوقت، في منطلقه المتطرف في التجريب، وعاد إلى طريقة قص أكثر تراثية، طريقة تعتمد الاستمرارية. من جيل هاندكه وما بعد هاندكه نذكر خاصة باربارا فريشموت وجيرد يونكه وفرانتس إنرهوفر، وپيتر روزاي ويوليان (قبل عملية التحول إلى رجل : يوتا) شوتينج... هؤلاء شكلوا أدب النمسا الحالي؛ ونجد أدباء ملتزمين بالنقد الاجتماعي مثل پيتر توريني أو ميشائل شارانج يحرصون على إظهارالبؤس الاجتماعي والبؤس الإنساني لدي البشر الذين لا يتكيفون مع المجتمع، والذين يقعون في براثن الاستغلال، في عالم عمال المصانع والعمال الأجانب، وينطلقون من تشخيص يستخدمون فيها مناهج إغرابية فيرونهم قابلين للتغيير.

ويرز في العقد الأخير إلى جانب پيتر هاندكه وتوماس برنهارد، في صف أهم كتاب النمسا، جرهارد روت وهو يتميز بالدرس والتمحيص الدقيق والتحليل سبيلاً إلى اليقين الذي

تقوم على أساسه الكتابة أياً كانت. ولجرهارد روت اهتمام بالتأريخ، وكلفٌ بجمع التحف، وحب للتصوير الفوتوغرافي، والكتابة الموسوعية؛ ونظرة إلى منهاجه تبين لنا أنه يحطم لبنات السياق المتوالية في مجموعاته الروائية لتتداخل مع اسكتشات سريالية وأحلام وحكايات ورسائل ويوميات، يتمثلها على هيئة طبقات أرضية تتداخل بعضها في البعض، كالعجلات المسننة التي تتداخل معاً لتكون في مجموعها العمل في شموليته. أما الهدف الذي يسعى إليه جرهاد روت فهو إبداع : «شيء شبيه بشريحة من المخ أخذت من خلال المنطقة... أو بتشريح للأحياء، شيء يختلف تماماً عن المركب الميت الذي تحكيه الرواية الكلاسيكية من البداية إلى النهاية.» لابد من أن تقص الرواية كل ما يجيش في الوعي من آليات، فيكون فيها : «التاريخ والتاريخ العتيق والحلم والواقع».

أما المعتزل الكبير في أدب العصر الحاضر في النمسا، توماس برنهارد، فقد وجد لعرض عالمه المونوماني لغة خاصة تدور حول الذات وتتحلل إلى شظايا، تشهد على ضياع القدرة على الاتصال وفي الوقت نفسه على غياب السعي إليها. والجمل التي يكتبها توماس برنهارد تتوزع على بنيات موسيقية ورياضية. وموضوعاته الأثيرة إلى قلمه هي المرض والجنون ومكابدة الموت، من حيث هي خبرات وجودية رفعها إلى مواقف إنسانية أساسية جوهرية، هذه هي الموضوعات التي يتحررمنها توماس برنهارد وكأنه في قبضة القهر. «أنا أتكلم اللغة التي لا يفهمها إلا أنا، ولا يفهمها أحد غيري، كما أن كل إنسان لا يفهم إلا لغته.» هذه عبارة جاءت في روايته التي يحكي فيها سيرته الذاتية «القبو». وأقرب الظن أن هذه اللغة يفهمها الكثيرون لأنها تطابق شكوكهم وموقف الرفض الذي تتخذه أحاسيسهم، يشهد على ذلك أن توماس برنهارد ترجمت أعماله إلى كل لغات الدنيا وأنها تناقش باهتمام وبكثرة كما لا تناقش غيرها من أعمال الأدباء الآخرين. ولقد أشار البعض إلى تأثيرالرواية الجديدة في أعماله كما

أشاروا إلى تراث الباروك بما فيه من رؤى الموت والفناء. وعلى الرغم من أنه رفض التراث النمساوي رفضاً قاطعاً فإنه مرتبط به ارتباطاً أكثر عمقاً مما أدرك.

ولا يكاد يكون هناك فنان آخر في زماننا عانى من النمسا أكثر مما عانى توماس برنهارد. وهذه هي مسرحيته «ميدان الأبطال» ١٩٨٨ التي فضح فيها السلوك الإجرامي الذي سلكه الكثير من النمساويين عندما ضم الألمان النمسا إلى الرايخ الثالث فيما عرف باسم الأنشلوس ١٩٣٨، تتحول إلى حدث سياسي، ويتعرض الكاتب للهجوم والعداء من جانب السياسيين ومن أوسع الصحف انتشاراً. ويرد على هذا الهجوم بمنع عرض مسرحياته في النمسا، ربما لكي يحول دون قيام النمسا الرسمية بالاستئثار به بعد موته، وضمه إلى محفل العظماء الذين تتفاخر بهم؛ ولم ينجح توماس برنهارد الذي مات في عام ١٩٨٩ في تحقيق هذه الرغبة.

كذلك إنجبورج باخمان، التي لم يحفل بها أحد طوال حياتها في النمسا إلا قليلاً، اتخذ اسمها بعد وفاتها عنواناً على مباراة أدبية تقام مرة كل عام في كلاجنفوْرت حتي تكون كلاجنفورت عاصمة الأدب؛ وقد علق پيتر هاندكه على تلك المباراة قائلاً إنها أحط وأحقر وأنكى تمثيلية أقيمت باسم الثقافة في كل زمان ومكان.

«لقد كان أهل ڤيينا وأهل النمسا دائماً ممتازين في دفن موتاهم!» هذه العبارة التي قالها رجل حاد اللسان هو الممثل چيراردي معلقاً على ما جرى على الموسيقي العظيم جوستاف مالر الذي لقي الأمرين طوال حياته في ڤيينا فلما مات في عام ١٩١١ دفنوه بكل الإجلال والتعظيم؛ هذه العبارة تصدق على ما جرى في الماضي، وما يجري اليوم.

الأمثلة لا تعوزنا إذا أردنا الحديث عن الجهود المهدرة، والقدرات التي عصف بها قبل أن تتحقق، والأعمال التي قصفت قبل أن تتم، من موتسارت إلى إيجون شيله إلى نفر ممن

يعيشون اليوم. وهذه هي دورالمحفوظات والمكتبات تضم الكثير مما خلفه العظام، إنها على حدد قول برتا تسوكركاندل التي كان صالونها ملتقى صفوة النمسا القديمة : « مقابر لأعمال لم تتم، ولأعمال حيل إجرامياً دون إنجازها، للروائع التي لم تستكمل. في كل بلد قرافة من هذا النوع، ولكنها ليست بالضخامة الرهيبة التي تتسم بها قرافة ڤيينا التي أعقبت الكثير من العباقرة ثم أطاحت بهم. »

ونضيف : خير لنا أن ندع بوابات دور المحفوظات والمتاحف موصدة حيث ترقد الأعمال التي عطلت على نحو إجرامي - فذلك أدعى لتهدئة خواطر الفكر والفن في النمسا في زماننا الحاضر. وچان كوكتو هو القائل : «الماضي هو أكبرالمنتحلين ! ».

أُدولْف أُوپِل

مقدمة

أ.د. مصطفى ماهر

ليس هذا هو كتاب المختارات الأول الذي أقدمه للقارىء يضم مترجمات عن الآداب التي شُغلْتُ بها طوال حياتي، فقد قدمتُ من قبل «صفحات خالدة من الأدب الألماني» ١٩٧٠، و«ألوان من الأدب الألماني الحديث » ١٩٧٤، «ومختارات من الأدب القصصي الألماني في العصرالوسيط »١٩٨٣ وشاركت في مجلدين مختارات من القصص الألمانية القصيرة :« قصص ألمانية حديثة » ١٩٦٦و« غناء العناكب » بيروت ١٩٦٧، وتوشك «غرفة رفاعة » بكلية الألسن أن تستهل مشروعها الثقافي الجديد في الترجمة والنشر بمختارات من الأدب القصصي الألماني الحديث نقلتها على مدى سنوات.

ويرجع اهتمامي بالمختارات إلى تخطيطٍ كتبتُ عنه أكثر من مرة تناولت فيه نوعيات المختارات ووظائفها ودورها في مشروعنا الثقافي الحديث. فالمختارات أنواع مختلفة، تتباين من حيث المنطلقات والأهداف. فقد يكون الهدف من المختارات أن تستخلص طائفة من الكتّاب أو النصوص من بين محيط واسع من أجل إبراز خصوصيتها أو تفردها : مثل مختاراتنا هذه التي تبرز الأدب النمساوي من بين الأدب الألماني. وقد يكون الهدف تجميع نصوص تتناول موضوعاً بعينه أو عصراً بعينه إو اتجاهاً أو مدرسة : كصفحات خالدة من الأدب الألماني التي تناولت فيها الأدب الملتزم بخاصة. أو مختارات من الأدب القصصي الألماني في العصر

الوسيط التي تركز على الأدب القصصي دون غيره وفي العصر الوسيط بالذات. ونكتفي بهذه الأمثلة القليلة. ومن البديهي أن كتاب المختارات الواحد يمكن أن يكون متعدد المنطلقات، متعدد الأهداف.

أما منطلقي الأول في قضية المختارات المترجمة كلها فيرتكن إلى فلسفتنا الثقافية منذ أوائل القرن الماضي، والتي أبرزت ضرورة التفاعل مع الثقافات الأخرى. فقد أدرك المفكرون ابتداء من الشيخ حسن العطار والشيخ رفاعة الطهطاوي أننا انقطعنا عن العالم زمنا طويلاً، وتخلفنا عن التفاعل الحر مع الثقافات الأخرى، فتوقفنا عن الترجمة كما توقفنا عن الإبداع بعد ريادة زاهرة في المجالين، وأصبح علينا أن نلحق بالركب الذي تُباعد بيننا وبينه القرون. فإذا تصورنا الكم الهائل من الكتب التي ينبغي علينا أن نترجمها أدركنا صعوبة الإحاطة الكافية بما ينبغي علينا الإحاطة به في وقت معقول.

ودعنا من قائمة الكتب الكاملة التي تشمل ثقافات العالم كله، ولننظر إلى جزئية منها، الجزئية الألمانية. فهذه الآلاف من الكتب التي تأتلف منها ثقافات الأمم الناطقة بالألمانية، كيف ومتى ننقلها؟حتى إذا وضعنا أسبقيات واختصرنا الآلاف إلى مئات، والمئات إلى عشرات ظلت المهمة صعبة، يضاعف من صعوبتها أن الكتّاب يطلعون علينا كل يوم بالمزيد. ولهذا كانت المختارات، على ما يشوبها من عيوب، وسيلتنا العاجلة إلى أن نقرأ على الأقل شرائح، انتظاراً لليوم الذي تتاح فيه فرص ترجمات وافية.

وعلى الرغم من الشكوى من قلة ما ترجمنا من اللغات التي يسمونها اللغات العالمية، فلا ينبغي أن نقلل من شأن ما قد أنجز على مر السنوات. ولقد بدأت مدرسة اللغات الأولى، مدرسة الألسن في عهدها الأول بالاهتمام بحضارات مختارة، ولغات أساسية قليلة، فنقلت اعتماداً على الفرنسية نماذج مما تيسر لها لتحيط بحضارات أوروبا التي جعلت لها الأسبقية، وتبين عناوين الكتب المترجمة اهتماماً بفرنسا وإيطاليا والنمسا وبروسيا وانجلترة وروسيا.

كانت النمسا إذن من بين البيئات الثقافية الأولى التي مُدَّت نحوها الجسور، وكانت هذه الأسبقية سبباً من أسباب قيام تراث من التواصل بين العالم العربي والنمسا، له تاريخه ومراحله وعلاماته المميزة ؛ يبدأ بتلك البعثات التي تعلمت في جامعات النمسا ومدارسها المتخصصة منذ النصف الأول من القرن الماضي، ويصل إلى العلاقات الوثيقة بين الأمراء وإلى الاقتداء بالنماذج الثقافية النمساوية في عهد اسماعيل . فلا غرابة أن تحمل اللغة الألمانية عندما ظهرت لأول مرة في برنامج مدرسة الألسن في عام ١٨٦٣ اسم اللغة النمساوية.

أما في أيامنا هذه فقد اتخذ التعاون الثقافي مع النمسا أبعاداً هامة وعميقة ومنوعة، يرعاها المعهد الثقافي النمساوي بالقاهرة، في صورة تبادل الأساتذة والطلاب والفرق الموسيقية والمعارض وتدعيم المكتبات ؛ ولا يكاد يمر عام إلا ويزورنا أديب نمساوي نتحاور معه، ونقيم معه الندوات أحياناً. زارنا فيما أذكر : ميشائل شارانج، پيتر مارجنتر، إلزة تيلش، يورجن ڤايل، باربارا فريشموت، جيورجي زيبستيين، كريستينه نوستلينجر، يوتا شوتنج (بعد أن تحولت إلى رجل : يوليان شوتنج)، إنجبورج باخمان، توماس برنهارد، ڤولفجروبر، أدولف أوپل. ولا تزال أقسام اللغة الألمانية بالجامعات المصرية تذكر ندوة باربارا فريشموت (التي ترجم أ. د. محمد أبو حطب روايتها الهامة «تواري الظلال في الشمس»، وقدم لها بدراسة طويلة) وتذكر ندوة إنجبورج باخمن ١٩٩٣ التي أقيمت بمناسبة مرور ٢٠ سنة على وفاتها، وكانت حدثاً ثقافياً وعلمياً رفيع المستوى بكل المقاييس.

ومن نماذج التعاون الثقافي العلمي المتميز ما يتصل بين الجامعات المصرية والجامعات النمساوية من تبادل لعله أبرز نماذجه النموذج القائم مع جامعة زالتسبورج والذي يرعاه الأستاذ الدكتور أولريش موللر بحماس منقطع النظير.

وكتاب الجسر الذهبي - أو إذا أردنا عنوانه كاملاً : إنما يفوز عند الجسر الذهبي من يعرف الكلمة -

الذي نقدمه اليوم والذي جمع مادته الأستاذ أدولف أوپل وقدم له بدراسة واسعة، يحرص على إبراز الخصوصية النمساوية والسمة العالمية في الأدب النسماوي . فقد شاع بيننا عند الحديث عن الأدب النمساوي أن نضمه إلى الأدب الألماني بمعناه الواسع. وكثيراً ما ظهرت الترجمات العربية الكاملة أو المقتطفة عن النمساوية، والدراسات المنصبة على الأدب النمساوي تحت العنوان الكبير : الأدب الألماني. والنمساويون لا يضيقون باعتبار أدبهم جزءاً من الأدب الألماني بمعناه الواسع، ولكنهم يحبون أن تظهر السمات الخاصة المميزة للأدب النمساوي، ولا يفهمون السمات النمساوية في إطار قومي، بل في إطار الإسهام النمساوي في الأدب العالمي والثقافة العالمية. ومن هنا نجد أدولف أوبل يتناول في مقدمته هذا الموضوع بشيء من التفصيل.

وسواء أبرز المترجمون والكتّاب السمة النمساوية أو لم يبرزوها فقد نقلوا ما أعجبهم وتحاوروا معه ناقدين ومبدعين. وأغلب الظن أن كل أعمال زيجموند فرويد أو جلها ترجمت إلى العربية. كذلك تتصدر أعمال شتيفان تسڤايج قائمة الأعمال المترجمة : حب أم شفقة، ماجلان، رسالة من امرأة مهجولة، ٢٤ ساعة في حياة امرأة، لاعب الشطرنج، المجموعة غير المنظورة، تولستوي. بناة العالم، كازانوڤا ، ماري أنطوانيت، إرميا ، قلوب تحترق، عاصفة في الجنة، عاشقات الخريف.. ترجم أ.د. عبالغفار مكاوي بقلمه الممتاز مختارات من المسرح التعبيري، وشيئاً من شعر إنجبورج باخمن. وترجم د. يسري خميس بأسلوبه الشعري العذب «زفاف زبيدة » لهوفمنستال، وترجم أ.د. باهر الجوهري الأستاذ المتخصص في الأدب النمساوي مسرحيتين لجريلپارتسر، وأ. د. أبو ريدة «رسائل إلى شاعر شاب » لريلكه ونشرها في مجلة الثقافة في عام ١٩٤٦ و١٩٤٧. وكتب عن ريلكه الكثيرون أذكر منهم الأستاذ أنيس منصور، وأ.د.عبد الرحمن بدوي.

عندما نشرتُ في عام ١٩٧٠ صفحات خالدة من الأدب الألماني قلب صديق نمساوي صفحاته التي تزيد على ٧٠٠ صفحة، وقال إنه يضم الكثير من الأدب النمساوي، ففيه نصصوص مختارة من أعمال : أدالبرت شتيفتر، ماري فون إبنر إشنباخ، هوفمنستال، كافكا، موزيل، يوزف روت. كذلك تضمت مختارات «قصص ألمانية حديثة» في عام ١٩٦٦ قصة قصيرة من أعمال إلزة أيشينجر: «الأمر المفتوح». وكذلك نشرتُ ترجمة «أوندينه تذهب» من أعمال باخمان في المجموعة نفسها. ثم نشرتُ ترجمات كاملة لروايتين من روايات كافكا : القضية ١٩٦٩ والقصر ١٩٧١، وترجمات لبعض النصوص الهامة ـ مثل : خطاب إلى الأب ـ والقصص القصيرة بالإضافة إلى عدد من الدراسات عن كافكا وأدبه.

وقد تفاعل الأدباء في مصر مع أدب النمسا، وهو مجال يحتاج إلى كثير من الدراسة المنظمة بدأت برسالة الماجستير التي كتبها علاء الدين صبحي ندا عن تأثر يوسف عز الدين عيسى بكافكا في رواية «الواجهة»؛ وتدرس منال حسن عبد المطلب تأثر يوسف السباعي بشتيفان تسفايج، وتعد رسالة دكتوراه في هذا الموضوع.

وإذا كنا لنبحث عن خصوصية أدب النمسا، فلا بد أن نكون على بينة من هذه الخصوصية فيها ثوابت وفيها متغيرات، فيها ما يتصل بالمكان وعبقرية المكان، وفيها ما يتصل بالتاريخ، وبالبشر، وبالمبدعين من المفكرين والفنانين. ويضيق المقام عن الدخول في تفصيلات هذا الموضوع الهام، ولكننا ننوه ببعضها. فقارىء هذه النصوص المختارة سيتبين أنها تحمل طابع تأثير وتأثر واضح حيال العالم الخارجي، البعيد والقريب، وبخاصة تجاه أوروبا الشرقية، والشرق. فقد أتيح للنمسا على مر التاريخ، وبخاصة في عصر الإمبراطورية فرصة اتصال واسعة بطائفة مختلفة من القوميات واللغات والمعتقدات والثقافات. من الأجانب مَن وفدوا إلى النمسا واندمجوا وذابوا في أهلها، ومنهم من ظلوا على الهامش، ومنهم من أصروا على أجنبيتهم. ولكنهم كانوا، من وجهة النظر الثقافية، يمثلون عنصر ثراء بلا حدود

للثقافة النمساوية، طابع المرونة والتسامح، وطابع الغرابة والتنوع. ومن هنا نفهم ما يتسم به الأدب النمساوي من التنوع أشد التنوع، فالأدباء النمساويون متجهون إلى الخارج، بقدر اتجاههم إلى الداخل.

وكان انفتاح النمسا على العالم الخارجي وانصرافها المبكر عن الهيمنة السياسية والعسكرية، ينعكس في اجتذاب عشاق الألمانية من الأجانب الذين يرجع إليهم الفضل في جعل اللغة الألمانية لغة عالمية. وإنما تصبح اللغة عالمية عندما يحبها الأدباء والمتأدبون في العالم الخارجي، ويصطنعونها لأنفسهم. ولهذا فمن حق الأجانب أن يفخروا بأنهم هم الذين يرتفعون بلغة ما إلى مستوى العالمية. ومن أدباء النمسا من تعلموا الألمانية متأخراً، لغة ثانية أو ثالثة أو رابعة.

وبقدر الثراء الذي تحظى به الثقافة عندما تنساب إليها الروافد الأجنبية، بقدر ما تتضح مقومات الهوية. فلم تعد الهوية شيئاً ثابتاً لا يتطور، بل دخلت الهوية مجالات التفاعل، تعطي وتأخذ. وإذا كان الأديب النمساوي إيلياس كانيتي قد حصل على جائزة نوبل في عام ١٩٨١، فقد حصل عليها نجيب محفوظ في عام ١٩٨٨ وكان ذلك شاهداً لكليهما على أهمية التفاعل بين الثقافات على مستوى العالمية. وكان جوته الذي سما بالألمانية إلى مصاف العالمية يقول إن على الغربي أن يعرف الشرق إذا أراد أن يعرف نفسه ؛ وقد عبر عن ذلك المفهوم في عنوان ديوانه الذي أسماه «الديوان الشرقي الغربي» أو «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» .

نلاحظ في قراءتنا النقدية لنصوص «الجسر الذهبي» أن طائفة منها تتناول على نحو يوشك أن يكون مباشراً فصولاً من التاريخ تركت بصماتها على الحياة النمساوية إلى اليوم. من هذه النصوص نذكر :

فرانتس تيودور تشوكور : كل قلب لا يسمع إلا نفسه

ألكسندر ليرنيت - هولينيا : مايرلينج

ألبرت پاريس جوترسلو : القيصر

هايميتو فون دودرر : ١٥ يولية ١٩٢٧ النار

ومن هنا كانت معرفة هذه الارتباطات التاريخية ضرورية لفهم هذه النصوص وما فيها من إشارات ظاهرة وتلميحات خفية. وليس من الممكن أن نرسم هنا صورة كاملة لهذه الفصول من التاريخ، ولكننا نشير إلى بعض عناصرها الهامة.

عندما نقلب صفحات تاريخ النمسا نجد أن التناحر بين النمسا وبروسيا قديم وأن حلقاته بخاصة اتصلت بعد أن حمل أمير بروسيا الناخب في مطلع القرن الثامن عشر تاج الملكية معبراً عن تطلعاته المتزايدة. والحديث عن بروسيا يعني الحديث عن أسرتها الحاكمة آل هوهنتسولرن، ويقابله حديث عن الأسرة الحاكمة النمسوية من آل هابسبورج. وبينما اعتنق البروسيون المذهب البروتستنتي اللوتري، تعصب آل هابسبورج للكاثوليكية وأرغموا من اعتنق البرتستنتية على الرجوع إلى الكاثوليكية. وكانت أهم أسباب التناحر بطبيعة الحال الرغبة في السيطرة على مناطق في داخل ألمانيا وفي إيطاليا وبلچيكا وأوروبا الشرقية.

ثم جاءت الثورة الفرنسية، وكانت ماري أنطوانيت ملكة فرنسا التي قُتلت على المقصلة ابنة الإمبراطورة النمساوية ماريا تيريزيا، فمن البديهي أن تكون النمسا مهتمة في المقام الأول بالتصدي للثورة وجيوشها. ومن الفصول الهامة في تاريخ النمسا حروب نابليون التي عانت منها النمسا الكثير، إلى أن واتاها الحظ، فسقط نابليون وانعقد مؤتمر ڤيينا (ميترنيش) ١٨١٤ الذي دعم الإمبراطورية النمساوية التي كانت تعلق أهمية كبيرة على المجر. فلما قامت

ثورة ٤٨-١٨٤٩ في المجر جزع الإمبراطور النمساوي، وبخاصة عندما فشلت قواته في السيطرة على الموقف، فلم يتورع عن الاستعانة بروسيا لقمع الثورة.

ولم تكن اضطرابات المجر أول ما واجه الامبراطور فرانتس يوزف الأول الذي تولى العرش في عام ١٨٤٨، بعد وفاة عمه الإمبراطور فرديناند، وتنازل والده له عن حقه في العرش، فقد تصاعدت الخلافات بينه وبين بروسيا إلى حد الاقتتال فيما سمي بالحرب الألمانية التي نشبت بين النمسا وبروسيا. وحقق البروسيون النصر المؤزر في موقعة كونيجريتس المشهورة في عام ١٨٦٦ بقيادة القائد مولتكه، وهي هزيمة منكرة لم تنسها النمسا. وفي أعقاب هذه الأحداث عقد اتفاقية التسوية مع المجر وبمقتضاها تكونت المملكة المزدوجة في عام ١٨٦٧ تللك التي يسمونها المملكة الدانوبية أو الكا K وكا K، على اعتبار أن الكا الأولى اختصارالكلمة الألمانية التي تعنى امبراطورية والثانية اختصارالكلمة التي تعني مملكة. فلما تكونت الإمبراطورية الألمانية في عام ١٨٧١، عقدت النمسا معها حلفاً دفاعياً، ولكن النمسا ظلت تواجه مشكلات عديدة وخطيرة مع روسيا وصربيا وإيطاليا، بالإضافة إلى المشكلات الداخلية.

ثم حدث أن قتل شابٌ صربي ولي العهد النمساوي الأمير فرانتس فرديناند وزوجته في ساريبفو في ٢٨يونية من عام ١٩١٤ فقامت الحرب. وتوفي القيصر الأسطوري فرانتس يوزف في عام ١٩١٦ وقد بلغ من العمر ٨٦ عاماً. وخلفه القيصر كارل الأول الذي خسر عرشه في عام ١٩١٨، دون أن يتنازل عنه رسمياً ؛ ولقد حاول بعد ذلك مرتين استرداد عرش المجر، فلم يفلح، وانتهى الأمر بنفيه إلى ماديره حيث مات في عام ١٩٢٢.

وكان الإمبراطور أو القيصر فرانتس يوزف شخصية تركت بصماتها على النمسا أكثر من نصف قرن. وقد اختلفت الآراء في تقييمه. تَحدَّث التقارير عن عناده وإصراره على فرض إرادته، وعن تمسكه بالمظاهر وبالبرتوكول وبالتباعد والتعالي. ومن القصص المشهورة قصة زواجه بإليزابت، وقصة انتحار ابنه في مايرلينج، وقصته مع عشيقته كاتارينا شراط، وقصة

موت الإمبراطورة إليزابت مقتولة بخنجر فوضوي إيطالي. وتتصل بهذه القصص قصص فرعية منها قصة الأخ الأصغر لفرانتس يوزف، فرديناد ماكسيميليان الذي عرف بمغامرته في المكسيك حيث تربع على عرشها امبراطوراً ثم مات مقتولاً.

أما قصة زواج الإمبراطور فقد بدأت فصولها بتدبيرمن أمه الغرندوقة صوفي ابنة الملك الباڤاري ماكسيميليان يوزف، وأخت الملك لودڤيج الثاني الذي عرف بحب غير مسبوق لفن الموسيقار ريشارد ڤاجنر. اختارت الأم بنتاً من أسرتها الباڤارية، شديدة القرابة. هي بنت اختها، وكانت في الثامنة عشرة من عمرها، واسمها هيلينه، ويدللونها باسم نيني Néné، وتم اللقاء في مكان محبب إلى الجميع هو مدينة إيشل المشهورة بمياهها المعدنية ومناظرها الطبيعية الخلابة. ولكن الإمبراطور البالغ من العمر ٢٣ سنة لم يهتم بهيلينه واختار اختها إليزابت التي كانوا يدللونها باسم سيسي Sisi ، أو زيسي وكانت في الخامسة عشرة، وصمم على اختياره، ولم يسمع لاعتراض أمه، وفرض إرادته عن إعجاب بجمالها، ولعله أرضى غروره عندما فاز بما لم يفز به الآخرون. وأقيم الاحتفال في العام التالي في ڤيينا، وودعت إليزابت الأهل والصحاب والخدم في ميونيخ بعيون بللتها الدموع. ولم يشأ أن يتيح لها أن تعيش على سجيتها البسيطة العاطفية الحساسة. وهي قد حققته له حلمه فولدت له ولي العهد وثلاث بنات. ولكنها كانت تعاني في قرارة نفسها من زواجها من الرجل الذي كان المتوقع أن يتزوج أختها، وتضافرت عوامل متعددة زادت من إحساسها بالغربة، فخالتها أم الإمبراطور كانت تحمل شيئاً في نفسها لرفض ابنها اختيارها وزواجه بهذه رغماً عنها. وكان الإمبراطور يعاملها بالصرامة التي يعامل بها الرسميين في إمبراطوريته، حتى إنه فصل ابنها عنها ونشّأه ليكون ولي العهد، فلم لم يكن يفهم إلا شيئاً واحداً هو مصلحة الإمبراطورية والحفاظ عليها أياً كان الثمن.

ويقولون إن إليزبت سهلت له صداقة بالممثلة كاتارينا شراط Katharina Schratt التي ظلت رفيقته حتى مات، وكان بعد موت زوجته مقتولة يلتقي يومياً بكاتارينا شراط، التي قالوا عنها إنها كانت صديقته الروحية. ولم تذكر كاتارينا أي شيء عن حقيقة علاقتها بالإمبراطور، وقد أتيحت لها فرص الحديث مراراً، فقد عاشت حتى عام ١٩٤٠، وتوفيت في السابعة والثمانين. وكتبت حول قصة الإمبراطور مع إليزابت، وقصته مع هذه الممثلة الروايات. ومن الطريف أن «الكاتب الاجتماعي والروائي الشهير» نقولا حداد ألف رواية تتناول هذه القصة هي رواية «فاتنة الأمبراطور.. فرانسوا جوزيف امبراطور النمسا السابق وعشيقته كاترين شَراط» «عني بنشرها يوسف توما البستاني، صاحب مكتبة العرب». ويبدو أن هذا الأديب المنفتح على العالم، لم يكن يهتم بقصة الإمبراطور في إطارها النمساوي فحسب، وإنما كان يهتم بها على مستوى القضايا العامة، وعلى مستوى مصر . يقول في مقدمته :«إذا لها الحكام بشهواتهم وتمادوا في بذخهم وترفهم شقي الرعايا وتعسوا تحت نير أولئك الحكام. فلا تلم الجمهور إذاً حين يغضب غضبة الحنق والحقد...الخ».

والذين كتبوا عن إليزابت تحدثوا عن محنتها بين ميلها إلى الانطلاق واضطرارها إلى الخضوع للبروتوكول، وتحدثوا عن حزنها على تربية ابنها بعيداً عن تأثيرها، ثم عن حزنها عليه عندما انتحر، وأخيراً عن موتها في عام ١٨٩٨ ضحية ضربة خنجر من فوضوي إيطالي، لم يكن أصلاً يقصدها.

ومن القصص التي تركت صدى بعيداً في الأدب والفن في النمسا أولاً وفي العالم بعد ذلك قصة انتحار الأمير رودولف، ولي العهد، مع عشيقته في مايرلينج، غير بعيد عن ڤيينا، في قصر للصيد، في عام ١٨٨٩، ليضع نهاية لقصة غرامية يائسة، وكان في الواحدة والثلاثين من عمره، وكان متزوجاً من أميرة بلچيكية هي الأميرة شتيفاني. وقد دخلت قصة انتحار هذا الأمير العاشق في سجل موضوعات العشاق التي تناولها الأدب وعرضتها السينما.

وبموت ولي العهد ابن فرانتس يوزف وإليزابت - الذكر الوحيد - انتقلت ولاية العهد إلى فرانتس فرديناند الذي قتل في سراييفو وكان مقتله الشرارة التي أشعلت نار الحرب العالمية الأولى، وسددت إلى الإمبراطورية النمساوية الضربة القاضية، فقد انتهت الحرب العالمية الأولى بكارثة محققة حيث فقدت النمسا جُلَّ أراضيها، إلا ما اعتبر بمثابة ترابها الوطني بالمعنى الضيق. ووزعت أراضي الإمبراطورية الواسعة، فمنها ما استقلت به المجر، ومنها ما آل إلى إيطاليا وما أخذته الدول الجديدة : پولنده ويوغوسلافيا وتشيكوسلوڤاكيا. وصحا النمساويون بعد الحرب على عظمة زالت، وقوة أدركوا زيفها، ووجدوا أنفسهم فريسة الضياع والتمزق والجوع والبطالة.

ونشطت الأحزاب والتجمعات السياسية في محاولة لرسم صورة النمسا الجديدة، هل تكون متصلة بألمانيا، أم تكون مستقلة عنها. من الأحزاب ما كان تقليدياً، ومنها ما كان متطرفاً لا يتورع عن العنف. بل إن الأحزاب المختلفة كونت لها أجنحة عسكرية كان لها دورها في تصعيد العنف. ومن الحركات التي كثر الحديث عنها حركة الديموقراطيين الاجتماعيين التي انطلقت من آراء لاسال في العدالة الاجتماعية، ثم أدخلت عليها في مراحل مختلفة مباديء الشيوعية أو الاشتراكية القومية أو الاشتراكية المعتدلة. وفي مواجهة الحزب الاجتماعي الديموقراطي، كان هناك الحزب الاجتماعي المسيحي. وتكتمل الصورة السياسية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى بدعوة القومية الألمانية أو الحزب القومي الألماني وهو أقرب الأحزاب إلى النازية فيما بعد، ومن البديهي أن المشكلة الاقتصادية كانت بالغة العنف نتيجة لويلات الحرب والتفكك والانكماش والصراع السياسي، والجوع والبطالة. ولكن الجمهرة المتعقلة استطاعت أن تضع دستوراً صدر في عام ١٩٢٠ و ظل هو دستور النمسا إلى الآن، وإن دخلت عليه بعض التعديلات، وتعطل إبان محنة النازية.

ويصور هايميتو فون دودرر ما شهده الشارع من صراع بين القوى السياسية المختلفة التي لجأ المتطرفون والديماجوجيون فيها إلى كل الوسائل للقفز إلى السلطة، ويصف إضرام النار في سراي المحكمة، وهي واقعة تاريخية حرص على تسجيلها، في نص اعتمد فيه على وسائل فنية كتعددة منوعة من حِرْفية القص. فالراوي يصف ما يرى، وما يظن أن يراه، وما يسمعه، وما لا يسمعه، ويتنقل بين القريب والبعيد، وبين العنصر المنفرد والصورة الشاملة. ويستخدم التلميحات الاستعارية والرمزية، ومنها اللون الأبيض واللون الأحمر وهما رمزا النمسا، ويجعلهما يعبران عن اللبن والدم أيضاً.

هذه الأحداث التي يصفها النص هي أحداث عام ١٩٢٧ التي تمثلت في تصادم بين جماعة تابعة للحركة اليمينية المتطرفة، حركة الجبهة - اتحاد مناضلي الجبهة، ومجموعة تابعة للحركة الديموقراطية الاجتماعية - رابطة حماية الجمهورية، في بلدة شاتيندورف الصغيرة، وأطلق بعضهم النار ومات اثنان. وعرضت القضية على المحكمة في يولية ١٩٢٧، وكان المتهمون الثلاثة من الجبهة اليمينية المتطرفة. وأثار الحكم النفوس في ١٥ يولية، فسارت المظاهرات في ڤيينا، بغير تدبير، وتطور الأمر إلى حرق سراي المحكمة ومكتب تحرير جريدة رايشپوست المسيحية الاجتماعية. ومنع المتظاهرون المطافيء فأطلق البوليس النار وسقط ٨٩ قتلى، ومابين ٦٠٠ و١٠٠٠ جرحى. وقد استتبع هذه الأحداث تزايد نفوذ الحركة الفاشيستية .

كان الحزب النازي بزعامة هتلر قد تمكن من عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٣٣ من التأثير على جماهير غفيرة في ألمانيا والاستيلاء على الحكم، وبدأ في تنفيذ مشروعاته في إنشاء الرايخ الثالث وفرض سيطرة الجنس الآري ومد حدود الرايخ الألماني للهيمنة على العالم. واستخدم الحكم النازي كل وسائل القهر والقمع، واستحل كل وسائل الدعاية الديماجوجية والتهديد والتآمر، وما زال يلعب بالنار حتى نشبت الحرب العالمية الثانية. وحدث عن أهوالها ولا حرج. وكانت النمسا على رأس أهداف النازية، حيث تكون فيها حزب نازي يأتمر في الخفاء ثم في

العلن بأمر هتلر. في عام ١٩٣٤ حاول النازيون النمساويون القيام بانقلاب، وهجموا على المستشارية وقتلوا المستشار، رئيس الحكومة، إنجلبرت دولفوس . وخلفه كورت شوشنيج الذي لم يستطع الوقوف في وجه ضم ألمانيا النازية للنمسا فيما سمي بالأنشلوس. ووصف الكتّاب فيما وصفوا الظروف التي تم فيها هذا الضم، وكيف عبرت القوات الألمانية الحدود في ١٢ مارس ١٩٣٨، وكيف صدر قانون الضم في اليوم التالي، ثم أجري استفتاء في ألمانيا والنمسا في ١٠ أبريل ١٩٣٨ على الضم، وقسم الحكم النازي النمسا إلى أقاليم جديدة، وأنشئت معسكرات الاعتقال للمعارضة السياسية ولليهود . فلما بدأت الحرب في سبتمبر ١٩٣٩ جند النمساويون فيها مرغمين، وتكونت في النمسا حركة مقاومة قمعها الحكم النازي بكل عنف. والمعروف أن الحرب انتهت عندما التحم الجيش الروسي مع الجيش النازي في شرق النمسا وحسم المعركة حول ڤيينا في ١٣ أبريل ١٩٤٥. وعاش النمساويون على أية حال بين النازيين والروس وقتاً صعباً يصف الأدباء والشعراء أمشاجاً مما جرى فيه من اغتصاب وقتل وتعذيب، وما استرسل البعض فيه من سرقات واضطهاد للأجانب وتعقب للمتعاونين مع العدو أو الضالعين بالمقاومة.

وبدأت بعد الحرب مرحلة قاسية أخرى، «مرحلة ما بعد الحرب» أو البداية من الصفر، أو السنة رقم صفر. لم تكن فقط فترة تضميد الجراح، ومحاولة استيعاب الأحداث الجارفة وفهم ما يتجاوز الفهم، وإعادة النظر في القيم، وتحديد الهوية في الظروف الجديدة، والبحث عن مقومات الحياة، وفهم الذات وفهم الآخرين، وبناء الحضارة من جديد، والتماس موضع من التاريخ يصل الإنسان فيه الحاضر بالماضي ويتجاوز الزمان المرفوض.

لم يكن بد من إغلاق صفحة الإمبراطورية الغاربة، وصفحة الوحدة الألمانية والحرب، والبدء من جديد. وكانت نقطة البداية الجديدة تتمثل في توقيع اتفاق الدولة في ٢٦ اكتوبر ١٩٥٥ وبه عادت النمسا فأصبحت دولة ذات سيادة قررت أن تلزم الحياد إلى الأبد.

والموضوعات التاريخية تتخذ في عالم الأدب مواضع مختلفة، فقد تكون هي الموضوع الأساسي للنص، وقد تكون الخلفية التي ترتسم وراء أحداث أو سياق أو معالجة، وقد تكون جزءاً من نسيج متشابك. وإذا كانت شاعرة مثل إنجبورج باخمان تعالج موضوع الموت في شعرها وفيما أتمته من ثلاثيتها القصصية، فهي تتحرك في إطار خبرات الحرب وما بعدها، فخبرات الحرب وثيقة الاتصال بالموت. ولكن الشاعرة تعمقت موضوعها من نواحيه الفلسفية والدينية والسيكولوجية والفنية، فأصبح اهتمامها في سنوات النضج متجهاً إلى أنواع الموت. وهي في روايتها التي لم تكتمل والتي تدور أحداثها في مصر تأتي بالشخصية الرئيسية في روايتها إلى مصر لتبحث عن قبر أبيها الذي سقط في معركة العلمين، ولكنها في الوقت نفسه تهتم بالموت في تصور المصريين، وبخاصة المصريين القدامي. ويبدو أنها كانت تبحث عن هذا النوع من الموت الذي يرتبط بالسكينة وبالخلود، هذا الموت الذي تقوم بينه وبين الحياة علاقة أخوة وتكامل. وربما قارنت بين هذا النوع من الموت الذي يتصوره البعض من قبيل الفناء ويخافونه ويعانون منه ويعيشون حياة بين اليأس من حياة تنتهي إلى موت لا قيامة بعده، والاندفاع إلى الخلاص من اليأس. ومن هنا كانت خبراتها في مصر في إطار البحث عن معنى الحياة والموت.

والبحث عن معنى الحياة موضوع محوري في الأدب النمساوي الحديث. وربما احتاج الأديب إلى تغيير المنطلق الذي ينظر منه، أو إلى عرض أشكال مختلفة، أو متضادة حتى يعمل العقل على الاختيارمن بينها. فقد يذهب الأديب بموضوعاته إلى بلاد الشمس التي تصبغ فيها الشمس البشرة بالسمرة وتملأ القلب بالدفء، ليرى تأثيرها عليهم. أو قد تخرج من البحر جنية تختلط بالبشر وتتعلم لغتهم فتكتشفه ما فيها من زيف، وتعود من حيث أتت.

أو قد يعود الأدباء إلى تراث كافكا، فيخلطون الأوراق لتعبر عن الحياة التي اختلطت فيها القيم، فلا تكون المستشفى مستشفى، بل تكون مصنعاً، يتعامل فيه الأطباء مع المرضى، بل مع أنفسهم وأهلهم، تعامل الإنسان مع شيء لا حياة فيه، ولا قلب له.

و"الكلمة" موضوع محوري، وربما قامت القصيدة أو القصة كلها على الكلمة ماذا تعني، وإلى أي نتيجة تؤدي، وكيف تزيف، وكيف تحترم، وكيف ترتبط بكيان الإنسان ومعنى حياته ومستقبله، فتبلغ به السعادة أو تتردي به إلى الهاوية.

وعلاقة الانسان بما حوله، وخاصة بالحضارة من موضوعات الأدب النمساوي الحديث المتكررة. فقد تطورت الحضارة وأجابت عن الكثير من الأسئلة، ولكنها طرحت الكثير من الأسئلة الجديدة، وأعادت طرح الكثير من الأسئلة القديمة. هل هذه هي السعادة التي كان الإنسان يحلم بها؟ هل يجد الإنسان الأمن في المدينة الكبيرة التي تعتبر من أهم إنجازات الحضارة؟ هل أفسد الإنسان الطبيعة؟ هل حققت التجارب الجديدة لإنشاء أنماط جديدة من الحياة هدفها؟ ألم يؤد قتل الإنسان للطيور إلى قتال الإنسان لأخيه الإنسان في النهاية؟

ومن هنا يهتم الأديب بموضوعات تدخل في نطاق الإديولوجيات، والأديان، وليس من شك في أن الدعوة إلى التسامح وإلى فهم الآخرين تتصدر الموضوعات التي يدعو إليها الأدب الحديث فيما يدعو إليه من موضوعات الحرية والسلام . وفهم الآخرين يتطلب فهم الذات، ومن هنا كانت أهمية التعمق السيكولوجي للمشكلات وإن اتسم في كثير من الأعمال النمساوية الحديثة بسمة العنف والقسوة والمبالغة في تصوير الحالات المتطرفة.

ومن النصوص ما قد نجد صعوبة خاصة في فهمه لارتباطة بمجال فني معين كتلك القصة التي كتبها جراتسييللا هلاواتي «جدران رقيقة». موضوع القصة في حد ذاته ليس صعباً فهو يتصل بمشكلات الحياة في المدينة. ولكن الصعوبة تبدأ عندما تحاول الشخصية الرئيسية الفرار من هذا المناخ الضاغط إلى عالم جميل، هو عالم الرسم. وهي تقوم برحلات في خيالها مع الرسامين الذين أحبت لوحاتهم، وتتناول لوحات بعينها للرسامين الكبار من أمثال ديلكروا وسيزان ومونيه. ويحتاج الفهم الدقيق للنص أن نعرف هذه اللوحات حتى نرى في مخيلتنا العنصر التي تتحدث عنها. إذا كنا نجد في بعض النصوص، مثل قصائد پاول تسلان قرابة بين الشعر والموسيقى من حيث التفصيلات الفنية الحرفية، فإننا نجد في هذا النص قرابة رائعة بين

الأدب والرسم، وألفة بين الفنين. وكأني بالأديبة تعالج . ليس الموضوع التلوث السمعي للبيئة، ودور الفن في مساعدة الإنسان على احتمال القبح والمعاناة ؛ وكأني بها تقدم إلينا نموذجاً عن تكامل الفنون، حيث تدخل الموسيقى والرسم في فن الكلمة.

ولا بأس بأن يطالع القاريء سطور التعريف بالأعلام وأعمالهم، وقد ترجمنا عناوين الكتب إلى العربية حتى نعطي فكرة انطباعية عن موضوعاتها. ونلاحظ أن الأدب يجتذب الرجال والنساء على السواء، وأن الأدباء والشعراء ينتمون إلى كل الطبقات الاجتماعية، وأنهم درسوا مختلف الدراسات واحترفوا كافة أنواع الحرف، ربما مارسوها إلى جانب الأدب وربما قصروا نشاطهم على الأدب وعاشوا «كتاباً أحراراً» وهي إطلاقة تعني أنهم يعيشون من أقلامهم.

ولعل القاريء عندما يفرغ من قراءة الكتاب يجمع في مخيلته وشائج الصورة النمطية للنمسا، بمعالمها الطبيعية والثقافية التي تجذب السياح، وبارتباطها بالقوميات والبلدان المحيطة بها، وبحب أهلها الفنون والمهرجانات، حتى كأن بلدانها متاحف حية حافلة بالروائع في كل الفنون. وأهلها رقت طباعهم وعذبت لهجتهم بما يحملون من تراث عريق، وبما يتسمون به من سماحة وعبقرية وتواضع.

مصطفى ماهر

القاهرة في مطلع عام ١٩٩٤

فرانتس تيودور تشوكور

Franz Theodor Csokor

كل قلب لا يسمع إلا نفسه

Jedes Herz hört nur sich

هي هنا وحيدة كعهدها وسط الشبورة الخريفية التي تميل إلى الصفرة عندما ينتصف النهار. ومن تحت نافذة حجرتها في الفندق تموج المدينة المحيطة بخليج يرسمه نهر الرون Rhône، مطلة على بحيرة كانت تحب شجاها المهيب[1] .

والحق أنها لم تكن وحيدة كل الوحدة، فقد قرأت لتوها كتاب الأغاني الذي نظمه شاعرٌ[2] لاكت سمعته الألسن، وكانت هي تكن له التقدير أعظم التقدير، فقد كان متمرداً مثلها ، وهب أرق أشعاره وأكثرها مرارة إلى ذلك الشعب الذي نبذه نبذ الغريب المزعج، ولقد ظل الشاعر غريباً مزعجاً إلى يومنا هذا ، بعد مرور نصف قرن على وفاته في باريس . أنكره هذا الشعب [الألماني] على الرغم من أن بعض قصائده تلوح كأنها انبثقت عن حلم هذا الشعب، هذا الشعب العجيب، الذي يتصور نفسه جديراً بسيادة الدنيا تارة، وتارة يرتاب في صميم كيانه

١) جينيف

٢) المقصود الشاعر هاينريش هاينه Heinrich Heine ١٧٩٧ - ١٨٥٦ صاحب «كتاب الأغاني».له كتابات نقد فيها الألمان نقداً لاذعاً أثار موجة من الاستنكار؛ كذلك لا تخلو كتاباته عن اليهود من بني جلدته من السخرية .

. كان شاعرها المفضل الذي ينتمي أصلاً إلى أمة أقدم تاريخاً من الشعب الذي اندمجت فيه، وأشد منه انشقاقاً، يعبر عن تعلقه بالشعب في سخرية مهينة ولكنه كان على الرغم من ذلك تعلق حنين وشجن .

كذلك كانت هي وظلت أجنبية غريبة على شعب زوجها[٣]، منذ أخذوها من هضبتها الباڤارية الألمانية ذات الكنائس البهيجة، وأسكنوها عاصمةً [ڤيينا] لم ترضخ إلا مؤخراً بجهد شاق عسير، تتنقل حائرة فيها بين القصر الشتوي في صرح البورج Burg الكئيب، والقصر الصيفي في شونبرون Schönbrunn، ومدينة إيشل Ischl الراقدة بين جبال دكناء، إن لم تتركها جميعاً وتستجيب لنازع الرحيل إلى بلاد اليونان فتلم بجزيرتها الهوميرية أو تأتي كما فعلت في هذه المرة إلى سويسرة . ولم يكن زوجها يأخذ عليها وحدتها أو يمسها، فقد كان هو الذي اختارها ضد إرادة أمه، وكان عليها أن تعاني معاناة بالغة العسر نتيجة لقراره هذا الذي استطاع أن ينفذه . وهو لم يقترب منها قط إلا فيما أسماه من وجهة نظره الحب ولم يكن من وجهة نظرها وإحساسها هي إلا خطيئة حللتها أسرار الكنيسة . ليس من شك في أنه فهم هذه العلاقة على نحو مختلف، وتولد عنها ابنٌ أنجبه الواجب لا الدم، وشب هذا الابن[٤] من أجل الهدف الذي حدد له، ليكون وريثاً للعرش، وأبعد بالشك والارتياب بعيداً عنها، أو لنقل إنه مات ضحية هذا الهدف، لأنه كان هو أيضاً متمرداً مثلها، وهكذا كان في فطرته ابنها حقاً وصدقاً، لا ابن الزوج المدقق في كل الأمور، الذي أضجرها بقلقه عليها فأمدته هي بصديقة روحية، حتى تفرغ لنفسها وتعيش بجانبه وحيدة في عزلة .

---

٣) الأميرة إليزابت الألمانية الباڤارية

١٨٣٧- ١٨٩٨، زوجة الإمبراطورالنمساوي فرانتس يوزف الأول . وتتناول القصة هنا وقائع تاريخية، وبخاصة اغتيالها . وكانت أم الإمبراطور فرانتس يوزف، الأميرة صوفي، قد رتبت الأمور ليتزوج ابنها من هيلينه أخت اليزابت - التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها - ولكن فرانتس رأى إليزابت فبهره جمالها وقرر أن يتزوجها، ولم يسمع لاعتراض أمه، ولم يأبه بمشكلة تفضيل الأخت الصغرى على الأخت الكبرى التي كانت تعلم بأن الأمبراطور أتى ليخطبها . وقد أثقلت على حياتها مع الإمبراطور ظلال هذه الأحداث .

٤) رودولف، ولي عهد النمسا، ابنها من الإمبراطور فرانتس يوزف، ١٨٥٨ - ١٨٨٩، قتل حبيبته- البارونة ماري ڤيتسيرا - ونفسه بالرصاص .

وظلت عشرات السنين متمسكة باتفاق لم يعلن على الملأ، فساندت حرص زوجها على أن يقدم للإمبراطورية زواجهما من حيث هو المثل والقدوة . كانت تلك الإمبراطورية قد هبت عاصمتها ثائرة على زوجها، عندما أنكر أنصاره على عمه الحق في التاج، ووضعوه على جبينه : وكأنما حمل مع التاج عبئاً دامياً . ولكن هذه الأحداث عفا عليها الزمن وأصبحا . هو وهي، كل بذاته أسطورة لدى الرعية ...

وهذا هو الصخب الصاعد من الأعماق تخبو حدته . لم يعد هناك شيء يعكر صفو الذكرى . كان موت الابن قد قربهما بعضهما من البعض بطبيعة الحال، فلم يكن في مقدور واحد بمفرده احتمال نازلة لا يحتملها إلا الأبوان متضافرين، على أن الأب، وإنْ غشاه موت الابن بظله الحزينة، لم يفهمه حق الفهم قط، أما هي فقد زادها هذا عذاباً : لقد أخذها هذا الأب ذات يوم حبيبةً شابة مخلصة إخلاصاً بغير حدود، بعد أن تحطمت مخططاته الهادفة إلى جعل وطنه بما يضمه من إحدى عشرة أمة الخط الأساسي لبناء أوروبا الجديدة .. عجيب أنها اليوم بالذات لا تفتأ تذكر هذه الأحداث وتذكر [ابنها] رودولف Rudolf ! كان المجر المخلصون يحلمون هذا الحلم ويتمنون انتخاب رودلف ملكاً عليه . حتى ضد إبيه نفسه . وتعود ذاكرتها إلى الوراء متحسسة خطاها إلى الأعماق : لقد حكوا لابنها وهو بعد صبي عن تمرد المجر على زوجها الذي فرضته أمه عليهم قيصراً، ووصفوه بـ «الصغير » ... وكان في أيام الخطوبة يوقع خطاباته إليها بـ «صغيرك» ... وهي تذكر أنها عندما كانت بنتاً صغيرة بكت بكاءً شديداً عندما تلقت خبر فشل الثورة التي اندلعت على ضفاف الدانوب، وانعقاد محكمة (أراد) Arad التي حكمت بإعدام جنرالات الحرية وأمرت، إمعاناً في امتهانهم، بأن يعلقهم الغجر على المشانق .. وما مرت ستة أعوام حتى كان الرجل الذي وقع على هذه الأحكام يقف بجانبها أمام الهيكل ليعقد قرانهما . وهي ماتزال ترى في ذاكرتها الفندق المطل على نهر تراون في مدينة إيشل حيث تمت الخطوبة، ثم عقد القران في كنيسة الأوجوستينركيرشه في ڤيينا، حيث يحفظون قلوب آل هابسبورج، يا لها من عادة همجية تذكر الإنسان بعادات قبائل الزنوج

الهمجية ! هذه هي (صوفي)، التي كانت قد اختارت لابنها أختها، ستصبح في المستقبل حماتها، وستكون العدو اللدود . وهي تذكر كيف أثار خطيبها استياءها بكبرياء فج من قبيل كبرياء العيال متفاخراً بأنه استولى عليها ضد إرادة الآخرين . رباه، كان هذا هو النصر المؤزر الذي حققه، بعد مرور ست سنوات على سقوط المئات صرعى، أو موتهم على المشانق لا لذنب إلا المطالبة بالحرية التي لم يكونوا يعلمون عنها شيئاً اللهم إلا أنها تختلف عن كل ألوان الحياة التي عاشوها حتى اليوم . وأقرب الظن أن كل طالب، وكل عامل في تعبيد الطرقات اشترك في ثورة المجر وڤيينا كان يشعر آنذاك في سعيه إلى الحرية بأنه أسعد من الرجل الذي خسر حربين، وقعد بين قبر أخيه وقبر ابنه، يتوقع بجانبها في وهن وشيخوخة مِيتَةً لا روعة فيها ولا عظمة تبقى على الزمن .

أما هي فلم تشعر في نفسها حتى ذلك الحين روح الاستسلام التي تجعلها تنتظر الموت انتظار الأعزل الذي أحيط به، بل كانت ترى أن وجود الإنسان لا يحسب بالسنوات فحسب، بل يحسب بقدرة الإنسان على ملء هذه السنوات أو تضييعها . وهي تعترف لنفسها بأنها لم تفتقر إلى الخيال الخلاق الذي يمكنها من ملء حياتها، وابتسمت . وهي تعرف حق المعرفة أن ابتسامتها الخلابة التي تنبثق عن ينابيع جسدها الذي روضته كما يُرَوَّض فرس الخيّال، تخلب لب مَنْ حولها، خلبت لب هذا الذي سمّى نفسها «صغيرها»، وفتنت من قبله لودڤيج[٥]، ابن الخال الباڤاري البائس، الذي غرق في بحيرة شتارنبرج، وكأنما التمس في قاع البحيرة ساتراً يحميه من الحياة التي لم يَقْوَ على الإمساك بزمامها، وكانت تكتب إليه خطابات مفعمة بغنائية الصبا، تلهج فيها بمدحه، فهو «النسر» تارة وهو «الأسد الهصور» تارة أخرى .

٥) لودڤيج الثاني ١٨٤٥- ١٨٨٦، ملك باڤاريا، عرف بإغراقه في الأحلام والخيالات، ووصفوه بالرومنتيكية، أغرم بالموسيقى وخاصة بريشارد ڤاجنر الذي عضده بلا حدود، وأغرم بالعمارة وبنى القصور الفريدة، وأنفق على هواياته ما خرب الخزينة وحملها بالديون الثقال، فعزل عن العرش، ومات غريقاً في بحيرة شتارنبرج، ربما ضحية دسيسة .

وكانت على يقين من أن الرحلات هي أفضل وسيلة للتصدي للشيخوخة، ولهذا قامت بهذه الرحلة، كما قامت بالعديد من قبل، حتى تشبع حياتها بالجديد من الصور فتطيلها عشرة أضعاف . وهي في هذه المرة لم تذهب إلى القصر الحزين في جزيرة كورفو اليونانية، بل استصدرت جواز سفر باسم مستعار، البارونة فلانة، بعلم البوليس السري، وأتت إلى هنا في سويسرة، حيث الناس سواسية، لا يعلو أحدهم على الآخر . وودعها زوجها الصموت في محطة السكك الحديدية بإيشل، ونظر إليها نظرة وداع فيها توسل خفي بأن تفيء عليه بآية من الحب، فلم تستطع أن تحقق له هذه الرغبة . وفرضوا عليها بارونةً تكون مرافقة لها، سيدة تذوب أدباً واحتراماً، ولا تسبب لها إزعاجاً . وهذه هي البارونة تعطيها من خلال الباب إشارة بأن الوقت قد حان لتذهب إلى الباخرة التي تحملها إلى تيريتيت Territet على صفحة مياه زرقاء بلون الصلب تنتهي ناحية الجنوب بتاج ثلجي، يقوم على سُدَّةٍ من السحاب، على جبل مونبلان، ذلك هو التاج الوحيد الذي تتمنى أن تحمله على رأسها الذي تحمل فوقه تاجين تاج النمسا وتاج المجر، بل تحمل تاجاً ثالثاً خفياً منسوجاً من الأحلام والدموع لا يعلم به حتى الآن إنسان سواها ...

وهذا هو الرجل الذي يلبس السويتر الداكن والسترة المزيتة يرسل من فوق المياه الزرقاء بلون الفولاذ بصره بنظرات ثاقبة من عينين قاسيتين باهتتين، له شارب ضامر فوق فم ضخم الشفتين . تصور هذا الرجل أن النظرات التي يعْبُر أصحابها بها عليه عبوراً تقول : «لعله عامل إيطالي من هؤلاء المتطفلين الذين يأتون إلينا هنا فيعملون بأجر منخفض يهبط بمستوى أجور عمالنا » . وكان بين الفينة والفينة يختلس نظرات إلى بوابة الفندق الذي اعتاد أن ينزل فيه الرجل الذي كلفته رئاسة الحزب[٦] باغتياله لأنها قررت أن تقتل أميراً فينبه موته إلى

٦) دعت الفوضوية الشيوعية، ويمثلها باكونين وكروبوتكين إلى شيوعية الملكية وأباحت الاغتيال والتخريب وسائل لتحقيق الهدف . وميخائيل ألكسندروڤيتش باكونين Bakunin كاتب روسي ولد في عام ١٨١٤ ومات في عام ١٨٧٦ . والفوضوية ترد مبادئها إلى مفكرين متعددين منهم ماكس شتيرنر Max Stirner ١٨٠٦ - ١٨٥٦ وهو فيلسوف ألماني صاحب مذهب يقوم على الفردانية المتطرفة ويرى أن حقوق الفرد هي الأساس الأول والأخير، أما الدولة والمجتمع والأخلاق فتخضع في مذهبه للفرد.

وجود هذه الجماعة الصغيرة العنيدة، التي تختلف في رأيها عن كارل ماركس Marx وأوجوست بيبل Bebel في أنها ترفض الحكم بكل أشكاله، وفي أنها تؤمن بأن الذي يقدر على تغيير العالم ليس بيت مالك ولا رئيس جمهورية من عامة الشعب، إنما الفرد والفرد وحده هو الذي يستطيع تغيير العالم . وهو يؤمن بهذا الرأي منذ الثالثة عشرة من عمره إيماناً عوضه عن الأب والأم اللذين لم يرهما فقد ماتا وهو بعدصغير، فما يعمِّر من يعمل في المناجم، وهو قد شب في ملجأ الأيتام الذي يمرح فيه البق في القرية الصغيرة، مسقط رأس الأبوين، في منطقة الباسّا Bassa أشد ربوع إيطاليا فقراً . فلما دخل المدرسة لم يلق فيها إلا التوبيخ والنهر والضرب . أما الكنيسة فلم تكن تعني بالنسبة إليه شيئاً، فهي من أجل الأغنياء دون سواهم، مثل هذه القصور التي تحف بهذه المياه، لتجعلها بحيرة من أجل علية القوم . حتى الأرض تنظر إلى أمثاله شذراً، ففي هذه الجمهورية التي تغص بأصحاب الكروش ليست الأرض سواسية للأهلين جميعاً، كما هي الحال في بلاده التي يجرى فيها على بارونه في قصره المرمري الصغير عندما يتفجر الفيضان في الربيع ما يجرى على مستأجري أراضيه وعماله الحرفيين الذين يعيشون على خيره، البارون أيضاً يقعد فوق السطح عندما يرتفع الفيضان . أما هنا فالجميع يعملون ما يطيب لهم، وهو العامل الحجّار يعبِّد الطرق التي يحلو لهم أن يدهموا عليها أمثاله بعرباتهم. وعلى الرغم من ذلك فقد رضي بالحضور إلى هنا والعمل أجيراً، ففي وطنه بؤسٌ لا يجد الإنسان فيه خبزاً، ولا يجد عملاً، ورجل الشرطة الكارابينييري يضرب على يد كل من تسول له نفسه الثورة . أما هنا فالاشتراكيون على الأقل يرعون الإنسان عندما تسوء أحواله . إنهم هنا من هذه الناحية متقدمون على پارما، ولكنه يرفض هذه الرعاية بالنسبة لنفسه، فهو يود أن يبقى مستقلاً وحيداً، كما كان دائماً .
اختل الميزان في الدنيا كلها، العنيف يدوس الضعيف، والصراع الطبقي لا يفلح معه إضراب. سينتهي الصراع نهاية مبرمة عندما يناط كل شيء بالفرد وحده دون ما عداه، هذا ما يدعو إليه باكونين وماكس شتيرنر الألماني، وهذا ما شرحه له رفيقه السويسري .. عليه تنطبق تماماً العبارة التي حاول أن يفك رموزها عندما وجدها منقوشة على قاعدة مقبرة قامت عند

جسر الروم على مشارف قريته، ترجمها له القسيس : « Alterius non sit qui suus esse potest » «من يملك نفسه، لا يليق به أن يصبح مِلكاً لغيره» بهذه العبارة المُحكمة كرموا محارباً قديماً سقط في معركة حول الجسر، واعتبروه «بطلاً» كما قال القس بصوت محزون مخنوق، ولكنه كان بطلاً . ولقد ذهب هو وحده إلى هذه المكان، دون رفقة أو صحبة، فما كانت نسوة من أقارب الميت يأتين يوم الأحد هناك لزيارة المقبرة وإزعاج الميت في قبره بولولة دنيوية . ومن البديهي أن النسوة لم تجد سبيلاً إلى استهواء هذا الرجل الذي أخذ نفسه بمثل هذا المبدأ، ولم يستطعن الزج به في سجن الزواج الأبدي . إنما كان رفاقه الجنود هم الذين أقاموا له هذا النصب الحجري ونقشوا عليه هذه الكلمات . ساعة المرأة في الحب تقدم أو تؤخر، ولهذا لا تلتقي مع الرجل حيث ينبغي أن يتم اللقاء، بل لا تلتقي معه على الإطلاق عندما تسلك الأمور سبيل الجد . واصطنع ابتسامة : هل يمكن أن تسشف هاتان السيدتان الكريمتان المتقدمتان في السن اللتان تلبسان ملابس الحداد واللتان خرجتا لتوهما من بهو الفندق، ما يجول الآن بفكره؟ ولكن هذه الأمور مضى عهدها وانقضى زمانها بالنسبة إليهما، فمن هذا الذي يمكن أن يكون في انتظارهما ؟ أما هو فكان يعرف الشخص الذي ينتظره : الشخص الذي ينتظره اسمه الأمير هنري دورليان Henri d'Orléans ملك فرنسا غير المتوج !

وغدا تصدر الجرائد صارخة بالخبر، وستذكر اسمه أيضاً، هكذا يبرهن للناس أنه ليس عاملاً كادحاً مهملاً بلا اسم، وهو لا يوقظ المجتمع الرفيع المضعضع من نوم قيلولته باجتماعات جماهيرية حاشدة، بل يوقظه بضرب رؤسائه ضربة نافذة تصل إلى نخاع العظام، حتى إذا كان الرجل الذي اختاره مجرد أمير بوربوني يطالب بعرش فرنسا، فسيقدم على فعلته، فهو الذي عرض له، ولم يجد من هو أفضل. ولن يعاني الأمير طويلاً، فهذا الخنجر المثلث الذي يمسكه بيمناه مقبوضة متوارية في الكيس كفيل بإحداث نزيف داخلي كامل سريع . أما هو، فإلى أن يشعر المصاب بموضع الإصابة، سيكون قد بعد عن المنال، وسيكون قد أحدث في قصور الأمراء ودواوين الرؤساء فزعاً، ونكون نحن المهضومين الذين جُردنا من

حقوقنا ، قد أعطينا الدنيا إشارة بأننا يقظون وشغالون، لا عن طريق المظاهرات التي يمكن أن يندس فيها من يفرقها ، ولكن عن طريق فعلة ناجزة لا مرد لها ، يقوم بها فرد واحد يتكلف منا . ولن يؤدي هذا فقط إلى أن المجتمع سيذكرنا ، ولكننا سنبرهن للشيوعيين الحمر أن المستقبل ليس معقوداً لرايتهم، وإنما لراية حزب الفوضويين السوداء التي استعد هنا في هذه المدينة ليقتل من أجلها ، ولو دفع حياته ثمناً لها ، هو لويچي لوكيني Luigi Lucchcni ابن قرية بورجو سان دومينيو Borgo San Dominio القريبة من پارما ، الذي يهمل بنّاءً وحجّاراً .

ولكن أين تأخرت ضحيته التي علم أنها ستركب هذه السفينه ـ؟ ربما كان الأمير قد اعتلى السفينة، فهو قد عزم على عبور الحدود والذهاب إلى إيڤيان إلى كازينو القمار ليلعب الروليت؟ لم تتجه إلى المرساة والرصيف لركوب السفينة إلا هذه السيدة الرشيقة لابسة السواد التي انحنت لها مرافقتها وقدمتها على نفسها لتدخل قبلها من الباب الدوار، فتبعهما ، وبحث فوق السفينة عن الأمير المطالب بالعرش وكان قد حصل على وصف دقيق له . ونظر إلى الباخرة على صفحة الأفق، ما أشبهها بالنقطة الصغيرة ! ولقد أتيح له شيء من الوقت ليجمع شتات نفسه؛ رفاقه ينتظرون الخبر على الفور، وهو حريص على أن يرضوا عنه . فإذا قبض عليه فسيهلل لضربته القاتلة عند المثول أمام المحكمة، عندما يسأله القضاة عن الدافع الذي دفعه إلى ارتكاب فعلته، سيتاح له عندئذ أن يتكلم على النحوالذي يتمناه الحزب، والذي يتمناه قلبه الذي ظلمه النظام الإنساني القائم .

ستستقل إذن الباخرة، وستنزل إلى البر في تيريتيت، حيث تلقى أقارب للصديق الخالد من أبناء المجر لم يتخلوا عن منفى آبائهم، حتى ولا في الوقت الحالي بعد اتفاقية التسوية (٧) ، التي تدخلت بنفوذها للتعجيل بإتمامها ، والتي أتاحت لهم منذ عشرات السنين إمكانية الرجوع، ولكنهم لم يعودوا يحتملون الحياة هناك . فهم في منفاهم لم ينسوا وطنهم، بل احتفظوا جميعاً بأكياس صغيرة مملوءة بتراب من المجر حفظوه لينثر على نعوشهم إذا حان

حينهم في الغربة ودفنوا في تراب غير تراب وطنهم . وتعود بها الذكرى إلى تلك الأرض الذي كانت تأنس إليها أكثر مما كانت تأنس إلى مسقط رأسها، إلى تلك الرحاب المجرية الشرقية الشاسعة الممتدة امتداد الأحلام، التي شقتها طولاً وعرضاً على صهوة الحصان، وكانت تقف لتحادث الفلاحين في دواويرهم، أو تختلط بين قطعان الخيول عند مساقيها على آبار ضخمة في ربوع پوستا حيث كان شاطيء البحر في الجنوب يهتز متخفياً أحياناً على أفقها. لقد رأت هنا من النعماء والعناء ما قد لا يراه الإنسان في مكان آخر . وإنها لتذكر ذلك الراعي الذي مرت به عندما قبض على زوجته التي عجزت عن الفرار منه، وهم بضربها، فما كان منها إلا أن ضربته من فوق حصانها بالسوط على ظهره، فرفع قبعته عن رأسه وانحنى احتراماً وانصياعاً، فما كان ليسمح لنفسه بمثل هذه الضربة إلا شخص رفيع القدر . أما امرأة الراعي فقد أمسكت بلجام الحصان وصرخت فيها بألفاظ العيب والسباب؛ فأدركت أنه ليس هناك أمل في السعي لحماية إنسان من نفسه . فكيف تحمي هذه المرأة من نفسها ! كان ضرب زوجها لها يعني في تقديرها أنه يهتم بها. فما شأن هذه الفارسة الغريبة بها؟ فهما لم يعرفا من هي . فما كان منها إلا أن ألقت بالسوط ضاحكة إلى الراعي وقالت : « أكمل العلقة ! » واندفعت بحصانها الصاهل مسرعة إلى المروج اللانهائية التي أصبحت عالمها، عالماً بلا هدف، وبلا حواجز، فما كانت الحدود إلا من صناعة الإنسان، يضعها ليتحصن من ورائها، حتى لا تبلغه ولا تهاجمه إنسانية لا يدعها المرء تقترب منه إلا في تلك القوالب التي يحددها بنفسه، فما تجاوز هذه القوالب اعتبر شراً . ولقد صورت أخت جدة زوجها لنفسها أهل هذا العالم البسيط في صورة رعاة عاشقين، فما كان من الرعاة إلا أن قطعوا رأسها . أما زوج أختها ماكسيميليان[٧] الحالم الذي رحل إلى المكسيك لصالح فرنسا، وظن أنه المسيح الأشقر فقد

---

٧) إشارة إلى اتفاق التسوية Ausgleich الذي عقد مع المجر ١٨٦٧ الذي نشأت بناء عليه المملكة النمساوية المجرية .

٨) الأمير الباڤاري فرديناند يوزف ماكسيميليان (١٨٣٢ - ١٨٦٧) نصبه الفرنسيون عندما غزوا المكسيك امبراطوراً علي المكسيك في عام ١٨٦٤، ولكن سياسته أغضبت الامبراطور نابليون الثالث، امبراطور فرنسا فتخلى عنه، ولم يستطع قمع القلاقل ثم ما لبث أن وقع في أيدي أعدائه وقتلوه رمياً بالرصاص.

قتله المولدون بالرصاص . وابن خالها لودڤيج (٥) دفع به بلاطه إلى البحيرة وأغرقه في قاعها . ثم ابنها ...؟ لا تريد أن تسترسل في استعادة هذه الذكرى .. ولكن هذه هي النتيجة عندما يدع الإنسان الآخرين يفرضون عليه حرية من نوع استحسنوه عفو الخاطر دون تدبر . مثل هذه الحرية يهددها أشد التهديد أولئك الذين لا يعرفون ماذا يفعلون بها . علينا أن نمنحهم الحرية من تلقائنا، والحرية التي نمنحهم إياها تحتاج إلى سلطة تسهر عليها، ولكن هذه السلطة تتطلب منا أن نقوم جميعاً بخدمتها، أخدمها أنا ويخدمها أيضاً هذا الرجل النحيف الأعجف الذي يوحي وجهه الأسمر الذي لفتحه الشمس بأنه يعمل في تعبيد الشوارع أو في المناجم، وأنه قدم من الجنوب، وهو قد رمق الباخرة الآن بنظرته، وكأنما يريد أن يمسك بحبل المرساة، أم تُراه يتربص بعدو يريد أن ينقض عليه، أو حبيبة خانته، أوبالاثنين في شخص واحد ...؟ رباه، لكم بقيتْ رومانتيكية، تارة يسرح خيالها إلى أخيل وهاينريش هاينه. واليوم ..؟ وهذا شبح يبرز بجوارها له حفيف، يناديها فيردها إلى ذاتها .. إنها البارونة بطبيعة الحال .. أما يستطيع الإنسان أن يتحرك لحظة بين الناس غريباً بين غرباء؟ ما هو هذا الشيء المهم الذي دفع البارونة إلى النداء؟ الباخرة ..؟ ليكن .. إنها تتجه نحو الميناء، ولن يتأخر الوصول . مازالت الآلات ساكتة ولكن الباخرة التي تهم بالتحرك، إنها تتحرك محدثة صوتاً كصوت العض على النواجز، وتتهادى في تيار أحمر قاني، وكأنها تنزف دماً وتحاول بقوى خائرة أن تصل إلى الرصيف .. شيء عجيب . ولكن كيف يظهرهذا الضوء الأحمر الدامي في رائعة النهارالأبيض الناصع؟ إنه زَبَدٌ قذر يترجرج الآن على صفحة الماء، لا أكثر ولا أقل، لقد زاغ البصر، كما زاغ من قبل مرة في المجر على مشارف المروج، ورأت آنذاك شيئاً جميلاً، ولكن ما رآته الآن أبعد ما يكون عن الجمال .

هذا هو الرجل لابس السويتر يرصد طابور النازلين، من رجال وأطفال وربات بيوت يحملن الأسبتة، ثم تتبعهم فرقة صاخبة من ناد رياضي . أياً كان الأمر فلم يكن أميره الذي يتربص به بينهم. وغشته مرارة صعدت فاستبدت برأسه . إنه يتعقبه منذ أسابيع، وكلما اقترب منه،

أفلت . فأي خبر يزف إلى رفقائه، أم تُراه ينقلب إليهم خالي الوفاض؟ لقد خلا بهو الباخرة فتبددت إمكانية أن يكون على الباخرة، وهو لا يراه بين أولئك الذين يقتربون من المرساة . فهو إذن فاشل في هذه المرة أيضاً. وكل الجهد المبذول قد ضاع هباء منثوراً، سيعتبره الرفاق فشاراً غبياً، بَعدُ ولا ينفذ . ليته يلقى الآن شخصاً آخر، ليكن أقل درجة، جراف أو بارون.. ولكنه لا يرى شيئاً من هذا يستحق أن يمد يده إلى السكين من أجله، إلا هاتين السيدتين المتخفيتين في ثياب الحداد اللتين تعبران الطريق الممتد من الفندق؛ السيدة الأقصر قامة تقدم ذراعها إلى السيدة الرشيقة، وماذا تقول لها، هذه البلهاء، إنها تقول «يقيناً يا صاحبةالجلالة» .. هل أخطأ السمع؟ لا . لأنها تعود فترد على السؤال مكررة العبارة نفسها «يقيناً يا صاحبة الجلالة» .

ماذا دها هذا الشاب الذي بدا كالسكران، واندفع يعدو من شجرة إلى أخرى على طريق المرساة فاصطدم بها صدمة عنيفة، فوقعت على الأرض، فلم يساعدها على النهوض، بل ولى الأدبار؟ وبينما راحت رفيقتها تنفض غبار الطريق عن ثيابها، أحست هي بأن هذا الشاب الأرعن إذ صدمها قد ردها إلى ذاتها، وكأنها كانت شاكرة له . ما أشد القلق الذي استبد بها في هذه الأيام، ما أشد الحيرة المؤرقة التي تملكتها ولم تعرف ولا تخميناً ما استهدفته؟ الآن وهي تستكمل طريقها إلى المرساة تبين لها ما غمض عليها . هل كان هذا هو ما أفزعها ! كانت تبحث عن نفسها، هي في مسيرة الزمان القاسية . إنها ترى النساء بنات سنها من حولها يذبلن أو ينتفخن في بدانة تنطلق من عقالها، وكأنما كان الموت يريد أن يسمِّن ضحاياه قبل أن يطيح بهن؟ لا . لتعفها السماء من هذه البدانة، وظلت رشيقة القوام على الرغم من تقدم السنون، تحس نفسها قريبة الشبه بهذا النهار الخريفي الذي ينير ببريق حلو مثل يوم يمتد به الصيف ويزيد، ولكن هذا البريق لا يدوم للنهار الخريفي، ولا يدوم عليها . حتى قميص الجلد الضيق الذي لبسته ليضم جسمها ويقيم رشاقتها لن يحفظ عليها قدها . واحد فقط يستطيع أن يوقف زحف الشيخوخة .. ليس من حقها أن تنادي عليه أن يأتي . لقد رأت

جمجمة ابنها الحبيب رودلف مهشمة.. لا، ليس هذا هو السبيل . ولكن من إو ماذا ينقذها من نفسها ..؟ ولكن متى وكيف؟

الماء يصفق على السفينة التي صعدت الدرج إليها مترنحة، وهي تبتسم لرفيقتها وتقول لها : «لا . ليس بي شيء . لا شيء على الإطلاق .» ورأت البارونة تحملق فيها، وتفغر فاها لتطلق صرخة، ولكنها لم تسمعها .

في ضوء المصباح الكهربي الواهن كانت جمجمة الرجل تشبه كتلة من الرخام يبدو الجلد كأنما شد عليها شداً؛ تبرز من بين سماتها في حدة بالغة جبهة تعبر عن التهديد، من تحتها عينان مائلتان تعبُران مسرعة على الجريدة التي نشرت بالبنط العريض خبر الاغتيال على رصيف بحيرة چينيف والاعترافات الأولى التي أدلى بها الفاعل؛ وهذه هي لحية هذا القاريء الجامدة تتحرك مع القراءة كأنه يلوك لقمة مرة كل المرارة : « هذه الضربة التي شهدتها چينيف ستتجاوز أصداؤها الحدود؛ من حسن حظنا أننا لم نفرغ هنا ما في جعبتنا ! »

وتقترب منه المرأة تنظر إليه مشغولة البال : « خبر خطير عليك ! »

« بل علينا »، قالها وهو يوميء برأسه الصخري الذي خلا من الشعر إلا أقله على الرغم من شبابه «هذا الخبر يعني أن رفاقنا ليس لهم أن يتوقعوا في المستقبل الحصول على ملجأ في إيطاليا أو سويسرة أو النمسا ـ المجر، ناهيك عن ألمانيا التي يوشك اللجوء إليها أن يكون ضرباً من المحال » .

وجادلته : « ولكن الرجل تفاخر في التحقيق بأنه تصرف لحسابه هو، وقال إنه فوضوي . فما شأننا بما فعل؟ »

« المواطن العادي لا يدرك ما بيننا وبينهم من فرق يتمثل في رفضنا الأعمال الفردية . عامة الناس يضعوننا في سلة واحدة مع هؤلاء المهابيل الرومانتيكيين لأنهم مثلنا يستهدفون

إسقاط النظام القائم . اقرئي المكتوب هنا حتى تتأكدي بنفسك . » ودفع إليها بالصحيفة فعبرت عليها ببصرها.

« ومع ذلك فإن القاتل والضحية، على اختلاف انتمائهما الحزبي، قريبان في الفكر بعضهما من البعض الآخر، أكثر من قرب أيهما في الفكر منا - وبخاصة هي » . . بهذه العبارة تمتمت المرأة وهي تتأمل العنوان الرئيسي ورأس المرأة التي اغتالها الرجل بالخنجر .

وسألها الرجل وهو يجول في الحجرة ببصره ويفكر : « هل تراك تأسين عليها إلى هذا الحد؟ » ثم قال : « إلى أين سينقلوننا من هنا؟ »

« ماكانت هي لتمثل خطراً علينا أبداً .. أما هو فقد تبينت أنت نفسك الآن خطره » واصطبغ صوت المرأة التي بدت على هيئة الأم بنبرة حزينة مفعمة بالمشاعر « وكل إنسان له حياة واحدة، هي ونحن »

ولاحظ وهو يقول « ليس هذا هو لب الموضوع » أنه عاد إلى الحديث على طريقة الأستاذ والمعلم، ولكنه استأنف الحديث « ليس هذا هو لب الموضوع، لب الموضوع هو الطبقة التي ينتمي الإنسان إليها، حتى وإن لم يكن على بينة منها . فالحزب الذي ينتمي إليه هذا الرجل على سبيل المثل يعتبرنا رفاق كفاحه . أما نحن ...؟ فلن نصرح بالفرق بيننا وبينهم إلا عندما نحقق النصر .. »

والتمست عينيه لتسأله : « كيف ..؟ »

وأوشك صوته أن يصبح رقيقاً ناعماً شديد الهدوء : « سنقضي على الأشرار المناكيد قضاء مبرماً ونقتلعهم من جذورهم.. حتى لا يبقى منهم إلا التراب والرميم »

---

٩) ڤلاديمير إيليتش هو لينين ١٨٧٠ - ١٩٢٤ عاش متنقلاً في مدن أوروبية مختلفة إلى أن شارك بدوره المعروف في ثورة ١٩١٧ .

وارتعـدت فزعاً : « وهل سيطاوعك قلبك على هذا العـمل يا ڤلاديمير إيليـتش Vladimir jitschll د[٩] ؟ »

وظل على رباطة جأشه : « سيطاوعني قلبي على أن أتصرف كمن لا قلب له في كل موضع يتطلب قلباً لا ينبض لذاته فقط »

« وإذا تصدى لنا هذا الرجل بعد موته في صورة الشهيد ..؟ لا تنس أن الأموات أقوياء . فمن الذي يستطيع تكذيبهم، الأموات ..؟ » ودست نفسها في المعطف .

« إنما يكون للموتى من القوة بقدر ما يكون للأحياء من ضعف . وهؤلاء القوم هنا لن يصنعوا من هذا الرجل شهيداً؛ إنه لا يناسبهم بما فيه الكفاية، بل إنه لا يناسب الحزب الذي ينتمي إليه . » وفتح الباب بينما أطفأت هي النور . وإذا بشبحين يقفان على العتبة . والشارع يلمع في وسط الضباب . وتناهت إلى السمع أصوات صفارات، وأزيز محركات، ودوي صفارات الإنذار في محطة توليد الكهرباء

ومن بين أسنانه خرجت متلعثمة هذه الكلمات : « أتسمعين الصفارات ..؟ لقد بدأت المطاردة . »

وابتسمت راضية : « ليست جديدة علينا اليوم .. » كان شيء ما يجيش في وجدانه، وقال لها في رجاء يكاد يمتزج بالحب « لا تنظري خلفك عندما نسير . هذا ما لا يليق بنا . فنحن عندما نبرح مكاناً لا نرجع إليه أبداً »

وحملت عنه الحقيبة الصغيرة « لا أجد في هذا ما يحزنني . فأنت أنت المكان الذي آوي إليه . »

ثم تبعت خطاه صامتة وهو يخرج من داره ويوغل في الليل .

ألكسندر ليرنيت - هولينيا

Alexander Lernet-Holenia

مايرلينج

Mayerling

أقيم العشاء العائلي في جناح أماليا بقصر هوفبورج وعلى وجه التحديد في الحجرات التي عرفت باسم حجرات ألكسندر. فلما اجتمع شمل البيت الملكي ولم يظهر ولي العهد أراد رئيس مراسم السفرة أن يرفع طقم صحون وملاعق الأمير ولي العهد من فوق المائدة، واستأذن القيصر، فلم يأذن له، وقال قد يأتي ولي العهد في آخر لحظة. فلما اكتمل حضور كبار الأمراء أتى أمير كوبورج واعتذر عن ولي العهد بأنه متوعك، وقال إن ولي العهد أصيب بنزلة برد عندما سلك الطريق عبر برايتنفورت، وقال إن الجو في مايرلينج نفسها كان بارداً لأن المدافيء لم تبث إلا القليل من الدفء في الحجرات التي لم تُدَفَّأ إلا نادراً - بل إن هناك خوف على الأمير من أن يصاب بالتهاب رئوي.

فلما قال هذه الكلمات نظرالجميع بعضهم إلى البعض الآخر؛ أما الأمير ڤيلهلم الذي ربما كان على علم بالتفصيلات استقاها من رئيس البوليس البارون كراوس الذي كان في اليوم السابق ضيفه على العشاء فقد عض على شفتيه وقال إنه لا يجد تفسيراً لسفر الأمير ولي العهد عن

طريق برايتنفورت. ـ ورد عليه أمير كوبورج قائلاً لعله سلك طريق برايتنفورت لأن الطريق عبر وادي هيليننتال رديء، وأضاف إنه جاء عن طريق هيليننتال ويستطيع أن يؤكد ما شاع عن حاله من سوء. وقال الأمير ڤيلهلم : «هكذا؟»، وأضاف أنه يعلم يقيناً أن الطريق عبر وادي هيليننتال إن لم يكن جيداً فهو على الأقل أفضل من الطريق المار ببراينتنفورت. ـ وقال الأمير أوتو، إن كل هذا الكلام لا يمكن أن يأتينا الآن بالأمير ولي العهد. أما الأمير ألبريشت، البالغ من العمر اثنتين وسبعين سنة، وكان أكثر الأمراء الكبار شعبية، حيث كان الناس يكنونه بـ «قاهر كوستوتسا وسبع نوڤارا وبطل مورتارا» فقد أحس على ما يبدو بأن عليه أن يعلق على عدم حضور ولي العهد، على هذا الحدث الثقيل الذي ربما كانت لع عواقب وخيمة بالنسبة إلى الدولة، فعبر عن أسفه لتوعك ولي العهد، وأضاف إن الجلسة العسكرية التي تحدد لانعقادها اليوم انتظرت الأمير ساعة كاملة دون جدوى؛ ولما كان الأمير معروفاً بالحماس والهمة إلى أقصى حد فإنه يتصور أن الوعكة التي أصابته وعكة شديدة، وإلا ما يكان ليتأخر عن حضور الجلسة.

ثم ظلوا هنيهة واقفين قبل أن يتجهوا إلى المائدة. كانت الساعة قد دقت السابعة قبيل جلوسهم؛ في تلك اللحظة نفسها كان ولي العهد في مايرلينج قد جلس إلى المائدة في حجرة البلياردو مع يوزف هويوس الذي عاد لتوه من الصيد وغير ملابسه.

وحكى يوزف هويوس فيما بعد أن الحديث دار في أثناء تناول الطعام حول موضوعات قليلة الأهمية. كان ولي العهد الأمير رودولف Rudolph قد سأله عندما دخل الحجرة هل كان الصيد وفيراً؛ فلما علم أن هويوس لم يصد إلا حيواناً واحداً، وأن فيليب كوبورج عاد خالي الوفاض، علق على ذلك بكلمات لا تخلو من مسحة من السخرية : «لابد أن مخه كان مشغولاً بأشياء آخرى ». ثم استمر يبتسم ابتسامة تحمل معنيين وأضاف : «أرجو أن يكون حظكما أفضل غداً في شويفلجيتر. لأن فيليب سيأتي غداً مرة أخرى فيما أعتقد. أم لا؟»

وقال هويوس إنه يتوقع أن يأتي الأمير على الرغم من أنه إذ عجّل بالسفر إلى ڤيينا لم يقل شيئاً عن عودته». وقال ولي العهد : «عندما يعود سيجد ما يدهشه». ويذكر هويوس أنه احتار في فهم كلمات الأمير رودولف. أما رودولف فجلس إلى المائدة دون أن يوضح مقصده. وكان هويوس ضيفه الوحيد، وأقرب الظن أنه كان يتناول الطعام في حجرة البلياردو إذا كان معه ضيوف، حتى يُقَدَّمَ الطعامُ إلى ڤيتسيرا في حجرة السفرة. أياً كان الأمر فإن كوبورج وهويوس لم يرياها طوال الوقت.

واستطرد رودلف يحادث ضيفه فقال إنه ظل طوال اليوم يكتب رسائل ولم يخرج على الإطلاق. ولكنه لم يستطرد إلى مزيد من كلام ساخر أو مبهم. بل إنه على العكس أطلق لسحره العنان حتى إن هويوس، كما تذكر فيما بعد، انتهز الفرصة ليشكر ولي العهد على ما حباه به من لطف. ولعله ظن فيما بعد، أي بعد حدوث الكارثة، أن فعل هذا الذي قال أنه يتذكره، لأن الأمل كان يحدوه في أن يكون قد عبر له عن شكره قبل أن يقضي...

والشيء الذي لا شك فيه هو أن هويوس شكره مرة أخرى على دعوته إياه مرة إلى الصيد معه في غابة ڤيينا في مايو ويونية المنصرمين حيث تمكن يوزف هويوس من صيد عشر حيوانات صعبة ـ لا نعرف إذا كانت من نوع الأيل الأحمر أو الأيل الأسمر ـ علاوة على ثلاثين من الوعول. ورد الأمير رودولف في غير تركيز: « نعم. نعم. غابة ڤيينا رائعة. رائعة كل الروعة...». واسترسل هويوس في حديث عن الصيد وكلاب الصيد، وفجأة شرع الأمير دون ما ربط بما سبق يتحدث عن پيستا كارولي وكلامه في البرلمان المجري وقال إنه سبب له الحرج أشد الحرج؛ ثم انتقل دون رابطٍ أيضاً إلى الحديث عن الطعام الذي تناولناها على المائدة وسأل البارون إذا كان هو أيضاً يجده طيباً. كان الطعام يتكون من حساء وپاستيته من كبد الأوز، وروستبيف ولحم الصيد وحلو. وقال رودلف إن قيام طباخة امرأة هي الطباخة مالي Mali، لا طباخ رجل، بإعداد الطعام شيء ممتاز في رأيه. ثم قال إن طعامها هذا أشهى من كل ما قدم

إليه من طعام من قبل، وإن لم يكن أشهى من الطعام الذي يقدم إلى ابنته الصغيرة إليزابت. وسواء كان الطعام على هذا النحو أو على نحو آخر فقد أكل عن سعة وشرب عن سعة، فعب كمية وفيرة من النبيذ، ثم شكا من نزلة البرد التي ألمت به. وقال، إنه، على تبرمه بها، يأمل في أن تنتهي قريباً.- وسأل يوزف هوبوس : هل مع سمو ولي العهد ما يكفي من المناديل أم لعله يحب أن أقرضه بعضاً منها؟ ورد رودلف : « لا، شكراً » وقال إن لديه ما يكفيه حتى الغد.

وجلس الاثنان معاً حتى اقتربت الساعة من التاسعة، فدخنا وتجاذبا أطراف الحديث، ثم قال رودولف إن عليه أن يأوي الآن إلى الفراش؛ وإننا سنجتمع لتناول الإفطار جميعاً في اليوم التالي فور عودة فيليب كوبورج من ڤيينا.

وقال للبارون «تصبح على خير» وانصرف.

ودخل حجرة النوم، حيث كانت ڤيتسيرا Vetsera قد تخففت من ثيابها، وقعدت على السرير تنتظره. ونظر الاثنان بعضهما إلى البعض برهةً دون أن يتكلم أي منهما. وأخيراً سألها رودولف بعد أن قفل الباب من خلفه وأوصده، عما إذا كانت تعرف السبب الذي جعله يتعلق بها بشدة منذ رآها في أبريل الماضي للمرة الأولى في فرويديناو . فقالت ماري إنها ترجو أن يكون السبب هو أنها قد أعجبته. فقال لها رودلف، إنها طبعاً أعجبته. ولكن هناك سبباً يسبق ما عداه من الأسباب وهو أنها ذكّرته بالحب الوحيد الحقيقي الذي عرفه قبلها، ورجا ماري أن تفهم مقصده، حبه لبنت يهودية فائقة الجمال رآها في براغ في الجيتو عندما كان يعسكر هناك. - وقالت له ماري ڤيتسيرا إنها تفهمه حق الفهم، وحاولت أن تبتسم. وأضافت إنها هي نفسها على الأقل من ناحية أمها، وربما أيضاً من ناحية أبيها، لا تبعد عن اليهود بعداً مفرطاً. ونظر إليها. وفكر، إذا كانت تصرح بما يحرص الناس عادة عن اعتداد كاذب

بالنفس على إخفائه فإنها تكون مستعدة حقيقةً للموت. ـ وسألته، وما هي حكاية هذه البنت؟ فقال رودلف : « كانت ابنة قائد كورال. شدت انتباهي على الفور. ولابد أن أهلها لاحظوا عليها بعد قليل أنها أغرمت بي، على الرغم من أننا لم نتكلم معاً مجرد الكلام، فأرسلوها إلى كولين Kolin إلى أقارب لهم في محاولة منهم لجعلها تنساني. أما أنا فقد نسيتها بطبيعة الحال. ولكنها لم تنسني، بل عادت سراً إلى براغ وكانت تقضي الليل كله في الشتاء القارص تحت نوافذي، فمرضت وقضت نحبها، ولم أسمع خبر موتها إلا بعد شهور. فلما علمت بأنها ماتت حباً فيّ هِمْتُ بها على الرغم من أنها ماتت؛ وأمرت الملازم فون فريتشه Fritsche بأن يذهب في جنح الليل إلى قبرها ويضع عليه الزهور؛ ولكن فريتشه كان معروفاً بالجبن فلم يجرؤ على دخول القرافة. » ـ وابتسمت ڤيسيرا ـ وأردف يقول : « أياً كان الأمر فأنت شديدة الشبه بها. صحيح أنه من المحال أنت تكوني أنت هي، لأنك وُلدتِ قبل أن تقضي هي نحبها. ولكن ربما تكونان اختين على نحو ما.. » فقالت : « نعم، وإذا لم نكن اختين في حبك، فسنكون اختين في الموت، لأننا كلانا نموت من أجلك... »

فأقبل عليها، ورفعها وقبلها.

وفي صباح اليوم التالي في منتصف الساعة السابعة خرج ولي العهد من حجرة النوم يلبس ملابسه كاملة وأيقظ الياورلوشيك Loschek، وقال له إنه عائدٌ ليلم بالفراش مرة أخرى، وأعطاه أمراً بأن يوقظه في منتصف الساعة الثامنة، وأن يطلب الإفطار في الثامنة، وأن يبلغ السائق براتفيش Bratfisch بأن يكون مستعداً بالعربة.

ثم طلب إلى لوشيك أن يحضر إليه زجاجة كونياك، تأبطها وعاد إلى الحجرة وهو « يصفر » بعض النغمات كما أشاعوا فيما بعد.

فلما دقت الساعة منتصف الثامنة أراد لوشيك أن يوقظه فوجد الباب موصداً، فظل يقرع دون جدوى برهة من الزمن. فأرسل رئّس الخدمات تسڤيرجر إلى يوزف هويوس الذي لم يكن يقيم في القصر نفسه، بل في مبنى إداري غير بعيد، جهز ليكون جناح استضافة. ولما كان يوزف هويوس يعلم أن الإفطار سيحين موعده بعد الثامنة بقليل، بعد أن يعود فيليب كوبورج من ڤيينا، فقد ارتدى ملابسه، لم يبق عليه إلا أن يضع الفراء على كتفيه ليهرع إلى القصر.

وكان لوشيك قد ظل طوال الوقت يخبط بيده، ثم بقطعة من الخشب على باب حجرة رودلف. وأخذ هويوس يدق الباب هو الآخر وينادي الأمير ولي العهد بصوت عال. فما تَحَرَّكَ ساكن، وسأل هويوس إذا كانت الحجرة تُدفأ بالفحم فيكون الأمير قد استنشق الغازات المتصاعدة من الفحم فأغمي عليه. ورد لوشيك، لا، ليس هذا ممكناً. فالحجرة تدفأ بالخشب. ـ وهنا طلب هويوس أن يُفتح الباب عنوة، فلما امتنع لوشيك عن تحمل المسئولية، قال له هويوس إنه يحمل عنه المسئولية.

وهنا اعترف لوشيك بأن ولي العهد ليس في الحجرة وحده، بل معه البارونة ڤيتسيرا في الحجرة. وبدا السكون المطبق في الحجرة أكثر إيحاء بالكارثة. ونظر هويوس يائساً إلى الساعة التي تجاوزت الثامنة بتسع دقائق؛ وإذا كان فيليب كوبورج ـ كما توقع ـ قد سافر بالقطارنفسه الذي سافر به في اليوم السابق معه، فلابد أنه سيصل بين لحظة وأخرى إلى مايرلينج؛ وبالفعل أتى صبي البستاني يجري وأعلن عن وصول الأمير كوبورج لتوه.

ونقل هويوس إلى الأمير في حجرة البلياردو بكلمات قليلة صورة عن الموقف وعبر له عن رأيه في أنه يخشى أن تكون الطامة الكبرى قد وقعت. فلابد، أياً كانت الظروف، من فتح باب حجرة نوم ولي العهد عنوة. وحاولوا في البداية فض الكالون بالبلطة، ولكن الباب نفسه

ظل ثابتاً يقاوم، فلم يكن بد من فض الباب نفسه، فانهالوا عليه حتى وقع مدوياً في الحجرة، وظلوا مترددين لا يجروء أحد على الدخول حتى دلف لوشيك من خلال الفتحة إلى الحجرة.

وفي الساعة التاسعة إلا ربعاً تقريباً اندفع السائق براتفيش، الذي كان يقف منذ برهة متأهباً، حاملاً يوزف هويوس في داخل العربة على الطريق الذي تجمد فوقه الجليد، مخترقاً وادي هيليننتال متجهاً إلى بادن. ويقولون إنه في الطريق سأل البارون عن النازلة التي شعر بأنها نزلت، واستحلفه بالله أن يخبره. ولما كان براتفيش يجلس فوق مقعد الحوذي، وكان البارون يجلس في قلب العربة المقفلة، فليس من السهل علينا أن نتصور كيف يمكن أن تتصل بينهما محادثة. كان هناك في ذلك الزمان يَراعٌ زودت به أكثر العربات الحنطور كان الراكب يستطيع أن يصدر من خلاله أوامر إلى الحوذي الجالس على المقعد العالي في المقدمة. ولكن الحوذي لم يكن يستطيع إلا الرد اللهم إلا إذا التفت إلى الخلف بجسمه كله ومال نحو اليراع؛ فإذا تصورنا براتفيش وهو ينهب طريقاً كساه الجليد، فليس من المعقول أنه حاول هذه المحاولة. ولا يمكن على أكثر تقدير إلا أن يكون سأل البارون قبل أو بعد وصوله إلى بادن. ولكن البارون كان مشغولاً بأمور أخرى غير تقديم إيضاحات إلى براتفيش؛ حتى عندما طلب براتفيش من هويوس أن يفضي إليه على الأقل بخبرٍ يرد به على الناس، أجابه هويوس في اقتضاب : « لاشيء »، ثم أضاف : «انتظر هنا طبيب البلاط الدكتور ڤيدرهوفر الذي سيأتي من ڤيينا لتقله إلى مايرلينج. »

بهذه الكلمات هرع هويوس إلى داخل مبنى محطة السكك الحديدية.

كان القطار السريع القادم من تريستا يمر حسب جدول المواعيد في بادن في الساعة التاسعة والدقيقة الثامنة عشرة، ولكنه لم يكن يقف فيها. وكشف هويوس لناظر المحطة عن شخصيته، وقال له إنه صادعٌ بمسألة بالغة الإلحاح وطالبه بأن يوقف القطارالسريع في المحطة.

وبالفعل أوقف القطار، ووصل هويوس إلى قصر هوفبورج عندما أشارت الساعة في البلاط إلى العاشرة والدقيقة الحدية عشرة.

وأصبحت المهمة الآن : من الذي يحمل إلى القيصر الخبر البشع الذي أتى به هويوس. لم يجد أحدٌ في نفسه الشجاعة للقيام بهذه المهمة، ولم يعلم القيصر بالكارثة إلا بعد ساعتين تقريباً.

فقد سعى هويوس أولا إلى كبير ياوران ولي العهد وهو البارون بومبيل، وأسرعا معاً إلى كبير ياوران الإمبراطورة، بارون اسمه نويتشا، وطلبا إليه أن يقوم بإبلاغ الإمبراطورة بموت رودلف، لتقوم الإمبراطورة بعد ذلك بإبلاغ الإمبراطور.

ولكن نويتشا، وكان رجلاً قصير القامة شديد الخوف، لم يجروء على التوجه إلى الإمبراطورة في هذا الشأن، وقد كلفه تقاعسه هذا منصبه فيما بعد. أياً كان الأمر فلم يكن أمام هويوس وبومبيل من خيار آخر إلا السعي إلى الأمير هوهينلوهه، وهنا ذهب نويتشا معهما. إلا أن الأمير هوهينلوهه رفض نقل الخبر وكانت حجته تتمثل في أن ولي العهد على درجة مشير ولهذا فإن كبير الياوران البارون پار هو الذي عليه أن يحمل الخبر إلى القيصر.

ولكن البارون پار لم يقتنع بهذه الحجة، وذهب إلى أن نقل الخبر من اختصاص البارون كالنوكي فهو وزير البيت الإمبراطوري الملكي والخارجية.

إلا أن كالنوكي لم يكن من سبيل إلى العثور عليه.

ولهذا قرروا أن يبلغوا الإمبراطور بموت رودولف عن طريق الإمبراطورة.

وبحثوا عن وصيفة من وصيفات الإمبراطورة اسمها البارونة فيستيتيش، وبدأت الحكاية تتخذ أشكالاً عجيبة كاريكاتورية عندما أعلنت البارونة أنه لا يخطر ببالها أن تلقي على

مسمع الإمبراطورة هذا الخبر المشئوم، وإنما ينبغي أن تقوم بهذه المهمة سكرتيرة الإمبراطورة الأنسة فون فيرنتشي. وهكذا لم يكن من الممكن التنبوء بالوقت الذي يجد فيه البلاط الشجاعة لإبلاغ الإمبراطور والإمبراطورة أن ولي العهد قد أطلق الرصاص على نفسه فمات.

وهنا أعلنت الآنسة فون فيرنتشي فجأة أنها مستعدة للقيام بهذه المهمة التي كلفت بها؛ وعلمت الإمبراطورة قبل أن ينتصف النهار بدقائق خبر موت ابنها.

ويقال إنها تلقت الخبر في رباطة جأش تثير الدهشة. والحقيقة أن رباطة جأشها كانت نوعاً من التبلد. أياً كان الأمر فإنها لم تجمع أمرها على أن تحمل إلى الإمبراطور الخبر المشئوم وحدها، وإنما أصرت على أن ترافقها السيدة شراط Schratt، خليلة الإمبراطورالمعروفة.

وهكذا استدعوا السيدة شراط على الفور. وفي الوقت نفسه كانت هيلينه ڤيتسيرا، أم ماري ڤيتسيرا، تروح وتجيء مضطربة في جنبات قصر هوفبورج تحاول أن تلقى الإمبراطورة لتبلغها بأن ماري قضت نحبها مع ولي العهد. وهاهي ذي الإمبراطورة نفسها تأمرها بالمثول في حجرات الإمبراطور والإمبراطورة.

ودخلت البارونة بعد أن عرف القيصر أن ولي العهد أطلق النار على نفسه وعلى ماري ڤيتسيرا.

وتلقى القيصر الخبر برباطة الجأش التي تلقته بها الإمبراطورة، وصبر على النازلة التي لم يكن إلى ردها من سبيل، كما صبر على كل لطمات القدر التي تلقاها فيما مضى من حياته والتي سيتلقاها فيما سيأتي من أيام.

وأمر بيوزف هويوس أن يأتي ويقدم إليه شخصياً تقريراً دقيقاً.

حدثت النكبة على النحو التالي : أطلق ولي العهد النار على ڤيتسيرا في منتصف الساعة الحادية عشرة مساءً - ربما وهي مستغرقة في النوم لأنهم وجدوها ممدة ساكنة مطمئنة، ولم تُحْدث بها الطلقة التي قضت عليها على الفور أي تشويه. ثم أمضى الأمير رودولف الليلة كلها بجانب الميتة ولم يطلق النارعلى نفسه إلا بعد أن تكلم في الصباح حول الساعة السابعة أو منتصف الثامنة مع الياور لوشيك؛ وكان منظره بشعاً لأن الطلقة طيَّرت معها جزءً من طاسة مخه.

وبعد أن سمع القيصر تقرير البارون هويوس ظل مالكاً أعصابه إلى حد أنه أجرى بنفسه تحقيقاً صارماً مع هيلينا ڤيتسيرا التي كانت في حالة سيئة تقارب الإغماء.

وكانت قرينة ولي العهد قد أتت في هذه الأثناء، وحضر أفراد آخرون من البيت المالك. فلما سمعت قرينة ولي العهد التقرير بنفسها أوشكت على الانهيار ولم تستطع أن تفعل شيئاً إلا أن تقول إنها تنبأت بهذا كله، ولكن تحذيراتها لم تلق أذنا صاغية.

وفي هذا الوقت تناهت إلى الأسماع من فناءٍ داخل قصر الهوفبورج موسيقى فرحة مرحة، كانت فرقة من فرق الموسيقى العسكرية تُسعد بها أهل ڤيينا كل يوم بين الثانية عشرة ومنتصف الواحدة ظهراً، موعد تغييرالحرس. ولكنها ما لبثت أن انقطعت فجأة، في وسط النغمة إذا جاز التعبير. ولابد أن أحداً أعطى الأمر بأن تصمت فوراً.

ولقد تحاكى الشعب فيما بعد خبراً عارياً عن الحقيقة، ولكنه خبر رهيب يهيج له الوجدان، عن مسلك الإمبراطورة. قالوا إن القيصر عكف على إجراء التحقيقات، وغفل عن الإمبراطورة التي لم يهتم بها أحد، فبذلت جهداً هائلاً لكي تتمالك نفسها، ولكنها فقدت السيطرة على نفسها في النهاية. وقالوا إنها دخلت إلى حجرة نوم القيصر حيث كان الحوض وراء حجاب، فتناولت عدداً من الفوط المعلقة فوق الحوض ولفتها لفافة طولية، واحتضنتها

وذهبت بها إلى كبير الياوران البارون پار، ورفعت الفوطة الخارجية وقالت وهي تشير إلى اللفافة:

- «هذا ابني».

ويقولون إن البارون پار فزع، ولكن الإمبراطورة تركته واقفاً حيث كان، ودلفت إلى الحجرة المجاورة التي وقف فيها الحراس، وقالت لهم هم أيضاً وهي تشير إلى اللفافة : « هذا إبني. » ثم هرعت من خلال الحجرات القيصرية تُشهد الناس اللفافة وهو تقول وتعيد : «هذا هو إبني. هذا هو إبني. » وكانما كان صوتها ريحاً ضلت سبيلها فتخللت ردهات القصر تبثها حزناً كالبكاء والأنين.

---

١) استخدمنا في الدلالة على القيصر كلمة قيصر تارة وكلمة إمبراطور تارة أخرى.

٢) القصة التي يحكيها الكاتب قصة حقيقية أشرنا إليها في التعليق على قصة شوكور : «كل قلب لا يسمع إلا نفسه».

ألبرت باريس جوترسلوه

Albert Paris Gütersloh

القيصر

Der Kaiser

وظهر صاحب الجلالة[1] وكان شيخاً مسناً صعباً مدققاً لا يفوته أمرٌ من الأمورالشكلية، ابتداء من التراب الذي تركه الخادم تحت الشمعدان إلى الشولة التي نسيها الوزير في مسودته. كان رجلاً لا يعرف إلا الزوايا القائمة والحسابات المتوازنة والعُقَد التي تُحل بحركة واحدة. كان عاهلاً عظيماً، ولكنه كان يبالغ في التدقيق فلا يدع للعظمة الحقيقية، سواء جاءت تلبس ثوب المواطن أو غاصت في برميل الناقد اللاذع، ركناً خالياً في روحه التي لم تكن تتسع مطلقاً لركن أليف أنيس، فما كانت تضم في حناياها مكاناً يصلح للسكنى، بل كانت تضم أماكن خالية معدة للبناء مقسمة، مخططة تمتد إلى مالا نهاية. كان سيداً يفترض أن يكون مستخدموه قبل أن يمثلوا بين يديه قد أعدوا أنفسهم أكمل الإعداد، وفرغوا من كل شيء :

---

(١) الحديث عن القيصر النمساوي فرانتس يوزف الأول الذي ولد في عام ١٨٣٠ وتولى العرش في الثامنة عشرة من عمره وظل يحكم حتى مات في عام ١٩١٦، بعد قيام الحرب العالمية الثانية بنحو عامين. وكان ابنه قد مات منتحراً، فجاء ابن أخيه فرانتس فرديناند ولياً للعهد، وقد اغتاله شاب صربي في سراييڤو في عام ١٩١٤ فأعلنت النمسا الحرب التي ما لبثت أن اتسعت إلى حرب عالمية، غيرت خريطة أوروبا والنمسا خاصة، حيث انتهت الامبراطورية النمساوية.

من مراجعة الضمير إلى تنظيف الأظافر. ولكنه لم يكن النموذج القح للحاكم المستبد، كانت تنقصه من سمات الحاكم المستبد سمة الارتياب الفاجع الناجع، الحاكم المستبد الذي يتأرجح بين آراء الآخرين فيكثر التأرجح، ثم يقرر في النهاية رأيه هو الذي ارتآه لأنه، مهما سمع وأنصت فأكثر السمع والإنصات، يرفع احتقاره للبشر وإيمانه المطلق بنجمه فوق العالم بكل فيه من عقول.

كان أبي يرى بعينيه ويستشعر بإحساسه أن الجميع كانوا يجهّزون ما سيقولونه للقيصر بالكلمة والحرف لأن القيصر لم يكن يتيح للمتكلم مهما تحرى الاقتضاب أشد الاقتضاب أكثر من عشر دقائق من يومِ حُكْمِه. وكان الجميع يبدو عليهم عندما يجلسون في حضرة القيصر أنهم يتأهبون في اللحظة التالية للانتفاض وقوفاً لتأدية مراسم الاستئذان والانصراف الصارمة، فيتملكهم خوفٌ صبياني أمام أستاذ الصمت يدفعهم بسرعة إلى اختصار الكلمات العشرين التي أعدوها بإيجاز ما بعده إيجاز بشطب كلمتين أو ثلاث كلمات أخرى. كانت العجلة التي يبت بها في أمور لا تقل عن الحرب والسلام عجَلَةً تدربوا عليها من قبل وأجروا عليها بروفات لا نهاية لها في مناسبات أخرى، ولم يكن هناك في هذه المراسم مكان للصوت الإنساني الخالص الذي يصرخ أو يستطرد . وكان من المؤكد أن القيصر يمكن أن يرضى بقرار الحرب كما يرضى بقرار التسوية السلمية، إذا عرض عليه بنفس الاقتضاب. كانت حياة الملايين من البشر ترتهن في لحظة مثل تلك اللحظة بما إذا كان من الممكن أن يدس المتكلم في مدة العشر الدقائق احتمالاً آخر غير احتمال الحرب. ولما لم يكن لرجال البلاط هذا الصوت الإنساني، فقد استبعدوا هذه الإمكانية. حتى أبي نفسه، كما اعترف بصراحة، ما كان في هذه اللحظة التي كانت بالفعل لحظة، ليجد بداية مناسبة لكلمة يعرض فيها احتمالاً آخر غير الحرب، أو لعله كان سيتكلم فيطيل ويتجاوز الوقت المحدد، ولا يقول الشيء الجوهري. إلى هذا الحد كان القيصر المتعجل يرهب من حوله. إلى هذا الحد كان تأثير الهيلمان الهائل يُحدث من الضرر.

إلى هذا الحد كان جو الاقتراب من نصف الإله ينقلب إلى خطر على الناس، إذا لم يتنفس فيه إلا صغار الناس، وإذا كانت معرفة نصف الإله بالبشر قد ضعفت ضعفاً بالغاً. في هذا النضال القصير الذي حدد وقته تحديداً مقتضباً من أجل الكلمة الحاسمة التي كانت هي وحدها ـ لا تقييمها ـ الكلمة التي كان القيصر يريد أن يسمعها – ولقد أغمض عينيه وراح يهز فتاحة ورق على المنضدة. عندما اتصلت حلقات هذا النضال لم يُطلب إلى أبي المشاركة في الحديث؛ كان مهمته تتلخص في شيء واحد هو أن يحمل على ظهره الخطايا عندما يتم صنعها، وأن يحفظها سليمة في مواجهة غضب العدول. لم يكن هؤلاء السادة المتسيدون على الخدم والمأجورين يخفون هذا الرأي. كفى الإنسان شرفاً أن يكون شاهد عيان على هذه اللحظة الفريدة التي يتم فيها صنع مثل هذه الضربة، رأن يكون عليه بالتالي أن يكتم هذا السر الكبير. ولقد نسيت للأسف كلمات المسرحية المرتجلة التي تدرب عليها ممثلوها، وكان أبي قد أقسم على أن يعيدها علينا بدقة، ولم يتحرج أبي من أن يرسم على جبهته الطيبة تقطيبة الجبين الشريرة التي اصطنعها المتآمر ولا من أن يقلد سرسعة الغبي الذي وافق. وأقرب الظن أن ضحكنا آنذاك من نفخة التافه قد حطم الصورة. ثم جاء ضحك لاورا ومنظر أسنانها المتينة الكاملة فجرداني على الفور من القدرة على السمع وألقيا بي إلى هاوية الرغبة، مثل الريح التي تهب وتجرف البعوض وتلقي به إلى الخارج فلا يعود. ولم أفق إلى نفسي إلا عندما أدركت أن عيني لورا التقيا بعيني، وسمعت أبي وقد وصل في قصته إلي حيث وقف القيصر معه في تجويف من التجاويف الكبيرة التي رسمتها النوافذ في الجدار. كانت هذه التجاويف تحيط كالإطار بالسماء الزرقاء الصافية وبصفحة الحديقة الفسيحة بأحواض زهورها المتلوية وطرقاتها التي تنحني في زوايا قائمة، وتماثيلها الصغيرة السوداء التي كانت تبدو سوداء حتى في الصيف. وكان الناظر إلى ناحيةالجنوب تلاً كبيراً مرفوعاً، صفت عليه عمدان كبرامق المروحة، فوقها رواق، في فن معماري مفرغ رقيق، كان القصد منه أن يتيح لهليوس وخيوله البراقة أن تمثل على الدوام مظفرة أمام أعين القيصر.

في واحد من هذه التجاويف، تكلم القيصر فكرر كلاماً محفوظاً على الطريقة التي ألفها أتباعه الذين صقلوا على هذا النهج أشد الصقل، واصطنع موضوعية أشد من موضوعيه أكثر الآلهة تعالياً على البشر، واصطنع من الملل أكثر مما يثير أشد الموضوعات سخفاً وجفافاً، تكلم القيصر فعرض على رجلٍ لم يكد يسمعه ولم ينظر إليه ـ وكأنه استجاب لفروض مراسم الجلالة العريقة فوجه الكلام إلى الشخصية المجردة، أو كأنه فضل على النظر إلى سمات الإنسان الحي المحيرة أن يقرأ في الملف الميت الذي يصفه ـ عرض عليه المنصب الخطير، وكأنه يعرض وظيفة على خادم أو طباخ. كانت العزة التي تحولت إلى استعلاء قد تجاوزت قيد أنملة حدود الخواء البديهي المقدس بين الحاكم والمحكوم. ولم يدم إدراك الفرق الدقيق إلا لحظة قصيرة كومضة البرق. إلا أن ومضة برق الإدراك هذا أضاءت في وضوح الساعة الكبرى التي كانت تتهيأ لتدخل في عداد الأحداث العظام، وأظهرت كيف كان ميقات القصر متأخراً تأخيراً مفزعاً. لو كان ولى العهد في هذا المقام لعامل الرجل الذي وقع عليه الاختيار للمنصب الرفيع معاملة مختلفة كل الاختلاف. لَكَلَّمَه بصيغة الأمر ليوفي الجلالة حقها. ولَتقدم إليه بالطلب حتى يتيح للرجل الوطني شرف الاختيار الحر. ولأشعر المحكوم بأنه لاشيء، ولخلب رغم ذلك لب الإنسان الكامن فيه. ولأجبر الحمَل على أن يضحي بنفسه، ولَسَمَا به في الوقت نفسه إلى الإيمان الخالص بأثر مثل هذه التضحية.

وقارن إبي الصورتين مقارنة أراحت ضميره، واستقى منها ما تشجع به على الرد على القيصر بأنه بكل تواضع مضطر إلى رفض المنصب المعروض عليه. وكان هذا الرد يعني بالنسبة إلى القيصر أن المتكلم تكلم بما فيه الكفاية ولم يعد له أن يزيد أو يعيد. ولكن أبي أراد أن يؤكد ذاته، وأن يؤكد أنه رجلٌ أمام العاهل، وأنه في هذه المناسبة الخارقة للمألوف التي أتيحت له على هذا النحو لا يرتعش، وأن روح التلميذ العظيم والصديق الكريم تحفزه وتحميه، ومن هذا المنطلق أضاف (ولقد أرهفنا نحن الأطفال السمع إلى العبارة وحفظناها) :

أرجو من صاحب الجلالة أن يفهم أن الرجل الذي ينفذ ويفسر الوصية السياسية لولي العهد الذي مات فجأة ميتة فظيعة، وهو يتعرض لخطر الخروج على مبادىء الفقيد، لا يمكنه أن يقبل منصباً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه الحرب التي كان المرحوم سيمنعها لو أمسك بزمام الحكم. واستبد بنا الفزع. ولكن أبانا كان يقف أمامنا حياً. لم يمسسه ضر.

لم يظهر على وجه القيصر أدنى تغير يمكن أن يعبر عن أنه فهم ناحية الحق في الموضوع، أو على الأقل عن أنه أدرك مقصد محدثه. في تلك اللحظة الرهيبة، وأمام صورة نصف إله حية تنوء تحت إصرٍ من الذهب حددت نفسها برعدها الخاص مثل البقرة التي تقود القطيع والتي تحدد نفسها بجَرَسها، في تلك اللحظة التي تثاءبت عريضة كساعة خالية على أريكة الانتظار، ارتسمت في مخيلة أبي كل برمة في لحية وشارب القيصر، وكل بقعة من البقع الحمراء الكثيرة على ذقنه الحليقة. وانصرف عنه القيصر فجأة وكأنما كان تمثالاً اجتثوه من ركنه، وحملوه ليضعوه في مكان آخر. كان القيصر دمية أوتوماتيكية رائعة تتحرك بسرعة من خلال الحجرات الصغيرة الكثيرة ناحية الحديقة. فلما انقضى الوقت الذي يوجبه الاحترام أغلق اثنان من الخدم الباب العالي الذي يكتنف غرفة القيصر المتحفية. وأيقن أبي من أنه مطرود مغضوب عليه. ورأى الاجتماع قد انفض، والمجتمعين قد تحلقوا بعيداً عن المنضدة الطويلة، في جماعات صغيرة تشبه الأبراج السميكة التي لا ينظر منها أحد. لم يكن أبي يريد أن يسير مطأطيء الرأس ماراً بهذه الجدران التي تكونت من ظهور هؤلاء الرجال. واستبد به حنق سمّره في ألمع بقعة في أرضية البهو وكأنما ضرب فيها بجذوره. لقد وجد نفسه وحيداً لا سند له إلا نفسه كما لم يحدث له في حياته، وتعرض لمعاملة سيئة لم يعهدها من قبل قط، وتعرض للاستفزاز الذي سببته نفثة من الغباء حتى تملكه القرف، كل هذا أدى إلى انصهار مفاجيءأذاب ما أوتيه أبي من تسامح متين كان جزءً من فطرته، وسقط هذا القناع اللطيف الذي كان يصطنعه رؤساء الأوليمب، متأرجحين بين سمة الفيلسوف وسمة الحكيم،

والذي لم يكن يقوى على الحياة إلا في الدفء، ويتكسر عند ملامسة النار، وانبثق فيه الشاب عن خيمياء المحنة، شاباً دائم الشباب، يرى البعيد قريباً، ولا يأنس إلى المألوف. وهاهو ذا يندفع بخطى سريعة فيصب جام الهجوم الذي قرره فجأة على تلك المجموعة التي ضمت العديد من أصدقاء الفقيد العظيم القدامى ممن انقلبوا على أعقابهم، وتحلقوا في دائرة خيانه تشبه دائرة اللب الأصفر في داخل القرع، دائرة انفتحت أمامه من تلقاء نفسها مثل الضمير المثقل بالذنب عندما تقترب منه الشوكة التي يتوقعها. هذه هي قامته السامقة التي طالت بما علا الرأس على مدى السنين من بياض كالثلج؛ وهذه هي نظرته المجنحة المنطلقة الواسعة التي ازدادت عمقاً في رأسه من التحليق فوق أجيال تتطلب التعليم ؛ وهذا هو جلال أفكاره المهيبة التي يدركها أولو العقول الذكية، والتي تراها في سهوله ويسر عيون العاديين السطحية تنطلق من كيان لايزال قوياً متيناًحسن البنية؛ كانت كل هذه المقومات الفعالة تنقض عندما يدعو الداعي فوق المقاومة فتبددها، فما أسهل أن تنقض على جيوب المؤامرات التي تختفي وراء خيوط العنكبوت فيها فلول الضعاف والخونة. وسواء أرادوا أو لم يردوا فقد سمعوا ما كان هذا الرجل الجريء يريد أن يقوله لهم قابضاً بعينيه على زعيم المذبذبين.

«سادتي، عندما يقع حدث أثيم كهذه القتلة البشعة؛ يصيب رأساً ظاهراً للعيان؛ على يد غريم مأجور ما في ذلك شك؛ تربص به فأطال التربص؛ عندما يكون من الممكن أن يحدث هذا دون أن يثير في أوروبا استبشاعاً عاماً إجماعياً، أو على الأقل استنكار كل الإقطاعيين والمحافظين والمسيحيين، بغض النظر عن اللغة التي يتكلمونها، والمذهب الذي ينتمون إليه، ودون أن تكشف - كما أرى للأسف - في قلب الوطن عن وجوه الأعداء التي رمت إلى الهدف نفسه كالمراجم الموجهة تحركها مرة أخرى أوتارالحقد والنكران؛ فإن هذا يبرهن لكل ذي بصيرة أن فخاً نصب وراء المكان الذي تم فيه الاغتيال، فخاً أكبر حجماً، فغر فاه ليلتهم كذلك أولئك الذين يهرعون للإنتقام منتهزين الفرصة المواتية التي ظنوها سنحت لهم في موعدها.

سادتي، بين الفينة والفينة ـ والأحداث المتكررة المتشابهة تمثل ذرى التاريخ، ولكنها لا تمثل الذرى المجيدة مهما ظلت عالقة في الذاكرة ! ـ أقول بين الفينة والفينة يبعث خالق هذا الكون ومبدع قوانينها الذي تنكرونه، من ينفض التراب من فوق هذه القوانين، فإذا بك يا سيادة الجنرال تعتبر هذا التراب المنثور سحابة بارود حربك السعيدة. ولكن الله يبين لنا بالدليل مرة أخرى، للأسف في عصرنا هذا الذي تلح يا سيادة الوزير على أن تطبع عليه اسمك، أن الحساب من شأنه هو وحده، وأنه يرد من يتجاسر على سبقه إليه رد عزيز مقتدر. نعم، إذا وقع علينا نهب للأرض، أو ظلم مهين للرعية على يد سلطات دول أجنبية، نعم، إذا ساءت المحاصيل في ربوعنا أو اضطرنا تزايد السكان الفظيعإلى التماس الخبز والأرض الجديدة بحد السيف، فما يستطيع المسيح وهو راعينا جميعاً أن يمنع بركته التي تتنزل على قلق رعاته الصغار وأدائهم اليائس لواجباتهم، وما هؤلاء الرعاة الغار إلا ملوكنا وقادتنا. أنتم لم تتحدثوا بكلمة واحدة عن هذه الظروف الضاغطة والأحداث الثقال، وأنّى لكم أن تتحدثوا عنها دون أن تلووا الحقيقة وتشوهوها. ألا تعرفون، بل ألا تدركون أن الحدث الفظيع الذي تذرعتم به لإعلان الحرب، هو من الضخامة والبشاعة بحيث لا يصي بحرب رلا يبررها؟ أتريدن أدلة على أن هذه الحرب قد فرضت علينا فرضاً أفضل وأوضح من الرصاصات القاتلة التي سددها القتلة المأجورون؟ إنهم يفرضون علينا هذه الحرب لأنهم يرون أنهم يستطيعون قهرنا بسهولة؟ أتريدون الآن الخروج للدفاع عن كرامةٍ يرى الذين أوتوا القدرة على فهم نُذُرِ الله أن الحدث اللعين في حد ذاته قد أصابها أعمق إصابة؟ أتراكم الآن شرعتم في ذلك أو مازلتم الآن صادعين به؟ نعم. نحن الذين وجه الرب إليهم النُّذُر واضحة جلية لا نرى الأخيار وأهل العدل والحق وحدهم يقفون ضدنا، بل نجد أيضاً الأشرار ينضمون إليهم في حلف عجيب، ليسوا جميعاً النسور، بل فيهم الضباع.

سادتي، في خضم الهجمات الإجرامية التي تبذل قصارى جهدها لتوحي إلى الناس بأنها هي إرادة التاريخ، هناك لحظةمصير بالغة التطرف والخطورة تمس شعوب عظيمة وثقافات ثرية، فتكون وتبقى أوتنهار وتبيد، إنها لحظة انهمار قوى جديدة إضافية مثمرة وفظيعة تأتي من الهيولية في الكون، لا نستطيع أن نستمر في الحياة دون انهمارها، وإنما ينبغي علينا أن نسعى أولاً لتجاوز هذه اللحظة سالمين.. أقول هناك هذه اللحظة ذات الوجهين، أما وجهها الكئيب في اتجاهنا فهو الذي يستطيع أن يحوّل كبرياء الذليل المهان إلى النصر الوحيد والأخير الممكن، النصر الذي يناظر بين أسلحة الطرفين المتباينة، بين الجزار والحمل، فيختار الحمل. هل لديكم الشجاعة لتقولوا للعالم كله ولشعبكم أن الخسارة الأليمة التي مني بها البيت الحاكم العتيد مهما كانت من الضخامة، ومهما استحال تعويضها، لا ينبغي أن تمس أمان الإمبراطورية ـ و : لقد انتصرتم ! انأوا بأنفسكم، قبل فوات الأوان علناً وبكل وضوح، عن رأي أعدائنا القائل إن هذا الوطن وهذا الشعب ملك لأسرة مالكة واحدة، كما أن البهائم المسومة ملك لصاحب البهائم والأرض المحددة بعلامات المساحة ملك لصاحب الأرض؛ والقائل إن السائد هنا، على عكس ما ينص عليه الدستور، هو الاستبداد الذي يخيف الديموقراطيات ويخجل الملوك الذين يحكمون حكما دستورياً حقيقياً. ليست هذه هي الحقيقة، ردوا إلى الحقيقة كرامتها علناً ! إلى العزة والإصلاحات السريعة ! هذه هي الحرب التي ينبغي علينا أن نخوض غمارها ! لو أتيح للفقيد الغالي للحظات أن ينطق بكلمات، لما قال غير هذا الذي قلته. وأنت تعلمون أنه كان الحاكم المطلق القح ! »

لم يعترض طريقه أحد عندما هم بالانصراف. بل تراجعوا جميعاً مسافة ضغط الهواء الذي تحدثه مثل هذه الشخصية ومثل هذه الأفكار. لم يكن الموظف المهذب الذي أحضره إلى هنا بين هؤلاء الذين ألـمّوا بحجرة الانتظار هذه، بل كان قد انصرف. ولم تكن العربة التي أقلته تنتظر أسفل الدرج. ولاحت له المنطقة الخاوية الصفراء من صدر الميدان وقد تأججت بما يشبه

ألسنة النار واكتست بالشبورة في شمس هذا الصباح من شهر أغسطس كبيرة وخاوية كبراً وخواءً لا نهاية لهما بما كان فيها من مارة قليلين تمثلهم صغاراً كالخيالة المترجلين. ووقف قريباً من الحراس الذين رأوه يخطو وحده، وحيوه تحية عسكرية، فقطف غصناً متيناً من الخميلة ونزع وريقاته وألقاها عند أحذية الحراس. ثم يمم شطرالمدينة مواطناً عادياً، ربما كان شاهداً أو مُحَلَّفاً، يلبس البدلة السوداء بجانب الناس الذين كانوا يلبسون الملابس الصيفية الفاتحة، وعلى رأسه القبعة اللامعة جاهزة، وفي يده الغصن الذي شابه عصا الأولاد يستخدمها كعصا اتكاء، يضعها على الأسفلت فتنحني. لقد فقد وطنه، وتمنى ألا يكون الأمر كما تصوره في تحفظه المتوجع. والإنسان عندما تتقدم به السن ينفذ الأحكام عقب إصدارها، وإذا الدنيا الحبيبة، إذا أراد الإنسان أن يرفعها عن شغاف صدره، قد خف وزنها فجأة فلم تعد تزن إلا كالمرأة النحيلة العجفاء. ولقد فرح فرحة الفتى في السابعة عشرة عندما يتعجل الخروج من المدرسة التي أوشك على إتمامها لكي يذوق طعم الحرية من كوز القهر متعجلاً، فأسرع الخطى فقد كان شيئاً عظيماً أن يعلو الإنسان إلى حيث لا يكون عليه تحمل أعباء الإمبراطورية ويستطيع أن يقتصر على البيت الذي ولد فيه. قد يحس هذا الإحساس مواطنو الدول الصغيرة الريفية الذين يكادون يحكمون أنفسهم بأنفسهم لعدم تعرضهم للخطر، تحميهم الجبال القاسية أفضل من المدافع. لهذا ما أسعد البلد التي لا تمتد حقولها إلى مالانهاية وحدة لم يعد إلى تصورها من سبيل ! لقد نفض عنه هذه الوحدة الآن كما ينفض الإنسان عنه بعض تهيؤات الحمى التي تؤرق المخ طويلاً. إن ما رآه في صورة درامية على أنه مفهوم دولة - هو قبضة واحدة متوترة تضم مائة من لجام مزدوج تنتهي إلى أسنان خيول كارهة نافرة ترغي وتزبد فتلقي من أفواهها بالرغى والزبد إلى ماوراء الحدود - هذا التصور الذي يعبر عن الثورة المغلولة والذي لاح له بمثابة التصور الوحيد الشرعي للدولة، الدولة الأصيلة التي لا تكون ساكنة راكدة بل ديناميكية، هذا التصورتخلى عنه بسهولة لم يكن يتصورها من قبل قط، وشعر بأنه تحرر من إجهاد متشنج ألم بعقله وحواسه. وبينما

سارالهوينى من خلال شوارع ضواحي المدينة، رأى على لافتات محلات البقالة الصغيرة التي كانت تحمل كل أسماء هذا البلد المتعدد اللغات، فراح يحلل هذه البرقشة المفرطة إلى عناصرها الطبيعية، وتناول هذه الارتباطات التي لم تكن قد تغلغلت تماماً

ففصلها عن اللحم فخلفت ثقوباً ولكنها لم تخلف جروحاً. وقال لنفسه ولنا إن إنسان الغد سيكون إنساناً أكثر جفافاً، ولكنه سيكون حاد الضمير. سيكون إنسانا يهتم بالقريب المباشر أكثر مما يهتم بالقرية القريبة. سيكون إنساناً يعتبر التجميعات على هيئة أمم ودول محولات ساذجة طفلية جداً قام بها السلف، وتبسيطها إلى مفرداتها مهمة عسيرة.

هــايمــيتو فــــون دودرر
Heimito von Doderer

النـــار
Das Feuer

فيينا ١٥ يولية ١٩٢٧

صافح الأذن بين الفينة والفينة صوت طلقة، ثم ساد السكون حيناً تلته سلسلة متتابعة من الطلقات. ووقفنا، المستشارالملكي وأنا، في النافذة عندما دق أحدهم، وكنا ننظر إلى ما يجري تحتنا، حتي بالنظارة المقرِّبة، وكانت النظارة المقرِّبة على رف النافذة. فلما دخلت السيدة جورتسنر-جونتارد Gürtzner-Gontard أسرعتُ نحوها وحييتها. كان والداها من النبلاء في منطقة بوهيميا، وكان نطقها الألماني جيداً رائقاً وكان ينضوي على نبرة تحتية سلاڤية تكاد تتهكم تهكما خفيفاً على لغتنا، يسعد بها الذوّاقة المحنكون العليمون بأمور النطق ويقدرونها. ولم تكن هذه النبرة الملونة التي تحب إشباع الحروف المتحركة تتصل بألمانية براغ إلاباًوهى الأسباب، بينما كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بألمانية أهل الريف والنبلاء.

ورد عليها جورتسنر قائلاً: « لا داعي للقلق، يا ميلاني. علينا أن نطيب نفساً لأن ابنتنا خارج البيت؛ وما أظن إلا أن الأولاد قد وصلوا إلى كلوسترنويبورج في الساعة التاسعة على أكثر تقدير، وهم هناك في أمان، على أية حال هم هناك أكثر أمنا منهم هنا. فمن يعلم ماذا

يمكن أن يحدث اليوم بعد الذي حدث. إنني سعيد لأن ابنتنا لم تجعلها الظروف ترى كل هذا الذي جرى، ولو كانت هنا لما استطاعت التحكم في فضولها. ومن الخير أنني أعطيتها نقوداً. وإذا كان الشاب جاريك Garrique كيِّسا، وهو بالفعل كذلك، فلن يذهب بالأولاد إلى المدينة إلا بعد أن يعود إليها الهدوء، وسيفضل أن يقضي الليلة في كلوسترنويبورج أو في مكان آخر مناسب. إن ما يحدث في ڤيينا يشبه النار السريعة الانتشار التي ما تلبث أن تنتشر في المنطقة المحيطة. لا، يا ميلاني أنا لست قلقاً على ريناتا Renata. على العكس أنا سعيد لأنها ليست هنا في البيت » (وكانوا في فندق "أمباسادور" قد وصلوا إلى نفس الرأي).

وقالت : «أعتقد أنك على حق ». وعندما أومأت برأسها الآن بدا وجهها قريب الشبه من وجه الخراف، مما أكد نبل هيئتها على نحو عجيب. فإن تعاظم الأنف والشفتين على هذا النحو يمكن أن يضفي على الوجه سمات الثبات والقوة بل والأناقة أيضاً. وهذا ما يراه الإنسان في أحوال ليست بالنادرة عندما يلقى أبناء وبنات الأسر العريقة. ولقد أعجبتُ برباطة جأشها وما بدا عليها من اطمئنان لا يمازجه الخوف. لم تتصنع في حركة أو كلمة ولم تعقد يديها. كان مسلكها نبيلاً، ولم يكن هذا المسلك النبيل ثمرة التربية وحدها. فلما انصرفت عنا السيدة حرم المستشار الملكي وذهبت على الأرجح إلى مكان آخر غير الحجرات المطلة على الميدان التي أتت منها لتوها، اتجهتُ إلى النافذة وعدت أطل على المرأة التي كانت منذ قليل تحمل زجاجتي لبن في الشارع من تحتنا. كانت ممدة على الرصيف يلاصق وجهها الأرض قرب الحديقة. كانت امرأة متقدمة في السن، بل لعلها كانت عجوزاً، يوحي بذلك عنادها الذي دفعها إلى أن تصمم على الذهاب الآن بالذات لاحضار اللبن وأن تتوقع أن تعود به إلى بيتها. وأغلب الظن أنها كانت قد فارقت الحياة. ربما كانت ثقيلة السمع فلم تع إطلاق النار، وظنت ما سمعته دوامة من الريح عصفت إلى حين وأنها ستجتازها بسلام. وتناولتُ النظارة المقرِّبة ونظرت إليها، كانت تلبس حذاء رخيصاً له رباط، وجوارب سوداء، وفستاناً خشناً انزاح عندما

وقعت حتى بلغ ركبتيها. وكان المنديل يغطي شعرها، ولكنني لم أعد الآن أشك في أنني أرى امرأة عجوز تتمدد على الأرض ميتة. كانت تتمدد في بركة بيضاء ناصعة على الأسفلت تكونت من اللبن الذي انساب من الزجاجتين الكبيرتين اللتين كانت تحملهما في شبكة : ولقد ظلت في رقدتها تمسك بالشبكة وفيها الزجاج المكسور. أما ذراعاها فكانتا مطروحتين إلى الأمام. ولقد رأيتها رأي العين عندما خرت على الأرض، ولا أعلم إذا كانت الرصاصة التي أصابتها قد جاءت من الشرطة أو من أعداء الشرطة، ما كادت تقع حتى انساب اللبن من فوره، وتفرق كالأشعة على الأسفلت. ثم سالت كمية كبيرة من الدم تحتها، فتداخلت المادتان، بعد أن كانتا في البداية مفترقتين محددتين : أبيض وأحمر، لبن ودم، هكذا تحللت هذه الكناية التي عرفها تراثنا، كناية الأبيض والأحمر، اللبن والدم الدالة على الحياة المزدهرة والشباب النضر بطلقة واحدة وارتدّت إلى المعنى البدائي المتصل بالمواد الأولى، وها هي قطرات اللبن تنساب إلى البلاعة، مع الدم. وما تحلل الكناية وانفصالها عن الحياة وتجردها من جوهرها، بحيث لا يبقى منها إلا القاعدة المسطحة للمعنى الأولي المباشر، إلا علامة عميقة على فقدان الإنسان شيئاً من حريته. إن حرية الإنسان لا تبقى إلا طالما بقي الخيال والكناية أقوي من التعبير المباشر. الكناية هي وسيلة الإنسان لحفظ كرامته. نعم إن تحطيم أي كناية يعني أننا نطأ بأقدامنا في التراب راية الحرية، الراية الحمراء البيضاء.

وليقل عن طريقتي في التفكير والتعبير من يشاء ما يشاء، ليقل إنني أبالغ في الاستنتاج وإنني أخالط أكثر ما ينبغي أناساً مثل رينيه René وكايِتان Kajetan : ارتبط سقوط هذين اللونين، اللذين كانا حتى ذلك الحين عزيزين، بهذه المرأة العجوز التي كانت ممدة تحت نافذتنا ميتة مضروبة بالرصاص بوجهها في الأرض، ولقد كان هذا الارتباط هو الذي جعلني أفهم ثقل ما حدث اليوم، الخامس عشر من يولية من عام ١٩٢٧، وإدراكي خطورته ووخيم عواقبه، وإنه لَثُقْلٌ يتجاوز اليوم وأحداثه، ويتجاوز كل شيء خاص. كان شعوري إذا

صح التعبير أثقل مني، وأنا لا أكف عن التطلع إلى المرأة الميتة تحت النافذة وهي غارقة في لبنها وفي دمها معاً، مختلطين، متداخلين كل الاختلاط وكل التداخل، وقد اتسخا وامتدا على هيئة لسان ضيق طويل يبتعد عنها وقد تحسس طريقه إلى البالوعة.

وعلى الرغم من استمرار الطلقات النارية هنا وهناك أقبل اثنان من أعضاء "رابطة حماية الجمهورية" ورفعا المرأة وحملاها وانصرفا. واستطعت في تلك الأثناء أن أتأكد عن يقين من أنها كانت ميتة. راحت وبقيت بقعة متسخة على الأسفلت الخالي. وتبينت الآن أن الزحام الكثيف أمام مدخل شارع ليرشنفيلد كان يقوم مقام المتراس، ولم أكن قد تنبهت إليه من قبل، لم تكن عيناي تريان إلا المرأة وزجاجتي اللبن. في تلك اللحظة لا قبلها تغلغل الصياح المستمر الصادر عن أصوات متفرقة ونفذ إلى وعيي. شيء عجيب : كان هناك أناسٌ يلقون خطباً في الميدان. وتناهت إلى سمعي من ناحية المتراس طلقة نارية. لم يرد عليها البوليس. واستمر السكون النسبي حيناً، فسمعت الخطباء، أو على الأحرى الخطيبات، فقد خطب من النساء أكثر ممن خطب من الرجال، كانت أصواتهن صارخة، ولكنها كانت تصل إليّ رفيعة متقطعة كالزغطة التي يسميها أهل ڤيينا "شناكرل". أما أصوات الرجال فكان تصل إلى مسمعي على نحو أفضل وأقوى.

ووجهتُ النظارة المقربة إلى مصدر الصوت، فرأيت ثلاث نساء ورجلين، كانوا يصرخون في جمع مزدحم يحيط كثيفاً عميقاً بسراى المحكمة. ومن البديهي أنني لم أستطع أن أفهم شيئاً. (أما أن "الجماهير" كان من الممكن تحريضها بالطريقة نفسها على أن تمنع المطافيء من الاقتراب من المبنى عندما اشتعلت فيه النيران فهو ما علمته من الصحيفة بعد أسبوع). ونظرت إلى النسوة - اللاتي كن جميعاً يلبسن ثياب السيدات الأرستقراطيات، ولم تكن لهن هيئة البروليتاريا - فعرفت الأولى التي بدت في مجال النظارة، كانت هي الشاعرة روزه ماليك. كانت تقف من الجماهيرعلى بُعد عشر خطوات تقريباً وكانت عنيفة كل العنف في

حركاتها، حتى إنها دفعت يديها معاً فوق رأسها. كانت روزه ماليك تلبس فستاناً صيفياً بنقشة صغيرة لونها بين أخضر وأبيض، ولم تكن تلبس قبعة فوق رأسها التي قصت شعرها قصيراً جداً، أما المرأتان الأخريان فكانتا تلبسان قبعتين صغيرتين من النوع المتكور الشائع، كانت إحداهما تلبس قبعة بيضاء، وقد رأيتها بوضوح، كانت امرأة قصيرة جداً ونحيفة، شعرها أسود فاحم. أما الرجلان فعرفتهما على الفور. بدا أولهما غريباً على هذا المشهد غرابة قبطان سفينة إنجليزي في قرية من شرق جاليسيا، أو غرابة المفكر المتعمق في الغيبيات على مباراة كرة الراجبي. ذلك هو هولدر محرر صحيفتنا الرقيق الهادىء، الذي اعترف ذات مرة لإيمري فون جيوركيتش Imre von Gyurkicz بالتفوق في أمور ما يسمى بالقوة الغاشمة، وقدره في هذا المجال تقديراً خالياً من الحقد، وكان ذلك في أثناء جولة عامة قامت بها "جماعتنا". وهكذا اتخذ "التحالف" مكانه، حافظاً لكي ذي قدرٍ قدره، وهو أمرٌ جرت به التقاليد. وأحدث فيّ هولدر انطباعاً مسكيناً. لم يكن يصلح للدور الذي قام به على الإطلاق، ولم يستطع أن يلعب هذا الدور إلا معتمداً على ما حفظه من نصوص أدبية أو لنقل معتمداً على آنية زهوره الأدبية التي بدا كأنما اقتلع منها بجذوره، وهاهوذا قد وقف بجانب هذه الآنية واسترسل في النقيق. وكان من حين لآخر يحاول تحريك يديه، مصطنعاً حركات كبيرة، ولكنها جاءت مضطربة وحائرة، لا تقارن بحركات روزه ماليك، على الرغم من أن حظه من الصدق لم يكن أقل منها.

أما الرجل الثاني فهو جيوركيتش. كانت وقفته أفضل بكثير من وقفة هولدر، وصوته أوضح، فلم يكن صوت هولدر يصافح الأذن إلا من حين لحين على هيئة النقيق. وأكاد أقول إنني أحسست أن إمري كان أكثر تأثيراً على الحشد الذي توجه إليه بالكلام، فقد كانت أكثر صيحات الاستحسان من نصيبه. وكان هو الوحيد الذي لم يقف على الأسفلت بل اختار لنفسه نقطة عالية : حيث وقف على غطاء صندوق كبير مدهون باللون الرمادي ربما كان يضم الرمل

الذي يستخدم في رش الأرصفة في الشتاء، أو يضم الظلط الذي يفرش على ممرات الحديقة العامة أو أدوات تستخدم في العناية بالشوارع والحدائق... أياً كان الأمر، فقد كان جيوركيتش يقف عالياً، وكان يخطب ويلقى على الأرجح نجاحاً. وكان الصندوق الكبير عند حافة الرصيف، في داخل محيط الحديقة بسياجها المنخفض الذي لايزيد ارتفاعه على قدم. وكان واضحاً لي نوع الوسائل التي استخدمها جيوركيتش هنا للتأثير على الجمع : كان يستخدم أضحل الوسائل وأوطاها(وشعرت لعدة ثوان بالفرح لأنني لم أكن أفهم على الإطلاق ما كان يقوله، وكنت أشعر بأنني هنا في مكاني العالي عند النافذة في مأمن من سخافاته) - كان يستخدم الوسائل التي تناسب طبيعته وطبيعة مستمعيه. كان كاتب يفط قديم، ورسام إعلانات وموظف دعاية يعرف سر الصنعة وكيف تؤثر على أناس من نوعه. كان إيمري يلعب أيضاً على النحو نفسه، كنت على يقين من ذلك. كان يستخدم كل ما كان قد وصل إلى سمعه أو بصره حتى ذلك الحين من "الخطب الثورية"، يستخدمها قطعاً جاهزة مصقولة ناعمة لا تعلوها خشونة من خبرة خاصة، ولهذا كان من السهل تداولها بين الناس.

أما روزه ماليك فكانت امرأة من الحثالة الجاليسية.

كانت وقاحة هولدر مصطنعة، تعلمها، وآلى على نفسه أن يسترجل ليظهرها.

أما وقاحة جيوركيتس فكانت أصلية وفطرية ولهذا كانت أكثر فعالية.

وتداخلت في نقيق ونباح وصراخ الخطباء طلقات نارية، طلقة واحدة، ثم ردت عليها عشر طلقات أو اثنتاعشرة طلقة : لم يكن من الممكن أن أحدد من هنا بسهولة من الذي كان يطلق النار، وعلى من (يقولون إن الطلقة الأولى في يومنا هذا أطلقها واحد اسمه فيتالا Fittala وظيفته ساعي في إدارة التحرير، وهذه معلومة تأكدت فيما بعد في وقت جد متأخر). وعلى الرغم من ارتفاع موقعي، فقد كان مسكن جوتسنر-جونتارد في الدور العلوي، لم يكن من

الممكن بالنظر من النافذة أن أحيط بالموقف كله. كانت واجهة سراى المحكمة في الناحية الأخرى من حيث وقفنا، وكانت الضلع الصغير منه يضيّق مجال الرؤية (وإلا لرأيت فيما بعد المطافيء التي تعثرت وسط الحشد الهائج ولم تصل إلى الحريق) كذلك كانت أشجار الحديقة تسد جزءاً من المنظر. فلما توالت الطلقات النارية كان الخطباء قد اختفوا، ولا أستطيع أن أقول إنني رأيتهم وهم يهربون، أو يعودون أدراجهم وسط الجمع الحاشد ؛ كل ما أستطيع قوله، إنني كما فعلت حتى الآن، أسجل انطباعاتي الذاتية جداً : وفي هذا المقام أقول إنني لم أر في حياتي من قبل، لا في الحرب ولا في السلام، إنساناً يهرب بمثل هذه السرعة الخاطفة، هكذا هرب كل الذين كانوا حتى هذه اللحظة يرفعون عقائرهم بالصراخ : هولدر وماليك والمرأتان الأخريان.

واحد فقط لم يهرب، ذلك هو جيوركيتش.

ظل واقفاً فوق صندوقه ودار إلى الاتجاه الذي كانت الطلقات تتوالى منه ؛ ودس يديه في جيبي بنطلونه. هكذا بدا جيوركيتش على قاعدته، وتأملته بنظارتي المقرِّبة، فرأيته حسن الهندام، كما عهدناه، ولكنه كان في هذه المرة يلبس ثياباً رياضية الطابع، ويغطي رأسه بقبعة صيفية فاتحة خفيفة وسطنها على رأسه، مضبوطة، دون ميل إلى يمين أو شمال. أما الناحية التي كان إيمري ينظر إليها فكانت أشجار الحديقة تواريها عن عيني. وركزت عليه النظارة المقرِّبة وجعلته في وسط دائرة العدسة، وأجهدت نفسي في النظر، وضبطت النظارة فرأيته قريباً مني إلى حد كبير. فلما سقطت طلقات جديدة انحنى إلى الأمام، وحرك ذراعه اليمنى حركة منتفضة، وفي اللحظة التالية رفع ذراعه هذه ممسكاً بالمسدس عالياً وأطلق عياراً. عند ذلك زأر الجمع من خلفه حيث كانوا يحتمون ما استطاعوا "براڤو". وعاود إيمري إطلاق النار.

كان هذا المسدس دون ما شك هو المسدس الكبير الذي كان في حجرته والذي أعرفه، كان من نوع "بارابيللوم" الذي استخدم في الحرب العالمية الأولى، وهذا يعني أن المسدس، إذا أردنا

الدقة، كان في المقام الأول رمزاً، مثل الخوذة التي علقها أيضاً، أو جمجمة "الرفيق" (أو المجرم الأثيم الذي أعدم، فذلك أمر يحتمل قولين). لقد تحرك الرمز فهبط من علٍ، وتردى إلى ضحالة الاستخدام المباشر. ولقد أفزعني ذلك الانهيار أعمق الفزع. كانت المرأة صاحبة زجاجتي اللبن قد فتحت عينيّ بموتها على الكنايات والرموز وما يتهددها من مصير. فعرفت مسبقاً، قبل لحظات، ما سيقع، فلم يكن من الممكن أن تتخذ الأحداث مساراً آخر: لقد انهارت الكنايات وتحطمت الرموز من خلال أرضيتها المزدوجة المعنى، وتكرر الأمر مع جيوركيتش. هكذا يتحطم كل سطح عميق محمل بالخبرة والحكمة عندما تنال منه آلية الحياة.

وعاد يطلق النار، فرفرف دويٌ فوق الميدان وهوى بإمري من فوق صندوقه إلى الأرض.

وأيقنت على الفور، كما أيقنت في حالة المرأة العجوز صاحبة زجاجتي اللبن أنه مات . كان الذي وقع من فوق القاعدة، إلى اليسار، أي ناحيتي، أشبه شيء بالجوال، جِوالٍ بلا حياة، ظل على الأرض دون ما حركة، لم يكن ممداً، بل منثنياً، يرفعه سياج الحديقة الواطيء فيحول دون أن يلمس رأسه الأرض.

في تلك اللحظات التي صفت فيها بصيرتي رأيت أن الطلقة النارية لم تكن هي التي قتلته، وإنما قتله التيار العالي، تيارالحياة الجارف نفسه الذي جعله إيمري يحدث قَفْلَةً كقفلة الكهربا ء.لا يليق بنا أن نزين السطح الداخلي العميق المزدوج على مر السنين بالرموز ثم نحطم برمز منها هذا السطح المزدوج، نحطمه بصدمة مفاجئة يقع فيها المعنى المجرد على التجسيدالعاري المباشر الذي لا يعني شيئاً بعينه، بل يعني نفسه فقط، هكذا يكون الالتقاء قاتلاً. والأكاذيب التي تتقادم على مر الزمن والتي تلعب في تدبير بيت الروح دورها الضروري لا يمكن إبدالها فجأة بالحقيقة. وكل واقع ثان يزيح الواقع الأول فجأة لا يؤدي إلى الواقع بل إلى الموت.

لقد تحول الموقف الذي تمثلته إلى موقف حقيقي، لم يكن ما حدث سوى موقف تصورته مسبقاً أو تنبأت به. كأنني تقمصته، وكنت عنده بكياني كله، بل كنت كأني في داخله. عندما وقع، أحسست حقاً وصدقاً كما لو كان قطعة مني : كانت تلك اللحظات هي الثمرة الحقيقية لكلفي بالتأريخ. كل ما كنت قد رأيته من قبل، وما رأيته الآن كان هو الثمرة الكاملة لحياة إمري، ثمرة طيبة سامية، وحتى ولو كان قد دفع حياته ثمناً لقطفها : كانت تعني بالنسبة إليه رد الكرامة، والقضاء على أعمق عيب فيه، القضاء على عاره الخفي الكامن في أعمق أعماقه. كان الرجل الذي تمدد هنا رجلاً أسمى نفسه بحق السيد إيمري جيوركيتش فون فادي أند هاتفالودي Imre Gyurkicz von Faddy und Hátfaludy

وقلت : لقد كان هذا الرجل صديقي. آن لي أن ووضعت النظارة المقربة على رف النافذة.

كـــاري هـــاوزر
Carry Hauser

عمليــة ناقصــة
Eine halbe Sache

نافذة العرض. أسلحة، بنادق صيد، طبنجات، مسدسات لا يحجزها إلا لوح زجاج، قريبة يكاد الإنسان أن يمسكها بيده. والمطاوي مرتبة ترتيباً لطيفاً كله مودة، بعضها بجانب البعض فى صف، مطاوٍ مفتوحة، ومطاوٍ مقفولة. وإليك هذه المطوة السوداء ذات السلاح الصلب المتين الذي يبرز بالضغط. عملية جداً. من الممكن حل المنازعات بها، بوخزة واحدة في البطن. وأحس بالجرح الذي شق جلده على فكه الأيسر يؤلمه، وبعينه اليمنى الوارمة. ما يزال يرى القبضة التي أصابته من أمام، قبضة ضخمة، سدت الدنيا في وجهه. تملّكه جوعٌ إلى هذه الأدوات، جوع إلى المطواة. لم يكن قد تمنى من قبل الحصول على سلاح. حتى عندما كان طفلاً. ولم يكن في يوم من الأيام صياد حيوانات. صياد سمك، نعم، في سنوات الصبا التي لم يكن يحب أن يتذكرها، لأنها مليئة بالبؤس، وبالتربية الظالمة. كان أبواه يقولان إنهما يربيانه، ينهالان عليه بالضرب. كانا لا يكفان عن الشجار، وكان هو، الأعزل، هدفهما، يتلهى الواحد منهما به عن الآخر، كانا يضربانه إذا أرادا ألا يتضاربا.

ولم يكن يحب المسدسات التي تضمها اليد، ولا الطبنجات الصغيرة، ربما في الأفلام البوليسية التي نادراً ما كان يشاهدها. ولم يكن قط يستطيع أن يتصور نفسه في عداد المجرمين والشرطة والمخبرين. كان في أحيان قليلة يشعر بنفسه يذوب في هذا أو ذاك الشخص، هنيهة، هنيهة فقط، فيصبح هو الشخص الآخر، القاتل، الشرطي، أو المخبر، ثم يعود بسرعة فجأة إلى ذاته، دون أن يتغير ودون أن يحتفظ بذكريات عن الشخصية التي تقمصها. لا، لم تكن الأسلحة النارية تستهويه. ربما المطاوي. الإنسان يحس بها في يده، طيِّعة، كما يحس العامل الحرفي بآلته في يده. وهو أيضاً عامل حرفي، فهو بحار، ويداه قويتان متينتان، يعرف كيف يستخدمهما. ولكن قبضتاه فشلتا بالأمس. وما أكثر ما قال له بيترو المحنك: «لا تتشاجر مع شخص يكون أقلَّ سكْراً أقل منك»، كان بيترو معلمه على أول سفينة صيد عمل عليها، وكان أول إنسان لم يعامله بقسوة. بل علمه ونصحه. كان على الأحرى أباه أكثر من أبيه الذي خلفه. ولقد كان على حق في موضوع المشاجرات. فلو لم يكن الآخر بالأمس صاحياً لم يشرب إلا القليل، لانتهت المشاجرة إلى نهاية مختلفة. هذا الآخر... ولو كانت لديه وهو يواجه الآخر مطواة متينة في جيبه، في جيبه فقط، لأعطته المزيد من الاطمئنان حيال هذا، هذا... كيف كان هذا الآخر؟ فهو لم يعرفه، ولم يره من قبل قط. ظهر له لأول مرة في ذلك البار. نعم. في أي بار؟ كانوا قد نزلوا من السفينة، ثلاثة كبار والشاب، وذهبو إلى بار التاباك، غير بعيد عن الميناء، وخرجوا واستأنفوا السير في الشارع العريض، حتى وصلو إلى بار... لا، لم يذهب إلى هذا البار الثاني إلا بعد حين - قبل ذلك كانوامع بحارة سفينة البضاعة السويدية الراسية بجانبهم، ثم ذهبوا جميعاً إلى ذلك المحل المليء بدخان التبغ. ما اسمه؟ قالوا نذهب إلى «البليكان»؟ لا، لا، محل آخر. اسمه لا يهم، نعم. وهناك شرب كأساً من البراندي، وكانت، وهو يعي هذا، بداية عملية سكْر كبيرة، عملية «تجاوزالحدود». تجاوز اللحظة التي يكون فيها الإنسان سعيداً جداً، ومنطلقاً جداً، ويكون على وشك الانزلاق، والسقوط من أعالي السعادة إلى مهابط الدنيا التي لم تكن مشرقة

حلوة، ولم تكن مثل الملائكة الصغيرة المرسومة على الستارة الحمراء، لا، كانت الستارة بلا كنار من القطيفة، تتدلى على المدخل الذي يؤدي إلى القاعة المجاورة، كانت عليها صور عارية، وأزاح الستارة المتهرئة الحمراء، فرأى في تلك القاعة بحاراً غريباً جلس مع الشاب، وقدم إليه على حسابه نبيذاً جيداً، كمية من النبيذ أكثر من احتماله. إلى الشاب الذي كان يهتم به كأنما كان ابنه هو... نعم. وبدأت المشاجرة ! فقدطلب من الشاب أن يقوم ويأتي معه، ولكنه كان فخوراً بصديقه الجديد الكريم، وقرر أن يبقى. شد من هنا وشد من هناك، ثم تعالى الصراخ. كان لا يزال يعي ذلك. ثم خرج الثلاثة، وساروا من خلال حارات ضيقة، ثم عرجوا إلى حارات أوسع.. ولكن إلى أين؟ نعم. عرفت. قرب الميناء، حيث القوارب الشراعية التي فكت حبالها، كانت هناك حانة، حانة عادية على مشارف الحي.

كانت ذاكرته قد تكسرت، وداخلتها مواضع خالية كالثقوب. رأى في ذاكرته المنضدة خالية، وأحس بحائط من الخشب وراء ظهره، ثم رأى أمامه الشاب يجلس إلى المنضدة، رأى وجهه يظهر في غسق ودخان، شعره تبلل بالعرق وتدلى على وجهه، رأى فماً غليظ الشفتين قد انضم في ضحكة صفراء ساخرة. نعم. ثم رأى بجانب الشاب البحار الغريب الذي نفّر الولد منه، نذل بلا وجه،،، نعم لم يكن وجهه وجهاً على الإطلاق بل كان بقعة فاتحة من فوقها شعر فاتح، ورأى بوضوح يده عليها شعر أشقر لا تكف عن صب البراندي في كأس الولد، (...) رأى العبث القبيح، وسمع ضحكة سخيفة منفرة، كانت هذه الضحكة،، والقهقهة التي تشبه السعال، هي التي جعلت الدم يغلي في عروقه، ويدفع بالكراهية إلى يديه..

كان قد ألقى الكأس في وجه الأشقر، عندما أحس بأنه يهوى إلى حالة من عدم النسيان، نعم ألقى الكأس في وجه الأشقر، وكانت كأساً ثقيلة جامدة صلبة... فإذا بقبضة الأشقر، القبضة ذات الشعر الأشقر تندفع نحوه.. يذكر أنه رأى النور، وأنه تصور رأسه قد كيف طارت بعيداً عن جسمه، ثم عاودت القبضة الشقراء الكرّة، وتوالت اللكمات فوقع كالكُرَة في الظلمة،

في مكان ما في نهاية العالم. نعم، لابد أنه كان في نهاية العالم بعيداً جدا عن الدكة التي صحا منذ قليل فوجد نفسه يتمدد فوقها.. نسي، نسي كل شيء، كل ما حدث مع الشاب ومع الرجل الأشقر...

لابد أنهم سرقوا ساعته عندما كان راقداً في الحديقة الصغيرة، على الدكة. ربما أخذها ذلك الذي نقله إلى هنا، أو تلك التي نقلته.. ثمناً لتعبه أو تعبها؟ لابد أن يسرع بالذهاب إلى السفينة، فقد تأخرالوقت، تأخر أكثر مما ينبغي... فالنهار قد انتصف الآن أو أوشك، والشوارع مليئة بالناس. فجأة عرف أن اليوم لابد أن يكون هو يوم الاثنين. ورفع رأسه ناحية الشمس التي كانت مرتفعة في السماء. كان الألم يصعد من عينه، ومن عظمة الفك، ويقفز عنيفاً فوق الرأس كله، وفوق القفا، وينزل إلى الظهرحتى عظام الحوض . لم يعره أحد انتباهاً. كان الناس يمرون عليه عابرين، دون اهتمام أو مواساة. أم هل كان هذا تأدباً منهم لأنهم لم يكونوا يريدون جرح كرامته عندما يحملون في رجل مضروب؟ ولكن نافذة العرض كان فيها شيء لا يمر الإنسان عليه عابراً. لو كان معه بالأمس مطواة من هذا النوع، لكان الرجل الأشقر الآن ملقى في مكان ما، في مياه الميناء الراكدة، وقد نزف حتى الموت . وتبين الآن كيف كان يحنو على الشاب، كيف كان أباً له. لقد علمه الكثير، علمه كل شيء، ربما بشيء من القسوة، أعطاه المعرفة الأفضل التي أتيحت للخبير المحنك، النصائح، والحيل الكثيرة التي يحتاج إليها البحار فوق السفينة. لم يكن هذا كله شيئاً آخر سوى.... لقد كان في سنه عندما هرب من البيت، وعمل فوق سفينة سمك بخارية صغيرة. وتذكر على نحو واضح، وبوعي لم يتح له بالأمس، أول مرة شرب فيها الخمر، والنشوة الأولى، وكانت ماتزال محدودة معقولة، وكيف كان يتقيأ ما يعبه، ويفيق إلى نفسه مرة أخرى. لم تكن الحياة بالنسبة إليه سهلة آنذاك. ولكنه سرعان ما تعلم كيف يفادي الضرب، وكيف يدوربظهره ناحية الضرب ويضم دماغه بين كتفيه. ليته بالأمس ضم دماغه بين كتفيه. لو فعل ذلك في الوقت المناسب

لكان النذل الأشقر دخل بقبضته في الخشب وتكسرت يده. ولكن ما الذي غير الشاب فجأة؟ ماذا يدبر له هذا النذل الأشقر... لعله عاد إلى السفينه ونسي كل شيء؟ لابد أن أذهب إلى السفينة ـ من المؤكد أنه هناك؛ وأنه يحتاج إليّ...

ورأى في زجاج نافذة العرض اللامع كالمرآة وجوهاً يعرفها، وأحس بأيد تدور به إلى الخلف، وسمع من زملائه أن عليه أن يعود بسرعة إلى السفينة، فلم يلحظ غيابه في الصباح أحد.

ولكنهم لم يتكلموا عن الولد، وهل قد ذهب إلى السفينةأم لا. لماذا لا يقول أحد منهم شيئاً؟ لقد سأل عن الولد لتوه وهل عاد إلى السفينة. ألم يعد بالليل إلى السفينة؟ لقد ظنوا أنه معه. لا، لم يكن معه. إنه لا يعلم أين راح الولد، لا يذكر، فقد كان سكراناً، طينة، كالميت. رأى الولد بالأمس قبل أن تنزل اللكمة على عينه، وخرج النذل الأشقر ومعه الشاب، وسار هو معهما، كان الليل مظلماً.. ساروا في الظلام، الظلام الحالك، حتى اكتشف نفسه منذ قليل على دكة هناك، صحا فوقها....

دع موضوع الولد، كل إنسان يجرب حظه في الدنيا. دعه سيعود، عد أنت معنا...

إنه لا يستطيع. عاد الألم فاستبد بجمجمته، وبصدره. ألم الصدر أفظع من ألم الجسم الذي يعرف عنه أنه ستلاشى. عليهم أن يتركوه وشأنه، سيبحث عن الولد، عن الملعون الذي لم يتعلم، ومشي وراء الخنزير الأشقر... إنه خائف على الولد. اذهبوا أنتم، عودوا إلى السفينة، سأتي بعد حين. لابد أن أبحث عن الولد. لابد أن يهتم بشأنه أحد. ومن غيري يهتم به؟

وانصرفوا عنه وقد تملكهم شيء من الحيرة، وغلبوا على أمرهم، وهزوا أكتافهم، ورمشوا بعيونهم، واتركوه وحده. واستبد به وجع نزل من دماغه إلى ذراعيه ويديه. وأخيراً خف الوجع فجأة، كأنما كان فقاعة انفجرت، بقي الغيظ، الغيظ الذي لم تقل حدته..

إنه الآن يعرف كل شيء. أصبح يرى بوضوح، يرى الأشقر، اليد الضخمة، اللكمة التي انهالت عليه في الظلام، وهو الآن يعلم أيضاً ما ينبغي عليه عمله. سيذهب إلى المحل، رابط الجأش، صافي المخ، حتى لا يشك أحد في شيء، وسيخفي غيظه. وهذه هي يده تنجذب إلى مطواة في علبة كرتون، مطواة صلبة متينة، تفتح بالضغط، وهذا هو يدفع ثمنها، بعد أن ساوره فزع قصير من أن تكون النقود قد سرقت مثل الساعة، كانت النقود في جيب البنطلون، أصبحت المطواة هناك معها. ولقد حدث له من قبل ذات مرة أن اتضحت له كل الأمور في ذهنه وعرف طريقه، فيما مضى عندما ترك والديه، وسار طريقه، وذهب إلى البحر. إلى أعالي البحار. وهو الآن يعرف كل شيء، بوضوح، في ذهنه الصافي: يعرف أن عليه أن يعثر عليه، على الولد، والخنزير الأشقر. وقال في نفسه، اقفل عينيك، اغمضهما تماماً، وفكر: أين يمكن العثور عليهما؟ إلى أين تحملني رجلاي؟ لابد أن أجدهما تلقائياً، تلقائياً، كما أخذتني السفينة بعد تركي أهلي تلقائياً....

وخرج من الشارع العريض، وعرج إلى الحواري الضيقة، ناحية الميناء، يشمشم كالكلب، وسار إلى هناك، إلى حيث البارات والمقاهي متراصة بعضها بجوار البعض الآخر. ونزل على الدرج الحجري البالي، الذي تعرفه رجلاه، وأحس في جسمه بأنه لابد أن يكون هناك في هذا البيت على اليمين، حيث الشجرة العجفاء خلف السور، والجنية الزرقاء، كلها أشياء بدت له معروفة، ولكن.. في ومضة من صحوة كالبرق.. لابد أن ما حدث كان هنا بالأمس.. هل يخطيء؟ كل شيء منظره غريب في نور كدر وغيام حجب الشمس...

النوافذ الخشبية مقفلة. قرعها مراراً بقبضته. لا يتحرك ساكن. وأخيراً انفتحت نافذة من النوافذ الفوقانية، وتكلمت امرأة فزعت من النوم، وأطلت بوجه توارى نصفه وراء شعرها المنكوش، وسألته بصوت خشن مبحوح عما يريد؟ أريد البحّار المخمور الأشقر والولد؟ كنا هنا بالليل أمس؟ قالت إنهما انصرفا، وإنها يكن لها شأن بهما. قالت إنهما سارا ومعهما ثالث

كان أكثر سكراً منهما. آه. أنت مخمور الأمس الذي بالغت في السكر، أنت. وصاحت، لماذا يسأل؟ ليذهب إلى الشيطان هو وأصحابه. ونحّت شعرها بعيداً عن وجهها وضحكت له فجأة ضحكة مفتعلة سخيفة. وأشارت بإصبعها. ولم يسمع شتائمها، وابتعد، ولم يعبأ بندائها، وظل يجري، هنا وهناك، إلى أن وقف مرة أخرى أمام الدكة، والخضرة من حوله، حيث صحا اليوم من نومه. معنى ذلك أن الفتوة الأشقر والولد سحباه إلى هنا؟ ما الذي دها الولد فلم يبق معه، معه هو الذي كان بمثابة أب له؟ وقعد على الدكة، وامتلأ رأسه بالتراب، وهبت الريح من الميناء الصغير، نسمة جامدة صلبة. جامدة، وتمثل الولد أمامه، وسمع ضحكته الوقحة، وعاد فجري إلى حي الميناء، حيث كان رفاقه البحارة يتسكعون. ولكنه لا يتحدث إليهم، بل اختار واحداً بالذات، يثق فيه، وانتحى به جانباً في مدخل بيت، وسأله: هل عاد الولد؟ كان هذا هو السؤال الذي ألقاه على مسمعه ولا سؤال غيره. فهز رأسه متعجباً، كانت هذه هي إجابته، وتملص من كل التحذيرات، ومن النصيحة الطيبة بأن يترك الموضوع. وهاهو ذا يمشي، ثم يجري خائفاً من أن يمسكوه. من الذي يمسكه؟ من؟ أمسكته إمرأة بذراعين قويتين فاح منها رائحة العرق والبودرة المعطرة الرخيصة. ولكنه لا يريد منها شيئاً، هذه المرأة الوقحة (..)

وأغمض عينيه، لقد انفصل جسمه عنه، وأصبح مستقلاً، إنه لا يفكر في ساق أو صدر (..) وتدرك المرأة ما حزبه، (..) ويحكي لها القصة كلها، ويعطيها ما بقي معه من نقود أجر ما سمعته. وتلوك سيجارة، وتبصق فتات التبغ، ويبدو عليها الجد، فقد فهمت الموضوع. وتقول له إنها سمعت عن البحار الأشقر، إنه في الفندق.. إن لم يكن قد برحه. أين؟ أين؟ في مكان قريب جداً، تسلك الحارة، وتصعدد الدرج، الميدان، واليافطة «ريمو».

ولم تلح عليه أن يبقى، ونظرت إلى النقود التي تركها على المنضدة، وأعادت إليه ورقة بعشرة. (...) ودفعت به إلى الخارج، وعادت إلى الحجرة، وفتحت مصراع النافذة، وتناولت في بلادة بقية النقود. وقالت في نفسها، مسكين..

ويقف أمام باب الفندق. بناء ضيق، قذر متهدم، ولكنه لا يرى إلا الباب والرجل الهرم الجالس وراء المنضدة، ويسأله عن الأشقر، ويصفه له، ويشير الرجل الهرم الذي بدا التعب على وجهه المجعد، إشارة بليدة، فاتحاً أصابع يده الخمسة، ومشيراً إلى السلم الخشبي.

لم يقرع الباب، بل فتحه عنوة. الحجرة مظلمة، النافذة مغلقة . ولكنه رأى السرير، وفيه نام الأشقر وعلا شخيره (..) وتناول المطواة وضغط فانفتحت، وأمسك بيسراه النائم من قميصه، وشده ووضع المطواة على رقبته، وصرخ فيه: أين الولد؟ أين هو؟ قل، تكلم - وإلا ثم أحس كأنما لم يكن هذا هو الأشقر الذي لقيه بالأمس، هل هو أشقر آخر؟ أم ماذا؟

وهم الرجل الذي صحا مفزوعاً أن يدفعه بعيداً. ماذا يريد؟ عمن يتكلم؟ إنه لا يعرف شيئاً لا عن ولد ولا عن شاب - فليبعد المطواة بالتي هي أحسن.

لا ليس هو أشقر الأمس - أشقر الأمس كان أحمرالوجه، أما هذا فرمادي، شاحب. لا، وكأنما اعتذر له - فلما أمسك بقبضة الباب لينصرف مال لينظر تحت السرير، فضربه الأشقر بكلتا يديه على قفاه ضربه بكل قوة، وبكل ثقل الذراعين، وسمع عموده الفقري ينقضم، وتناول المطواه بحرص، وجرح نفسه في كفه جرحاً سريعاً.. حتى يكون المنظر.. دفاعاً عن النفس، وصرخ، وسمع الرجل الهرم يصعد الدرج مهرولاً، فصرخ منادياً البوليس. إنه جاء ليضربني بالمطواة. بوليس.

على سفينة البحار الميت ذكر الشهود أن المضروب كان قد تشاجر مع الأشقر، وأنه اشترى مطواة، رأوا ذلك. كذلك بائع الأسلحة تذكره. وقالوا إنه كان يبحث عن الولد الذي كان يحس نحوه بالأبوة أو الأمومة، ولا يستبعدون أن يكون هو الذي ضرب الأشقر بالمطواة. ربما - لأنه كان فاقد السيطرة على نفسه، تائها زائغ البصر. الولد لم يعد.

أخيراً سعد الأشقر عندما انتهت التحقيقات السخيفة لدى الشرطة، ونظر إلى يده المضمدة ورسم بشفتيه الضيقتين ابتسامة عريضة ساخرة. أحسنت. هكذا امتدح نفسه، وسار ببطء. على الإنسان أن يصبر. وعاد إلى الميناء الصغير حيث القوارب الشراعية الصغيرة. كانت الشمس قد مالت للغروب وامتلأت المقاهي والبارات في البواكي بالناس. وكان قد ترك الشاب في محل يعرفه حتى لا يرتكب حماقات. ماذا لو بقي في رعاية هذا الرجل الذي كان يبسط عليه جناحه كالأب والأم . لقد ضاق الشاب بهذه المعاملة، وسعد بأن يجد نفسه أخيراً في قبضة رجل قوي.

فلما دخل البحار الأشقر المحل رأى الشاب شاحب الوجه، وكانت عيناه تحيط بهما ظلمة واحمرار. وأومأ إليه برأسه، فسارا معاً واختفيا في ظلمة الحواري الضيقة.

جــورج سايكــو

George Saiko

التمثــال والبــــرص

Die Statue mit dem Gecko

كانا قد ابتعدا عن صحبتهم من الرسامين ، ووقفا فوق الموراتسو ، ذلك السد الركامي الكبير الذي أقيم في وجه البحر . وربما أحس الإنسان عندما يرسل بصره من خلال ضوء العصر الذي تلون بلون الصدف أنه يستطيع السير عرضاً من فوق السد والأسطح ليصل من الناحية الأخرى إلى المياه التي كانت تبدو كأنها تنصهر بعيداً فتذوب في البر عند الخلجان التي اصطبغت بزرقة اختلطت بحمرة قانية .

وبسطت ميوريل ذراعيها ؛ ولم تفهم قط ما كان چيل يتوق إليه ، وصممت على أن يبقيا هنا . وامتد المنظرمن تحتهما يأتلف من حدائق خضروات رمادية تميل إلى البياض تشبه الفطريات المتضخمة في التراب والشمس ، صفوف من الكروم ، ثم مزارع البامبو ، بدت كخطوط خضراء يانعة بين حقول الطماطم الحمراء بلون النارالمستعرة . ويرى الناظر قوارب منتشرة في كل صوب وحدب ، أشرعة ناصعة في كل مكان فوق البحر ، والسفن المزركشة في مياه اللاجون الضحلة .

«ليتنا نستطيع أن نستحم في البحر !»

حتى تنهيدتها أكدت عشقها لهذا المكان . ثم هذا هو چيل قد وجد لهما هذا الموضع للاستحمام . وسبحا متوغلين في البحر بعيداً عن الشاطيء ، وتاها بعضهما عن البعض ، وقد نسي الواحد منهم نفسه من فرط النشوة وكأنما تلاشى بين السماء والبحر .

فلما ظهر چيل بعد طول انتظار وقد أوشك أن يفقد الوعي صاحت فيه ميورييل :

« كأني أحس بالخوف . لا يفارقني إحساس بأن هناك من يراقبني»

وأشار چيل إلى التماثيل الصخرية الضخمة الصفراء التي بدت كأنها سيل من حمم بركان تصلد وتكور ، وكون ما يشبه القبة التي امتدت إلى بعدٍ لا يدركه البصر في الأفق .

«ومن يكون هذا الذي يراقبنا ؟ أنت ترين بنفسك - بعداً وعرضاً - أن ليس هناك أحد، بل ليس هناك شيء . هل ننزل الماء مرة ثانية - ؟»

واندفع وحده في الماء مرة ثانية . ويبدو أنه كان مثلها يحس بضغط لا يعرف له اسماً وأراد أن يهرب منه . وفكرت في أنه يقوم بمحاولة للهرب مما يغشاه من خوف ، وكادت أن تشعر أنها إذ بقيت وحدها تقيم الدليل على تفوقها عليه . ولكنها ما كادت تتحقق من وحدتها حتى أحست مرة ثانية بشيء يأتي من لا مكان ومن كل مكان في نفس الوقت ، صوت ، صوت ضئيل ... لاشيء إطلاقاً أو هو الشمس الثقيلة الفتاكة .. أوشكت أن تصرخ . وأشاحت برأسها ، وأجهدت نفسها في اكتشاف المختبيء حولها ، حتى تبينت ما أراح نفسها ، تبينت السبب الذي لم يكن في حقيقته شيئاً خارقاً للمألوف . كان الشاب يقف هناك إلى جانب كتلة من الصخر في ارتفاع قامة الرجل ، يبدو أنه برز من ورائها ، وكانت بشرته سمراء سمراء لفحتها الشمس أي لفح ، وكان يلبس لباس بحر مثلثاً أسود ، لا يكاد الاسم ينطبق عليه إلا في أضيق الحدود ، ورأت ميورييل المفاجأة التي حعلتها تتنفس الصعداء - كان شعر الشاب أشقر يميل إلى لون الذهب المشوب بالحمرة في لوحات الرسام تيتسيانو ، وعينان سوداوان حادتان حدقتا فيها ، فلن تحيدا عنها .

لو كانت في أي موقف آخر غير هذا لما أعارت الشاب اهتماماً ، ولكنها كانت في موقف الدفاع عن موضع استحمامها ضد متسلل . وتفحصته بنظرة تتوق إلى الهجوم ، تائهة ومندهشة .

« كيف أتيت إلى هنا ؟ »

وأشارت إلى الفرشة وعليها ثيابها وثياب چيل . ولم تقل : هذا موضع استحمامنا ، بل قالت :

«انظر .. أنت ترى بنفسك .. »

فأجاب :

«هذا موضع استحمامي»

ثم قال بعد هنيهة :

«يمكنني أن أذهب إذا شئتِ »

كان يتكلم الإنجليزية . ونظرت في خجل إلى بشرتها البيضاء . كان ساقاها قد رسمت عليهما الشمس خطوطاً حمراء فاتحة . وظنت فجأة أن عليها أن تبين له أنها تتكلم الإيطالية، كأنما تصورت أن هذه الوسيلة كفيلة بالقضاء على أجنبيتها وإخفاء مواضع لسعة الشمس على ساقيها . وقالت له :

« لا ، أرجوك ، لا تنصرف . »

ووقفا كلاهما صامتين ، وتجاوزها هو ببصره ، كأنما كان في أدب وتواضع ينتظر منها أن تبدأ هي الحديث . وبدا عليها في وضوح وجلاء أنها تميل إلى وضع نهاية لهذا الموقف ،

وتذكِّره بأنها ليست وحدها. ورفعت يدها لتشير نحو البحر ، ولكن يدها هوت - - فلم تر چيل في البحر ، وعجزت عن اكتشاف مكانه . ولكنها قالت :

« هذه هي قبعة استحمام چيل تظهر وسط البحر ، قبعة استحمامه السوداء ...ألا تراها ؟ »

واستبد بها ذهول متزايد عندما استرسلت في البحث في البحر على مدى الشوف ، فلم تجد أثراً لچيل ولا لقبعته . وأمسكت من تلقائها ذراع الشاب ، وهزتها ، فرأت البرص . كان هذا البرص نوعاً من السحالي ، طوله شبران ، ربطه الشاب في خيط لفه حول رقبته (حول ما يمكن أن يكون الرقبة لو كان للبرص رقبة) ، وثبت طرفه في لباس البحر . كان البرص على لوح كتفه اليسرى . وأرسل الشاب بصره إلى البحر، وقال لها : « ما بالك تفزعين هكذا ؟ » ورمقها بنظرة داخَلَها تهكم وامتهان : « هل تُراك تتمنين في الحقيقة ألا يعود ؟ »

وشعرت بصدمة باردة برودة الثلج ، ولكنها أحست بها نظرياً كما لو كانت هي بلغت بها هذه الحالة التي غشيتها بعد أن سمعت رأيه . وحملقت فيه ، حملقت في يده التي زحزح بها البرص إلى الأمام قليلاً كما لو كان يريدها أن تراه على نحو أدق . وأخيراً تبين لها أنهما ظلا يحملقان أحدهما في الآخر طوال الوقت . كان كالتمثال ، التمثال الكلاسيكي على وجه التحديد ، حتى سمات وجهه ... وبحثت من تلقائها عن تقسيمات صدره ، والخط البيضاوي الذي يرسمه بطنه ، وأنماط النسب الكلاسيكية في قوامه .

وعبرت عيناه على قوامها عبوراً ، وثبتتا على قدميها. وغشيها إحساس لا دخل للعقل فيه ، إحساس بخجل وحرج من نقصٍ فيها ، نقص لم يكن واضحاً لها ولم يكن من اليسير عليها تخمينه ، ولكنه كان واضحاً له ، أدركه وسكت عنه . وإذا به الآن يضحك ، وأغلب الظن أنه لم يضحك ليبدد خوفها ، وإنما أراد أن يخفف عنها مغبة تقصيرها . وبسط ذراعه المفتولة العضلات وعليها القليل من الشعر ، بجانب جلدها الأبيض الناعم الذي ارتسمت فيه

خطوط من لفحة الشمس . ثم تناول يدها ومسح بها على ظهر البرص الذي انكمش على نفسه مرتاباً . وازداد فزعها ، لا لأنها لمست الحيوان ، وإنما ظناً منها أن ما فعله الشاب بيدها له علاقة باختفاء چيل ، علاقة لا يمكنها تصورها ولكنها لا تشك فيها ، علاقة بالواقع المتمثل في أن چيل غاب ، ولعله سيظل غائباً أبداً .

وقالت :

«چيل . لابد أنه هناك في البحر . »

ثم قالت كلمات أدهشها هي نفسها :

«ألا فلتساعده . »

فلما ابتسم ، أحدثت ابتسامته فيها ما يشبه الشلل والفزع ، ولكنها كانت تقترب في الوقت نفسه من السلوى . « لماذا تريدينه هنا ؟ هو - ! »

وضم عينيه وأسَرَّ بهما نظرتها ، وحل رباط البرص من لباس البحر ووضعه على كتفها ، فبَقي في مكانه ، وتنسم في فضول رائحة الجسم الآخر ، وحل الشاب طرف الخيط الآخر وربطه مائلاً على ثوبها . ورضيت بالبرص كأنما اضطرت إلى الرضاء به .

وفجأة لاحظت أن الشاب ارتبك ، نعم ارتبك ، ورأته يبتعد مسرعاً ، ويقفز قفزة ناعمة يعود به إلى مكمنه ، ويختفي في غمضة عين ، قبل أن يظهر چيل أمامها . كان چيل قد خرج إلى البر في موضع بعيد وعاد أدراجه عبر منعرج بين كتل الصخر .

« وأنا - أنا استبد بي الخوف عليك في البحر أن - - »

وضحك چيل ، ولكنها صممت تصميماً متزايداً على الاستطراد :

«لقد خشيت فعلاً »

ومدت يدت إلى قلبها :

« تصور - - »

وهنا رأى البرص .

« من أين لكِ هذا ؟ »

فردت على الفور وكأنها أعدت الإجابة منذ وقت طويل :

« مسكته. هناك فوق الصخر .. »

« بينما كنت فريسة الفزع والخوف عليّ ؟! »

وجاهدت دون جدوى لتحول دون احمرار وجهها ، وأوشكت على أن تهرب من الحرج إلى هجوم عنيف ، ولكنها تمالكت نفسه وتدبرت الأمر:

« آه، كان ذلك - - نوعاً من - - »

وأحدثت بها ضحكته ضيقاً أحست به في جسمها ، لأن ضحكته عصرت وجهه النحيف ، وأظهرت فيه تجاعيد طولية عميقة . واكتشفت لأول مرة عندما ضحك أن أسنانه تالفة اسودت من التدخين ، وأن من بينها سناً صناعية . وبينما بحثت هي عن الكلمة المناسبة ، عثر هو لها عليها :

«نوعاً من التلهي ؟ »

وقالت فجأة مغتاظة :

« بالضبط ! »

وأحست للحظات أن كل شيء حولها كان يغلي على قرص هائل ملتهب يوشك أن ينفجر . ثم نهضت وقد تدلت ذراعاها خائرتين ، وعبرت عليه ببصرها ، وقد خلا وجهها من التعبير على نحو عجيب . وأحست كأنما ارتسم في داخلها بوضوح مفاجيء خط فاصل ، وكأنما اتخذت قراراً .

وبقي البرص على كتف ميورييل ، حتى في المساء عندما كانت في تيراس كونكا دورو – القوقعة الذهبية Conca d'Oro – الذي كان فيما مضى مرسى باخرة الركاب . كانت اللمبات الكهربائية في داخل مصابيح وهاجة ، وغرق كل شيء في غيام سحابة واحدة من الصخب والضوء الصارخ . وكانت صحبتها تجلس في الخارج بعيداً ، ونادت چودي على ميورييل وقالت لها من بعيد :

« برصك هذا رائع ، آه ، إنه عاشق ! »

بدا شعر چودي الذي أطلقته مسدولاً أكثر سواداً وانطفاءً وخشونة ، يرسم خلفية بديعة للانطباعات التي كانت تمتحها من محياها الأسمر الذي تربعت عليه عينان رائعتان ، مستعينة بأقلام زرقاء وبنفسجية . ولما كانت تلعب مع ألفريد الذي كان على الأقل قد ولد في أوروبا لعبة الزواج فقد آن لها أن تضع مرة ثانية نهاية لكَلَفه المرهِق بالمناقشات :

« يا حبيبي ، أنت على حق ، لا شك في هذا ، نحن المشردون الذين لا وطن لهم في المفهوم الجديد لأوروبا العتيقة ، لهذا ينبغي علينا أن نكتفي بشرب نبيذ أورڤيتو Orviet، ونرقص ونحن نشربه »

ظلت ميورييل تبحث طوال الوقت ، حتى رأت تمثالها يقف متكئاً في الاستراده ، وكان الآن يلبس بنطلون الصيادين وقميصاً برتقالي اللون . وهنا أحست ميورييل بنفس الإحساس الذي تملكها عصر اليوم في مكان الاستحمام ، الإحساس البارد الثلجي يتنزل على قلبها ، والصدمة التي دفعتها إلى القبول بكل شيء .

« لنرقص الآن ! ولكننا لا نريد أن نبدأ بالرقص مع أزواجنا . اذهب يا چيل واطلب الشاب الواقف هناك ليراقصني . هذه هي تقاليد البلد ..لأنه لن يجمع أمره على القدوم وحده »

ونهض چيل متثاقلاً ، حتى بدا عليه كأنما كان متردداً . وبقي التمثال تمثالاً ، لم يحرك شفتيه كما تبينت ميورييل من بعيد . وعاد چيل :

«لقد رفض»

قالها وقد عبر وجهه عن تعب إنسان شغل بأمر آخر مختلف تمام الاختلاف . فلما انحنى ألفريد أمام ميورييل طالباً إليها أن تراقصه ، اختفت مسرعة ، وعادت بدون البرص ، وظلت ترقص وترقص حتى انتهت الفرقة الموسيقية من العزف وحزمت آلاتها . وكانت تحرص في كل رقصة على أن تتحرك حتى تقترب من التمثال أشد القرب .

فلما ألمت بالحجرة اندفعت من فورها إلى علبة القفاز التي وضعتها على رف النافذة ، ولم يدر بخلدها أن تأخذ نفسها بحرص ، وفتحت العلبة بيدين محموتين - فإذا العلبة فارغة . ووجه إليها چيل سؤالاً كان له جرْس الإجابة :

« هل وضعت البرص في العلبة؟ »

وأرته العلبة فارغة .

« ولكن غطاء العلبة كان محكماً . لماذا خرج من العلبة ؟ هل تفهم لماذا وكيف ؟ »

وظلت تمد نحوه العلبة :

« لو بقي في العلبة لما كانت العلبة لتصبح قطعة مريحة من المتاع »

ورمقها چيل بنظرة مفعمة بالتوقع ومتسمة بالمباغتة الواضحة ، حتى إن ميورييل ما كانت لتعبر عليها دون أن تدركها . ولعل إدراكها إياها كان السبب في أنها أضافت :

«من البديهي أننا سنسافر غداً . فقد فهمت تماماً أنك لا تريد البقاء هنا .»

ألبـــــرت دراخ

Albert Drach

محاكمـــة شجـــرة برقـــوق

Das große Protokoll gegen Zwetschkenbaum

بعد أن خرج الشهود الثلاثة دخل المتهم تسفتشكنباوم، الذى يعنى اسمه حرفياً : شجرة برقوق، وكان السجان قد أوصله فى هذه المرة إلى باب القاعة ولم يدخل معه حيث أوقفه القاضى بإشارة من يده. كذلك كاتب الجلسة كوتيك لم يكن حاضراً. ويؤخذ من المعلومات التى أثبتها المحقق أن القاضى سأل الرجل بعد أن أدخلوه عن السبب الذى دعاه إلى طلب هذه المقابلة، فأجاب تسفيتكنباوم بأنه جاء إليه لأنه يعتبره قاضياً وأباً، وأن يجلّه لأنه يعلم أن الحاكم العادل هو الرب. والرب على حق عندما يأخذ البشر بالقسوة، وعلى حق عندما يأخذهم بالرأفة. وإذا كان القاضى قد قال مؤخراً إن الشعب اليهود يتعلق بأهداب فكر خاطىء وإنه يعاند الدنيا، فينبغى أن يسأل الإنسان نفسه عن سبب هذا العناد؟ إن اليهودى يُضرب، لا كما يُضرب الطفل بقصد التربية أو - على حد قوله - بقصد الصلاح، وهو يُركل بالقدم، ويُجبر على أن يزحف على الأرض مقوس الظهر، وهو لايعرف لماذا يجرى عليه هذا كله ولماذا لا يحنو عليه أحد. ولقد فكر تسفيتشكنباوم واسمه الكامل شمول لايب تسفيتشكنباوم فى السبب الذى جعل ظهر اليهودى مقوساً ؛ إنه تقوس لأنهم يحملون عليه ما ارتكبه إنسان -

يقصد : إنسان آخر – أو ما أتى به غيره من ذنوب. وهو يضطر إلى حمل سقط المتاع على ظهره خلال الشوارع والحارات والإتجار فيه، فليس من حقه أن يحتفظ لنفسه بشيء منه، أو على الأحرى أن يمتلك شيئاً، ولا أن يقيم فى أى مكان. إنه يشترى سقط المتاع ويبيعه دون أن يضيف إليه شكلاً أو صبغة، ولا يأخذ منها لنفسه شيئاً، وإنما تظل الأشياء فى الحاضر على حالها الذى كانت عليه فى الماضى، لا يعرف من أمرها إلا أنها تمر من بين يديه.

ورد عليه القاضى قائلاً إن الثقة التى يوليه إياها تسقتشكنباوم تشرفه، وإنه يود أن يساعده بقدر ما يسمح به منصبه. والقاضى عليه أن يكون مثل الأب رءوفاً وقاسياً معاً، هذا هو واجبه وليس لهذا شأن باليهودية، وإنما هى العدالة. وهو يعلم أن دين موسى لا يعرف التخفيف عن نفس الإنسان عن طريق الاعتراف، فيظل الإنسان حاملاً ذنوبه، وذلك حملٌ على النفس مرهق عسير. وإذا ما آخذ تسقتشكنباوم بالاعتراف من أجل التوبة عن الذنب، فإنه بذلك يساعد نفسه، بل يساعد الشعب اليهودى كله. أما إذا ظن الإنسان فى الظاهر أنه يتملص من مصيره الذى يستحقه، فإن الحقيقة هى أن إقامة الظهر عن طريق التوبة أسهل من انحنائه تحت ثقل الكذب. وربما اختار القاضى التشبيه بصورة الظهر المنحنى نفسها حتى يكمل فى ضمير تسقتشكنباوم التصور الذى لم يكمله هذا إلى نهايته، وربما اختارها ليبين له ما فى التشبيه من خطأ ومبالغة.

أما كيف وعى تسقتشكنباوم هذه التنبيهات فهو ما نتبينه من الأفكار التى عبر عنها حيث قال إنه أوضح، يقصد : حاول أن يفهم موضوعاً غامضاً عن طريق تقليبه فى مخه. فإذا كانت المحكمة ترى أن الحريق الذى اتهم بإشعاله نشأ بسبب مصدره الحجرة، وإذا كانت ترى أن الأشخاص الذين كانوا موجودين فى مكان الحريق أربعة أشخاص، فلابد من استبعاد شيماشك وزوجة الحارس، فلم يكن فى إمكانها أن يشعلا النار، وبهذا ينحصر الاشتباه فى تسقتشكنباوم والشاعر، ومن منهما هو الذى ارتكب الفعلة. ولكن ما هو المبرر الذى يمكن أن

يدفع الشاعر إلى إشعال النار؟ قالوا إن الأحمق لا يحتاج إلى مبرر، ولكن هل هذا الكلام مؤكد؟ وننتقل إلى البيت وراء الشجرة.. لماذا يشعل العامل فيه النار؟ وهذا هو ما أكده الفلاح.. العامل قال إن الحاصل كان خالياً، والفلاح قال إن الحاصل كان مليئاً، فلماذا لم يقل الفلاح للعامل إنه عليه عندما يُسأل أن يقول إن الحاصل كان مليئاً ولم يكن خالياً، إذا كان الفلاح هو الفاعل؟ وإذا كانوا قد وجدوا قطعة من ملابس تسڤتشكنباوم وقالوا إنه كان ينتقل من حريق إلى حريق، وحاول أن يدعى أنه ليس المقصود بل المقصود شخص آخر، أليس له أن يعتقد أنه كان يحاول أن يفلت من أصابع القدر الذى وضعه فى هذا الموضع. وإذا كان القاضى قد قال إنه من الخير أن يقول كل ما فى قلبه، وألا يضيف إليه، وإذا أخرج الإنسان ما فى قلبه، فإنه الكلام الذى كان فى القلب يغير مكانه ويصبح فى خارج القلب، وإذا انتزعه الإنسان من قلبه انتزاعاً فقد ينتزع قطعة من القلب معه، ويصبح ما يخرج به الإنسان فى هذه الحالة أكثر مما أدخله. وبعد أن بين القاضى هذه القواعد الحسابية العامة نظر إلى ساعته؛ فقد خشى أن يستمرالحديث مع تسڤتشكنباوم أكثر مما توقع. وإذا به يشهد مفاجأة انفرجت لها أساريره فقد نصب الرجل الذى طالما قوّس ظهره عوده قائماً كالشمعة، وكأنما أراد أن ينكر بهذا الإصلاح المفاجىء أن ظهره وخاصرته مصابان بالتقوس، واعترف للقاضى راضى النفس إلى أقصى حدود الرضا أنه هو الذى أشعل النار فى مستشفى المجانين وفى عزبة هينتررودر. وتمسك باعترافه عندما أحضروا كوتيك بسرعة ليسجل المحضر.

فلما عاد تسڤتشكنباوم إلى الزنزانة قال زميله النشال شتينجلبرونر الذى كان ينتظره إنه يستطيع أن يقرأ من تعبير وجهه أن المحكمة أوقعت به. أما حلّال الكلمات المتقاطعة بيلولاڤيت فكان رأيه أن تسڤتشكنباوم قد لعب فى كل مواقفه مع المحاكم دور المجنون، ولا يفهم لماذا تخلى عن منهجه هذا الذى ثبت نجاحه. واقتصر زافران السياسى على نصحه بأن يوكل محامياً عنه يستطيع أن يعدل المعوج، وبأن يختار محامياً يرى القضية لهطة مغرية،

لقمة يشتهيها الأكيل، تتيح له أن يصنع لنفسه اسماً وأن يدخل عالم الشهرة. أياً كان الأمر، وسواء كانت المحكمة قد أرادت أن تضع حداً للتأخير، أو كان السبب هو رجوع بامپانيللو إلى المحكمة وعلمه بأخبار الثورة فى ڤيينا، المهم أن الدكتور شونباين صرف النظر عن إجراء المزيد من التحقيقات وترك موضوع التقارير الطبية التى تتولاها الإدارة الصحية المختصة مفتوحاً. واكتفى هو نفسه بإصدار الأمر بنقل المتهم فوراً إلى أقرب مدينة فيها محكمة.

وبعد أن أُخرج المتهم دخل الكاتب داپل مرة ثانية على القاضى لأنه كان قد نسى أن يبلغه بمعلومة كان قد غفل عنها، فقال إنه فى الوقت الذى نشب فيه الحريق اختفى شخصان آخران، أولهما يحتمل أن يكون قد وجد فى مكان الحريق، وثانيهما رؤى بالفعل هناك. وعلى الرغم من الخبراء كانوا حتى ذلك الحين يرونأن الحريق بدأ من المبنى، فإن داپل ذهب إلى أن الخبراء يمكن أن يضلوا وأن إطلاح سراح قاتل أفضل من قتل العدالة. وقال إن تسڤتشكنباوم شكله شكل إنسان معان أكثر منه شكل مجرم. وقبل أن تشكره المحكمة على هذه المعلومات التكميلية التى لم يعد لها فائدة والتى جنحت إلى رفضها، جاء الدكتور شيماشيك على غير انتظار وقال إنه رأى صديقه تسڤتشكنباوم يركب العربة الخضراء، وإن منظره كان كمنظر المسيح الذى حمّله اليهود بالصليب، بينما كان پيلاتوس يغسل يديه فى البراءة. وصرف القاضى بوجه قاس الرجلين اللذين كانا من نزلاء مستشفى المجانين. وهذا هو ريجلزام الذى وقف بالباب بعد أن ساعد فى إخراج الرجلين من القاعة، يقول فى تردد موجهاً الكلام إلى القاضى، إنه لا يعرف بالضبط معنى القصة كما جاءت فى الكتاب المقدس، ولهذا فهو يسأل القاضى : هل حقيقة أن المسيح لعن شجرة؟.. وإن صح هذا فلماذا؟. كان يشير إلى ذلك الموضع من الإنجيل الذى جاء فيه أن يسوع المسيح لعن شجرة تين أبت أن تطعمه من ثمارها فجفت وماتت. بغض النظر عن شخصية المسيح الذى الذى لعن الشجرة فجفت وماتت، فإن الشجرة المذكورة فى الإنجيل من نوع آخر غير الشجرة المذكورة فى هذه الحالة، شجرة البرقوق

التى يحمل المتهم اسمها ، بالإضافة إلى أن سبب اللعنة مختلف ونتائجها مختلفة، ولهذا فإن ما خطر ببال حاجب المحكمة من ربط بين الموضوعين غير لائق وغير مقبول، ولهذا فإن القاضى يرفض الإجابة عن سؤاله.

وتصور تسڤتشكنباوم هذا الطريق الذى سلكته عربة الترحيل فى شهر نوفمبر أقل تنوعاً من الطريق الذى قطعه بالعربة نفسها عندما ذُهب به إلى مستشفى المجانين. كان الشباك فوق مقعد السائق قد تعرض فيما يبدو للكسر فغيروا الزجاج الشفاف إلى زجاج مسنفر لم يكن يتيح للناظر من خلاله أن يرى ما فى العالم الخارجى فى أشكال محددة المعالم. كذلك لم يكن ريجلزام هو الذى رافق المتهم فى هذه المرة ، بل فوجلهوبر من رجالقوة الأمن المحلية. ولم يكن تسڤتشكنباوم، أو شجرة البرقوق التى تجسمت فى صورة إنسان، يستطيع أن يتبين ما إذا كان العربة ستسلك الطريق نفسه وتمر بشجرة البرقوق التى اتخذت شكل نبات. وأغلب الظن أنه كان يعانى من الحمى، نتيجة لجرحه الذى لم يكن قد شفى تماماً، أو ربما نتيجة الانفعال الذى تملكه على أثر الاعتراف الذى أدلى به. وعلى الرغم من ذلك فقد كان وجهه يعبر عن بشاشة ربما بررها ما تصوره من طعام سيناله عندما تبلغ به الرحلة غايتها.

وعند مفترق من مفترقات الطرق برز خمسة من الشباب يلبسون أزياء عسكرية متهرئة وأجبروا سائق السيارة على الوقوف مهددينه بأسلحتهم النارية ملوحين إليه براية حمراء هى راية الثورة الاشتراكية أو الشيوعية. وأنزلوا رجل الأمن من العربة وأمروه بتسليم سلاحه الميرى وطلبوا منه أن يطلق سراح البروليتارى المقبوض عليه. وعلى الرغم من الموقف السيء الذى وقع فيه فوجلهوبر فقد بدت عليه البشاشة وهو يشير إلى تسڤتشكنباوم الذى قبع مروعاً فى أبعد ركن من أركان العربة، وبدا عليه أنه كان يرتعد، ربما نتيجة الخوف أو البرد أو الحمى، وربما نتيجة اثنين أو ثلاثة من هذه الأسباب معاً. فلما نظر إليه رئيس المجموعة المهاجمة أخذته الدهشة، فقد تبين أنه يهودى من أوروبا الشرقية انسدل شعر مجعد على

فوديه، ممن كانوا يسمونهم "الليرشل". وليس من المعروف إذا كانت هذه التسمية مأخوذة من اسم نوع من طائر الليرشه أى القنبرة، الذى يعلو رأسه عرف خفيف شبِّه به الشعر الخفيف الذى يميز أهل غاليسيا بين پولندة وأكراينْا، أو من اسم شجرة الليرشه أو المليز الإبرية ذات الجدائل الإبرية المتدلية التى شبهت بها جدائل الشعر على فودى الإسرائيليين الوافدين من الشرق الأوربى. أياً كان الأمر فقد كان اهتمام المجموعة المهاجمة بهذا السجين الذى ظنوا خطأ أنه من الطبقة البروليتارية أقل مما عبرت عنه صيحتهم الأولى. وأمروا الرجل على الرغم من ذلك بأن يأخذ ذيله فى أسنانه، أى أن يهرب، ولكن الأمر كان يفتقر إلى الحسم والإقناع، بل بدا عليه كأنه لم يكن جاداً على نحو كاف، فلم يجرؤ تسفتشكنباوم على تنفيذه. أضف إلى ذلك أن احترامه للسلطة كان كبيراً على الرغم من الثورة - التى سميت للتهوين من شأنها انقلاباً - والتى لم يتصورها واضحة فى ذهنةأو لم يفهمها، أو لعله كان قد جمع أمره على أن يستكين للقدر الذى اختاره بإرادته منذ قليل، وكان قرار الاختيار جديداً فعالاً لم يتح له أن يستجيب للأمر حتى لو كان أشد إلحاحاً من الأمر الذى وجه إليه من قبل. وأقفل رجل الأمن العربة عليه مرة أخرى، وأعطى السائق إشارة الانطلاق، ولم يعترض السجين الذى كان يفتقر إلى الهمة ولا الشبان الذين كانوا قد أوقفوها.

إيليـــاس كانيتـــي
Elias Canetti

الأب الطـــــــيب
Der gute Vater

كان مسكن بينيديكت بفاف Benedikt Pfaff بواب البيت يتكون من مطرحين: مطبخ، مظلم، متوسط السعة وغرفة صغيرة بيضاء، هي التي يدلف إليها الإنسان عندما يجاوز فَسَحة المدخل. كانت الأسرة أصلاً تنام في المطرح الأوسع، أسرة من خمسة أفراد، هم الزوجة والإبنة، والزوج الذي كان يعتبر نفسه ثلاثة أشخاص: رجل البوليس، والزوج والأب. وكان السريران متساويين في السعة، تساوياً كثيراً ما أثار غيظه، فلم يعرف له من سبيل إلا أن يُكْرِهَ ابنته وزوجته على النوم معاً في سرير، ويستأثر هو وحده بالسرير الآخر. وكان يَفترِشُ مرتبةً حُشيت بشعر الخيل، لا لأنه كان يحب الحياة الناعمة، فقد كان يمقت من يطيلون النوم ويمقت النساء، وإنما كان يفعل ذلك عن مبدأ: فقد كان (هو) الذي يأتي بالمال. أما مسح السلالم كلها فعملٌ كان عبؤه يقع على كاهل الزوجة، وأما فتح باب البيت بالليل، عندما يدق الجرس قادمٌ متأخر، فأصبح عملاً أنيط بالإبنة منذ أن بلغت العاشرة من عمرها، وكان الرأي عنده أن عليها أن تقوم بهذه المهمة حتى تتخلص مما فيها من جبن. أما المبالغ التي كانت تتحقق من وراء هذين العمل، فكان هو الذي يقبضها، فقد كان هو بواب البيت. وكان من

حين لآخر يسمح لهما بأن يكسبا بعض المال الزهيد من العمل خارج البيت، في الخدمة أو الغسيل. وكان يبرر رأيه هذا بأنهما كانتا هكذا تحسان على الأقل عن ممارسة مباشرة كيف يكدح أب مثله لكي يدبر لأسرته معاشها. كان عندما يتناول الطعام يصف نفسه بأنه ملحقٌ بالحياة العائلية، وكان في الليل يسخر من زوجته ويعيِّرها بأنها هَرِمَت . وكان عندما يعود إلى البيت بعد أن ينتهي من عمله يمارس حقه في التربية والتأديب، فيهوي بقبضتيه اللتين كساهما الشعر الأحمر على بدن ابنته تعبيراً عن حب حقيقي، أما زوجته فلم يكن يقربها إلا قليلاً. وكان يترك أمواله كلها في البيت، فلا تنقص شيئاً، دون أن تكون به حاجة إلى الاطمئنان عليها، لأنه عدّها مرة، فلم يجدها كاملة، وكانت النتيجة أن زوجته وابنته قضيتا الليلة في الشارع حتى الصباح. والخلاصة أنه كان بصفة عامة سعيداً.

وكانوا فيما مضي يطبخون في الغرفة البيضاء التي كانت مصممة أساساً لتكون المطبخ. وكان بينيدكت يفاف يحتاج للنهوض بأعباء مهنته المجهدة، التي تتطلب منه أن يكون دائماً مستعداً بعضلاته استعداداً يملك عليه صحوة نهاره وأحلام ليله، كان يحتاج إلى طعام وفير، مغذ، متقن يقدم إليه جاهزاً. وكان في هذه الناحية لا يقبل المزاح، فإذا تقاعست زوجته وضربها عَلْقَة، فكان يعتبرها هي المسئولة، ولم يكن يرى الرأي نفسه بالنسبة لابنته. ولقد ازداد جوعه واشتد بمرور الأعوام. وقرر أن الغرفة الصغيرة أضيق من أن تفي بمتطلبات الطبخ وقد ازدادت واتسعت، فأمر بنقل المطبخ إلى الغرفة الخلفية. وتعرض قراره هذا - استثناءً - للمعارضة، ولكن إرادته لم يكن من سبيل إلى ردها. منذ ذلك الحين أقام الثلاثة نهارهم وناموا ليلهم في الغرفة الصغيرة التي لم تكن تتسع إلا لسرير واحد، وخصصت الغرفة الكبيرة للطبخ والأكل والضرب وللزيارات التي كان زملاؤه يقومون بها نادراً فما كانوا قط يرتاحون لزيارته على الرغم من الطعام الوفير الذي كان يقدم إليهم. ولم يمض إلا وقت قصير بعد هذا التغيير حتى ماتت الزوجة من فرط الإعياء. فلم تستطع إنجاز أعمال المطبخ الجديد ؛ كانت

تطبخ ثلاثة أمثال ما كانت تطبخه من قبل، وكان الهزال يشتد بها يوماً بعد يوم. كان سكان البيت يخشون بواب بيتهم هذا ويكرهونه في كل أموره، ولكنهم كانوا يأسون له في أمرٍ واحد: فقد كانوا يستبشعون أن يضطر رجل له هذه القوة المتفجرة إلى الحياة مع امرأة عجوز. والحقيقة أنها كانت تصغره بثماني سنوات، وتلك حقيقة عجز الجميع عن إدراكها. ولقد كانت في بعض الأحيان تتهيأ لتطبخ أكثر من طاقتها، فلا يتم الطعام كله عندما يعود إلى البيت، وكثيراً ما كان يصبر خمس دقائق بتمامها وكمالها، ولكن صبره كان يفرغ، فينهال عليها ضرباً قبل أن يشبع. وهي قد ماتت على يديه، ولكنها كانت ستموت من تلقائها في يم من الأيام القليلة التالية. وهو لم يُعتبر قاتلاً. وكان منظرها على فراش الموت، الذي نصبه لها في الحجرة الكبيرة، حقيقٌ بأن يثير الإحساس بالخجل من المعزين الذين أتوا ليلقوا عليها النظرة الأخيرة، فقد تمددت هزيلة هزالاً منكراً.

وفي اليوم التالي على الدفن بدأ شهر النعيم بالنسبة إليه. فأطلق لنفسه العنان أكثر من ذي قبل في التصرف مع ابنته على سجيته. فكان قبل أن يخرج إلى عمله يقفل عليها الباب بالمفتاح حتى تعكف على الطبخ وحده دون ما سواه. ولهذا كانت تبتهج عندما يعود إلى البيت ويتهيأ ليفتح الباب الموصد، رافعاً عقيرته: « ماذا تفعل المعتقلة؟ » ثم يدير المفتاح في القفل . وكانت تبتسم ابتسامه ترتسم على وجهها الشاحب، لأنها كانت تعرف أنها ستخرج لتشتري لوازم اليوم التالي. وكان ذلك شيئاً محبباً إلى نفسها. كان عليها أن تبتسم حتى تحصل من الجزار على لحم أفضل. وكان الأب يعتبر اللحم الرديء جريمة. فإذا حدث أن زاد غيابها في شراء الحاجيات عن نصف ساعة، تملكت الشراسة الأب الجائع عند عودتها إلى البيت وأوسعها رفساً وركلاً. ولما لم يحقق من وراء شراسته شيئاً، فقد كان غيظه يتعاظم ويفسد عليه مساءه الذي بدأ بداية نكراء. فإذا بكت بكاء شديداً، طابت نفسه، وسار برنامجه سيره العادي. ولكنه كان يفضل أن تعود دون تأخير، بل إنه كان يسرق من النصف ساعة

خمس دقائق، فما تكاد البنت تخرج، حتى يقدم الساعة خمس دقائق، ويضعها على السرير في الغرفة الصغيرة، ويذهب هو إلى المطبخ الجديد، ويقف عند الفرن فيشم الأطعمة دون أن يقدم أدنى مساعدة. ويرهف أذنيه الضخمتين الكثتين مترقباً عودة ابنته بخطواتها الهشة. فقد تعلمت أن تخطو خطى لا يدركها السمع خشية أن تكون النصف ساعة قد انقضت، وكانت إذا بلغت الباب ألقت نظرة يائسة إلى الساعة. وكانت تتمكن أحياناً من التسلل إلى السرير على الرغم من الخوف الذي كانت هذه القطعة من الأثاث تبثها فيها، فتؤخر الساعة بحركة خاطفة هيابة بضع دقائق. ولكنه كان في أكثر الأحوال يسمع خطوتها مهما رقت، ويسمع أنفاسها اللاهثة التي لا تخطئها الأذن، فيفاجئها في منتصف الطريق، وكانت المسافة حتي السرير خطوتين بالتمام والكمال.

وربما حاولت أن تتملص وأن تندفع بسرعة حاذقة لتذهب إلى الفرن فتؤدي بعض الأعمال. كان بالها مشغولاً ببائع نحيل البدن واهن الصحةيعمل في الجمعية الاستهلاكية، كان يقول لها « أهلاً يا سيدتي، تحت أمرك»، يقولها بصوت أشد انخفاضاً من صوته عندما يقول العبارة نفسها للسيدات الأخريات، وكان يتفادى نظراتها الخجولة. أما هي فكانت تحرص على أن تطيل بقاءها في هذا المكان الذي يكونان فيه معاً، فتدع السيدات اللاتي يقفن في الطابور خلفها يتقدمن عليها على نحو لا يلفت الأنظار. كان أسود الشعر، وأهداها ذات مرة سيجارة عندما كان المحل قد خلا لحظة من الزبائن . فلفتها بورقة حرير حمراء، كتبت عليها بحروف لا تكاد العين تدركها تاريخ وساعة الإهداء، واحتفظت باللفافة اللامعة في الموضع الوحيد من جسمها الذي لا يهتم به أبوها، فوق قلبها تحت نهدها الأيسر. وكانت تخشى على اللفافة اللكمات أكثر مما تخشى الركلات: كانت عندما ينهال عليها بالركلات تتمدد على بطنها، وتتشبث برقدتها حتى ينتهي من ركلاته، فلم يكن يصيب السيجارة شيء ؛ أما إذا انهال عليها باللكمات، فقد كانت قبضتاه تصلان إلى كل موضع، وكان قلبها إذذاك يرتعد من تحت

السيجارة. ولو وصلت قبضته إلى السيجارة ففتتها، لانتحرت. ولقد ظلت تحب سيجارتها حتى جفت من فرط الحب، واستحالت إلى تراب، فقد كانت تفتح اللفافة في أثناء ساعات حبسها الطوال، فتتأملها، وتمسح بيدها عليها، وتقبلها. وبقيت حفنة التبغ كاملة لم تتبدد منها حبة تراب واحدة.

كان فم الأب في أثناء تناول الطعام يتصاعد منه البخار، وكان ضباه المضّاغان لا يشبعان مثل ذراعيه. وكانت هي دائماً تقف يقظة لكي تملأ صحنه بالطعام بسرعة قبل أن يفرغ، أما صحنها فيظل خالياً. وربما خشيت فجأة أن يسألها لماذا لا تأكل، وكانت كلماته ترهبها أكثر من أفعاله. فهي لم تبدأ في فهم كلامه إلا بعد أن كبرت، أما أفعاله فكانت تنصب عليها منذ لحظاتها الأولى في الدنيا. ولو سألها لقالت، لقد أكلت يا أبي. كل أنت. ولكنه لم يسألها هذا السؤال مرة واحدة طوال سنوات حياتهما المشتركة. كان عندما يمضغ يلوح مشغولاً، وكانت عيناه تثبتان على الصحن محملقتين مذهولتين. فإذا نقصت كومة الطعام في صحنه ظل بريقهما يتناقص حتى يتلاشى. كانت عضلات المضغ تغضب عندما إذا أعطيت شغلاً قليلاً، ثم ما تلبث أن تنفجر صارخة. والويل للصحن إذا خلا من الطعام ! كان من الممكن أن يمزّقه بالسكين، وأن يخرّقه بالشوكة، ويحطمه بالملعقة، ويفتته بالصراخ. ولكن ابنته كانت تحتاط لذلك فتقف بجانبه، وتراقب في يقظة متوترة حركاته كيف تنعكس على جبهته. فإذا لاحظت بين حاجبيه أول إرهاصة بتقطيب أسرعت باستكمال ما فرغ من الصحن بغض النظر عن الكمية التي تكون فيه. فقد كان تقطيب جبينه يفصح عن نفسه بسرعات متباينة بحسب مزاجه. هذا ما تعلمته. كانت في البداية، بعد موت أمها تقدم إليه الطعام كما كانت تقدمه إليه فتملأ الصحن كلما فرغ. فلم ترضه طريقتها، وساء المنقلب، لأنه كان يطلب من الإبنة أكثر مما يطلب من الزوجة. وما لبثت أن تعلمت وأتقنت، وأصبحت تقرأ على جبينه نزواته. كان في بعض الأيام يأكل صامتاً حتى يفرغ، فإذا فرغ من الطعام ظل يمصمص حيناً، وكانت

ترهف السمع إلى المصمصة، فإذا مصمص في عنف وأطال، بدأت فرائصها ترتعد، فقد كانت تلك إشارة إلى أن الليلة ستكون ليلة نكراء، لهذا كانت تستخدم أرق الكلمات وأنعمها محاولة إقناعه بأن يأكل كمية أخرى. ولكنه كان في أغلب الأحيان يمصمص راضياً ويقول:

ـ « الإنسان له فلذة كبد. من هي فلذة كبدي؟ إنها المعتقلة ! »

وكان في أثناء ذلك يشير إليها، ولا يشير بإصبع السبابة بل بقبضته مضمومة. وكان عليها عندما يقول كلمة « المعتقلة » أن تحرك شفتيها صامتة مبتسمة راسمة مخارج الحروف معه. ثم تنحاز جانباً. وكان حذاؤه الثقيل ذو الرقبة يندفع نحوها.

ويقول:

ـ « الأب له حق.... »

فتكمل الجملة على طريقة المدارس بصوت رتيب عال، على الرغم من أن إحساسها كان خافتاً أشر الخفوت « ... في حب ابنته »

ويقول وهو يمد ذراعيه:

ـ « ليس لدى البنت وقت... »

فتكمل:

ـ « ... للزواج »

ـ « الذي يطعمها... » « ... هو أبوها الطيب »

ـ « الرجال... » « لا يريدونها »

ـ « ماذا يفعل الرجل.. » « ببنت عبيطة؟ »

ـ « الآن يقوم الأب... » « ... بالقبض عليها »

ـ « على حجر الأب تجلس... » « ... البنت المطيعة »

ـ «الرجل تعب من... » « ... البوليس »

ـ « إذا لم تطع البنت... » « ... ضُربت »

ـ « الأب يعرف لماذا... » « ... يضربها »

ـ « إنه لا يضربها أبداً ضرباً... » « يؤلمها »

ـ « إنها هكذا تتعلم... » « ... الأدب مع الأب »

ويقبض عليها، ويجذبها ليجلسها على حجره، ويقرصها بيده اليمنى في قفاها، دلالة على أنها مقبوض عليها، ويستعين بيده اليسرى على إخراج التجشوء من حلقومه. وكانت الحركتان باليدين ترضيانه. كانت تعبيء قدراتها العقلية الضيقة لكي تكمل عباراته إكمالاً صحيحاً، وتحذر من البكاء . كان يداعبها ساعات طوال. وكان يعلمها حركات من اختراعه، فيدفعها تارة إلى هذه الناحية، وتارة إلى تلك، ويبرهن لها أن في استطاعتها أن تغلب أي مجرم بضربة خفيفة في بطنه، فأين الإنسان الذي لا يغمى عليه إذا تلقى مثل هذه الضربة؟

واستمر شهر العسل هذا ستة أشهر.. فقد جاء يوم أحيل فيه الأب إلى المعاش، ولم يعد يذهب إلى عمله، وتهيأ للتصدي للشحاذين المقيتين الذين يحاولون دخول البيت. وهداه تفكيره العميق أياماً طوالاً إلى عمل ثقب للتلصص في الباب على ارتفاع خمسين سنتيمتراً فوق الأرض، وشاركت البنت في التجارب التي أجراها ليختبر فعالية هذا الثقب في اكتشاف

القادم دون أن يشعر، فأمرها بأن تروح وتجيء من باب البيت إلى السلم، وهو ينظر إليها من خلال ثقب التلصص، وظلت تقطع المسافة في أثناء هذه التجارب مرات لا تعد ولا تحصر حتى بلغ بها التعب كل مبلغ. وكان يصرخ فيها: «على مهلك !» أو « اجري !». ثم أجبرها على أن تلبس بنطلونه القديم وأن تمثل دور عنصر مشبوه ذكر. وانهال عليها بالصفعات التي أعدها لمثل هذا العنصر المشبوه. فما نظر من خلال ثقب التلصص الذي ثقبه لتوه فلمح بنطلونه حتى هب غاضباً، وفض الباب عنوة، وانهال على البنت بضربات شيطانية حتى تكومت على الأرض. ولقد اعتذر لها فيما بعد، وكأنما كانت تلك هي المرة الأولى التي يهري فيها بدنها، فقال: « لابد أن أتصرف معك على هذا النحو لأنك أنت في هذه الحالة العنصر المشبوه. لابد من القضاء على الحثالة قضاء مبرماً. لو أخذنا بالكياسة لكان علينا أن نقطع رؤوسهم. إنهم حملٌ علينا. يأكلون في السجون حتى تمتليء بطونهم. والدولة تدفع وتنزف على عيون الأشهاد. سأفتك بالحشرات. وليعلم الفيران أن القط الآن في البيت. على الفيران أن تختبيء في جحورها. أنا القط الأحمر. سألتهمهم، وأفتك بهم. لابد أن يحس الحثالة بالنعال تطؤهم حتى تقضي عليهم.» ولقد أحست هي بهذه الوطأة وتطلعت فرحة إلى المستقبل الجميل الذي ينتظرها. لن يحبسها في البيت بعد الآن، لأنه سيكون في البيت. سيراها طوال النهار، وسيسمح لها بأن تبقى وقتاً أطول عند شراء الحاجيات، ربما أربعين أو خمسين دقيقة، أو ساعة كاملة، لا، ليس إلى هذا الحد، ولكنها ستذهب إلى الجمعية الاستهلاكية، وستتحرى الوقت الذي يكون المحل فيه خالياً، لكي تشكر الرجل على السيجارة التي أهداها إياها قبل ثلاثة أشهر وأربعة أيام، وكانت عندما تلقتها قد اضطربت فلم تنبس ببنت شفه، ثم كانت بعد ذلك تجد دائمة كثرة من الناس في المحل فلا تجرؤ على الكلام، ولم توجه إليه شكراً، فماذا يقول عنها. ولكنه لو سألها عن طعم السيجارة فستقول: طعمها جيد، وستقول إن الأب أوشك أن ينتزعها منها، وإنه قال عنها إنها أرقى نوع، وإنه يحب أن يدخنها هو نفسه.

والحق أن الأب لم ير السيجارة رأي العين ؛ ولكنها لا تجد غضاضة في الحديث على هذا النحو، إنها تريد أن تشكر السيد فرانتس الأسود، وأن تقول له إن السيجارة من النوع الراقي، فالأب يفهم في السجائر. ولعلها تتلقى سيجارة أخرى، ولو تلقتها لدخنتها في المحل على الفور. فإذا دخل أحدهم وهي تدخنها، فستدير له ظهرها، وستلقي السيجارة من فوق المنضدة على الأرض، ولسوف يطفئها هو قبل أن تحدث حريقاً، فهو ماهر محنك، يدير الفرع وحده في الصيف، عندنا يأخذ الرئيس إجازته. والمحل يخلو من الناس بين الساعة الثانية والساعة الثالثة. وعليه أن يحرص على ألا يراه أحد عندما يقدم إليها السيجارة ؛ وهو يمد إليها عود الثقاب، فتشتعل السيجارة. وستقول له أنا سأحرقك، فيخاف، فهو رقيق أشد الرقة، ولقد كان دائماً عليلاً طوال طفولته، وهي تعرف ذلك. ما توجه السلاح نحوه حتى تصيبه. فيصرخ آه، يدي، تؤلمني ! فتقول له: من الحب، وتجري عنه وتعود أدراجها. وعندما يرخي الليل سدوله يأتي ليخطفها. جرس الباب يدق، والأب نائم. تذهب لتفتح الباب . ستأخذ النقود معها. لن تلبس معطف الأب القديم، بل ستلبس على عجل فوق قميص النوم معطفها هي الذي منعت من لبسه . لا. وسيكون منظرها منظر عروس عذراء. من هذا الذي يقف أمام باب البيت؟ إنه هو. وهذه عربة حنطور يجرها أربعة خيول دُهْمٌ تنتظر، هاهوذا يقدم إليها يده، ويقبض بيسراه على سيفه، فهو فارس، ينحني لها. وهو يلبس بنطلوناً مكوياً، ويقول لها: « هأنذا قد أتيت. لقد حرقتني. أنا الفارس النبيل فرانتس. » لطالما فكرت في أنه أجمل من أن يعمل في جمعية استهلاكية، إنه فارس متخفٍ. وهو يطلب إليها أن تسمح له بأن يقتل أباها، دفاعاً عن كرامته. فتتوسل هي إليه: « لا يا صاحب السعادة، لا، إنه قاتِلُكَ. » فيدفعها إلى جانب، وينتزع من الحقيبة ما بها من نقود كثيرة، وينشرها أمامه، ويحملق فيها بنظرات ثاقبة. ألا في سبيل الكرامة ما هو فاعل. وهاهوذا يقطع رأس الأب بضربة مفاجئة في الغرفة الصغيرة، ويفصله عن جسمه، فتبكي، من فرط البهجة، ليت أمها المسكينة شهدت هذه اللحظة ! لو شهدتها لكانت اليوم بين الأحياء. ويحمل

السيد الفارس فرانتس رأس الأب الأحمر معه. ويقول لها عند باب البيت: « يا صاحبة العصمة، هذه هي المرة الأخيرة التي تفتحين فيها الباب، إنني أختطفك وآخذك إلى البيت ». ثم تركب بقدمها الصغيرة الخنطور، ويساعدها في الركوب، ويكون لها أن تجلس في داخلها حيث المكان فسيح. ويسألها: « هل أنت رشيدة؟ » فترد قائلة: « نعم تجاوزت العشرين. الناظر إليها لا يرى عليها طابع السنوات العشرين، فقد كانت حتى مساء هذا اليوم الطفلة التي تجلس على حجر أبيها. (والحقيقة أنها في السادسة عشرة - ليته لا يلحظ ذلك !) إنها تريد زوجاً على أي نحو حتى تخرج من البيت. وهذا هو الفارس الأسود الجميل ينهض في قلب العربة الخنطور وهي تسير ويرتمي عند قدميها.إنه يريد أن يتزوجها، يتزوجها هي دون غيرها، ولو لم يتزوجها لتحطم قلبه الجريء. ويغلبها الحياء، وتمسح بيدها على شعره، وهو شعر أسود. وهو يعجب بمعطفها ويراه جميلاً، ستلبسه إذن دائماً حتى يحين حينها، وهومعطف جديد. وتسأله: « إلى أين نحن ذاهبان؟ » والخيول تضرب الأرض بأرجلها، وتنفث في الهواء زفرات صاخبة. والمدينة تعج بالبيوت. ويرد عليها قائلاً: « إلى أمك، فينبغي أن تفرح في قبرها. » وتقف الخيول في القرافة، هذا هو قبر الأم في أولها. وهذا هو شاهد قبرها. ويضع الفارس فرانتس رأس الأب عند الشاهد، فتلك هديته التي يقدمها إلى الأم. ويسألها الفارس: « ألم تحضري معك شيئاً لأمك؟» يا لخجلها ! يا لخجلها ! هو يحضر لأمها هدية، وهي لا تأتيها بشيء. ولكنها تدبر أمرها، وتخرج لفافة حمراء صغيرة من تحت قميص نومها، فيها سيجارة الحب، فتضعها عند شاهد القبر بجانب الرأس الأحمر. وتفرح الأم بالصغيرين السعيدين. ويركع الاثنان أمام قبر الأم ويطلبان منها المباركة.

ويركع الأب أمام ثقب التلصص، ويمد يده من لحظة إلى أخرى إليها، ويجذبها نحوه، ويضع رأسها أمام الثقب، ويسألها هل ترى شيئاً، ولقد أجهدتها التجارب المطولة أشد الإجهاد، فلم تعد عينها ترى في فسحة المدخل إلا زغللة، فترد على أية حال قائلة: نعم، فيصرخ فيها

الأب، المقطوع الرأس، قائلاً: « نعم، ماذا ! ». إنه لا يزال حياً، كامل الحياة. ولسوف يدهش في هذه الليلة عندما تقف العربة الخنطور أمام باب البيت. وهو يسخر منها ويتعوج عليها: « نعم ! نعم ! » ثم يقول: أيكون العمى قد أصاب عينيك !. أتكون ابنتي أنا عمياء ! أعيد عليك السؤال : « ماذا ترين؟ ». وما تزال تركع أمام الثقب حتى تجد له العنصر الذي يسأل عنه. وكان العنصر الذي اشتبه فيه مجرد بقعة على الحائط المقابل.

وهذا هو الأب يتعلم أن يرى الدنيا على نحو جديد من خلال ثقب التلصص الذي اخترعه، وهو يجبرها على أن تشاركه اكتشافاته، ويقول لها إنها لم تتعلم إلا القليل، وإنها لا تعرف شيئاً، وإن الدولة تتحمل بعبئها حتى يموت، يعني بعد أربعين سنة - فكل إنسان مصيره الموت يوماً. وتلك جريمة لا يرضى بأن تقع مغبّتها عليه. لهذا جاء قراره بأن يفرض عليها أن تفهم على نحوٍ ما شغل البوليس. وهو يشرح لها صفات السكان، ويوجه انتباهها إلى البنطلونات والچيبات وما بينها من اختلافات وفروق، ويشرح لها أهمية التعرف عليها بالنسبة للجرائم. وهو في معرض حماسه في التعليم، يكلف شحاذاً أحياناً بالمرور، ويلومها أشد اللوم على عدم تنبهها إليه. وهو يقول لها إن السكان في البيت أفضل من الشحاذين، ولكنهم عناصر مشبوهة هم أيضاً. فما الذي يقدمونه إليه في مقابل الحماية الخاصة التي يمنحها للبيت؟ إنهم يستولون على ثمرات عرقه، وبدلاً من أن يشكروه، يتقولون عليه. كما لو كان قد قتل إنساناً. فلماذا يشتغل بدون مقابل؟ لقد أحيل إلى المعاش ويمكنه أن يرقد في فراشة ويتقلب تقلب الكسالى، أو أن يجري وراء النساء، أو يرتاد الخمارات، لقد كد طوال حياته، ولو قضى وقته في الراحة والكسل الآن لكان ذلك من حقه. ولكنه إنسان عنده ضمير. وهو - أولاً- يقول لنفسه إنه يمتلك إبنة عليه أن ينفق عليها، ولا يسمح له قلبه أن يتركها في البيت وحدها ! سيبقى معها، وستبقى معه. فرب الأسرة الطيب يربط ابنته إلى قلبه. ولقد بقيت نصف عام كامل وحدها، منذ أن ماتت أمها، فقد كان عليه أن يذهب إلى شغله،

والشغل في البوليس صعب. والدولة - ثانياً - تدفع له معاشاً. الدولة ملزمة بدفعه إليه، ولا يمكنها التهاون أو التقاعس عن دفع المعاشات، حتى إذا ضاقت السبل أمام الدولة في كل ناحية، فإنها تدفع المعاشات أولاً. ورُبَّ إنسانٍ يقول: لقد اشتغلت بما فيه الكفاية ويركن إلى الراحة. ولكن إنساناً آخر يقول إنني ممتن للحصول على المعاش ولكنه يعمل متطوعاً. هذا الإنسان وأمثاله هم أفضل البشر. إنهم يصطادون الأشرار حيث يثقفونهم، فيتصرفون معهم نصف التصرف البوليسي، فليس من حقهم أن يتصرفوا معهم التصرف البوليسي الكامل، ولكن الدولة على أية حال تفيد من ذلك فتقل مشاغلها. هذا ما يسمونه تخفيف الأعباء، لأن الأعباء تُرفعَ عن كاهل الدولة . ولابد أن يظل البوليس متضامناً، برجاله العاملين ورجاله المحالين إلى المعاش، فلا يجوز أن تحال أمثال هذه الضمائر إلى المعاش أبداً. فلا سبيل لتعويضعها، وإذا هي ماتت، خلفت من ورائها فراغاً.

وتعلمت البنت المزيد يوماً بعد يوم. كان عليها أن تحتفر في ذهنها تجارب الأب، وأن تعين ذاكرة الأب إذا أصابها الوهن، فما جدوى أن يكون للإنسان بنت تلتهم أجمل جزء من المعاش؟

وانتقل بها إلى مرحلة تالية، فإذا ظهر متسول جديد أمرها أن تنظر من خلال ثقب التلصص، ولم يطلب إليها أن تقول إذا كانت تعرفه، بل سألها: « متى كان هنا آخر مرة مرة؟ ». نصب الفخاخ مفيد في التعليم، وبخاصة بالنسبة إليها، فما أكثر ما كانت تقع في الفخاخ. فإذا ما أنهى موضوع التسول، حدد العقوبة الدقيقة المناسبة لإهمالها، ونفذها على الفور. والإنسان لا يحقق شيئاً دون أن يضرب ضرلاً مبرحاً. والإنجليز في هذا المجال شعب هائل.

ووصل بينيدكت بفاف بابنته شيئاً فشيئاً إلى حيث استطاعت أن تنوب عنه، وأصبح منذ ذلك الحين يسميها «بوليـ »، وكان يعتبر هذه التسمية - التي اختصر فيها كلمة بوليس -

لقباً من ألقاب التكريم، عبر به عن صلاحيتها لممارسة مهنته. والحقيقة أن اسمها كان أنّه Anna، ولكن الاسم لم يكن يحرك فيه ساكناً، ولهذا لم يستخدمه قط، وكان على أية حال عدواً للأسماء. وكان يفضل عليها الألقاب ويرتاح إليها. فلما ماتت الأم، مات اسم أنّه، وظل نصف عام ينادي ابنته بـ «أنت» أو «البنت الشاطرة». ومنذ أن أطلق عليها لقب پولي، أصبح فخوراً بها، وفكر في أن النساء يصلحن لشيء، وأن الرجل ينبغي أن يعرف كيف يجعل منهن « پولي+ ـات»

وتطلبت الرتبة الجديدة منها خدمة أكثر مشقة. فقد كانت تظل طوال اليوم قاعدة أو راكعة على الأرض مستعدة لتحل محله، وكان يحدث أحياناً أن يختفي لحظات، فكانت تقوم مقامه، فإذا ظهر لها من ثقب التلصص شحاذ أو بائع جائل، فقد كان واجبها يفرض عليها أن تعطله بالقوة أو الحيلة إلى أن يأتي الأب ويتولاه. وكان الأب يسارع إلى إنجاز هذه المهمة، وكان يحب أن يقوم بها كلها وحده. ويكفيه منها أن تنظر. وأصبح أسلوب حياته الجديد يحقق ذاته على نحو متزايد. وفقدت وجبات الطعام أهميتها بالنسبة إليه، وتضاءل جوعه. وما مرت بضعة أشهر حتى اقتصر نشاطه، والمتنفس الذي كان يتيحه لنفسه على بعض العناصر الجديدة. فقد كان كل الذين ما زالوا يمارسون التسول يتحاشون بيته تحاشيهم للجحيم، فقد عرفواماينتظرهم. أما معدته المخيفة التي كان يعلق عليها أهمية كبيرة فقد سلكت سبيل التواضع. واختصر وقت الطهي الذي كان يخصصه للبنت يومياً إلى ساعة واحدة. فلم يعد يسمح لها بأن تلم بالحجرة الخلفية إلا لتلك الفترة. أما البطاطس فكان يأمرها بأن تقشرها بجانبه، كذلك تجهيز الخضروات، وبينما كانت تقعد بجواره وتدق لحم طعام الغذاء حتى يلين كان يتمتع هو بدق لحمها بلكماته. ولم تكن عينه تنظر إلى أيدي الناس بل كانت تتركز على الأرجل، تلاحقها محملقة جامدة، الأرجل التي تدخل أو تخرج.

وسمح لپولي بربع ساعة فقط لشراء الحاجيات لأنه أصبح يأكل نصف ما كان يأكله من قبل. ولما كانت قد تعلمت المكر في مدرسة أبيها، فكثيراً ما كانت تتنازل عن رؤية فرانتس الأسود يوماً، وتلزم البيت، حتى تتيح لنفسها في اليوم التالي ربعي ساعة. ولكنها لم تختل بالفارس قط. فكانت فيما بينها وبين نفسها تنطق متلعثمة في سرها بكلمات الشكر على السيجارة. لعله قد فهم نيتها، فقد كان لشدة تحفظه يبعد بعينيه عنها. وكانت تقضي الليل مسهدة عندما كان أبوها يغط في سبات عميق. ولكن الفارس لم يدق جرس الباب قط. ربما تطلبت الاستعدادات وقتاً طويلاً، وإذا كانت قد حرقته فلابد أن يسرع، والنساء تتزاحم في الجمعية الاستهلاكية دائماً أبداً. ولقد جمعت أمرها على أن تهمس إليه بسرعة عندما يكتب لها البون: « شكراً. ليس من الضروري أن تأتي بعربة حنطور. ولكن لا تنس السيف ! »

وذات يوم وقفت النساء أمام باب الجمعية الاستهلاكية يسترسلن في لغو ولغط: « لقد هرب فرانتس ». « انه من عائلة سيئة » « أخذ معه الخزينة بكل ما فيها ». « لم يكن يجرؤ على أن يرفع عينيه وينظر إلى إنسان في وجهه مباشرة ». « ٦٨ شيللن بتمامها وكمالها ». «عقوبة الإعدام مطلوبة في مثل هذه الحالة». « هذا ما يردده زوجي منذ سنين ». وتندفع إلى داخل الجمعية فتسمع المدير وهو يقول: « البوليس يتعقبه»، ويقول إنه هو المسئول لأنه تركه في المحل وحده، أربع سنوات بطولها عاث النذل في المحل فساداً، من الذي كان يتصور أنه على هذا الخلق، لم يلحظ إنسان شيئاً من الخطط التي كان يدبرها، فقد كانت الحسابات دائماً مضبوطة، أربع سنوات كاملة، والبوليس اتصل بي تليفونياً وأكد لي أنه سيكون وراء القضبان قبل الساعة السادسة.

وصاحت پولي:« ليس هذا صحيحاً »، وراحت تبكي- « أبي نفسه في البوليس ».

ولم يحفل بها أحد إلا قليلاً، لأن الموضوع كان موضوع نقود ضاعت. وعادت إلى البيت

تجري بشنطة شراء خاوية، وحبست نفسها في الغرفة الخلفية دون أن تحيي أباها. وانتظر ربع ساعة لأنه كان مشغولاً، ثم نهض وأمرها بالخروج، ولاذت بالصمت، فصرخ فيها: «پولي. پولي.» فلم يتحرك ساكن. فوعدها بألا يعاقبها، وهو ينوي في سره نية قوية أن يضربها علقة تصل بها إلى ثلاثة أرباع الموت، أو إلى الموت الكامل، إذا فتحت فمها بشيء من الاعتراض. وبدلاً من أن يسمع رداً منها، سمع صوت سقوط، واشتد به الغيظ عندما أدرك أنه مضطر إلى أن يفسخ بابه.. وصرخ بحسب العادة: «باسم القانون!»، ووجد البنت ممدة على الأرض صامتة جامدة أمام الفرن، وقبل أن ينهال عليها بالضربات، هزها عدة مرات. كانت مغشياً عليها، ففزع، فقد كانت صغيرة السن، ولعله كان يعزها. وأمرها عدة مرات أن تفيق إلى نفسها. وأثاره صَمَمُها على الرغم منه وهمّ أن يضربها، ورأى أن يبدأ بجزء من جسمها أقل حساسية من غيره، وهنا وقع بصره على شنطة الشراء، وتبين أنها خاوية. فظن أنه عرف كل شيء. فقد تصور أنها ضيعت الفلوس، وأنها استبد بها الخوف، ووجد الخوف في هذه الحالة مقبولاً. فهو لم يكن يفهم المزاح في مثل هذه الأمور. لقد خرجت من البيت ومعها ورقة مالية من فئة العشرة شلنات. لا يمكن أن تكون الفلوس كلها ضاعت؟ وأخذ يفتشها تفتيشاً دقيقاً. لأول مرة يلمسها بأصابعه، فلم يكن من قبل يلمسها إلا باللكمات. وعثر على لفافة خمراء صغيرة فيها تراب سجائر. فمزقها ورماها في الزبالة. وفي النهاية فتح كيس النقود. كانت ورقة العشرة شلنات موجودة به. سليمة لم يتمزق منها ركن واحد. هنالك عاد إلى ما كان عليه من قبل من جهل. ودفعته الحيرة إلى أن يضربها علقة تعيدها إلى وعيها. فلما أفاقت، كان يتصبب عرقاً، فقد أخذ بالحذر في ضربها، وانسابت دموع كثيفة من فمه. وصرخ فيها:

- پولي. پولي. النقود موجودة لم تضع.

وردت عليه بحزم وفتور:

ـ اسمي أنّه.

وعاد يناديها:

ـ پولي.

ومسه صوتها عن كثب، وتكورت راحتاه إلى قبضتين، وتملكته انفعالات رقيقة، وقال لها بنبرة الشكوى:

ـ ماذا سيأكل الأب الطيب اليوم؟

فقالت:

ـ لا شيء.

ـ لابد أن تطبخ له پولي شيئاً.

فصرخت البنت:

ـ أنّه. أنّه.

وفجأة انتفضت من رقدتها، وهبت واقفة، وسددت إليه لكزة لو تلقاها أي أب آخر غيره لانكفأ على الأرض، وأدرك ما جرى، أما هي فعدت إلى الغرفة الصغيرة، وكان بابها محطماً، وإلا لكانت حبسته وقفلت عليه بالمفتاح، وقفزت بحذائها فوق السرير لتكون أطول منه قامة، وصرخت:

ـ سيكلفك هذا رأسك. پولي جاءت من الپوليس. ستنال الأم رأسك.

وفهم مقصدها. كانت إذن تهدده بأن تبلغ عنه. فلذة كبده تريد أن تشي به. من أجل من كان إذن يعيش؟ من أجل من ظل رجلاً جاداً؟ اقد ربى على صدره عنصراً إجرامياً من نوع الثعابين. وقال في نفسه إنها تستحق المشنقة. (هو) يجهز لها اختراعه حتى تتعلم شيئاً، الآن، في هذا الوقت الذي تمتد أمامه فيه الدنيا والنساء، (هو) يبقى معها بدافع الشفقة، ولأن روحه طيبة. و(هي) تريد أن تدّعي أنه ارتكب فعلاً ظالماً. إنها ليست ابنته. لابد أن زوجته خانته. لم يكن من السفاهة إذن أنه ضربها ضرباً مبرحاً، كان يشم دائماً في أنفه رائحة الخيانة. لقد ضيع أمواله طوال ست عشرة سنة على بنت مزيفة. لو أنه اشترى بيتاً لما كلفه ما كلفته. إنها الإنسانية تسوء عاماً بعد عام. لم يبق إلا أن يلغوا البوليس ويجعلوا للمجرمين السلطة. حينذاك ستقول الدولة: أنا لن أدفع المعاشات، ثم تكون نهاية العالم. والإنسان له طبيعة واحدة. المجرم يفرض نفسه هلى ما حوله وصاحب الأمر ينظر.

لم يكن قبل اليوم يصل في تسلسل استنتاجاته إلى صاحب الأمر. فقد كان يكن الاحترام للسلطة العليا التي يتبعها. كان صاحب الأمر بالنسبة إليه فوق رئيس البوليس. وكان هذا سبباً أقوى لما استبد به من إحساس بالخطر الذي بلغ اليوم هذا الحد. ولقد جذب بنت زوجته من السرير إلى الأرض، وظل يضربها حتى سال دمها. ولكنه لم يشعر بمتعة حقيقية وهو ينهال عليها ضرباً. كان يشتغل آلياً، وكان الكلام الذي يصرخ به مشحوناً بالكمد والحزن الكامن. وكان الضرب الذي ينهال به عليها يتناقض مع صوته. فقد ولت عنه شهوة الصراخ فلم يبق منها أثر. ولقد أخطأ مرة في أثناء الصراخ فذكر اسم واحدة اسمها پولي. ثم تولت عضلاته تصحيح الخطأ على الفور. كان اسم المرأة التي يكيل لها الضرب هو أنّه. وكانت تدعي أن هناك تطابقاً بينها وبين ابنة له. ولكنه لم يكن يصدقها بحال. وسقط شعرها من فرط الشد، فلما حاولت التصدي انكسر إصبعان من أصابعها. وتحدت رأسه العنيد، ووصمته بأنه جزار نذل، وسبت البوليس، ورأى أن أفضل تربية لا قدرة لها على تغيير الفطرة السيئة. لقد

كانت الأم تافهة، معتلة الصحة، تهاب الشغل، وفي مقدوره الآن أن يبعث بالبنت إلى أمها، فمكانها هناك حيث الأم. ولكنه لم يكن الرجل الذي يفعل ذلك. فتخلى عن الفكرة وذهب إلى المطعم ليأكل هناك.

منذ ذلك اليوم أصبحا مجرد جسدين أحدهما حيال الآخر. كانت أنّه تطبخ وتشتري الحاجيات، وكانت تتحاشى الذهاب إلى الجمعية الاستهلاكية، وكانت تعلم أن فرانتس الأسود في الحبس، كان الرأي عندها أنه سرق، ولكنه أساء التصرف، فالفارس مفروض أن ينجح في كل شيء. وهي لم تعد تحبه بعد أن ضاعت سيجارته. وبقي رأس الأب ثابتاً فوق رقبته ثبات الطود، وظلت عيناه تتسولان متسولاً من خلال ثقب التلصص. وأثبتت له احتقارها بأن تجاهلت وجود اختراعه وكأنها لم تعد تراه. وزاغت من مدرسته. وكان فمه كل بضعة أيام يتفجر بملحوظات جديدة. كانت تؤدي عملها، تجثو إلى جواره، وتسمع في سكون وتلوذ بالصمت. لم يكن ثقب التلصص يهمها في قليل أو كثير. فإذا عرض عليها في مبادرة للتوفيق نظرةً، هزت رأسها في غير اهتمام. وانتهت الأحاديث الودية التي كانت تتصل حلقاتها على المائدة. وكانت تملأ صحنها بالطعام عندما تملأ صحنه، وتجلس، وتأكل، وإن لم تكن تأكل إلا القليل، ولم تكن تضع على صحنه المزيد إلا عندما تحس بأنها قد شبعت. أما هو فكان يعاملها كما كان يفعل من قبل، وكان يفتقد فزعها، وكان يقول لنفسه وهو ينهال عليها بالضرب إنها لم يعد لديها شعور نحوه، واشترى بعد بضعة أشهر أربعة عصافير كناريا جميلة، كان ثلاثة منها ذكوراً، وعلق قدامها قفص الأنثى الصغير. وكان الثلاثة يغنون كأنما أصابهم مس من الهوس. وكان يمتدحهم امتداحاً ظاهراً، فما كانوا يشرعون في الغناء حتى يقفل ثقب التلصص بالغطاء، وينهض وينصت إليهم واقفاً. ولم يكن اندماجه يسمح له بأن يصفق عندما ينتهي غناء الغزل. ولكنه كان يهتف: «براڤو»، كان يعلق الأمل كل الأمل على غزل عصافير الكاناريا المتأجج. ولكن نشيدهم كان يعبر على السكون دون أن يحدث أدنى أثر.

وهكذا عاشت عدة سنوات خادمة لأبيها. وكان هو يترعرع ولم تكن قوته العضلية تقل بل تزيد. ولكن سعادته لم تكن السعادة الحقة. هذا ما كان يقوله لنفسه كل يوم. حتى في أثناء تناول الطعام كانت هذه الفكرة تعاوده. وماتت بالسل، مما أصاب عصافير الكناريا باليأس، لأنهم لم يكونوا يأكلون إلا ما تقدمه إليهم من طعام. ولكنهم عبروا الكارثة. وباع بينيدكت يفاف أثاث المطبخ، وجاء بالبنائين فسدوا الغرفة الخلفية بجدار. ووضع صندوقاً أمام الطلاء الجيري الأبيض الجديد. وعزف عن تناول الطعام في البيت إلى الأبد، فإذا ألمَّ بالبيت لزم موقعه في الغرفة، وتحاشى كل ذكرى تتصل بالغرفة الخالية بجانبه. في داخل تلك الغرفة فقد مشاعر ابنته، وما يزال حتى اليوم لا يعرف السبب.

إريكـــا ميـترر

Erika Mitterer

عروة وثقى

عروة وثقى

تربط الفارس مع من تحطمت سفينته :

فنزل عن حريته

عندما قفز في الماء .

فأحاط الغارق بزراعيه

رقبته .

فإما أن يطفو بالاثنين

فوق الماء

أو لا أحد .

حوار بين اثنين

يا لعب الكرة بالجمل الصغيرة،

الحادة، السهلة، جيئة وذهاباً،

ارتطام إيقاعي،

قفزة سريعة،

لفة حاذقة !

تسلية، تملأ الوقت

أفضل من كثير غيرها :

تصوغ أفكاراً .

بينهما

فجأة صمت، باختصار

نظرة فاهم

ومفهوم

زرقاء براقة

الزمن يظل واقفاً .

أمام الباب

طالما

وقفنا أمام الباب وانتظرنا

أن ينفتح ؛ أو أن يتناهى إلينا وقع خطى، أو

يبرق نور من ثقب الباب،

طالما

حدث هذا فالأمل قائم ؛ يسأل

بعضنا بعضاً : هل دققت الجرس ؟

ونحاول مع الزرار من جديد .

سكون بلا حياة . قد

لا يكون أحد في البيت ؟ قد

تحل عقدة التوتر في نداء

العائد إلى البيت، الذي يضحك

على السلم وقد انقطعت أنفاسه من التعب :

هل أنتم هنا ؟

انتظروا سأفتح لكم الباب .

فما يجوز

ألا يكون هناك أحد

(أبداً ؟)

يفتح لنا !

فقد أبلغناهم أننا قادمون .

ربما ضاعت

الورقة ...؟

فما يجوز

ألا يستقبلنا نحن

وراء الباب الحقير أحدٌ

نحن

الأشخاص المهمين جداً -؟

العفو عن قابيل

لماذا يا أيها الشعراء وفقهاء التوراة،

تتركوني، منذ آلاف مؤلفة من السنين،

أبكي على هابيل، الحبيب المحبوب،

الذي أعجب الجميع، حتى الرّب يهوى ؟

ـ لا ريب في أن عينيْ زرفتا الدموع مدراراً

عندما رأيته ميتاً،

ونزف قلبي دماً،

فالدموع تبريء الألم

والدماء تطهر الجرح .

هابيل، ابني، آمن في سلام .

ولكن أين قابيل ؟

إنه يهيم على وجهه في جنبات الأرض .

ولا يجد السكينة أبداً في أي مكان

لقد قتّرنا عليه الحب دائماً

أما كان له أن يكره

أخاه، السعيد، المقدام، المطمئن ،

الذي خلا قلبه من الحسد ؟

أين أنت يا قابيل، يا ابني المنكود ؟

عد إلى البيت !

إذا لم تكن تستطيع أن تموت، يا بني،

لأن الخطيئة تحفظك بقوة فظيعة،

ـ كذلك أنا لا أستطيع الموت ! عد إلى البيت !

لقد مات الجميع منذ وقت طويل .

وأكاد أقول إنني نسيتهم جميعاً

وقد بلغني الكبر والوهن .

أما أنت فتهيم على وجهك في مكان ما

تحت جناح اللعنة القديمة العتيقة ...

لم يعد الرب سبحانه ليغضب

إذا أنا ضممتك بين ذراعيْ . تعال،

أيها الحبيب الوحيد ! - فعندما تأتي

سنذهب معاً إلى حيث السكينة ..

كرســـتينه لافـــانت

Christine Lavant

سأقتسم خبزى مع المجانين

فتات كل يوم من رعب لا ينتهي

والجرس في قلبي يدق بعيداً

حيث الحمامة قد عششت

واتخذت لنفسها ملاذاً لطيفاً

في القفر فوق الماء.

أقمت طويلاً كأني حجر

على سرير من الصخر للأشياء.

ولكنني كنت أسمع دق الجرس

يحدّث في هدوء عن دروبك الخفية

في طيران السمك.

سأعلم نفسي الطيران والسباحة،

وأترك مع الأحجار كل تحجر،

وأواري في الأصداف أحزاني،

وأعظّم الغضب والران.

هذه أجنحتي أقدم من صبرك كله،

أجنحتي طارت وراء قرار جريء

احمِّل نفسي بالجنون.

سأقتسم خبزي مع المجانين

في قفر الحمامة الصموت

حيث يقسّم الجرسُ رعبي اللانهائي

أقساماً ثلاثة على صدى اسمك الثلاثي.

أبي، أنت جعلتني ثقيلة السمع

وأنت الآن تدع الأصوات الأخيرة القليلة

تخبو في المكان الذي ينبغي أن تقرقع الأشواك

فيه وتحترق في غموض.

هل ينبغي عليّ حقاً في وحدتي وخوفي

أن أتهيأ لاجتاز البحر الأحمر المر؟

ما الذي حدث لملاكي الحارس

ودعوات أمي الدائمة الدائبة

أمي الرقيقة الشجاعة؟

لم أعد وأنا بعد طفلة أؤمن بك

منذ أن لم تعد لدي القدرة على أن أسمعك،

وحفظت دفء قلبي

لأصوات البشرالذين كانوا أكثر قرباً مني.

دعني على الأقل أبقي على واحد منهم.

هل إذا لُكْتُ الشوك المحترق

واجتزت البحر الأحمر المر

وحدي، ستتيح لي

أن أكلم الناس من ورائه؟

كم تيأس روحى فى موعدها !

كل يوم في ساعتها المحددة

تنقض عليّ بغتة

وتطير بي بقوتها المفاجئة.

حولى يتطاير الشرر

وأدعو كل ملاك :

والسماء واسعة هائلة

ويسوع ينأى إلى بعيد،

هناك عند طرف العالم القصي

وكل معين بعيد المنال -

لا أمل لي إلا في صرخة نائية

ضد الريح المعاكسة على الساحل.

عندذلك أظن الجميع لا يسمعون،

أَلَمْلِمُ الشرر الذي يتطاير حولي

وأحس قلبي ينفجر باكياً

ويستحيل في صمت إلى حجر.

كرستينه بوستا

Christine Busta

طيور مهاجرة

كم من الطيور المهاجرة
لن تبلغ الأرض الدافئة أبداً ؟

هل تهرب طيور أخرى من البرد
وتلوذ بالأعشاش المهجورة؟

أين الوطن ، إذا كان الطائر ينتظر أمر السفر ؟
هل هو المكان الذي يتعلم فيه الطيران ؟

في الطائرة

كل القارات والبحار
كانت مرةً بلاداًمشاعة
وبحاراً مشاعة .
ثم قطعناها شيئاً فشيئاً
إلى ملك لي، وملك لك .

وسيحين الوقت، لكي نضم
المساحات معاً في رفق
لتلتئم في كوكبنا.

يا له من نوم في الصحراء !

في أمان بلا خيمة تحت رائحة
جلد حيوان وفراء
من حولها طقطقة نار لشوك
واثقة في حراس لهم جلود غريبة
تحميها من البرية،
حواجب العيون الظمأى
ترتوي أخيراً
من النجوم الغامرة.

في الشتاء

لا تمدن يدك إلى الثلج،

ودع البللورات تحوم !

حيث تصيبك نتف الثلوج

ستشعر حتى تحت الجلد

بحرقة الفناء .

مزمور الثلج

اليوم أسميك ثلجاً

يا صانع البللورات النجمية

الفانية الدءوب

الذي يكسو الحقول العارية ثلجاً

ويمحو أمام الجوال كل طريق

ويملأ أفقر الأكواخ

بأمان وألفة ودعة .

أنت الذي تتطايرفي الجو، وتثقل على الأشجار،

وتدفع بالغربان الشجعان

إلى السكون وتقرِّب حيوان

الغاب من البشر

وتجعل المعوزين أكثر عوزاً

والمعينين أكثر عوناً .

يا صامتاً، يجعل المألوف غريباً،

هل تدفننا وفرتك الغامرة،

هل تخنق اللعناتُ المديح ؟

ربما يبهرنا غداً

بياضك وتبدأ في الانصهار .

يا أيها الرائع . عندئذ سأسميك شمساً .

على حيطان كنيستي الخفية

التي أملأها أنا نفسي بالصور

يظهر الناجون جميعاً معاً :

الراعي الصالح بجانب پان ذي الفراء الكثيف،

من حولهما زرافات من الغنم والماعز ومعها الكباش،

الإبن الضال يتحدث مع أوديسيوس،

بطرس (الرسول) الذي يمشي على الماء،

والشاعر أريون على ظهر دلفينه المخلص،

القديس فرانتسيسكوس يغني مع أورفيوس،

مريم المجدلية تعانق ليدا (عشيقة زيوس) .

ووسط أعشاب برية طلية

جِمالٌ كثيرة

وحمير خلصت من أثقالها

كما خلصت الذئاب من الجوع .

والقديس جرجس الفارس معه التنين

يتنسم البخور ويبصبص له بذنَبِه،

أسودٌ زرق العيون تقلب في رسوم كبيرة

مع هيرونيموس، صديقهم،

فطرٌ ذبابي رائع بجانب فطر الفلفلين الرُخْص

وطواويس تروِّح بذيولها الدوارة

في تواضع من حول مريم أم الآلام .

وصورة الهيكل عليها ڤيرونيكا

تقدم إلى يهوذا منديل العرق

ضد حبل اليأس .

تحت شجيرات القراص

جذر شجيرة القرّاص الرقيق العجيب

شج الحجر الثقيل .

وهانحن أولاء نلج حجرة الدفن

من خلال دغل السنوات المسكوبة اللاسع .

إيابٌ إلى الداخل الذي أصبح غريباً .

تراب الشعائر يمس نعالنا :

هل كان إكليلَ شوك، أو كتاناً بسيطاً،

أو ورقاً تهرأ عن غصن زيتون ؟

نتحسس الحيطان التي طال إظلامها

كالعميان بحثاً عن علامات

ونتبين من جديد بأيدٍ هيابة

المصباح والدلفين .

چانـــى إبنـــر

Jeannie Ebner

حكايـــة عـــن الخـــلود

Märchen von der Unsterblichkeit

لا نعرف متى بدأت رغبة الإنسان في الخلود تبزغ في وعي الإنسان لأول مرة. والرأي عندي أننا لا ينبغي أن نعود فنحمِّل آدم وحواء وزر بداية التفكير في الخلود. وأقرب الظن أننا جميعاً نولد تحدونا هذه الرغبة. وهناك حكاية قديمة تظهر فيه جنية من النوع الذي يوصف بأنه "طيب"، وعدت اثنين من البشر أنكرا ما كانا فيه من شظف الحياة الفانية بتحقيق ثلاث أمنيات، ولكن هذين اللذين أوتيا هذه الفرصة العظيمة عجزا عن أن يحولا تلبية أمانيهما إلى سعادة، وتركت الجنية البشر وانصرفت عنهم بعد أن خاب رجاؤها فيهم. ولقد اتضح لنا، على الأقل منذ عصر التنوير أننا نستطيع بأنفسنا تحقيق أمانينا. أم ترانا لا نستطيع؟!

أياً كان الأمر فإنني أريد اليوم أن أحكي لكم حكاية، ليست من أساطر الأولين، ولكنها أحداثها تدور في ذلك الوقت الذي كانت فيه قوة التقدم العارمة التي لم تكن تقف عند حد، قد مكنت البشرية من أن تحقق لنفسها الخلود. كان النظام الاجتماعي قد تطور في العالم كله بحيث كان من الممكن إتاحة كل إنجاز جديد لكل واحد من أبناء البشرية قاطبة. ولهذا نشأت في وقت جد قصير صناعة خلود هائلة، وأقيم مركز خلود أتيح فيه لكل إنسان مجاناً تحت

إشراف طبي أن يعالج جسمه وعقله وكل ما يتصل بهما من جوارح وأمورإنسانية معالجة تثبِّتها للخلود.

ولسنا نستطيع اليوم أن نتصورالنشوة العارمة التي استبدت بالجموع البشرية ودفعتها إلى الزحف العاصف على أبواب المركز. كان الناس من فرط تزاحمهم يوشكون أن يدوس بعضهم على البعض، فاستعانت هيئة الصحة العالمية بقوات زودتها بالهراوات وخراطيم المياه لمواجهة الحشود الضخمة. وسرعان ما ابتكرت طريقة البطاقات الرقمية لتتعامل مع تلك الأعداد الهائلة من البشر التي كان من الضروري وقفها بعد أن انقفلت الأبواب على المتسللين الأول إلى داخل المركز.

وسرعان ما تكشفت المفاجأة القبيحة الأولى : كان الشخص الذي يأتي إلى منتجع تحقيق الخلود سكراناً ملأ جوفه بالخمر يجد عقله المخمور وجسمه المترنح قد ثبتا على هذه الحال إلى الأبد فلا سبيل أمامه إلى الصحو. ولما لم يكن هؤلاء البشر وأمثالهم قادرين على العمل أو التسول - فمن هذا الذي يحسن إلى المخمورين؟ - فقد وضعوهم في ملاجيء، وكان الخلود الذي تحقق لهم خلوداً بائساً لم يستطيعوا أن يخففوا من وطأته بالوسيلة التي كانوا يستخدمونها من قبل، ألا وهي عب الخمر. فقد كانوا مخمورين أصلاً.

وهنا أصدر مدير المصحة أمراً يحظر علي المخمورين والمجانين الخلود، ولكن هذا الأمر سرعان ما ألغي لأنه كان ينافي التشريع الديموقراطي. فقد بلغت المباديء الاجتماعية والمباديءالديموقراطية أعلى درجة من التقنين كانت تمنع تقييد الحرية الفردية وتمنع بالتالي منع الإنسان من التدني إلى هاوية الشقاء.

وعلى الرغم مما بلغته النظريات والنظم من الكمال، فلم يتحسن حال الإنسان ولم يزد كياسة عما كان وعما هو الآن. كان الأوصياء والقائمون على أملاك اليتامي الأغنياء يحيلون من هم تحت وصايتهم إلى خالدين، فقد أتاح لهم القانون اتخاذ مثل هذا القرار، وهكذا كان القصّر

يظلون على حالهم إلى الأبد، لا لينعموا بطفولة لا تنتهي، بل ليحفظ الأوصياء لأنفسهم الحق في التصرف في الميراث إلى الأبد.

وعلى الرغم من اشتغال العلم بهذه الصناعة الجديدة، فلم يتمكن، من إعادة تشغيل عملية النمو والفناء من جديد إذا ما أوقفت، لأن العلماء الذين توصلوا إلى وسائل الخلود أجروا التجارب على أنفسهم ولم يأخذوا في اعتبارهم أنهم ابتداءً من هذه اللحظة التي ينتهي فيها الزمن العادي، سيجمدون في الخلود ولن يستطيعوا الاستمرار في تطويرالبحث العلمي، ولن يكونوا قادرين على التوصل إلى معلومات جديدة ولن يكونوا قادرين على ابتداع فكرة جديدة خلاقة تتجاوز ما هو موجود. كان من تحقق له الخلود يتلوى فيه كما يتلوى الذباب في الصمغ القاتل.

ومن حسن الحظ أن الزحام الشديد على أبواب المنتجع أدى إلى أن العقول الموهوبة لم يدفع بها كلها إلى الخلود، وأقام العلماء الناجون مركزاً للاستشارات ليبينوا للناس مزاياعدم الخلود. كان البشر آنذاك، على عكس البشرية القديمة، تواقين إلى التعلم من خبرات الآخرين، على الرغم من أنهم، كما تبين، ظلوا عاجزين. أياً كان الأمر فقد تهافتوا على دورات عدم الخلود التي نبهت المشاركين فيها إلى عواقب السعي إلى الخلود، واستشهدت بالسكيرين والمجانين وفقراء اليتامى والمصابين بالملانخوليا الذين شهدوا بما نالهم من نحس. وحض العلماءُ المشاركين في هذه الدورات على أن يختاروا لبدء الخلود أكثر لحظات العمر عقلاً وجمالاً وسعادة، وكان ذلك أمراً عسيراً، لأن العقل الناصح نادراً ما كان يواكب السعادة.

وتزايدت ألوان الفشل المؤسف : فقد تخلد حبيبان في حالة الحب الرومانتيكي الأول، وتملكهما حزن لا تخفف منه مواساة، فه قد ظل مراهقاً أبداً، وهي ظلت عذراء أبداً. وجاءت امرأة شابة إلى المركز تشكو، كانت سعيدة في شهر العسل عندما تخلدت، وتبينت أنها ستظل على هذا الحال لن تعرف الأمومة أبداً. وهذا رسام موهوب يعاني في خلوده من أنه سيظل أبداً

يرسم صوراً متشابهة لا حصر لها، كلها جيدة، ولكنه لن يتمكن من القفز من بين هذا الكم إلى قمة الفن الرفيع.

ومن الناس من أخذوا أنفسهم بالحيطة ولم يتسرعوا، فكانوا عندما تواتيهم لحظة سعيدة ينتظرون لحظة أفضل منها، وربما انتظروا فلم تأت اللحظة المأمولة، وأسفوا على اللحظة الماضية، وأسقط في أيديهم، فقبلوا على مضض لحظة من الرضا لتكون حالة الخلود حتى لا يضيع الوقت دون أن ينالوا خيراً. ومنهم من كان الموت يخطفهم بغتة وهم ينظرون. وراح الحزانى الباقون على قيد الحياة يتساءلون :

أليس أولئك التعساء الذين كان باب الخلود مفتوحاً أمامهم وتقاعسوا عن الدخول هم على طريقتهم أكثرنا سعادة؟ والإنسان الذي يتجمد في الخلود ويمنع عن نفسه إمكانات المستقبل هل يمكن أن يتخلص من الإحساس بأنه ضيع على نفسه أفضل الإمكانات؟ وكيف لا، ولديه الخيال يغترف منه ليضفي على هذه الإمكانات المتاحة ما يجعلها تتجاوز في روعتها أروع ما تحقق؟ والإنسان الذي يظل في سعادة الخلود ثابتاً في حاضر سرمدي، ألا ينظر إلى الماضي فيتمثله متسامياً في الذكرى على صورة جنة لانهائية جميلة مثل تلك التي يتمثلها في التمني والذكرى؟

وأدت مثل هذه الأسئلة يقيناً إلى تغيير وعي أولئك الذين ظلوا بشراً فانين. وتكونت رابطة من اللاتقليديين، بعد أن أصبح كل من هب ودب مخلداً. وشكل جماعة من الثوريين الحائرين "حزب المنتحرين"، كان هذا الحزب يفرض على الأعضاء أن يجروا كل يوم أحد قرعة ليختاروا من بينهم واحداً ليسير إلى الفناء، لينتحر. وحالت القوانين الديموقراطية دون اعتبار هذا الحزب منافياً للشرعية، ولم تمكن من حظره. ثم إن هذا الحزب لم يبد عليه أنه كان خطيراً على الدولة بالفعل، لأنه لم يكن يقبل من الأعضاء الجدد إلا مثل أولئك الذين يفقدهم منتحرين.

ولكن هذه الوقائع كلها وقائع تاريخية، يمكنكم أن تطالعوها في كتب التاريخ، ولقد وعدتم في البداية أن أحكي لكم حكاية. هاهي ذي !

كانت هناك، غير بعيد عن منتجع الخلود، فتاة أحبت طالباً جامعياً، كانا ينعمان بالشباب وبالصحة والسعادة. فلم يكن شيء أكثر طبيعية بالنسبة إليهما من أن يخلدا هذه الحال. وقال لها : ستحبينني أبداً؟ وقالت : وسأظل لك دائمة الشباب والجمال. وهكذا يمما شطر المنتجع معاً. ولكنهما ترددا أمام الباب ونظرا بعضهما إلى البعض متسائلين، وقالت: أليس الأفضل أن ننتظر حتى نتزوج؟ فقال : بلى. وسأكون عندذاك قد فرغت من الدكتوراه. وهكذا عادا معاً على رأي واحد. فلما تزوجا نعما بالسعادة، ولعلهما كانا أسعد من ذي قبل، أو لعلهما كانا سعداء سعادة من نوع آخر، وفكر الشاب في أن ينتظرا حتى يتم تأليف كتاب كان قد اشتغل فيه وقتاً طويلاً، عنوانه « عن نعمة الخلود الفاني في ضوء الفلسفة». كذلك رأت الزوجة الشابة أن تنجب أولاً طفلاً، فرُزقت صبياً، وحقق الزوج بكتابه شيئاً من الشهرة. فلما تحدثا مرة ثانية عن الخلود الذي كانوا قد نسوه في هذه الأثناء أو كادوا قالت إنها تتمنى أن تكون لها بنت، وقال إنه أيضاً عاكف على تأليف كتاب بعنوان « عن نعمة الخلود الفاني في ضوء اللاهوت ». وانتظرا بعد ذلك حتى يستطيعا أن يعطيا الأولاد والكتب في رحلة الحياة المزيد من العلم والخبرة. وأخيراً تقدمت بهما السن معاً في السعادة والشقاء، وفي الراحة والنصب. وتزوج الابن والبنت، ودخل الكتابان المكتبات ودور الكتب. ولكنهما لما يسعيا إلى باب الخلود وقررا أن ينتظرا قليلاً، لأن الأولاد يعقبون الأحفاد الذين يحب الإنسان أن يراهم، ولأن الكتبَ تؤلَّف عليها كتبٌ فتجلب أفكاراً جديدة. ثم وصلا إلى الدرجة التي أصبحا فيها يريدان أن يأخذا معهما إلى الخلود سكينة الشيخوخة والرضا بما أنجز من عمل طوال الحياة. واتكأ بعضهما على البعض وسارا حتى بلغا الباب في صعوبة. كان الذين ينتظرون هناك أن يسمح لهم بالدخول شباباً نفد صبرهم، ولم يعد هناك شيوخ. فمن لم يمت شاباً ولم ينتحر كان قد

تجمد في الخلود من زمن طويل. وتردد الزوجان الهرمان كما ترددا أول مرة، ونظرا أحدهما إلى الأخر في غير تصريح، كأنما كانا خجلين من إعادة حماقة الشباب. وسمعا بجانبهما من يغمغم : «ماهذا الذي يريد هذان الهرمان تخليده؟»

فقال : «صحيح. ماهذا الذي نريد أن نخلده؟ لعلنا نريد أن نخلد الحياة؟

فقالت : « ولكننا أوتيناها؟ هل هي السعادة؟

فقال : « قد نلناها ».

وتأبط ذراعها، ثم عادا في سكون إلى البيت.

فلما مر على موتهما وقتٌ قل أو كثر، أقام الخالدون لهذين الفانيين نصباً أمام المنتجع، وكتبوا على قاعدته بحروف من ذهب ما كان من أمرهما من تفرّدٍ جدير بالتدبر. ولقد وقف أمام النصب أناس كثيرون، طالعوا الكتابة، وقرروا العودة إلى الحياة الفانية. وقل عدد رواد المنتجع شيئاً فشيئاً حتى تدهور وذهبت ريحه. وقام آخر مدير بحرق وصفات الخلود قبل أن يبرحه.

هذه الحكاية حدثت في عصر أوشكنا أن ننساه. ولماذا أدّعي أنها مجرد حكاية؟ لأنها تحكي عن زوجين استطاعا بلا شيء تقريباً أن يكون سعداء لا ينقصهما شيء. أو لعلها ليست حكاية بل إمكانية قد تحقق ذات يوم في مستقبل بعيد بعيد...

مارلين هاوسهوفر

Marlen Haushofer

الجـــرح

Die Wunde

بعد أن عب الكأس الرابعة على وجه التحديد خطرت بباله عينا زوجته . لقد قالت عيناها له : «لماذا لم تعد تحبني ؟ ماذا فعلت بك؟ لا تتركني اليوم وحدي أرجوك.» وتجرع جرعة كبيرة فألم به السعال . وخبطت رفيقته على ظهره لتخفف من سعاله وقالت له : «ماذا بك ؟ لقد بدا عليك غيظ مفاجيء.»

ورد عليها رداً مقتضباً :« لا شيء . تعالي هيا بنا نرقص .»

وأحس وهو يراقصها بشعرها الأشقر على خده . لم يكن يحب أن يراها عن قرب ، فقد كان شكلها في تصوره أجمل في عندما يراها عن بعد . وغام وجهها وانمحت أساريره وأصبح دائرة مزركشة ، وأغمض هو عينيه . كفانا . كان الجمع بين شم رائحتها ، والإحساس بها عن قرب ، ورؤية وجهها شيئاً يفوق احتماله ، ما في ذلك أدنى شك . وقال في نفسه : هأنذا أرقص مع حبيبتي ، فتملكه ضحك مفاجيء . ولكزه بعضهم لكزة في خاصرته أخرجته عن إيقاع الرقصة . كان الزحام شديداً . فعادا إلى المنضدة .

وأفرغ كأسه في جوفه وشعر بالشيخوخة

وبالدوار .

ودعاها البعض للرقص مرات ، فجلس وحيداً يحملق في حلبة الرقص .

وكانت مصيبته تتلخص في أنه لم يكن يستطيع أن يشرب حتى يفقد الوعي . حتى عندما كانت ساقاه تهتزان ولا تقويان على حمله ، كانت أفكاره تظل واضحة . كان هو هنا على هذه الحال ، بينما كانت زوجته هانئة ، في السرير ، نائمة . أو لعلها لم تنم ، وبكت قليلاً. فقد كان ما فعله بها سبباً كافياً للبكاء . ولكنها كانت بصفة عامة في حال طيبة، كانت لا تزال تحبه ، وكانت تعاني من أجله ، أما هو فلم يكن يحب أحداً ، وكان على الرغم من ذلك يعاني معاناة تعذبه ، كانت نصف معاناة ، ولم يكن لها سبب .

فلما عادت صاحبته إلى المائدة طلب زجاجة نبيذ جديدة .

«أنت تسرف في الشراب» ، قالتها له بنبرة تعني :«إذا أسرفت في السكر فلن آخذك معي. »

ولم تكن هي نفسها صافية الذهن دون غشاوة من سكر ، ولم تقبل أن تشرب إلا كأساً واحدة ، فلم تكن تشرب أكثر مما تحتمل ، ولم تكن بصفة عامة تفعل شيئاً يعود عليها بالضرر .

كانت هكذا ، في هذا الوضع إذ جلست أمامه ، امرأة جميلة فعلاً ، فيها شيء من الدونية على الرغم من أنها كانت تلبس ملابس لا غبارعليها ، وكانت بادية القوة والدهاء.

وكان على بينة مما ينتظره على يديها . كانت قد قررت أن تتزوجه ، وكان هذا المساء يبدو لها مناسباً للتغلب على آخر مقاومة لديه . لم يكن من الواضح تماماً لماذا كانت مصممة على

الزواج به ، فلم يكن لديه ما يقدمه إليها ، باستثناء اللقب والاسم الطيب . ولكن من الجائز أن تكون هذه الأمورمن وجهة نظرها أموراً تتوق إليها وتتمسك بها .

وكان يخاف من أن تنفرد به ، ويوقن من أنه لن يفلت منها .

ولم يكن هو نفسه يفهم تماماً لماذا كان يقف منها موقف المعارض . فقد كانت أصغر من زوجته بعشر سنوات ، قوية الصحة ، وبلا ذكريات . ولقد أصبح من غيرالمحتمل أن يستمر في الحياة مع إنسانة كان يحبها وتعرف عنه كل شيء . فلم يكن يحب أن يعرف إنسان عنه شيئاً. ولهذا فقد كانت هذه المرأة مناسبة له ، لأنها كانت مشغولة بنفسها تماماً ، ولم تكن لتشغل نفسها به على نحو يؤخذ مأخذ الجد .

فلما شرب الكأس السادسة أحس أخيراً بالرضا إذ فقد وضوح ذهنه الذي كان يعذبه .

وتملكته رغبة شريرة في أن يفزعها .

فشدها إليه وداعب يدها وهمس إليها في إغراء : « أنت جميلة» . كان هذا بالضبط هو ما تمنت أن تسمعه وكانت هذه العبارة هي التي تؤثر عليها وتلين عريكتها وتجعلها طيعة إلى حد ما .

واقتربت من أذنه وقالت له : «أحبك» وأغمضت عينيها وكأنما كانت دمية كبيرة تغمض وتفتح . وحبس ضحكة أوشكت أن تخرج من حلقومه - ألم يكن هذا الكلام ليثير الضحك عندما تجري به هذه الشفاه بالذات ؟ كان يعرف تماماً ما تريد .

وتملكته رغبة عارمة في الاستمرار في الحديث الذي بدأه . وقال لها :

« هل كنت تحبينني لو كنت مجرماً؟ »

وتحركت رموشها السوداء حركة مرتعشة من فوق حدقتيها الزرقاوين المبللتين . وقالت :

« طبعاً . ولكنك لست مجرماً ، كل ما يعيبك هو هذا التردد وهذه العقد التي لا تقدم ولا تؤخر. »

وكان يعرف إلام تلمّح . وكانت تعتبر من الكرم والرقي ألا تذكر زوجته بالإسم .

ولعبت الخمر بمخه ، عندما قال لها :

« اسمعي . سأحكي لك الآن قصة ا

وابتسمت مشوقة على الرغم من أنها لم تكن تحب القصص . وبدأ هو فجأة :

«حدث هذا في المدرسة الحربية ، وأنت لا تتخيلين بطبيعة الحال المنظر هناك . الطرقات الطويلة الكالحة ، وقاعات الدرس الواسعة ، والأكل البارد الماسخ الذي يغلب عليه طعم الشحم البقري ، وبالليل فرش السرير البارد الرطب حول الجسم الذي يرتعش من البرد . »

ووجدت من المناسب أن تتخلى عن ابتسامتها البراقة وأن تتقنع بسحنة منزعجة.

وشرب جرعة تالية . وفجأة رفض أن يستمر في الحديث . ثم عاد يقول :

«كان اسمه هينسشن» .. وحملق في الزجاجة الخضراء .. «وكان صديقي . بعده لم اتخذ صديقاً أبداً . صغّرنا اسم "هانس" إلى "هينسشن" وأطلقنا عليه التصغير كنية لأنه كان رقيقاً كالطفل . وكنا في كل ليلة نتسامر معاً طويلاً هامسين ، فيحكي حكايات رائعة ، أو يقلد كل المعلمين إذا كان مزاجه رائقاً.

والحقيقة أنه كان موهبة عظيمة .

ولكن المعلمين بطبيعة الحال لم يكونوا يحبونه ، وكذلك غالبية الزملاء . كانوا يجدونه ليناً أكثر مما ينبغي ، وغريب الأطوار . وكانوا يقولون : « إنه لا يصلح صديقاً لك . إنه ولد سيء السلوك وسيسبب لك المشكلات والصعاب »

ولكنني كنت أعرف من أمر هينسشن أكثر ما يعرفون ، لم يكن سيء السلوك ، بل كان كثير اللعب ، كان ولداً ذكياً عانى الكثير ، فلم يعد يصلح لمدرسة كمدرستنا »

وغَشِيَهُ تعبٌ بلغ أعماق كيانه فملأ كأسه من جديد . وسألته البنت بأدب ، وقد بدا عليها أنها قررت في هذه الليلة أن تخفف من غلوائها : « ثم ماذا حدث ؟ »

وقال مستاءً كارهاً :

« آه لم يحدث شيء »

« كنا في ذلك الوقت قد عانينا من الجوع ما عانينا ، واشتد شوقنا إلى الحلويات ، حتى إننا في ليلة من الليالى فضضنا معاً دولاب زميل كان قد احتفل بعيد ميلاده وتلقى طرداً فيه هدايا بهذه المناسبة . وسرقنا منه البسكويت المحوج بالعطارة ، والبونبون والشوكولاته . وأخذ هينسشن أكثر من النصف قليلاً ، لأنه كان شرهاً إلى الشوكولاته على نحو فظيع »

وقالت البنت وقد فرغ صبرها :

« ولكن هذا كله عبث صبياني . »

« هل هذا هو رأيك ؟ .. فلما انكشف الموضوع وجدوا كيس الشوكولاته في درج هينسشن ، ولذت أنا بالصمت ولم أفتح فمي . وطرد هينسشن من المدرسة في الحال ، ولم يكلمه أحد كلمة واحدة احتقاراً له ، كذلك أنا . وقال لي المعلمون إنهم كانوا يعرفون أنه ليس الرفيق المناسب لي . ولا بد من أن أضيف أنه لم يكشف عن مشاركتي له في السرقة بكلمة واحدة . »

ورفع رأسه فجأة وسألها :

« ما رأيك في القصة ؟ »

وقالت بصوت واثق :

« كلام فارغ . صاحبك هينسشن لابد نسي الحكاية منذ زمن طويل . وأقرب الظن أنه كان بالفعل ولداً خبيثاً . لا تفكر في هذا الموضوع »

ووضعت يدها على رسغه ، وكانت يدها نظيفة اعتنت بها وطلت أظافرها ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من تخيل يد الولد النحيلة المبقعة بالحبر ، وتصور أنه يحس بالدفء الرقيق الفرح الذي كانت هذه الملامسة دائماً تثيره فيه .

وفكر في هينسشن ، ثم أصابه دوار شديد فجأة ، وظن أن الصالة من حوله تلف . وقال بصوت ودود له نبرة حاسمة : « هيا بنا نذهب؟ »

كانت السيارة باردة ، وجلست هي إلى عجلة القيادة ، وجلس هو يتأملها راجعاً بظهره إلى الوراء . كان شكلها من الجانب يتسم بشيء من قسوة التقاطيع ، بلا ظلال وبلا انسياب . بعد عشر سنوات ستكتسب هذه التقاطيع مسحة من ملامح الساحرات الشمطاوات . ثم أدرك فجأة أنه فهم شخصيتها : إنها امرأة بلا أسرار .

ما كانت لتشيح عنه في خجل وما كانت لتدس يدها في يده صامتة متوسلة .

وعض على أسنانه بعنف مما فالتفتت نحوه . وقالت له مبتسمة : « أيها الغبي الصغير . إنك لتبدو كأنما كنت ذاهبة بك إلى جهنم . »

وقال لها في جد وأدب : « نعم . هل أبدو كما تقولين - عفواً » .

ثم انحنى عليها وقبلها . وقال في نفسه : لقد كنت دائماً خائناً . ودهش لما أحس به من رضا .

إنجبـــورج باخمـــان

Ingeborg Bachmann

كسوف الشمس في مصر

Die ägyptische Finsternis

ذهبا إلى الصحراء، وانهمر النور فوقهما انهماراً، كأنه رمية من السماء واكبتها رائحة ساخنة نظيفة. الصحراء دار الشفاء الفسيحة، دار التطهر المترامية الأطراف التي لا يتصور إنسان أنه يستطيع بلوغ منتهاها والنفاذ من أقطارها على الرغم من أنها مفتوحة من كل الجهات : صحراء مديدة بلا منافذ، عربية. ليبية في بعض تقسيماتها؛ رمالها حباتها دقيقة رقيقة ناعمة؛ صخرية، صخورها صقلتها الرمال، صخور تنوعت تنوعاً عجيباً؛ ولكنها في مجموعها كلها صحراوية. إنها الصحراء. وكانت دار الشفاء والتطهر قد استقبلت فرانتسه من قبل.

.....

من هنا يخشى أنواع الجراثيم التي صنفها أصحاب البِشرة البيضاء. من هنا يغسل كوباً غسيلاً دقيقاً، من هنا يغلي الماء ليطهره، من ينقي أوراق الخس من الحشرات، من يفحص السمك بالعدسة المكبرة؟ إنها تكتشف الجوع والظمأ من جديد. وتكتشف الخطر من جديد.

الأذنان والعينان قد شحذت، وتركزت على العالم الخارجي. والهدف تجدد تحديده عن علم جديد. سقفٌ فوق الرأس، مأوى بالليل، ظلٌ، قليل من الظل. عسى أن يكفي البنزين، وألا ينفجر إطار من إطارات السيارة، وألا يتسخ بوچيه من بوچيهاتها، وألا ينكسر المحورفيها. عسى ألا يضيع منا الطريق، وأن تظل علامات الطريق ظاهرة للعيان. المدق ضيق، لا تكاد العين تدرك شيئاً منه، لأن إطارات السيارات هي وحدها التي تلتمس عليه مكاناً.

هبت الريح للمرة الأولى، واندست في الرمال، فانتشرت التربة المتطايرة في الهواء على نحو مخيف. كشفت عن جوهرها. تلاقت العيون والصحراء، افترشت الصحراءُ شبكيةَ العين مرة أخرى، ساعاتٍ طوالاً، بل أياماً. العيون تزداد فراغاً، ويقظة، واتساعاً في هذه البقعة الوحيدة التي خلُقت من أجلها العيون.

ما أنعم إغراء الصحراء ! كيف تبسط ما تبدعه من رسوم لطيفة ! « عم تبحثين في الصحراء؟ » سؤال قاله صوت في الصحراء التي لا يسمع فيها كائن صوتاً. لماذا أنا وحيدة إلى هذا الحد ! لماذا يغص البحر الأحمر بأسماك القرش، وهي أفظع الحيوانات وأشدها شراسة؟ صاحب الصوت لا يقدم إليّ جواباً، لأن السكون يخيم على الصحراء. لقد استأثر السكون بهذه الصحراء لنفسه واحد، لم يكن مؤسسة فنادق ولا شركة بترول.

...

كان فندق واحد في الأقصر هو الذي صادروه من أجل زيارة الرئيس الرسمية. ونزل الأخ والأخت في الفندق القديم، وهو أجمل من الفندق الجديد ولكنه بلا أجهزة تكييف، وكان مارتن منذ قنا شديد الشوق إلى أجهزة التكييف لأن أحد العلماء الفرنسيين حكى له عنها، وإذا هي الآن حُجزت لرؤساء الدول. وفي الأقصر أفرغت عربات نقل مليئة بالجنود حمولاتها، وبدا على أغلب الجنود أنهم دُسّوا في الزي العسكري في هذا الصباح لأول مرة في حياتهم.

وسار الجنود ببنطلوناتهم الواسعة وچاكتاتهم المفتوحة في الساحة التي زينت بتعاليق من الأنوار. سار الجنود اثنين، اثنين، يداً في يد، كالمخطوبين، بل سار كثير منهم يتأبط بعضهم ذراع البعض. ولم يكن يحمل بندقية منهم عندما وصل الرئيس إلا عُشر الجنود، واستحال على مارتن أن يفهم كيف يستطيع من لا يحملون بنادق أن يحرسوا شيئاً. كان الناس قد أتوا جميعاً من بيوتهم، حتى النساء اللاتي كن يتخفين في ملاءات سوداء تصل إلى الأرض، ويجلسن القرفصاء على الأسفلت في مجموعات، ويطلقن ضحكات كهديل الحمام. وإذا اختلس الإنسان نظرة إليهن رأى وجوههن وما يخفين من أطفال رضع، ووجوههن وجوه نسائية شابة لا تخطيء فتظنها وجوه رجال، فالرجال ملامحهم صارمة، مستغلقة، هَرِمت قبل الأوان. وجال عملاقٌ نوبي في الشارع ينثر وريقات الورد، وعزف أربعة من البدو أمام الفندق الموسيقى على آلات ضئيلة الحجم، وخرج من بين الجمع الذي تحلق حول العازفين رجلٌ راح يرقص في المكان الضيق الذي تركه له المتفرجون.. وقام في أثناء الرقص بحل الشال الأبيض الذي كان يتعمم به، وما زال يحله حتى تدلى على الأرض من خلفه، وطلب الرجال، الواحد تلو الآخر، أن يتاح لهم الرقص. فلما سمعت فرانتسه ومارتن الصياح العجيب الذي قطع هذا الحفل القروي، خرجا إلى الساحة أمام الفندق، ثم انصرفت وانصرف مارتن معها بعد مرور العربة الفارهة. وأحس مارتن بالخجل لأنه كان ينظر بعين الأجنبي إلى ما يجري دون أن تتحرك مشاعره، وآثر أن يقرأ الصحف التي أبرزت أسوان ثم أسوان ثم السد العالي، ومزجت كتاباتها بلعناتٍ صبتها على البنك الدولي، ومديحٍ خصت به المهندسين السوفييت. لا شك في أن رحلتهما ألقت بهما هنا في قلب حدث تاريخي، ولم تقف بهما عند حد التعرض لبعض الفنادق التي أقفلت دونهما أبوابها. وأخذ مارتن يقص من الجرائد بعض المقالات ليتلهى بها عن النظر إلى النساء الأمريكيات المسنات اللاتي تجاوزن كلهن الستين ربيعاً، بوجوههن المنفوخة المزعوطة، وما تسلحن به من عصي وقبعات ضخمة، وقد برح بهو الفندق نفوراً منهن. وكان بهو الفندق يذكر الإنسان بزمان ولّى ومضى، وبالسائحين العظام الذين كانوا ينعمون

بخدمة لها مراسمها المهيبة، ويذكره بالبواخر النيلية التي كانت تمخر عباب النهر حتى تصل إلى محاجر الجرانيت وجزيرة فيلة. وعلى الرغم من أن أزياء الخدم لم تكن تشوبها شائبة، فلم يعد الفندق يستقبل النزلاء الذي يناسبون الخدم، ويناسبون الناموسيات التوللي التي تحيط بالسراير عندما تكون باردة في شتاء النيل. كنا في مايو. وكان فندق شبرد قد أتى عليه الحريق منذ حين في القاهرة، فلم يعد هناك مكان للبشر أصحاب البشرة البيضاء. ولقد كانت الأقصر قرية يُريها رئيسٌ لرئيسٍ، وكان الضيف بقامته القصيرة وثيابه البيضاء وقبعته الصغيرة البيضاء التي تحاكي قبعات الأطفال يبدو كأنه يلبس ملابس تنكرية في هذا الجو القائظ، وكانت المراسم تفرض عليه بطبيعة الحال فرضاً أن يشاهد معبد الكرنك. وخلد مارتن وفرانتسه إلى الراحة، انتظاراً لنهاية هذا الحدث الذي قُدِّرله أن يستمر يوماً.

وانتقلت زيارة الدولة والمعبد والسد العالي في المساء نفسه إلى أسوان. وراحت فرانتسه تفكر وتفكر، متى يمكنهما أن يعودا إلى تلك الأرض الحمراء من بلاد العرب مرة أخرى، على الرغم من أنهما لم يكونا قد شاهدا شيئاً بعد، ولم ينجح مارتن في إقناعها بأنها برغبتها هذه تعرقله عن تحقيق كل الأهداف التي تاق إلى تحقيقها، فقد كانت هناك أشياء لم يرها بعد ويرجو أن تتاح له رؤيتها. والحق أن فرانتسه لم تكن عندما وصلت إلى الأقصر قد بلغت الأقصر، بل بلغت نقطة بعينها فيما ألم بها من مرض، ولم تكن عندما مرت بالصحراء تمر بالصحراء بل تمر بمرضها. فلما حل المساء ألم بها هذا الانهيار وقالت، لقد عرفت كيف سأكون عندما أموت. عرفت ذلك في الطين.

وركبا النيل عصراً، وخطر بهما قارب شراعي في اتجاه الجنوب ونزلا إلى البر، إلى شبه جزيرة، ودست فرانتسه قدميها في الطين، ورجت مارتن أن يغطيها بالطين، وقالت له بأسلوب اتسم بمهابة محمومة : سترى كيف يشفيني طين النيل. وكوم عليها الطين شيئاً فشيئاً، وأحس ببهجة أي بهجة. وما لبثت أن بدأت تتخذ هيئة المومياء، واندمجت في طين الشاطيء

لا تفرقها عنه إلا خطوط تشير في غير تحديد إلى بدنها، وقبل أن يصل إلى وجهها ليكسوه بطبقة من الطين رقيقة، يضعها عليها بحنان شديد، قالت له : « هكذا مثلاً، تطيب نفسي.. على ما أظن. » ثم لاذت في مرقدها بالسكون، وهي تحس بالطين كيف يجف شيئاً فشيئاً. ونهض مارتن ووقف. لأن سفينة الرئيس مرت، وأخذ يتطلع إليها كما فعل الأولاد والنساء الذين نزلوا من الشاطئين إلى الماء وغاصوا فيه إلى أنصاف أبدانهم، ورفعوا أياديهم مبسوطة فوق عيونهم يتقون بها الشمس. وحض مارتن فرانتسه على النهوض لينصرفا، فالشمس لايُؤمَن جانبها. فقبل أن ترتسم على البشرة مِسحةٌ رقيقة من حُمرة أو سُمرة، تكون الشمس قد حرقت الجلد. وما حاولت فرانتسه أن تتحرك حتى لاحظت أنها لا تستطيع الحركة، ثم لاحظت أنها لا تستطيع أن تتكلم لترد عليه، فقد تفتت الطين الجاف ووقعت حباته في فمها وعينيهاعندما همت بنطق الكلمة الأولى فلم تكملها. وثبّتها الطين في الأرض بثقله الهائل، وأحست كأن بناءً أحاط بها. ومال مارتن ببصره نحوها، ونظر إليها، وقد فرغ صبره، ولم يع أنها كانت عاجزة عن الكلام أو الشرح. وحاولت فرانتسه أن تصرخ. وظل هو على حاله لا يلحظ شيئاً مما ألم بها. كانت قبعة الاستحمام تمسك رأسها صلبة ثقيلة كالرصاص. كانت مدفونة حية.

....

وقعت منها في الفندق أقراص الدواء على الأرض، وراحت تبحث عنها هنا وهناك، وسألت مارتن كم عدد الأقراص التي تناولتُها حتى الآن يا مارتن؟ لا بد أنك تعرف عددها. لامفر من أن أبتلع الآن قرصاً حتى ينتهي ما بي. كم قرصاً؟ وجمع مارتن الأقراص المنثورة، ولم يكن قد عدّ ما تناولته من أقراص حتى الآن، بل لم يكن على علم بالموضوع أصلاً. فلما استردت وعيها، قالت عن يقين إن الأزمة التي عاودتها كثيراً ما كانت أكثر حدة في المرات السابقة. ولكن مارتن لم يرها من قبل في حالة أسوأ من حالتها هذه المرة. وأمسكَتْ بالستارة

التوللي، وأخذت تبرمها، ثم تكلمت بعد ذلك فأكثرت من الكلام. وتساءلت في سخرية : «هل كانت تلك اللحظة لحظة تاريخية؟ » وقالت إن غداً يوافق الخامس عشر من مايو، ولابد أن كتب التاريخ سجلت شيئاً عن هذا اليوم الذي رأيته في أمْسِهِ. ماذا رأيت؟ رأيت عربة فارهة وسفينة ووريقات ورد. ثم هم سيفتحون الأهوسة فينساب الماء. سيدون التاريخ يوم الماء في سجله. وأنني دفنت حية. والتاريخ الكبير يتكون من تاريخي ومن تواريخ الجميع. كيف تلتقي هذه التواريخ مع التاريخ الكبير؟ هل تلتقي به على حافة شارع؟ كيف يكون الالتقاء؟

....

ألغاز. في ليلة على شاطيء النيل لن أكون فيها أبداً، في ليلة على شاطيء النيل لا توقد فيها قناديل القرى، بل تضاء النجوم جمعاء.

(على شط النيل، على شط النيل في أقصى الجنوب، بعيداً بعيداً عن سنوات الظل التي لم يتدل فيها نجم في فمي.)

وهذا مارتن الذي أهلكه التعب، وقال لنفسه «لقد أهلكني التعب تماماً» تسلق فوق المعابد أو وقف يتفحص التماثيل الحجرية الهائلة، فلما سار مع فرانتسه خلال غابات حجرية قوامها الأعمدة، وبين جنبات مدينة الموتى الضخمة، تبين أن فرانتسه ترتجف أشد الارتجاف. فهي لم تر طِيبة « التي استعرت بلهيب الألوان » كما تصورها مارتن انطلاقاً من آثار الألوان الباقية، ولم تر السماء المصغرة الحافلة بالأنجم في المقابر. كان هو يرى طرق الذهب تؤدي إلى التماثيل الهائلة، وكانت هي ترى الصحراء ولا شيء غير الصحراء، سواء جلست أو وقفت. كانت تشعر بأن الأعمدة تطبق عليها من علٍ. صحيح أن هذه الأعمدة من عجائب الدنيا، ولكن هذا القول يصْدُقُ أيضاً على الموت، وهذا القربان الهائل المقدم إليه، وهذا التسبيح له، الذي لايلتمس

فيه الأبد بل يلتمس الاستمرار الزمني فيه، معتمداً على الذهب والحجر والتحنيط والرسم. وتعلمت فرانتسه أن تقرأ الرموز بسهولة. ولقد سهل عليها تعلم هذا التاريخ، كما لم يسهل عليها من قبل قط تعلم تاريخ لم يكن لها به أدنى معرفة، فقد مَثَل أمامها هنا كل شيء، لم تكن أمامها رسالة، بل تاريخ.

وقالت فرانتسه : أما ترى أنهم امتهنوا حرمة المقابر. وظن مارتن في البداية أنها تعني لصوص المقابرالذين تحدث عنهم في محاضرات ألقاها وذهب فيها إلى أنهم كانوا هم السبب في اتخاذ مخابيء أكثر عمقاً للموتى، وإنشاء مقابر أكثر بعداً عن سطح الأرض. ولكنها أقامت على عنادها. لا، لم تكن تعني اللصوص، بل تعني الرجال البيض، وترى أنهم هم الذين امتهنوا حرمة المقابر...ولم يتركوا حتى الموتى في مراقدهم. علماء الآثار. علماء الآثار جروا الموتى بعيداً عن مقابرهم. وحملقت في مقبرة توت عنخ آمون وقالت : ما فعلوه بها عار، عار كبير. ألا تفهم كلامي. هم هكذا في تقديري.أنا لا أطيق النظر إلى ما جنته أيديهم. وهذا العار كله أحس به من أوله إلى آخره في نفسي، فما من إنسان يحس به.

وسارا، وقد تباينتت تصوراتهم فلم يعد إلى التوفيق بينها من سبيل، يخطران خلال مدينة الموتى، وتبين مارتن أنه يستطيع أن يحسب حساب تدخل فرانتسه مرة أخرى، عندما رأت الرموز المخموشة في الدير البحري، في معبد الملكة حتشبسوت، حيث أبيد كل رمز وكل وجه من فوق الجدران، فلم يبق ولم يذر. ولم يكن هذا التخريب من عمل اللصوص، ولا من عمل رجال الآثار، بل هو حدثٌ جرى في زمان الملكة أو في أعقاب موتها، وكان الفاعل هو تحتمس الثالث. وقالت فرانتسه : لا يغيبن عنك أنه نسي آنها لم تَنْمح، بل ظلت باقية في المكان الذي محاها منه. لا تراها عينك، ولكنك تستنتج وجودها، لأنك تتبين أن المكان الذي كان المفروض أن تشغله لا شيء فيه. لم يطمئن مارتن إلى سلامة ما ذهبت إليه، ولكنه كان على بيِّنة من أن هذا الذي يراه هو أعجب ما صادفه في حياته، هوس التخريب يحرك الأزاميل، إرادة محو

شخصية عظيمة. وظل يتساءل عن الدافع، فهو لم يجد في المدونات شيئاً في هذا الموضوع. لو كان الطموح هو الدافع الذي دفع تحتمس الثالث إلى ارتكاب فعلته لوسع الدائرة ومسح شخصيات الأسر الكثيرة التي سبقته ارضاء لطموحه العارم. ولكن معبد حتشبسوت ظل قائماً، نوراً صخرياً في مدينة الموتى هذه، يونانياً قبل اليونان بألف سنة. لن يلتمسَ أصلَ أي شيء لدى اليونانيين بعد الآن. وهذا هو مارتن يرجو ألا يضطر إلى النزول في أثينا ليشاهد بعض الأحجاراليونانية القليلة المتناثرة التي لا تقدم ولا تؤخر. فبعد هذا الذي رآه هنا لم يعد من الممكن أن يلتمس شيئاً ذا بال في اليونان. لم تكن فرانتسه لتفهم ما ذهب إليه من رأي، ولم تزد عن أن قالت : لقد عجز عن القضاء عليها. لم يكن ما رأته هنا حجراً أو تاريخاً، بل أحست بأن ما رأته أمر حاضرٌ لم ينقض عليه يوم، أمرٌ شُغلِت به منذ حين.

....

عم تبحثين في هذه الصحراء، في مدينة الموتى هذه، في البر الغربي، في البر الشرقي، في أي بر، فكلها صحراء ولا شيء غيرالصحراء. ثم أنت تعودين إلى الفندق عبر الطريق الذي يكتنفه ألف تمثال من تماثيل أبي الهول، الطريق الذي يكتنفه ألف من جماجم الكباش. يرافقك خوفك، يرافقك ألف أبي هول لا أبا هول واحد، تماثيل حجرية، تلمسها اليد. ماذا في هذه المنطقة الفذة التي لا تتكلم، ولا تفصح عما بها، والتي ليس هناك ما يقال عنها. ماذا تريدين هنا؟ النقاء، النقاء ترينه بعينيك، النقاء الذي فررتِ من أجله، وكأن شيئاً يطاردك كل يوم، إلى الصحراء، ثم إلى الصحراء، لكي تشربي بعينيك المزيد من الصحراء.

أين هو خليج العقبة! مازالت تحس بأنها مُطارَدة، تعبر النيل من شط إلى شط، وتسير في الليل على شط النيل، في ظل شراع السفينة وكان هو البقعة المظلمة الوحيدة. ماذا تريدين في الصحراء. هل تردُّ الصحراء على إنسان أجنبي، تحيط به هالة الجنون، وتعذبه

الكلمات الرنانة، والأعمال التي ما تزال تصيبه بالرعدة والتي لا تؤثمها مواد القانون. سأنال هنا حقي. ولكن دليل الرجال البيض على عدم وجودهم في مكان الجريمة عند وقوعها دليل قوي. لا تنسيْ هذا. لم يدعوا وسيلة للتخلص منك إلا توسلوا بها لإزاحتك عن الطريق، ولنسفك فوق ألغام ذكائهم الذي يسيئون استغلاله، وليستخدموك طبقاً لخططهم وألاعيبهم.

....

في الرواق الغربي لقاعة المومياوات. الكتان بطبقاته الست عشرة، يزداد رقة فوق كل أجسام الملوك والملكات، كتان هش، في كل موضع بقي فيه. جماجم الموتى بارزة، الجباه غائرة، بقايا الأربطة رمادية أو توشك أن تكون بلون الرماد. المشهد الرهيب تدفع فيه خمسة وأربعين قرشاً رسم الدخول، أما مشاهدة المتحف كله فبخمسة قروش. ولقد تزاحم الرواد هنا، ليسوا من منتهكي حرمات المقابر، وليسوا من الجنود المحشودين، ولا من البدو الباحثين عن كنوز، إنما هم جمهور المتحف، منهم من استعدوا بكاميرات لايكا لالتقاط الصور، ومنهم أناس شوه الطمع وجوههم التي اقتربت من التوابيت اقتراباً وثيقاً، حشود مثل حشود البشر في لوحات الرسام برويجل، من هولندة وألمانيا والدنمرك، سواعدهم لفحها القيظ، وأنوفهم لسعتها الشمس، قدموا من بلد ما من تلك البلاد التي لا يسمرّ فيها لحم الناس بل يحمرّ. فيلم ملون؟ أم فيلم عادي؟ هذا هو السؤال الذي يشغل بالهم. وأسرع مارتن الخطى في القاعة، فعبر على فتارين العرض الزجاجية كلها عبوراً خاطفاً، لا يفعل شيئاً إلا مراجعة الأسماء المكتوبة عليها، فقد أرادت فرانتسه أن تعرف من هذا الذي نالت منه الجرأة. ووقفت في الممر جامدة لا تتحرك، فقد رأت لتوها أمنحوتب الثالث، الملك العظيم، الأسطوري، صاحب النجوم الصفراء على سماء غرفة دفنه الزرقاء النائية، مبدع التماثيل الهائلة. جاؤا به إلى هنا. وقفت في مكانها تمسك تذكرة دخول، ولكنها ما كانت لتستخدمها، حتى بعد أن حشها حارس قاعة المومياوات بدلاً من المرة الواحدة ثلاث مرات. وسألت مارتن : هل هم كلهم موجودون فعلاً في

القاعة؟ ولاحظت أن مارتن اقترب بإحساسه من إحساسها، كان مشدوهاً عندما راح يعد بسرعة المومياوات التي عرضوها في القاعة، الرعامسة كلهم، نفرتيتي أيضاً، ومنتوحوتب كذلك. وكفت فرانتسه عن الإنصات، وأخذت ترمش بعينيها وقدأغمضتهما كل الإغماض تقريباً نحو أمنحوتب الثالث، وما أشبه نظرتها هذه بنظرتها إلى المعتوه وإشاحتها عنه. وانحنت فجأة نحو الأرض، ودفعت رأسها إلى أسفل، وتقيأت أمام قاعة الموميات. وتفرق على الأرض شيء من الشاي كالمخاط، ولقيمات من الخبز. وأحست فرانتسه بالارتياح، وعادت تعق عدة مرات : لقد بصقتُ على الأقل عند مواطيء أقدامك يا من انتهكمت حرمات الموتى. وطلب الحارس من مارتن بقشيشاً فأعطاه، ورفع ذراعيه إلى أعلى حائراً، وأبدى تفهماً لما حدث، وأرجع السبب في القيء إلى الحرارة. لم يكن هؤلاء الأجانب جميعاً يتحملون الشمس. وأخذت فرانتسه من مارتن الجريدة ومسحت بها الأرض. وكان هناك شابان ألمانيان لا يكفان عن التصوير، صورا كل المومياوات وكل الهياكل العظمية فلم يتركا منها شيئا ً، تارة يثنيان ركبتيهما، وتارة يشبان على أطراف أصابعهما، وابتعدا عن فرانتسه، ووضعا في كاميرتيهما فيلمين جديدين وقد نأيا عن الحجرة.

يا أيها الموتى، بين التاسعة والثانية عشرة، وبين الرابعة والسادسة. هذه تذكرة دخول قاعة المومياوات لم تستعمل. هنا إنسان لا يريد لكم أن تتحللوا، إنسان يريد أن يستركم مرة أخرى بلفائف الكتان، وأن يضع عليكم الأقنعة الذهبية، وأن يعيدكم إلى النعوش المزخرفة بالرسوم، وأن يقفلها عليكم، وأن يسترد توابيتكم، ويسلككم في أعماق الصخور، ويعيدكم إلى الظلام، لكي تحكموا كما حكمتم من قبل، ولكي تبقى كتاباتكم، آيات الحياة، آيات الماء، الشمس المجنّحة، زهرة اللوتس. لقد وصفتم أنفسكم فأحسنتم الوصف. هل ينبغي على الأحياء أن يصفوا الأحياء. هكذا ترد الأمانة. هكذا يكون التصحيح. تردم السراديب بحيث لا يعود في مقدور إنسان أن يعثر عليها. ينبغي أن تغوص طيبة تحت الرمال كما كانت، وألا تنفتح صخرة مرة أخرى.

.....

الأقصر. كل الحِرَف أمامك، لا يحجبها حجاب. لأول مرة أرى كيف يصنع حذاء، لأول مرة منذ طفولتي أرى كيف يخبز العيش. رجلان يشتغلان طوال النهار تحت أعين الجميع، إنهما لا يصنعان حذاء جميلاً، بل متيناً، يبتسمان عندما أجلس إليهما، ولقد طلبتُ لهما الشاي فلما يسمحا لي بأن أدفع ثمنه. كل من يريد شراء حذاء يجلس إليهما، في الظل، فيقدمان إليه الشاي أو القهوة، وينظر إليهما وهما يعملان. ليس الأمر استحسان الحياة البسيطة، بل مجرد التفكير في أننا لم نر شيئاً عن نشأة الأشياء التي نحتاج إليها، وأن أولادنا لا يعرفون من أين يأتي طعامهم، ولا من أين ثيابهم، ونحن نشغلهم بلُعَبٍ تفسد عليهم خيالهم، وهكذا يسيركل شيء منذ البداية في طريق الخطأ، وإذا علْمُهم الذي يحصلونه عِلْمٌ بلا أساس.

....

مساءٌ في مكان ما، ليكن في السودان، على مستوى مدينة لن تلبث أن تتلاشى. لقد خلت كل القرى من السكان، ونقل من بقي من نسائها بالسفن، أما الرجال فكانوا قد هاجروا منذ وقت طويل إلى المساكن الجديدة. ولكن هذه المدينة مازالت باقية، مسحة من الحياة، وميض الذباب الأخضر في كل لحظة، منذ أن رست السفينة رسوها الأول، إلى ساعات السعير الأولى، إلى اليأس، إلى الخاطر المفاجيء برحيل دون ما عودة، لن ترسو هنا سفينة، ولن يصل قطار. لابد من الاستعلام لمعرفة الحقيقة، فهناك شائعات تردد أن سفينتين أخريين ستأتيان، وكذلك قطارين آخرين. وأخرجُ من البيت عدة مرات، وقد حجبت وجهي بطرحة من الشاش، وأذهب إلى الجمرك الذي أغلق أبوابه، ومكتب البريد الذي أغلق أبوابه أيضاً. لقد اختفت السفينة عن الأنظار؟ إلى أين ذهبت؟ وأسلك سبيلي في اليوم التالي مرة أخرى إلى مكتب البريد الذي أغلق أبوابه. وأقرع الباب كأني أدق على طبلة، ثم أقرع الشباك. لوشئت

لقرعت كل أبواب هذه المدينة بدقات كدقات الطبول، فلن يفتح أحد، لأن كل الأبواب أغلقت، وليس هناك من يجد في ذلك غرابة. وأعيد المحاولة، وأدور حول مجموعة من البيوت، وأغوص في الرمل، آه إنها الصحراء هنا أيضاً، وهل يمكن ألا تكون الصحراء هنا، الصحراء إذن أمام الباب، كالمسحة التي تُمسح فيها النعال قبل الدخول.

في مكتب البريد، في الفناء الخلفي عدد من الماعز، وبعض الأبواب المطلة على الفناء مفتوحة تتأرجح. هذا هومبنى مكتب البريد قد أحاط به الإظلام، فالنوافذ قفلوها بالمسامير، واثنان من السود الشباب يجلسان هناك، فوق المكتب والمناضد ترتفع تلال من الخطابات والملفات والأوراق، أوراق ميتة عتيقة. الشابان يقدمان إليّ كرسياً، وأسألهما عن طوابع بريد، فلا يجد سؤالي في البداية جواباً، ثم يستخرج أحدهما من جبل الورق الآسن بعض الملفات، هنا طوابع بريد، نعم طوابع البريد موجودة، جميلة، مجموعة طوابع جميلة كاملة، والشاي موجود، والدنيا هادئة. الإنسان يشعر هنا كأنه يجلس في الفناء الخلفي لمحل تجاري. إنني أجلس في متجر البريد، لا في مكتب البريد. لا تستبد بالمكان دهشة لأن شخصاً أتي، يطلب شيئاً من هذا المكتب، ولا يحس أحد فيه بالفرحة لمقدمه، والمكتب يقفل أبوابه على سبيل الاحتياط. أقضي هنا ساعة، ثم أقضي ساعة في مكتب الجمارك، الذي لا يعلم شيئاً عن مواعيد قيام السفن، أو لعله يعرفها، ولكن ليس من بين الموظفين من يعتبر تقديم مواعيد دقيقة إليّ أمراً يستحق أن يبذل من أجله الجهد. إنه انتقام رقيق لاشعوري من ذوي البشرة البيضاء، فما هذه المكاتب إلا تَرِكَتُهم وقد أصبحت تحملق فيهم، المكاتب الحكومية التي تُشَغَّل ولا تشتغل. وهذا المكتب الحكومي ليس له وقت ينتهي فيه، إنه يحمل شعار الدولة، ويعلق لافتة كتب عليها بالإنجليزية« telegrammes are for delay البرقيات معطلة »، لا أريد أن أقول لن تأتي إلى هنا أية برقية، لا، ستأتي وستنتهي إلى الأوراق المكدسة تكدس البضائع في المخازن، وقد يعثر عليها بعضهم، وقد لا يعثر عليها أحد، فما من إنسان هنا يحتاج إلى

برقيات، وما من إنسان هنا أيضاً يحتاج إلى الطوابع، والأختام، والأضابير التي تنتظر الهواة مثلها مثل القطع الأثرية.

الاحتضار، الفهم في أثناء الاحتضار، لا ضرورة لهذا كله، أعود إلى الحجرة، وأقفل بابها بالمفتاح، بينما كل الأبواب مفتوحة، العرب والزنوج يجلسون على الأسِرّة، يتناولون حصيرة الصلاة المعلقة على الحائط، ويركعون ويسجدون في صلاة صامتة. الأزيار الكبيرة مصفوفة في الطرقة، فيها مائة ألف ناموسة، لا يمكن أن أعمل شيئاً، لا يمكن أن أغتسل أو أن أشرب. وبعد انقضاء يوم، أو: كم من الوقت انقضى؟ ربما لاوقت، ربما وقت كثير، أحملق مرة أخرى في زير من الأزيار، وأدلي فيه فوطة صغيرة، يلتصق فيها الناموس، وأغسل يديَّ، ووجهي، ورجليَّ مرة أخرى بعد برهة. بعد ساعة أنهض من جديد، وأسير وأعبرعلى العرب دون أن أنظر إليهم، كما يعبرون عليّ دون أن ينظروا إليّ، وأقف أمام الزير مرة أخرى، وأنفخ فيه، وأتناول الكوز، وأملأه من الزير، فإذا هو مليء بالناموس. ما العمل؟ لا بد من أن أحاول، فأنفخ في الناموس بالكوز لينحسر ويهبط إلى القاع، دون جدوى، فسرعان ما يطفو من جديد، وكأنه جزء لا يتجزأ من الماء. وأكف عن المحاولة، ثم أعود إلى المحاولة مرة أخرى، وأهم بأن أغمض عيني وأشرب، فلا أفلح، وأعود فأنظر في الكوز، وأحاول ملأه من أحسن جزء، ليس هناك جزء أحسن، فأشرب. ما أسهل الشرب ! لماذا لم أشرب من البداية على الفور، لماذا انتظرت، لابد أن أشرب. وما شربته طعمه كالماء تماماً، إنه ماء من النيل، الناموس لا أهمية له. الماء ماء الناموس بلا شك. هكذا انتهت المسرحية. ولكنني شربت فقط، ولم آكل. وأذهب إلى الخلاء، الناموس إضافة طبيعية للهواء، يتنفسه الإنسان مع الهواء، ويبلعه، ولا يبصقه كما بصقه من قبل، ولا يسعل كما سعل بسببه من قبل. ولكن ليس هنا شيء يؤكل. لقد تبددت تصوراتي الخيالية عن الفاكهة والبلح، والنخل هو الذي أوحى إلي بالبلح، وانجرفَتْ إلى العدم. لا خبز، لا لحم، لا سمك. ماذا سيكون هناك من طعام؟ وأشار إليّ الشيخ العربي

الذي يتكلم خمس كلمات انجليزية أن أمشي معه. الجوع، لقد فهم ما بي. هاهوذا يمشي أمامي، يغوص في الرمل مطمئناً، وأنا أتبعه، وأغوص في الرمل، نعبرعلى جدران البيوت البيضاء الواطئة، في ليل لم تبرد حرارته، وصحراء تشتد إلحاحاً، لم تعد هناك إلا بيوت قليلة، وسنصل بعد قليل إلى البيت الأخير. إنه يقرع الباب، يفتح أحدهم، شخص لا سبيل إلى التعرف عليه يحمل قنديلاً من قناديل الحظائر، لا يساورني خوف. شعاع من نور يكشف في لحظة خاطفة عن امرأةٍ في مقتبل العمر، عن شيء جميل، صامت، يعطي القنديل، يأخذ القنديل. نحن الآن في حجرة مظلمة وخمس كلمات انجليزية سرعان ما تقال. السكون يخيم على المكان. في الظلام يأتي شيء مظلم يلحق بالظلام. ظلامان. الكل سكوت، بلا إقامة وبلا خوف، ثم يأتي القنديل مرة أخرى، ويأخذونني إلى الحوش، وينضم إلينا شابان زنجيان. في الحوش شيء من ضوء القمر، وطبلية ضئيلة، بجانبها أسِرّة كثيرة من حديد، ينام فيها أولاد، اثنين اثنين، ساكنين، لا يُسمع لهم نفس. ولقد أخذت المرأة القنديل مرة أخرى، ثم عادت، ومعها الضوء المتأرجح المسالم، ليس من الممكن فهم ما يجري، وليس هناك ما يدعو لفهمه. الدنيا هنا لفتة، مشية، ضوء، ظلام، انتظار. المرأة الشابة تضع دون كلام طبق فول، وطبقاً آخر فيه نوعاً من الصلصة، تضعهما على الطبلية الضئيلة التي لا تتسع لهما إلا بشق الأنفس. وتأتي بخبز، الخبز إذن موجود. من يأتي الخبز في مدينة بلا خبز. ولاحظ العربي ترددي فدس لقمة ضئيلة في يدي، وبين لي كيف يقفش الإنسان الفول باللقمة، وهي عملية سهلة، يتقنها الإنسان على التو. هذه أربع أيادٍ سوداء ويد بيضاء تتناوب الطبق، ثم هذه هي تندس في الطبق في وقت واحد، وتنتظر فيه بغير حركة حتى لا تعرقل بعضها بعضاً، كلها أيد مهذبة. ليت مَثّالاً ثبتّ في الحجر هذه الصورة في تلك اللحظة التي بلغ فيها شيءٌ الكمال : الأيادي في الطعام، الأصابع تمسك الفتات، أعظم اللحظات وعياً وطبيعية، لقد تحقق الطعام الأول والوحيد، تحقق ويتحقق، الطعام الطيب الأول والوحيد، ولعل هذه الوجبة تظل في حياة إنسان الوجبة الوحيدة، التي لم تعكر صفوها من قريب أو بعيد وحشية أو بلادة أو شراهة أو

جهالة أو شبهة حساب. لقد أكلنا من طبق واحد. تقاسمنا الطعام ولم نَتْل « أبانا الذي في السموات... ». لم نَرُد شيئاً، ولم نترك حبة فول واحدة، لم نخطف، ولم نستبق، ولم نستزد.

والمرأة تجلس مبتسمة، صامتة على بعد، ترفع المائدة، تقدم فوطة، تأخذ طفلاً من السرير، طفلاً عارياً أسمر البشرة، يبكي فجأة ثم يسكت بعد هنيهة، يحملق في وجه أبيض، يشتهي، يهدأ. طريق العودة : كأن الريح تحركت، ولكن الرمل هو الذي يتحرك. عودة مع المرافق، إيماءة بالرأس، شكر خاطف، خمس كلمات استهلكت بسرعة. لا حاجة إلى شكر. في الفندق لا زال العرب يجلسون على سررهم، يدخنون. أُغلقُ بابي الذي ليس له قفل. الأمن هنا له مفهوم آخر. إنه ينبع من وجود الآخرين، وهو يعدل الإيمان بالقضاء والقدر بدون أفكار لئيمة أو ملتوية، إنه أمن بلا سؤال، بل هو أكثر من كل هذا، ليس هناك أمن، كما إنه ليس هناك لاأمن، وليس هناك خطر. ما الأمان والخطر إلا الإسقاطات أو التوهمات الكبرى، والفظائع الناجمة عن التوهمات. لا وجود هنا لشيء من هذا كله.

عرفتُ أن هذا أيضاً هو العالم، لم يكن ما عرفتُه مجرد معرفة. عرفتُ أن الإضافات السحرية التي زخر بها عالمي يرجع أصلها إلى تفضيلٍ نَبَعَ من كَلَفي بالخرافات. وعرفتُ أن الإنسان يستطيع أن يغيِّر الإضافات. ولقد كانت الخبرة التي أتيحت لي وعرفت بها إمكانية التغيير بمثابة بشارة لا تقل عن أي بشارة أخرى. من الذي يشك في أن الإنسان يستطيع أن يشرب الماء بيده من النهر، من الذي يشك في أن الإنسان يستطيع أن يعيش وأن يظل حياً في درجة حرارة أخرى غير التي ألفها؟ هذه هي الأمور التي يمكن معرفتها. أما البشارة فمن نوع آخر. فقد وصلت إلى عظة لم ينطق بها لسان، ولم تلق تحت سقف أي معبد، عظة الصحراء، تدعو إلى الصحراء، وإلى قوانين التي لم تتناولها صياغها، وإلى ألوان من الجرعات واللقيمات وأشكال من المشي والنوم كانت تحت قشرة رقيقة من أنواع من الفهم مختلفة كامنة تترقب ساعتها، وتنتظر التناغم الصوفي للشهيق والزفير والمشي والسكون، تنتظر ترنيمة هاليلويا الشكر على البقاء في العدم (...)

وادي حلفا؛ سيزول الآن، اليوم أو بعد أيام قلائل، سيخرج النيل عن مساره، ستعلو المياه وتغمر البيوت، وتغمرالفندق الصغير الذي نمت فيه، والبيت الذي أكلت فيه، وسيحملون قبل الغمر الفول والبلح، والأسرّة الحديدية، سيذهبون إلى مدينة جديدة، ببيوت جديدة. وإذا سارت الأمور على خير فستبقى المعابد الشمالية عندما يتمون بناء السور من حولها، ولكن الجو حار، وقد لا يتم أحد بناء السور. فهناك من لا يرون لهذا الموضوع أهمية. الماء هو المهم، وأن يذكر الإنسان أن هذا الموضع كان به شيء بقي بضعة آلاف من السنين، وأن يذكر أنه شهده وقضى به عدة أيام. ستتبدد أسراب الناموس الهائلة التي تتساقط كالتراب في العينين والأنف والفم. سيجتاح النيل بذراعيه كل شيء، سيضم إليه كل شيء، سيهدم كل شيء شيئاً فشيئاً. الرغبة تحدوني في أن أنحني مع الأولاد مرة أخرى من القارب على النيل، فأغترف منه بمهارة حفنة ماء، أشربها، فماء النيل أعذب من مياه الدنيا كلها.

باول تسيلان

Paul Celan

في بوق الغمام

أيها الفم في المرآة الخفية

أيتها الركبة أمام عمود الكبرياء

أيتها اليد فيها خوصة من القضبان :

تداولوا الظلام فيما بينكم ،

اذكروا اسمي

خذوني أمامه .

ليلاً ...

ليلاً، عندما يتأرجح بندول الحب

بين نعم أبداً، ولا على الإطلاق،

تندفع كلمتك إلى أقمار الفؤاد

وتقدم عينُك ذات الزرقة العاصفة

السماءَ إلى الأرض .

من خميلة نائية تحوط بها أسراب الأحلام

يهب إلينا ما قد بددته الأنسام

ويدور ما ضيعناه، عظيماً كتخطيطات المستقبل .

ما يعلو ويهبط الآن

يستهدف الدفين في أعمق أعماق الوجدان :

أعمى كالنظرة التي نتبادلها

يقبِّل على فمه الزمان .

في مصر

عليكِ أن تقول لعين الغرباء : كوني الماء .

عليك أنت يا من تعرف في الماء أن تبحث في عين الغرباء

عليك أن تناديهن ليخرجن من الماء : راعوث، نُعْمى، مريم .

عليك أن تزينهن، عندما تضطجع عند الغرباء .

عليك أن تزينهن بشَعر الغربائي السحابي .

عليك أن تقول لراعوث ومريم ونعمي :

انظرن، إنني أضطجع عندها .

عليك أن تزين الغريبة بجانبك أجمل زينة .

عليك أن تزينها بالألم على راعوث ومريم ونعمي .

عليك أن تقول للغريبة :

انظري لقد اضطجعت عندهن .

----

* نُعْمي = أم زوج راعوث . انظر التوراة، كتاب راعوث .

فوجة للموت

لبن السُّحْرة الأسْود نشربه مساءً،

ونشربه ظهراً، وصباحاً، ونشربه ليلاً

نشرب ونشرب

نحفر في الأنسام قبراً، لا يرقد فيه الإنسان ضيقاً .

في البيت يقيم رجلٌ، يلعب بالثعابين، يكتب،

يكتب عندما يغشى الظلام ألمانيا شعرك الذهبي، يا مرجريته

يكتبه، ويخرج أمام البيت، والنجوم تتلألأ، يصفر منادياً كلابه الشرسة

يصفر جامعاً يهوده ويحتفر بالجاروف قبراً في الأرض

ويأمرنا : اعزفوا الآن أنغام الرقص .

يا لبن السُّحْرة الأسْود، نحن نشربك ليلاً،

ونشربك صباحاً و ظهراً، ونشربك مساءً

نشرب ونشرب

في البيت يقيم رجلٌ، يلعب بالثعابين، يكتب،

يكتب عندما يغشى الظلام ألمانيا شعرك الذهبي، يا مرجريته

شعرك الرمادي يا سلميت، إننا نحفر في الأنسام قبراً، لا يرقد فيه الإنسان ضيقاً .

إنه ينادي : احفروا عميقاً في ملكوت الأرض، يهؤلاء، يا أولئك، غنوا واعزفوا

ويمد يده إلى الحديدة في الحزام، ويلوح بها، عيناه زرقاوان،

احفروا بالجواريف أعمق، يا أولئك، يا هؤلاء، استمروا في عزف أنغام الرقص

لبن السُّحْرة الأسْود نحن نشربك ليلاً،

ونشربك صباحاً وظهراً، وصباحاً، ونشربه مساءً، نشرب ونشرب

في البيت يقيم رجلٌ، شعرك الذهبي، يا مرجريته

شعرك الرمادي، يا سلاميت، يلعب بالثعابين

إنه يهتف : اعزفوا الموت أحلى، الموت معلّم من ألمانيا

إنه يهتف : اعزفوا على القيثارات عزفاً أرخم، ثم اصعدوا كدخان في الهواء،

فستجدون قبراً في السحاب، لا يرقد فيه الإنسان ضيقاً،

يا لبن السحرة الأسود، إننا نشربك ليلاً،

ونشربك ظهراً، الموت معلّم من ألمانيا،

ونشربك مساءً وصباحاً، نشرب ونشرب .

الموت معلم من ألمانيا، عينه زرقاء،

إنه يصيبك بطلقة من رصاص، يصيبك بدقة،

في البيت يقيم رجل، شعرك الذهبي، يا مرجريته،

إنه يحرض كلابه الشرس علينا، إنه يمنحنا قبراً في الهواء،

إنه يلعب بالثعابين ويحلم، الموت معلم من ألمانيا،

شعرك الذهبي يا مرجريته

شعرك الرمادي يا سولاميت .

------

* الفوجة قالب موسيقي تتابع فيه التيما وتنويعاتها المتتالية في نوع مميز من التلاحق .

أغنية في الصحراء

إكليلٌ ضفروه من ورق شجر مسوّدٍ في أرض عكا :

هناك طوّحتُ الجواد الكميت ووخزت بسيفي نحو الموت .

ثم شربت من أوان خشبية رماد آبار عكا

وانطلقت وقد أسدلت الرفرف على عينيّ نحو أطلال السماوات .

فالملائكة قد ماتت وعَمِيَ سيدي في أرض عكا ،

فما من أحد يرعى من أجلي في سباتهم أولئك الذين خلدوا للراحة هاهنا

ولقد ضُرب القمر ضربة مهينة، والزهرة الصغيرة ضربت في أرض عكا :

بحلقاتها السوداء تزدهر الأيدي التي تباري الأشواك

وفي نهاية المطاف يكون عليّ أن أنحني لأطبع قُبلة ، عندما يصلّون في عكا ...

آهٍ، كم كان رديئاً درع الليل، فنزّ الدم من فُرج المشابك .

هأنذا أصبحت أخاكم الباسم، صاروفيم عكا الفولاذي .

ما زلت أنطق الاسم وأحس لهيباً على وجنتيّ .

نصف ليلة

نصف ليلة . شُبِّكت بخناجر الحلم في عيون لها رذاذ .

لا تصرخ من الألم : هي السحب تنتفض كالطُّرَح .

سجادة حريرية، مدت بيننا ، حتى يكون الرقص من ظلام إلى ظلام.

ونحتوا لنا الناي الأسود من خشب حي، الآن تأتي الراقصة :

إنها تدس في عيوننا أصابع غُزلت من غشاء البحر :

هل من راغبٍ في البكاء ؟

لا أحد . هاهي ذي تندفع كالدوامة العارمة سعيدة حتى تغيب، ويتعالى دق الطبلة النارية .

وهي تلقي إلينا خواتم، فنتلقفها بالخناجر.

أتُراها تعقد قراننا ؟ أنغام كالشقاف. هأنذا أعرف كما عرفت من قبل :

أنت لم تمت

ميتة بلون العنّاب.

هانس كارل أرتمان

H. C. Artmann

قلبي

قلبي الثوب الباسم لفكرة لم يخمِّنها أحدٌ من قبل قط

قلبي السؤال الصامت من قوس من العاج

قلبي الثلج الجديد على آثار أقدام طيورٍ فَتيّة

قلبي حركة مسائية ساكنة من يدٍ تتنفس

قلبي في علبة صغيرة بيضاء لامعة من الموسلين

قلبي يشرب ماءً أصفر براقاً من إناء زبرجدي

قلبي يحمل برجاً فلكياً عجيباً من أرق ذهب

قلبي ينبض مسروراً في مطر نجوم وسط الشتاء .

أربع قصائد أخرى مكتوبة على نصل

ساقاي تتعلمان المشي
من جديد بعد حين،
يداي تبتهجان من جديد
إذ تلمسان غصوناً وزهوراً مباغِتة؛
طريق بين أشجار،
سكة صاعدة من خلال مروج،
حَجَرٌ مقدس يوجِّه نظرتي
مثل بندقية دقيقة التصويب ..

- - - -

شمس يسقط نورها على أرض ذات غابات،
راية خضراء ذهبية، ترفرف
مع كل خطوة من خطاي،
وطائر الكوكوك يُجلس صوته
على عروش ساعات العصر الهادئة،
والبلبل يبث نبراته المرآوية

في القمر الليلي . .

أتقاسم مع النمل الطحالب والإبر الساقطة،

والحشاف والبندق مع طيور الزريق القريبة دائماً .

- - - -

هل يمكن أن أنسى يوماً ما

حديقة ملكتي هذه؟

أي دلفين هذا أو أي نورس

أتى بي إلى هذه الجزيرة؟

ملكة اللبلاب،

واد مظلم سحيق،

أعجوبة عاجية،

نار مخيم ردفيّ،

كل ساعاتي وأعوامي

بحثت عنها بعد حديقتك -

ليست هذه أكذوبة!

- - - -

أحبك يا هيكلي الناصع،

يا دغلي المصطبغ بلون خيط الصيف،

أسألك السماح بالدخول ...

حيوانان صغيران نزلا

من دفء ثدييك

وأسرعتُ

لأبني لهما في داخلي كوخاً ؛

وهذه أنفاسهما تنفذ مغتبطة

من خلال بوابة رئتي الرئيسية !

يا دلفين نجاتي، يا جزيرتي التي عثرت عليها ،

كل قبلاتي أود أن أبادلها معك لا أريد

في مقابلها شيئاً إلا توتتين بريتين حمراوين . .

١٩٦٠/١٠/٩

هيا نعصر من نجم الصباح

أحلاماً ونشربها .

انظري ! أكتوبر الأزرق

يتدافع من حول جِبّاه الصوامع ...

كتاب حروف

الخريف الجديد انفتح أمامنا

نقرأ كلانا أبيات الشعر الخضراء

لمحصول مستعمل،

ونلف سُمُوت رأس الصيف الحارة

فندلّيها في البئر،

ونبارك ما رفعناه منه،

دلاء الطراوة

ونغمس فيها أيادينا

ونبلل أفواهنا ،

ونحفزها لقبلات جديدة

أكثر نصاعة،

لا تشوبها

مرارة الحرائق الماضية .

تعالي !

هيا بنا نسير معاً

فوق مراعٍ مصفرة،

حتى يخلص المجرد من الزمن

في دم حبنا خلاصاً رفيقاً !

١٩٦٠/١٠/١٠

كأنه عصير ثمرة حلوة كل الحلوة

يشرب الإنسان منه طويلاً في المنام ...

كأنه ظل حيوان فتيّ

يدور هادئاً حول نبع ...

كأنه شجرة جميلة يانعة مورقة،

يبتليها حب الليل الأول

بجرادات منشدات وندى ..

مثل إصبعي، يا حبيبتي،

إصبعي الذي يمس شفتيك مساً رفيقاً حنوناً..

١٩٦٠/١٠/١٤

عربة تجرها أربعة جياد

بيض حسان

رأيتها تدلف

إلى حصن

بهجتي تلك التي توجستها

وعاد الى بيته الساحر ميرلين،

طيِّب الغابات،

من الطحلب و الخنشارالمتطاير ؛

إلى من لا تدركهم الأبصار

أود أن أقدم

كأس القربان

مليئة بأوراق السنديان الرخصة ..

هذه المعجزة

لن أشهدها مرة ثانية

في حياتي !

أبانا ...

أبانا

نحن نحمل مسبحة

من الطلقات النارية

من خلال غابتنا الخريفية

ظهراً في السماوات

نشرب كمپاري

كذلك على الأرض

في سكرات

دجاج الميدان المصاب

ليأتينا ملكوتك

وأنت توجِّه نحوه قاربك

ولتكن مشيئتك

على موائد تجردت من الخضرة ومن الورق

في السماء تنظر بنت آوى

كذلك على الأرض

خبزنا اليومي (كفافنا) اعطنا اليوم

ورق وغمام ورائحة

عيش الغراب الساقط

واغفر لنا ذنوبنا

مسيرة حيوانات الغابة الهامة

كما نغفر

نحن أيضا للمذنبين إلينا

ارفع البندقية، نشّن، اضرب

تحت هذه القبة السماوية الجميلة

نأكل طيور الدُّرَّج والدجاج البري

ولا تدخلنا في تجربة

أداة احتفالية من الخشب

والمعدن

لكن نجِّنا

من كل شر

مثل أشجار التفاح التي قطفت ثمارها

على مشارف فِرلاخ

آمين .

×) يستخدم الشاعر كلمات الصلاة المسيحية ويوظفها في القصيدة « أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا اليومي (في الترجمة العربية المعتمدة : خبزنا كفافنا) اعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ، ولا تدخلنا في تجربة ولكن نجنا من الشر بالمسيح يسوع ربنا » . (المترجم)

××) Ferlach موضع في النمسا فيه مصانع الأسلحة، وقد أصبح اسمه رمزاً على أدوات الحرب . (المترجم)

هانس هاينتس هانل

Hans Heinz Hahnl

القـــرى البائـــدة

Die verschollenen Dörfer

ناتونج اسم طواه النسيان اليوم، ولكنه كان له في زمانه رنين وبريق مثل اسم الصين. وأنا عندما أحكي عما حدث في ناتونج، أحس بالحرج، فربما ظن البعض أنني أقدم نموذجاً أُضمر له مغزى. وأنا لم أؤلف بين أشياء لم تأتلف، ولم أبتدع شيئاً ابتداعاً. إنما الذي حدث هو أن شعب ناتونج، وهو شعب من محبي الطيور، عبر الليلة الليلاء التي أصبحت مضرب الأمثال، والتي لم تكن في الحقيقة إلا دورة مطوّلة انتهت إلى ما سمي بالتحول الكبير، واستطاع أن يقضي على الطيور كلها قضاء مبرماً.

ومن منا لا يعرف الصورالمطبوعة التي نُقلت عن رسوم ناتونج المشهورة المرسومة بالحفر على الخشب والتي ما زالت إلى اليوم تزين حيطان حجرات النوم في بيوت الفلاحين، وحيطان الدهاليز ودورات المياه في مطاعم القرى النائية؟ صورة طائر البَلَشون يقف على حافة بِركة، وصورة طيور الزاغ تحلق في السماء ساعة الأصيل، وصورة الشحرور حط على فرع شجرة كَسَتْهُ الثلوج، وغير هذه وتلك من مناظر فردوسية. كانوا يقولون في ذلك الزمان إن كل

إنسان في تلك القارة الواسعة له طائره الذي أحبه وجُن به. ويمكننا أن نرى في متحف التراث الشعبي شواهد على عظمة عشاق الطيور في ناتونج في ابتكار أشكال بديعة جديدة لمزاود إطعام الطيور. كانت الشرفات توضع فيها مزاود صغيرة منمنمة تحاكي أشكال المعابد تُملأ بطعام الطيور، وكانت الأسيجة تزيَّن بزخارف تشكيلية بديعة وضع فيها لب عباد الشمس طعاماً لها. ثم ألم يكن الطائر هو شعار ناتونج؟

وذات يوم جاء رجل، قالوا إنه شاعر، فيلسوف، صديق للبشر، يعرف كيف يحل معضلة المجاعة. كانت المجاعة قد دخلت عامها الثاني، لسبب لا أعرفه عن يقين، ولكن الذي يعرف ناتونج يمكنه أن يستنتج السبب : إنه الاقتصاد الفاشل، والفساد، والمحسوبية، والبيروقراطية، والهوس الإيديولوجي، وإهمال الزراعة والعمل وتضييع الوقت في التعليم السياسي. أما صديق البشر العظيم الذي لم تكن صُوَرَهُ ثائراً تمثله فيما بعد إلا على شكل واحد لا ثاني له، ماداً يده مليئة بالحَب إلى الطير يهفو إليه مرفرفاً بجناحيه، فقد ألقى مسئولية القحط على جيوش العصافير وأسراب الزاغ ؛ واخترع، وهو الشاعر والفيلسوف ومبدع التحول الكبير، عمليات حسابية أخضع لها الطيور، فأناط بالكمبيوتر مهمة حساب كمية الحبوب التي يأكلها الطائر إذا لقط حبة واحدة في اليوم، ثم إذا لقط ست حبات، وحساب الكمية الكلية إذا أكل ألف طائر ثلاث حبات، والمائة مليار طائر في ناتونج عندما يأكل كل واحد منها ٢٨ حبة يرد بها غائلة جوعه.

وكانت النتيجة شيئاً رهيباً. فقد استنتج السياسي، العالم بالرياضيات، صاحب الأيادي البيضاء على البشرية، أن هذا الكم من الحبوب، إذا استأثر به البشر، لا يكفي فقط لإطعام أهل ناتونج، بل يكفي لتغطية طلبات تصدير الأرز والقمح والذرة، وهو ما سيمكن من تسليح الجيش بأسلحة جديدة، ولم يفهم أهل ناتونج مغزى العبارة التي تضمنت تلميحاً شعرياً إلى السبب الحقيقي للمجاعة التي ابتلوا بها. وتحول صديق البشر إلى سفاح الطير.

وكل منا يعرف صورة الرجل الضاحك الذي يقبض بيده على طائر نورس خائر، ويلوي رقبته ويلقي به فوق تلال الطيورالميتة ؛ وصورة الأولاد الذين يغنون وهم يجمعون العصافير الميتة، التي حصدتها جحافل النسوة المسنات المحترمات والأجداد، أطلقوا عليها نيران البنادق أو انهالوا عليها بالعصي. أما الذين لم يستطيعوا الانضمام إلى هذه الجحافل، وهم المرضون ومن يرعونهم من المجانين، فأخذوا يقرعون الجونج، ويضربون بالعصي على أواني الطهي ليفزعوا الطيور، وليفسدوا بالضجيج أجهزتها السمعية الحساسة. كان هذا القتل بالصخب مشاركة قدمتها أكاديمية ناتونج التي درست عدد الفونات التي لا يطيقها سمع الطيور. ولم تدخر ناتونج وسعاً، ولم تدع وسيلة تبيد الطيور إلا استخدمتها : فقد تسلق أساتذة الجامعة السلالم المتنقلة ليصلوا إلى الطيور وأعشاشها في أركان الحواصل، وارتقى الموسيقيون أشجارالحور مهما بلغ ارتفاعها ليجمعوا بيض الطيور من أعشاشها ؛ ولن أنسى ما حييت الفيلم الذي يصور البنت التي رفعوها إلى مصاف القديسات، كانت قد صعدت لتهبط بفقس صغير فوقعت وانقصفت رقبتها، ولكنها داست بقدمها على جسم الأزغب النحيل وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. وخص الشاعر العظيم البنت بقصيدة رددها الصبية عندنا حيناً، ثم طواها النسيان فلم يعد يذكرها أحد.

ولنترك الصور، فلا طاقة لي على احتمال المزيد من النظر إليها. لقد قتلوا ٢٦ مليوناً من الطيور، منها ما أطلقوا عليه النار، ومنها ما أطاحوا به بالهروات، ومنها ما أغرقوه، ومنها ما خنقوه. ونجا زوجان، كما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات، أو ربما كان الذي نجا طائر واحد صغير، جاءه من وراء الحدود طائر آخر صغير.

ولم تصدِّر ناتونج شيئاً، لا قمح ولاذرة ولا أرز، واستمرت المجاعة. لابد أن الكومبيوتر أخطأ الحساب. ولم يفهم أولو الألباب أين راحت المليارات من الحبوب. هل سرقت، هل تعفنت، هل غرقت، هل ذرتها الرياح، أم تلاشت في الأرض الرملية الرخوة؟

وانتقل صديق البشر بعد ذلك إلى إبادة الكلاب، ثم طارد القطط، وتعقب الخيل حتى قتل آخرها. وأكل الناس القمامة، ثم لم تعد هناك قمامة يأكلونها من جوع، فلما هلكت الكلاب، عزّت القمامة. ولم يعرف أحد تفسيراً لتلك الظاهرة. وأخفقت الأكاديمية. وهذا صديق البشر، مطارد القطط، الأديولوجي العظم، مبتدع الشعارات، يعفي الحلاقين من عملهم لينهضوا بالمطاردة؛ وما مر أسبوعان حتى خلت ناتونج من الحلاقين، وأصبح الناس يصففون شعورهم سراً. ثم ظهرت ظاهرة عجيبة أخرى: فإذا كان أهالي ناتونج قد رضوا بكل أنواع الحرمان، ودسوا وهم عشاق الطير السم لببغاواتهم، إلا أنهم أبوا أن يسلموا أمشاطهم، وعرضوا أنفسهم لعقوبة الإعدام التي وعد بها من يسلك مشطاً في شعره حتى لو كان مكسراً. وضحى الأكاديمي الكبير بالأكاديمين، تجمعت الجحافل والكتائب والفرق الصفراء على الحدود وتلقفتهم وهم يهربون، فاصطدموا بأسنة الرماح. وابتدعوا، عندما أحاط بهم جيشان، جيشهم والجيش الأجنبي، نظرية برروا بها ما يتعرضون له من اضطهاد أو برروا بها بقاءهم على قيد الحياة، لا نعرف ماذا بررت على وجه الدقة، لأنهم هلكوا جميعاً، لم يفلت من الهلاك إلا طالب واحد فقط: ما لبث أن التمس له حرفة أخرى، فأصبح جندياً أو جلاداً، أو ربما قاضياً أو تاجراً، عمل على أية حال عملاً تدعو إليه الحاجة.

كانت النهاية قصيرة، ولكنها لم تكن مجردة من الألم. فقد استمرت عملية التحلل زمناً طويلاً، ولكنها كانت تجري كالمألوف في الخفاء. حتى الباحثون عندنا لا قدرة لهم على الوصول إليها وملاحظتها، فعملية إبادة جذور الحشائش المرفوضة لا تلاحظها الأعين. هناك دائماً من ينجو من الهلاك، ولكن من ينجو من الهلاك يتكيف مع الأرض ومع الزمن، فيتوارى ويتلون فجأة بلون الغزاة. هذا الذي فشلت فيه العصافير نجح فيه بعض قتلة العصافير، فاختفوا عن الأبصار، وجردوا كياناتهم من الوجود المادي حتى لا تدركهم الأبصار، وذات يوم ظهروا مرة أخرى، واندسوا بين المنتصرين، لم يختلفوا عنهم، عند التدقيق أشد

التدقيق، إلا اختلافاً خفيفاً بأن لهم رائحة غريبة قد تشمها الأنف إذا هبت الريح من اتجاه غير مأمول. هنا عسس الجيش الأصفر يشمشمون، ولكن أنوفهم أصبحت لا تشم شيئاً في تلك البلاد الغريبة، وعيونهم عكرتها غشاوة ؛ وكان الناجون من الهلاك ينحنون على الفور انحناءة الخضوع، ويركعون أشد الركوع، حتى لا ينظر أحد في عيونهم، وكانوا يتعطرون، ويتلقون ركلة في ظهورهم، وينصرفون. فإذا قبضوا على نساء اغتصبوهن وضربوهن بالسوط ضرباً مبرحاً، ثم اغتصبوهن مرة أخرى، ثم ألقوا بهن في ركن بعيد. فكن يلعقن جروحهن، ويقمن من بين الموتى ؛ كذلك قالوا عن بعض الطيور إنها رفرفرت بأجنحتها وهي بين أكوام من جثث الطيور حملتها العربات، وصحت من الموت وطارت. كانت تلك طريقة تحدث عنها قتلة الطيور إلى الناجين من الهلاك حديث المواساة، قالوا لهم إن هناك مَن طاروا ونجوا من الهلاك.

« هل رأيت بعضها يطير؟ هل تركت بعضها يطير؟ »

«طار من عندي دستة »

وإليك هذا الطفل الذي ملأ علبة بجثث الشحارير ليفرغها في الدلو الذي سيفرغ بدوره في صندوق يحملونه إلى عربة، هذا الطفل أقسم على أنه رأى شحرورة فتحت عينيها وحركت جناحيها ثم طارت. هذا حدث، ولكن عندي براهين على ما حدث لشحرورة أخرى، أمسكها الأولاد بأيديهم، ولم يفتكوا بها بأيديهم، بل رموها بعيداً على الأرض، ثم داسوها بأرجلهم مراراً وتكراراً ؛ حتى إذا كفت الشحرورة عن جذب اهتمامهم ألقوا بعض الأولاد أرضاً واستأنفوا العذاب. وما يزال مؤرخ ناتونج يبحث عن الصبي الذي رأى الشحرورة ترفرف بجناحيتها، ثم تخرج من علبته وتطير.

ولكنهم كانوا عندما يخلون إلى أنفسهم يتحدثون عن طيوركانت لديهم وأفلتت كما أفلتوا هم. وإذا كانت بعض الطيور قد تمكنت من الإفلات، فلماذا لا يتمكنون هم أيضاً؟ وإذا كانت

هناك نياشين تمنح في ناتونج لهذا أو ذاك بناء على عدد الطيور التي قتلها أو بناء على عدد الجثث التي قدمها، فقد أصبحوا هم يكرمون أنفسهم بناء على عدد الطيور التي تركوها تفلت.

برهان الغياب المألوف عند السفاحين السياسيين وأذنابهم.

لقد أبيدت ناتونج كما أبيدت طيور ناتونج، ولكن طائفة من الطيورعادت من جديد : العصفور والشحرور والقرقف وأبو الحنا والحدأة وخمسة أنواع من الحمام. كانت هناك طيور، وكان هناك أيضاً بشر. ولكنهم فقدوا هويتهم، كما يقول المؤرخون. ولا أعرف على وجه اليقين ما يقصدون. إنهم يعيشون في كوموزان، عيشة الكوموزانيين، أقرب إلى الشظف منها إلى السعة. هنا تكمن المشكلة

في نظري. من الذي يبكي على راية ناتونج التي ضاعت؟ وهناك أناس يكتبون مذكراتهم، يدارون على قتل الطيور، ويمجدون قتل الطيور تمجيدهم للبطولة، ويدافعون عنه ؛ وهذه مشكلة من شأن أهل المدن. أما أهل الريف فلا يحفلون بها. لقد عادوا إلى صيد الطيور، بعد أن كانوا قد انصر فوا عنه سبع سنوات كما نعلم، لم يكن صيد الطيور قد حرم، بل أُجِّل. «أنا لا أؤمن بالضمير، بل أؤمن بالحياء»، هذه كلمات أُثِرَت عن فيلسوف من ناتونج، نعرف عنه أنهم كرموه بنيشان الغضروف الذهبي تقديراً لحماسه في قتل الطيور. ولعله كان واحداً من المثقفين الذين شجبوا صيد الطيور ؛ ولقد كان صيد الطيور مستحباً إلى حدٍ ما في الأقاليم المجاورة، مستهجنا دائماً في ناتونج. كان الناس هناك لا يأكلون الدجاج والبط والأوز، لا يأكلون شيئاً من قبيل الطيور. وهم على أية حال قد تحولوا إلى أكل لحم البشر في الجبال، وهو اللحم الوحيد الذي كان متاحاً بوفرة وفيرة آنذاك، عندما وقع شعب قتلة الطيور ضحية للفرق الصفراء، وتكومت جثث البشر تلالاً. كان القحط فظيعاً، لم يكن

هناك شيء يؤكل، لا ذيل طير، ولا حبة قمح، حيث لا زراعة، ولا حصاد. وكانت النتيجة تدهور احترام الآدمية تدهوراً شديداً ؛ فالشيء الذي يُقتل بسهولة، وينحط قدره، يؤكل. أم هل كان قدره أحط من أن يؤكل؟والجوع يتجاوز الضمير. هكذا أكل الناس بعضهم بعضاً. بل كان من الناس من جروا وراء الكتائب الصفراء، وانخرطوا في مؤخرة ركابها، لكي يجدوا لحم بشر طازجاً يأكلونه. كانوا يلبسون الأزياء الرسمية المهملة ويعرضون خدماتهم، ترتمي النساء على أقدام الجنود، ويلعب الرجال دور القوادين. وسكت الغزاة عليهم حيناً، ثم جاء الأمر بالفتك بهم، ولكنهم أصبحوا على شاكلة الكوموزاميين لا يسهل تمييزهم عنهم. وكانوا يعرفونه باختبار واحد لا ثاني له : كانوا يعطونهم لحم طير، فلا يستطيعون أكله، بل يتقيؤنه. وكان الذين يرغمون أنفسهم على ابتلاعه يقطبون أساريرهم من القرف، ويلوون أجسامهم من الألم. وجرت عمليات التطهير بين الناجين من أهل ناتونج. وألقوا بجثثهم في الحفر التي ضمت جثث الطيورالنخرة، فكانت مثواهم. وغرقت جثثهم في بحر من العظام الصغيرة الباهتة. وهنا أيضاً أفلت البعض من الإبادة. أفلتت نساء استسلمن للغزاة المتسلطين. وأفلت أكلة القاذورات الذين استطاعوا أن يبتلعوا جناح الدجاجة، وأن يزدردوا صدور الحمام بإرادة دونها كل إرادة. وأقسموا ألفاً من الأيمان المغلظة أنهم لن يمسوا طائراً أبداً بعد الآن، إذا بقيت هذه القطعة الكريزة من جلد الأوزة في بطونهم. فهل فعلوا ما أقسموا عليه؟

لم يفعل أهل الريف. بل لعلهم لما يشاركوا أصلاً، لا في قتل الطيور ولا في ألاعيب النجاة بأنفسهم. فقد كانوا يعيشون بعيداً عن الحكم والحكام. لعلهم وضعوا الديكة الرومية في هوة سحيقة، وطيّروا النسور إلى ذرى بعيدة المنال . وما لبثوا أن تاقوا إلى طعم الحَجَل والدُّرَّج ؛ ووضعوا طيور الحسون في أقفاصهم الخالية وتخيلوا أن طائرهم المحبوب، الذي كانوا آنذاك قد فتحوا له الباب وطيروه، قد عاد إليهم.

هناك باحث، اتسمت عباراته بعاطفة متأججة وخيال متدفق، لم يستطع أن يخفي في تقريره ملحوظة راودته، وهي أنه لا يفتأ يعجب إعجاباً بين النفور والرأفة بما أوتيته الأمم البشرية البائدة من موهبة على الإيهام والتضليل. فهي تقتِل، وتُجتث، وما تكاد تلتقط أنفاسها حتى تنصب في بيتها هيكلاً لما يئيش في وجدانها من عواطفها. فهذه قد قتلت عصفورها الكاناريا، ولكنها تتصور أن العصفور الذي أقبل هو عصفورها نفسه، وأن شاعراً ومحرر بشر سيأتي، يؤلّه الطيور ويعلن على صحف الحائط أن الطيور آلهة ينبغي عبادتها، وأن الحَب الذي تأكله الطيور يُثاب عليه البشر ألف مرة، وأنها أول إنسانة تجعل نفسها مبشِّرة بمذهب الخلاص الجديد.

لاشيء من هذا في ناتونج التي تغير اسمها إلى كوموزان، والتي أصبح الناس فيها يتكلمون اللغة الكوموزية، ويخضعون للقوانين الكوموزية. والعصافير تشقشق كما كانت تشقشق فيما مضى. ولكن لاشيء من هذا في كوموزان التي ربما تكون قد تعرضت للغزو مرة أخرى، واجتثت من جديد، وتقوم فيها قوانين أخرى، وتكذب فيها لغة أخرى، ويرفرف عليها علم آخر. ولقد غابت ناتونج عن أعيننا. وتهدمت المدن، وتيتمت القرى. لا أحد يعرف ما يحدث في الحقول، وفي أكواخ السهول بين الجبال. ربما يكون الناس قد نكبوا بالطبيعة، يعيشون مع الطيور والزواحف، مثل السبلة والسباخ، وتردوا إلى همجية، ولعلهم فقدوا اللغة، وأصبحوا يتأوهون عندما يولدون ويموتون. هذا خوف - - بل هو تصور أثير إلى نفوس باحثينا : تحول الإنسان إلى الطبيعة، اندماجه في برية الخصب والعفن.

أنطون فوكس

Anton Fuchs

الكيلو ٨

Km 8

الدكتور ڤيلفريد لوشنيج، طبيب متخصص فى المسالك البولية، ٥٦ سنة، متزوج، والد لابنين، أكبرهما يدرس فى الجامعة ؛ وألبرت تسيشمان، مندوب تجارى، ٢٨ سنة، متزوج، لم يعرف بعضهما بعضاً من قبل قط، وكان المفروض ألا يعرف أحدهما الآخر أبداً، إلى أن كان لقاؤهما مساءً قرب العلامة الحجرية الكيلو ٨ على الطريق الزراعى رقم ٩١، وهو اللقاء الذى سيكون موضوع الحديث.

أصغرهما ولد فى ضاحية من ضواحى ڤيينا، وأكبرهما فى ڤيللاخ بإقليم كيرنتن، ولم يكن بينهما من عوامل مشتركة إلا اللغة، ودافع عارم للتمسك بالحياة، وللتقدم، وللبقاء فى المستقبل، مع التصدى للبقاء . ولعلهما لو تكلما معا، وهو ما لم يحدث، لوجدا أنهما يتفقان على نحو ما فى الآراء السياسية وفى بعض الهوايات. كذلك كانا كلاهما من المدخنين المفرطين، ولم يكونا ينفران بعد الفراغ من العمل من شرب الخمر.

هكذا كانت الحال بالنسبة إلى الدكتور لوشنيج يوم الثلاثاء ١١ مايو ١٩٧٦، عندما حضر مع زوجته في دار المؤتمرات بمدينة ڤيللاخ حفلاً استضاف فرقة مدينة كلاجنفورت المسرحية ؛ كان مزاجه على خير ما يرام لأن العرض كان جيداً، جديراً بالتقدير، أديت فيه أوپرا جيتانو دونيتسيتى «مشروب الحب». وذهبا بعد الحفل إلى مطعم «پوست»، وأكلا لقمة سريعة، وتحدثا متحمسين كما لم يفعلا منذ وقت طويل، وشربا بعد ذلك زجاجة براندى قبل أن تتأبط ذراعه ويعودا إلى البيت.

وفى صباح اليوم التالى نحو الساعة السادسة عندما كانا لا يزالان نائمين وضع ألبرت تسيشمان أمام البيت رقم ٨ شارع ڤاج بڤيينا حقيبتين تحتويان على العينات فى صندوق سيارته الكومبى، ووضع شنطة الملفات والشمسية والمعطف السفرى على المقد الخلفى. ورفع بصره ونظر لحظة إلى نافذة من نوافذ الدور الثالث. ولكن النافذة ظلت خالية لم يطل منها أحد. وقال فى نفسه، لابد أنها عادت إلى الفراش، وركب السيارة وجلس إلى عجلة القيادة وقفل الباب بقوة. ثم شغّل الموتور، وتحرك، ودخل ببطء فى الشارع الرئيسى ڤيدنر هاوپتشتراسه، وبعد أقل من ربع ساعة وصل إلى بداية الأوتوستراد جنوب.

كان عشية اليوم السابق قد أفرط فى الشراب وأوى متأخراً إلى فراشه، وصحا فى ذلك الصباح منحرف المزاج. أما فى هذا الصباح الصحو فقد ألفى نفسه نشيطاً مليئاً بالقوة والهمة. كانت السماء صافية لم تعكرها سحابة. واتخذت أكياس تحديد اتجاه الهواء الملونة بالأحمر والأبيض وضعاً يكاد يكون أفقياً فى الريح العاتية التى هبت من الناحية المألوفة . ورأى حارات الأوتوستراد الإسمنتية الثلاث تمتد أمامه بلا عوائق واسعة مستقيمة كل الاستقامة. فانطلق بعربته سريعاً. كانت الهضبة إلى اليسار تعلوها صفوف من أشجار الحور تتناهى نحو الشرق، وكانت سفوح الجبال إلى اليمين تغص بالكروم فى مرتفعاتها ومنخفضاتها، تكتنفها من الخلف سلاسل تلال غابة ڤيينا الخضراء، التى كانت تمتد إلى بعيد حتى تتلاشى فى

الشبورة الزرقاء النائية. ثم ظهر جبل شنيبرج، جبل الثلوج، أبيض باهر بتضاريسه الوعرة، ومسالكه وخدوده التى غطاها الجليد.

كان هذا الجبل، الذى برز عالياً من فوق الذرى التى اكتست بالغابات من أمامه، يفتنه أشد الفتنة منذ الأزل. فقد اشتهر بالعواصف الخطيرة التى كانت تهب فتحوِّل الجولان بين كايزرشتاين وكلوسترڤاپن إلى مغامرة خطيرة. كذلك ارتبط الجبل بما عرفه عن الزوج الأول لجدته أم أبيه من أنه مات هناك فى أثناء التزحلق على الجليد. ومن قائل إنه ضل فى الثلوج الهشة فلم يعثر على المدخل المؤدى إلى ڤورتسنجرابن فخر صريعاً فى منطقة فادنڤينده .

كان ألبرت قد سمع فى طفولته الكثير عن هذه الحادثة، وأطال النظر بين الفينة والفينة فيما حوته الألبومات العائلية من صور مصْفَرَّة ترجع إلى ذلك الوقت. فى واحدة من تلك الصور جلست مجموعة من الشباب الأغراب أمام كوخ مشمرين أكمامهم. وفى صورة أخرى رآهم يتأهبون ليلقى بعضهم على البعض كرات من الثلج، وتجمدوا فى الصورة على هذا الوضع. وفى صورة ثالثة ظهر أفراد مدّثرون كالموميات يتأهبون وسط الثلج الكثيف لقفزة التيليمارك للتزحلق. كان يعرف هذه الصور تماماً كما كان يعرف المصطلحات الخاصة بالجبل وثلوجه والتزحلق على الجليد. ولقد سمع الكثير عن المنظر الرائع الذى يراه الإنسان عندما يقف عند حافة جرافن الشمالية والجنوبية. أما أكثر شىء أثر فيه فعبارة قالتها الجدة : « لقد شاركته فى كل جولاته للتزحلق على الجليد هناك، إلا هذه الجولة، كانت تلك هى المرة الوحيدة التى لم أكن فيها معه ! »

كان قد وصل إلى المدينة الجديدة على مشارف ڤيينا، ودار حولها فى قوس كبير، وترك جبل شنيبرج يبتعد ناحية اليمين، عندما قال فى نفسه : ما كانت زوجتى لترافقنى فى أية جولة من جولات التزحلق على الجليد. إنها تفضل الراحة ولا تحب أن ترهق نفسها. ولكننى

أنا أيضاً أحب الراحة مثلها ، هذه هى الحقيقة. والناس يحلو لهم الكلام عن أولئك الذين يتسلقون الجبل حاملين حقائب على ظهورهم، ويقيمون فى أكواخ بسيطة يعتمدون فيها على أنفسهم فى كل شىء، ويتزحلقون مسافات طويلة على السفوح النائية. ولكن الحقيقة غير ذلك، الحقيقة أن الناس يفضلون المدقات الممهدة، ومركبات التيليفريك، والمصاعد الكهربية، وسائل الراحة.

وظهرت من وراء شڤرتسأو أم شتاينفيلد سلاسل التلال التى تكسوها الغابات، واقتربت من ناحيتى الطريق الذى اكتنفه إلى حين نهر پيتفلوس وقضبان سكة حديد أسپانج . وأوغل الطريق فى تلك المنطقة التى يسمونها العالم المسنم ناحية ممر ڤيكسل. واقترب زيبنشتاين وجبل شلوسبرج، وأطلال غزوة الأتراك. وتوالت صفوف البيوت المألوفة التى لا ترتفع عن مستوى الأرض إلا بطابق واحد.. ومن بينها ڤيللات ومطاعم ومحطات جديدة وقديمة، وهنا وهناك بيت قيد البناء فى مكان كان حتى وقت قريب عامراً بالحشائش والشجيرات الكثيفة.

كان يعرف هذا الطريق جيداً، سلكه كثيراً، وسجل فى وعيه كل منطقة عمل فيه ؛ وكان يتضايق عندما يتبين أن منطقة عمل لم تتغير منذ عبوره عليها آخر مرة، وكان يغتبط عندما يجد واحدة منها قد انتهت وأصبحت قطعة مجدَّدة. كان الطريق يدور به دورات ثعبانية واسعة، ويرتفع إلى أعلى ارتفاعاً واضحاً لا تخطئه العين، وكان فى تلك الأثناء لا يفتأ يفكر فى زوجته.

لم يتشاجرا مساء أمس، ولكن الجو بينهما أصبح منذ أسابيع سيئاً، يعتوره خواء وملل كلما انفردا معاً، فقد قلت موضوعات الحديث قلة مزعجة، هربا منها فى الفترة الماضية مراراً إلى الصحاب أوإلى الصخب الذى يصم الآذان فى الحانات، وأخيراً إلى الحب المفتعل الذى كان يحس بحياله بالفزع أحياناً.

لقد أصبح زواجنا عقيماً، وأصبح طعمه كطعم القطن. يستوى عندى أن تكون هى، أو أى امرأة غيرها زوجتى، ويستوى عندها أن أكون أنا أو أى رجل آخر زوجها. أصبحنا نبعد كل منا عن الآخر، ونلتصق بعضنا فى البعض على الرغم من ذلك. هل تخوننى؟ فى الماضى عندما لم أكن واثقاً فيها، كنت أحدث نفسى بأننى واثقٌ فيها ؛ واليوم وقد وثقت فيها أرانى أصبحت أحدث نفسى بأننى غير واثق فيها. وهو لم يفكر فى هذا الموضوع عن وعى، بل أحس بالرغبة فى الهرب : الهرب من زواجه، ومن مهنته التى أكرهته على امتداح منتجات كان يعرف أنها رديئة.

ولكنه بدلاً من أن يهرب نزل عند مشارف مدينة مونيشكيرشن، ودخل مطعم ريبرجر. كان العاملون فيه يعرفونه فقد اعتاد أن يتناول هنا طعام الإفطار وينفق عليه عن سعة. دخل ألبرت هذا المطعم فى نفس الوقت الذى كان فيه الدكتور لوشنيج، على بعد ٢٠٠ كم تقريباً فى اتجاه بين الغرب والجنوب الغربى، يتناول الإفطار مع زوجته ؛ كان إفطار الدكتور لوشنيج، إذا قيس بالإفطار الذى أتاحه ألبرت لنفسه، متقشفاً، يتكون من : تفاحة وشريحة عيش مقدد وفنجان شاى بدون سكر. وبينما نظر ألبرت تسيشمان فى غير تركيز من خلال النافذة إلى الطريق الذى كان يتلوى فى انحناءات نحو بورجنلاند فى الجنوب، كان الدكتور لوشنيج يتناول صحيفة الصباح.

وقرأ: « فريولى : الخسائر تقدر بـ ٢١ مليار. موجة المعونات مستمرة » وتعمق تفصيلات الزلزال الذى ضرب هذه المنطقة الإيطالية المجاورة وهزها هزات متتالية منذ أسبوع. وفزع عندما قرأ أن مدينة جيمونا الصغيرة القديمة تعرضت لخسائر هائلة. فقد كان يحب أن يزورمريضاً هناك كان يرتبط به برباط الصداقة، وكان إذا تأخر الوقت يقضى الليلة فى المدينة الصغيرة ؛ وكانت آخر مرة على ما يذكر منذ شهرين أو أقل. وشعر بالقلق على صديقه لأن الاتصالات التليفونية انقطعت مرة أخرى منذ أول من أمس. ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لأنه عندما دخل العيادة وجد ستة من المرضى يجلسون فى حجرة الانتظار.

وأتعبه العمل فى ذلك اليوم. فبعد أن فرغ من العيادة قام بزيارات لبعض المرضى فى بيوتهم، وكتب تقريراً عن شخص طلب الإحالة المبكرة إلى المعاش، وأجاب عن أسئلة فى استبار وزعته غرفة الأطباء. وتلت ذلك مباحثات مع المهندس الذى وكل إليه تعديل بناء الشاليه الذى اشتراه منذ وقت قليل على بحيرة فالكرت، وأخيراً ذهب لزيارة عمه فى مصحة «ماريا هيلف» فى كلاجنفورت، حيث أجريت له عملية جراحية منذ يومين.

قطع المسافة بالعربة مسرعاً فى خمسة وثلاثين دقيقة على أوتوستراد ڤورترزيه، والتقى بكبير الجراحين، وعرف أن العملية الجراحية جاءت متأخرة وأنها لن تجدى نفعاً. لهذا كانت حالته النفسية سيئة عندما دخل على عمه وجلس على حافة سريره. وربت على ظهر يده، ومثل دور الواثق من شفائه، وهو يحس بالخجل من كل تظاهرات الكذب التى تتطلبها ممارسة الطبيب لعمله. وفكر وهو يودعه : أيها المسكين، أنت لن تعيش طويلاً.

فلما خرج أحس بالضوء والدفء إحساساً واعياً عميقاً، وشم عبير الشجيرات وعبق النجيلة المقصوصة لتوها. وفكر لحظة فيما سيعمله : هل يقوم بنزهة إلى الجبل القريب كرويتسبيرجل؟ ولكنه تذكر أن زوجته رجته أن يعود إلى البيت فى الموعد لأنهم ينتظرون ضيوفاً فى المساء. ولهذا اتجه أولاً إلى شارع راديتسكى المستقيم المؤدى إلى قلب المدينة. فلما وقف عند إشارة المرور الأولى وتبين أن الوقت ما يزال مبكراً، قرر ألا يعود عن طريق الأوتوستراد بل عن طريق مطول يمر بروزنتال.

وكان قد خلف مشارف المدينة وراءه عندما رأى عند حافة الشارع امرأتين تحمل كل واحدة منهما حقيبة على ظهرها. ووقف وسألهما عن وجهتهما. وأجابتا : إلى ماريا راين. كانت ماريا راين خارج خط سيره إلى حد ما، ولكن الوقت كان كافياً. فأخذ المرأتين معه وأنزلهما قريباً من تلك الكنيسة التى أرادتا الحج إليها. وعندما ودعهما اعتذر لهما آسفاً عن

عدم قبول دعوتهما لشرب كأس من البراندى البيتى في دوارهما، ولكنه وعدهما بأن يزورهما مرة أخرى، واستأنف سفره. وبينما أخذت سيارته تهبط طريق القرية بطيئة فى اتجاه الجنوب، أحس بالبهجة لأنه سيسلك طريقاً مريحاً إلى البيت ولن يكون عليه أن يتكلم فى أثناء القيادة، وسيتاح له التفكير فى موضوعات عديدة مختلفة، وقد يتوقف في روزيج ليشرب فنجاناً من القهوة.

في هذه الأثناء لم يكن ألبرت تسيشمان ساكناً، فقد توجه إلى بعض المدن والأسواق فى شتايرمارك وعقد صفقات مجزية، وتناول طعام الغذاء فى جراتس مع مدير الفرع، ووقع معه عقداً يعطيه نسباً عالية من الأرباح سعد بها. ومن البديهى أنه لقى منغصات أيضاً ؛ منها أنه ذهب إلى شركة فوجدها مقفلة بسبب عطلة، وشركة أخرى فوجىء بأنها توشك أن تشهر إفلاسها. كذلك وجد أن السيارة فيها شىء ما ليس على ما يرام، على الرغم من أنه عمل لها عمرة منذ وقت قصير ؛ ولاحظ بصفة خاصة أن تيل الفرامل كان معيباً، وتأكد من ذلك عدة مرات، مما شغل باله. أما أشد ما أضجره فهو أن زوجته التى اتصل بها مرتين تليفونياً فى الطريق، كانت فى ردها عليه نافره كارهة. بل إنه لم يمنع نفسه من الإحساس بأنها لم تكن وحدها. وعاد يفكر فيها وقد تملكه إحساس بالمرارة. وقال فى نفسه : سأنتقم ! سأنتقم !

وفى غمرة هذا الإحساس اتصل تليفونياً، بعد أن فرغ من صفقته فى كلاجنفورت، بمطلقة صديق يعمل فى التجارة. وبدا عليها أنها فوجئت أشد المفاجأة، فلما ألح عليها، وعدته بأن تلقاه فى المساء، وقالت إنها لن تفرغ للقاء إلا بعد السابعة.

وبات عليه أن يفكر فى طريقة يضيع بها الساعتين حتى يحين الموعد. كيف يمضيهما ؟ كان يعرف معالم المنطقة المحيطة. هل يذهب إلى ذروة الجبل المسماة پيراميدنكوجل؟ هل يذهب إلى أولريشسبرج؟ إلى أطلال لاندسكرون؟ وظل يفكر حتى قر رأيه على أن يذهب

إلى هولليبنبورج، وكان قد ذهب إلى هناك عدة مرات من قبل. وجلس فى المحل فى التيراس الواسع، وقلب فى صفحات مجلة مصورة وخطر له أن يعود إلى كلاجنفورت قبل الموعد الذى كان قد انتواه.

وسألته الجرسونة وهو يدفع الحساب هل شاهد القلعة، فأجاب بالنفى. ولم تكن به رغبة إلى مشاهدتها. ولكنه جنح إلى تضييع الوقت فى شىء له معنى، فصعد إلى برج البوابة الضخم، وسلك ممراً وعراً سىء التعبيد، وعبر الجسر المسقوف. ودهش عندما دلف إلى فناء القلعة الفسيح بإيواناته المهيبة الرائعة، وشدته العبارت والحكم التى كتبت فوق الأبواب والنوافذ، واستطاع أن يفك رموز إحداها Luxus odium generat دون أن يفهم معناها، وشرح له الدليل معناها : «الترف يولد الحقد». وسبقه إلى طرقة ضيقة حول شرفة القلعة اتخذت فوق صخرة بارزة وعرة تتصدر الجناح الجنوبى الشرقى. ونظر من هذا المكان العالى، فرأى منظراً مذهلاً، أخذ بعقله ووجدانه، ولم يستطع أن ينتزع نفسه منه، وسمع بأذن غير واعية أسماء الجبال المحيطة وأسماء الأماكن التى تناثرت دونه فى عمق بعيد، كان الرجل المسن الواقف بجواره يعددها له.

ولكم ود أن يعرف المزيد عن تاريخ القلعة ورجالاتها، ولكنه تبين فجأة أن الوقت تأخر، ففزع. ولم يعد أمامه من سبيل إلا أن يودع الرجل فى عجل وارتباك وأن يعود أدراجه عدْواً. فلما مر بالجرسونة سألته هل أعجبته القلعة التى أوصته بمشاهدتها، فقال «نعم»، ووقف لحظة، وأضاف «إنها تستحق المشاهدة فعلاً». ورافقته إلى مكان ركن السيارة، ودفعه دافع لا تعليل له إلى أن يمسح بيده على شعرها قبل أن يركب السيارة وينطلق.

كانت الساعة تقترب من السابعة، وكانت الشمس قد انخفضت فى الأفق عندما دخل الرجلان إلى الطريق الزراعى رقم ٩١، تباعد بينهما فى تلك اللحظة مسافة ثلاثة كيلومترات أو نحوها. ولكنهما كانا يقتربان بعضهما من البعض بسرعة متعاظمة ؛ كانت الشمس فى ظهر

المتجه إلى الشمال الشرقى، وفى وجه المتجه إلى الجنوب الغربى ؛ كان أحدهما منفعلاً عصبياً إلى أبعد حدود الانفعال والعصبية، وكان الآخر مطمئن النفس يفكر. وكانا كلاهما يحملقان فى الشارع نفسه، وكان كل منهما يحرك عجلة قيادة ويطأ دواسات، ويفكر فى امرأة.

فلما انكمشت المسافة بينهما وأصبحت قرب الكيلو ٨ أقل من ٢٠٠ متر، قام أحدهما بتخطى سيارة نقل ذات جرار طويل طولاً أكثر من المألوف، فبهرته الشمس لحظة، وفقد توازنه... وكان الآخر يندفع بسرعة مفرطة ويفقد توازنه ... وكانت النتيجة أن كلاً منهما رأى فى دهشة وغيظ وفزع عربة تندفع بكل سرعة نحوه، وداس على الفرملة بكل قوة... إلى أن تفتت عالمهما فى ألم مفاجىء حار صارخ باهر.

كان التصادم وجهاً لوجه وبعنف هائل فمات الرجلان. وأصبحا الوحيدين اللذين لم يشاركا فيما جرى بعد ذلك. من إبلاغ على الفور عن هذا الحادث العنيف، وقيام رجال الأمن بإغلاق الطريق، وتتبع أثر الفرامل، وإعداد رسم كروكى، وكانوا فى أثناء ذلك لا يكفون عن رد الفضوليين، وقدوم عربتين من عربات الإسعاف بسرعة هائلة وعودتهما دون تحقيق غايتهما، كل هذا لم يعد يهم دكتور المسالك البولية ڤيلفريد لوشنيج والمندوب التجارى ألبرت تسيشمان. بل إن السؤال عن المسئول عن الحادثة لم تعد له أهمية بالنسبة إليهما.

فلما خلصاهما من المركبتين المهشمتين ومددوهما على حافة الطريق فوق النجيلة المتربة، حملق أحدهما بعينين نصف مفتوحتين فى ذقن الآخر وكان وجهه بعينيه المغمضتين يتجه نحو السماء فى وضع يوشك أن يكون رأسياً.

ألكسندر جيزه

Alexander Giese

مضيفة الأولياء

Das Wirtshaus der Heiligen

أبطأ نظام الملك خطاه. وسار عمر(الخيام) بجواره. «أنت أفسدت عليّ خطتي كلها. وأصبحت لا أفهمك. لقد أردتُ أن أمنع حرب الفاطميين - وأن أجعل الحسن وحده هدف كُره السلاجقة. وهكذا نحقق الأمرين : الحرب في الداخل والحرب في الداخل. أنت مجنون. نعم يا عمر، سنعلن رسمياً أنك مجنون. وتلك منة منَّ بها عليك السلطان الذي شملك بعفوه وكان يستطيع أن يأمر بقطع رأسك. أنت إذن مجنون، وسنضعك مع الأولياء.»

وفكر عمر : نظام الملك أبو القاسم ليس رجلاً شريراً في حقيقة طويته. ولقد كان يعلم أنني لم أكن أستطيع بلوغ غير ما بلغت. فليس صحياً أنه لا يفهمني، بل الصحيح أنه يفهمني.

« قد تظنني مجنوناً الآن أيضاً. لأنني، منذ أن بدأت في كتابة آرائي عن فن سياسة الدولة في كتاب، تبينت أنه لا يكفي أن أدرس البشر العاديين، المحاربين، الفلاحين، الحرفيين، ولا يكفي أن يتخذ الإنسان حديقة حيوانات تعرض أمام عيوننا مهارة الحيوانات

وشراستها ؛ لقد تبينت أنه ينبغي علينا أن نعرف المزيد عن البشر وعما يحركهم. أن نعرف عقائدهم، وآمالهم. أن نعرف المزيد عما يلوح لهم هاماً بالفعل. كل واحد منا يعرف أن الإنسان يريد أن يحيا حياة طيبة وغنية وصحية، ويريد أن يكون قوياً. كل هذا شيء يمكن أن نحيط به وأن ندخله في حسابنا. ولكن الناس لهم أفكارهم ! أنا لا أقصد العلماء. علماء الفلك والرياضيات والموسيقى والهندسة - كل هؤلاء أناس لا خطر منهم. إنهم يعرفون عم يتكلمون، وفي مقدورنا أن نراقب ما يقولون. أما الشيء الذي يصعب على الإنسان فهمه كل الصعوبة فهو - - هل تعرف يا عمر ما أعني؟ »

« لا أستطيع التخمين. »

« أصعب شيء هو أن البشر يحبون آراءهم وتصوراتهم وأحكامهم وأحكامهم المسبقة - ولا يحبونها في شكلها المجرد، بل يحبونها دائماً مختلطة، مختلطة بما يفعلون في حاضرهم أو ما يزمعون فعله.... بعبارة أخرى : هناك بعض الأمور التي نصفها بأنها أمور أساسية : عن الألوهية والموت واللانهائية ونشأة الكون ونهاية الكون، وهي مفاهيم مجردة ؛ ولكن الإنسان يخلط ما يساوره من خوف وخشية وهوى بالمفاهيم الأساسية، والمباديء الأولى وبما يراه من آراء، وهذا أمرٌ لا يستطيع الإنسان أن يحيط به خُبراً ويدرسه درساً دقيقاً إلا إذا كانت لديه مؤسسة مثل مضيفتي ! »

ودهش عمر : « مضيفة ؟ لمن؟ »

«للأولياء ! إنني باعتباري وزير السلاجقة لا أتعامل فقط مع مسلمين ؛ إن نضالنا ضد الشيعة الهراطقة هو ركن واحد من أركان سياسة دولتنا، ولقد أوشكتَ أن توقعنا في مأزق قبيح، فإيران اليوم ساحة تعج بكل الأفكار وكل العلوم وكل السياسات وكل الأديان ! »

« والنتيجة؟ ما هي الخلاصة التي تخلص إليها من هذه المقدمة؟ »

«إنني أريد أن أعرف كل الآراء والملل والنحل معرفة دقيقة. وبصفة خاصة المعقدة منها. لقد صممتُ المضيفة لتكون أشبه شيء بالدير أو النزل. ولما لم يكن لدي وقت لأزور كل الأديرة والصوامع والمعابد في بلادنا فإنني أدعو العابرين هنا في إصفهان للإقامة، أدعو الكهنة الهندوس، والرهبان البوذيين والرهبان والقساوسة المسيحيين ؛ والدراويش والصوفيين والنساطرة... الجميع، كل رهبان اليوجا والزهاد والبونزيون (رهبان البوذية المنخرطون في الحياة العامة) واللاما، حتى كهنة عبادة النار !»

« وهل يقبلون دعوتك ويقيمون في مضيفتك... »

« نعم يقيمون ! أحياناً يكون عليّ بطبيعة الحال أن أقنعهم، رغماً عنهم ؛ سترى بنفسك كيف يكون ذلك ؛ وأنت أيضاً ستقيم فيها، عن يدٍ وأنت صاغر.»

وهز عمر رأسه مغتاظاً : «أتريد مني أن أنتقل للإقامة في هذه المضيفة؟»

«بل عليك أن تفعل هذا. هذه إرادة الشاه. وإرادتي. وستظل هناك حتى يهدأ غضب الجميع. على الأقل.»

«وماذا أفعل في مضيفة الأولياء هذه؟»

«ستدرس هناك مثلي. لن تدرس النجوم، بل البشر.»

«هل يتحادث هؤلاء معاً، أعني أتباع الأديان المتعادية؟»

«سترى.»

« وكم عددهم...؟». كان شغف عمر قد صحا من سبات عندما سأل سؤاله هذا وأتبعه بسؤال ثان : «وهل لكل منهم معبدُه ومُصَلاه وهيكله؟»

« سترى، فستعيش بينهم. »

« وما الذي تمني نفسك بتحقيقه من وراء مضيفة الأولياء هذه؟ »

وسارا والجدار الخارجي لحديقة القصر. وبزغ أمامهما من بين مجموعة صغيرة من الشجر مسجد جميل صغير. ودارا حول البناء المثمن ودلفا إلى ساحة الميضاة الذي أحاطت به الإيوانات . ورأى عمر ممرات عديدة تتفرق من هناك إلى حجرات ضئيلة ضيقة كالصوامع. لقد تقرر أن « يُتحفظ » عليه هنا.

« متى أنشأت هذه المضيفة؟ »

ولم يجب النظام. وسارحتى بلغ قلب الساحة حيث الماء فغسل وجهه ويديه ورجليه. عندئذ شرع يتكلم : « منذ عام وعامين تقريباً ».

والتفت عمر حواليه. كان هناك حول الميضأة آلات ومعدات منها المعروف ومنها الغريب. فقد تدلى في عمود جرس من البرونز ؛ وعلى منضدة عريضة منخفضة كانت هناك صاجات ضخمة، بجانبها قرون كباش معوجة ؛ وتدلى على باب طلي باللون الأحمر جونج يلمع لمعة الذهب ؛ وكانت هناك شخاليل وآلات نقر، وأجراس صغيرة وطواحين للصلاة (اسطوانات علقت فيها شرايط من الورق عليها صلوات وأدعية يلفها المتعبد كالفرّيرة). وفي الفناء قامت هنا وهناك معابد صغيرة وضئيلة فيها أصنام ولينجامات (رموز الخصب المذكرالإله شيفا) وأقنعة، وفي ركن من الفناء رأى عمر تمثال بوذا المحتضر. وإلى جانب الميضاة مباشرة نصبت خيمة مستديرة متوسطة الحجم من النوع المعروف عند السيبيريين. ورفع عمر الكليم المتدلي على مدخل الخيمة فرأي في داخلها شموعاً وخبزاً وأوان من الخشب وحبوب بخور، وسمناً في طاسات، وأكاليل وأزاهير، وأرزاً في أكياس صغيرة، ومسابح، وكرابيج، وصلبان، ومباخر، ومصابيح فارسية، ومن بينها حية أدرك من الوهلة الأولى أنها من نوع البيتون، كانت متكورة على نفسها. والتفت إلى النظام وقال متهكماً :

«لعلها حجرة سلاح محاريبك الأتقياء. ما أظن أن الإنسان يحتاج إلى أدوات ومعدات خاصة ليتقرب إلى الله.»

ورمقه النظام بنظرة حظها من الود أقل من حظها من الاستياء. لقد تعجل عمر في التعبير عن رأيه. وقال أبو القاسم على الفور: «أرجو أن تحرص على التزام الجد. إن تجربتي إذا شئت أن تسميها بهذا الاسم تجربة جادة. كيف أدرس فكر البشر حق الدرس إذا لم أكن أعرف الدوافع التي تحركهم، والأمورالتي يأخذونها مأخذ الجد! ما هي الأشياء التي يؤمنون بها بقلبهم وعقلهم وكيانهم كله؟»

لم يكن عمر مقتنعاً. ألم تتح للنظام فرصة كافية لمعرفة الناس؟ كل يوم في الديوان؟ في مخالطة مئات البشر من ذوي الهمة والطموح؟ ألم يكن النظام رجل سياسة؟ واحداً من خيرة عرف عمر في حياته من الناس؟

وتناول النظام المقرعة وقرع الجونج ثلاث مرات، فانبعث منه دوي شديد وتردد صداه إلى مدى بعيد. وانفتحت أبواب الصوامع في الإيوانات الواحدة بعد الأخرى، وأقبل النزلاء من كل جانب إلى وسط الساحة.

وسأل عمر مندهشاً: «كم عددهم؟»

« انهم الآن اثنان وسبعون ؛ ليس بينهم واحد من المؤمنين بنبينا، ليس بيهم سنيٌّ واحد. أنت أول السنيين هنا !»

ونظر عمر إليهم وهم يجتمعون في وسط الساحة : شباب وشيوخ، يلبسون ثياباً قيمة ؛ فيهم رهبان يلبسون ثياباً حُمْراً ؛ ورهبان يلبسون ثياباً صفراً ؛ منهم من حلقوا رؤسهم بالموسى، ومنهم من تركوا شعورهم شعثاء لم يسلكوا فيها مشطاً. كان فيهم زهاد عراة نحلت

أبدانهم حتى لم يبق منهم إلا هياكل عظم أو نحوها ؛ وبجانبهم كهان بدناء سمان يلبسون الثياب الحريرية الفاخرة والمخملات ويضعون على رؤسهم قلانس وقبوعات وقلّوسات وميترات، وزانوا جباههم بأشرطة، والتفوا بخُمُرٍ وأزُر ؛ ومنهم من لبسوا الطراز الثقيل اللامع. ورأي عمر منهم من سمنت وجناتهم، واحمرت وجوههم، وتطهرت أبدانهم، ينظرون بعيون واعية ذكية صافية ؛ وبجانبهم رجال حملقوا فيه كالمجانين. حمل بعضهم مسابح انزلقت حباتها بين أصابعهم ؛ وتحركت شفاههم تتمتم بالصلوات. وأخرون من أولي الشباب والقوة كانوا يضربون أنفسهم بالأسواط حتى ينزف منهم الدم، ولا يكُفّون عن تعذيب أنفسهم حتى عندما اقترب منهم عمر والنظام.

«إثنان وسبعون ! ما أظن أنك تعني أنك جمعت في هذه المضيفة من يمثلون كل الأديان المعروفة؟»

« بلى، من كل طائفة واحداً. لقد أصبت فيما استنتجت»

« وهم جميعاً يتبعونك ولا يعصون لك أمراً يأيها الوزير؟ »

«سيخرجون الآن إلينا ، لأن كل واحد منهم يتمنى أن يفرج عنه وشيكاً من المضيفة. فأنا أعفي في كل أسبوع واحداً. وما أخرج واحداً حتى أدخل بديلاً له. »

ووجد عمر للكلام مرارة وغصة. ما هذا الذي كان النظام يريد أن يتعلمه من هؤلاء الرهبان والكهان والزهاد والنساك؟ وكيف؟

وقعد أبو القاسم على الدرجة العليا من الدرجات التي أحاطت بالميضاة ونادى أقرب الواقفين إليه.

« والآن يا عمر أعرِّفك بضيوفي ! هذا شاب من طرفان في شرق تركستان أتى إلينا سيراً على الأقدام. أو لعله جاء إلينا محمولاً. ». كان الشاب شاحباً، نحيفاً من فرط التزهد. «وهو من أتباع المانوية المتأخرة، المتأخرة جداً. ولم أكن أتصور أن هناك أتباعاً للنبي ماني ما زالوا موجودين في زماننا!»

« وما الذي يستطيع هذا الهيكل العظمي أن يعلمك؟ » سؤال قاله عمر بصوت كانت نبرته أقل حدة من نص السؤال.

« إنه يبشر بنظرية عجيبة. فهو يرى أن الإنسانية تنقسم إلى ثلاث طبقات. الطبقة الأولى: هم المانويون الذين بلغوا الكمال ؛ الطبقة الثانية : المستمعون ؛ الطبقة الثالثة : غير المانويين. هل سمعت بهذا من قبل يا عمر؟ لا؟ وسأسأله الآن : وأين تضع نفسك يا تيودورس في هذا التقسيم؟ هل أنت ممن بلغوا الكمال؟ هل أنت واحد من المصطفين؟

كان الشاب واهناً ضعيفاً نحيلاً إلى حد أنه لم يكن يستطيع الوقوف على قدميه؟ وأومأ رأسه.

وقال نظام الملك لعمر :« تيودوروس لا يأكل اللحم، لا يأكل إلا الطعام النباتي».

وتناهى إلى السمع من بين شفتي الجسم الضعيف صوتٌ واهٍ : «النباتات مفعمة بالنور. وغايتنا، غايتي تحرير النور المأسور... » وزفر تويدوروس بهذه الكلمات أكثر مما نطق بها.

وفكر عمر وهو الطبيب : أين ينتهي الطعام النباتي، إنه ينتهي إلى المعدة. ولم يكن يصدق أن المعدة تشهد تحرير نور. ربما كان الذي يجرى فيها حرقاً للطعام أو ما يشبه الحرق.

واستأنف نظام الملك حديثه : «وتيودوروس، مثله مثل الصفوة من المانويين، لا يجوز له أن يتزوج، ولا أن يقرب النساء. وله في ذلك تبرير عجيب. إنه يعتقد أن أمنا الأولى في الجحيم وأنها تمثل الشر... »

ولم يستطع عمر أن يمنع نفسه من السؤال : «وماذا تتعلم يا أبا القاسم من هذا ؟»

«ربما لا يزيد ما تعلمته عن أن عدداً كبيراً جداً من الرجال يحسون بخوف ما من النساء. أليس هذا شيئاً هاماً؟» وضحك. أما الطبقة الثانية، طبقة «المستمعين»، فعليهم أن يوقروا أهل الكمال والصفوة، وأن يرعوهم، وأن يحملوهم على أيديهم. وتيودوروس المسكين ليس لديه هنا من يوقره. وسأدعه يرحل ويستأنف تجواله. إنه هنا وحده، أراه في عزلة مسرفة. وعليه كمن بلغوا الكمال أن يصوم في الشهر سبعة أيام. سبعة أيام متتالية.»

«وما هذا الكرسي الذي وضعه بجانبه؟»

وقال نظام الملك لعمر : «قل له إجلس على الكرسي.»

فقالها عمر. ورفض تيودوروس. وهز رأسه متمنعاً رافضاً.

وهنا أعاد نظام الملك كلمات عمر : «اجلس يا تودوروس وإلا سقطت على الأرض!»

وقال تودوروس : «لا. هذا كرسي ماني مؤسس ديننا. ولهذا فهو خال. وسيظل خالياً. ولست جديراً بالجلوس عليه. إنما أنا أزينه بالزهور».

وذهب عمر إلى أن الرجل مختل العقل. ولكن أبا القاسم قال : «لا. إنني أتعلم منه : هناك أناس امتلأت نفوسهم بالاحترام، أو يتوقون إلى أن يملأ عليهم الاحترام نفوسهم. وما يحتاجون إلا إلى أن يعطيهم الإنسان شيئاً يحيطونه بهذا الاحترام.»

«ولكنه يقول إنه يزين الكرسي بالزهور؟» ولم ير عمر زهوراً تزين الكرسي ولا رأى زهوراً في أي مكان، وربما كان تيودوروس يرى زهوراً. وسأل عمر المانوي : «ولماذا جعلت في هذا الكرسي خمس درجات، لماذا ركبت عليه هذه العوارض الخمس؟»

«إنها الدرجات الخمس للأثير النوراني!»

وكره عمر الإجابة. «هل هذا كرسي ربك؟» ورد الكامل وقد اصطنع العنف فجأة: «ماني ليس رباً. ماني هو نبي رب النور». ثم صمت فقد كان أضعف من أن يستمر في الكلام.

وشرح نظام الملك الأمر: الكرسي اسمه عند المانويين بيما ويرمز إلى وجود نبيهم الذي لا تدركه الأبصار، وكانوا يتصورونه فيما مضى، عندما كانوا كثرة، وهو يقف على ما يشبه الشرفة، على البيما. أما ربهم، إله النور، فمكانه في النقطة الشمالية من السماء!»

واندهش عمر، الذي كان عليماً بالفلك، دهشة استحسان وقال: ليست هذه بالفكرة السيئة! أقرب الظن أن ما يسمونه النقطة الشمالية في السماء هو نجم الشمال، النجم القطبي.»

وعلق نظام الملك على ذلك بقوله: فإنك ترى الخدم في البلاط يوقرون كرسي العرش حتى عندما لا يكون السلطان جالساً عليه، ويحسون حياله بالهيبة. ومعنى ذلك أنهم يجدون فيه قوة سحرية مثل هذا الكرسي.

وسأل عمر عن مكان ماني بين الأنبياء.

واستجمع تودوروس قوته وقال: «جاء في شاپوراكان، كتابنا المقدس: أن ماني هو رسول الإله الحق، وهو المعلم الأخير والكامل. والحكمة الربانية عندما تشاء ترسله في أوقات بعينها إلى بلاد بعينها. وماني أُرسل إلى بلاد بابل.»

ونظر عمر ملياً إلى هذا الرجل المؤمن بالمانوية. وقال في نفسه: ما أكثر تنوع الأشياء التي يمكن أن يؤمن بها البشر! البوذيون يؤمنون بأن بوذا أرسل إلى الهند، والزرادشتيون يؤمنون أن زرادشت أرسل إلى فارس . والفرس يؤمنون بأن ماني جاء من حمدان، وهذا ما يؤمن به تيودوروس، وبُعث إلى بلاد بابل. قبل تسعمائة سنة.

وقال نظام الملك بصوت واضح : « فأنت ترى أن فُرْسَناً كانوا دائماً يريدون الإيمان بأنبياء. وبملكوت النور. منذ أهورا مازدا، وميترا، كانت الأسماء تتغير. ولكن المفهوم الأول بقي، وبقي الحس الأول ؛ وظل يظهر في تنويعات تتجدد دائماً في عقول الناس وقلوبهم. ثم تظن أن هذا موضوع لا يجدر بي أن أدرسه؟

وأراد عمر أن يعرف المزيد فسأل :«وكيف مات ماني هذا الذي تؤمن به؟ »

فانحنى الشاب وقال :« صلب في جُنديسابور وكان في الستين من عمره! »

وفكر عمر في أن ماني إذ سلك سبيل النبوة سلك سبيلاً يحف به الخطر. وكان عمر يعي أنه يفكر ويسأل بدافع من الشغف، ويسلك سبيل الباحث، أو الطبيب. ولكن إرادة السلطان والوزير جاءت به إلى هنا لا ليكون الطبيب بل المريض. ما الفرق بينه وبين هذا الذي يعبد الإله الذي آمن به، بل ما الفرق بينه وبين الكثيرين الذين وجدهم هنا في هذه الساحة؟ لا فرق بينه وبينهم إلا في الطريق، فهو له طريقه التي يرى أنها الصواب ؛ وهم يرون الحق والصواب والحقيقة في طريق أخرى. ورأى كاهنا هندوسياً، برهمياً، يوقد ناراً في بقعة صغيرة من الأرض. واختار لناره موضعاً نمت فيه بعض الحشائش.

وشرح نظام الملك : «إن عليه طبقاً لشرعته أن يوقد هذه النار في مرعى، »

كان البرهمي يقدم قرباناً. وتساءل عمر إذا كان بين كل هؤلاء العابدين من يرضى بتقديم قرابين من البشر، من تهيء لهم نفسه التضحية بالبشر. من لديه استعداد للعنف. وسأل نظام الملك عن رأيه، فأجاب بالنفي. «فهؤلاء إذن خير من ساستهم ومحاربيهم. »

«لقد وطّنوا أنفسهم على ألا يقتلوا قتلاً مباشراً. ولكن رغبة القتل وطيدة في نفوسهم. وقد تتجه هذه الرغبة أحياناً إلى ذواتهم، وقد تتجه في أحيان أخرى إلى آخرين. إلى أناس آخرين. إلى بعض الساسة، وأنا واحد منهم. »

ونظر عمر نظرة تفتقر إلى الرضا. نظر إلى الأتقياء، ورآهم يضحون ويصلون ويناقشون. كانوا يتحلقون في مجموعات أو يقفون فرادى. ولكن سؤاله ظل بلا إجابة. «ماذا يعلمونك - كلهم جميعاً؟»

ودعا نظام الملك عمر إلى أن يجلس بجانبه على درج الميضاة. «ما اكتشفته حتى الآن هو الآتي: المتدينون في كل الأديان (وأنا أضع رجال الدين بقصد التبسيط ضمن الأتقياء) يتفقون في كثير من المبادىء. في كثير من الأوامر: كلهم يحرمون قتل الإنسان، ويقبلون بقتل بعض الكائنات الحية، مثل الحيوان، بقصد التضحية؛ وكلهم يريدون الامتناع عن مخالطة النساء عندما يبلغون المراتب الأعلى من التدين؛ كلهم يحاولون ألا يكذبوا، ألا يفتروا. وهم يعبدون إلههم، أما إله الآخرين فهم لا يجلونه بل كثيراً ما يجردونه من الألوهية، أي أنهم يفترون. وهم يصومون، وكثيراً ما يعزفون عن اللحم، ويكفّرون عما يعتبرونه ذنباً. وهناك موضوع يتفق عليه كثيرون، كلهم تقريباً، وهو أن الإنسان يحمل خطيئة. ولكن بعضهم يعتبرون أنفسهم أقل تحملاً بالخطيئة من غيرهم. هذا البوذي هناك يستغفر ويتوب كل شهر مرة، في بداية كل شهر قمري. ولما لم يكن هنا في المضيفة من يلقنه صيغة التوبة، فهو يتلوها بنفسه على نفسه. يقول لنفسه: «زد من الحذر في المستقبل! كن حذراً وتحاش الباطل». كم أتمنى يا عمر، لو سار سيرته من عندي من الباشاوات حملة الذيول، والكبار، والأغوات والبكوات!»

وبينما استغرق نظام الملك في هذا الحديث، نشبت مشاحنة عنيفة على مسافة من مكانه. كان نسطوري يصرخ في حاخام. ولم يسكت الحاخام، ورفع عقيرته على النحو نفسه. ولم يستطع عمر ونظام الملك أن يفهما موضوع المشاحنة.

وقال نظام الملك: «لا أشك في أن المشاحنة تدور حول حلال الطعام وحرامه، وهو من الأمور التي يتمسك بها اليهود تمسكاً شديداً عسيراً، وقد عاب الناس عليهم هذا وهو ما لا أفهمه.»

وركع البرهمي غير بعيد دون أن يعبأ بهذه المشاحنة في قليل أو كثير. وبدا عليه أنه عازف عاكف على نفسه. أما هل نالت من طهارته كلمة أو حركة أو ظل؟

وتجادل بعض الرجال معاً ؛ تكلم بعضهم بالأرامية، والبعض الآخر بالپهلوية، وتكلم غير هؤلاء وأولئك بالعربية. وتكلم الأولياء من أبناء الشرق الأقصى، الصيني والتيبتاني والمغولي والتركماني بلغات لم يفهمها عمر، وعندما أنصت عمر إلى الجدل الدائر التقط بعض الكلمات المتفرقة كالقصاصات، وحاول أن يرتب المجادلين وأن يعرف المتسببن والمتكلمين ؛ واستطاع بمرورالوقت أن يعرف المزيد : النسطوري، اليهودي، المسيحي اليوناني، المسيحي اللاتيني - كلهم كفرة مثل مجوسي زرادشت.

وجلس الزهاد منذ وقت طويل في تراب الساحة لم ينل منهم الصخب واللغط والشجار. كانوا على اختلاف انتمائهم إلى مدارس يوجا مختلفة يتأملون. وكان كاهن اللاما يدير طاحونة الصلاة ؛ والراهب البوذي بمركبته الكبيرة كان يجلس مثل بوذا أميتابا وظهرت سرته مثل سرة بوذا. أما مسيحي آسيا الصغرى فكان يقرأ في كتاب.. هل هو الكتاب المقدس؟

كان هؤلاء إذن هم الرجال الذين كان نظام الملك «يتعلم» منهم ! فلما نشب شجار تبشيري في ركن من أركان الساحة - كان النسطوري واللاتيني يتجادلون بصوت عال جداً - انتهز عمرهذه الفرصة ليسأل نظام الملك :

«ما الذي يمنع هؤلاء الناس من التعامل ماً في سلام؟ إننا أرى أن هؤلاء الأولياء لا يمكن أن يعلموك شيئاً إلا أن يكون الكلف بالذات، والحمية، العناد. حتى إذا أعجبت بخيالهم الديني، وبتلك الأشياء التي يبتدعونها وتلوح لهم وحياً أو من قبيل الوحي.»

«البخيل يحرص على كنزه، والمتدين يحرص على دينه !»

«هل البخيل القابض على كنزه والمتدين القابض على دينه يتسمان في حرصهما بالخوف، هل هما كمن يخاف اللص؟»

« ليس أمرهما بالضرورة على هذا النحو. بل هما فخوران بكنزهما ويريدان الحفاظ عليه كاملاً غير منقوص. ويريدان صد كل تأثير من الخارج.»

«أو هما يريدان اقتسام الكنز مع الآخرين، وإقناع الآخرين بأن كنزهما هو الوحيد الذي ينبغي على كل إنسان أن يكون له حظ فيه» وأضاف نظام الملك :« من البديهي أنني لا أفيد بشيء من الإحاطة بمتى يصوم كل واحد وبالاسم الذي يسمي به معبوده. على الرغم من أن موضوع التعرف إلى كيفية انعكاس الألوهية في البشر بطرق متباينة أشد التباين موضوع له فتنته. إنما اهتم على الأحرى بمعرفة ما يؤمنون به جميعاً دون تفريق - مثلاً : الإيمان بوجود كائنات أعلى - وكيف يحاولون بطريقة متعددة المستويات إقناع أنفسهم بدينهم نفسه. لأنني أدهش دهشة كبيرة إذ أراهم يلقون صعوبات في كثير من الأحيان في أن يؤمنوا إيماناً كاملاً بما يريدون الإيمان به. وينشأ تعصبهم حيال أتباع الأديان الأخرى، كما تبينت، من شيء واحد فقط هو أنهم لا يأمنون إيماناً كافياً عميقاً قوياً بمفاهيمهم الدينية نفسها. فمن يؤمن بمفاهيمه الدينية إيماناً كافياً عميقاً قوياً من النادر أن يكون متعصباً. ولكل منهم في عقيدته نقطة ضعيفة : من قبيل مولد ابن للرب من عذراء، وقيامته، وانبثاقه الإلهي ! وكلهم يجدون صعوبات كبيرة في تفسير الشر، بمعنى أن يؤمنوا بربهم ويحتملوا الشر في وقت معاً. كيف يرضى إله رحيم قوي مهيمن على كل الكائنات (هكذا يتصورون ربهم في أغلب الحالات) يرضى بأن يعتور النقص عالمنا - هذه هي مشكلتهم الأولى التي يواجهونها بطرق مختلفة.

العالم يتهدده الشر والبلاء والكوارث والأمراض والجرائم - والإرهابيون يا عمر ! - بل إن الشر متغلغل في نسيجه مثل الخيوط الزرقاء في السجادة الإصفهانية ! بهذا التصور يصل

الإنسان إلى قبول الشر. أنا ياعمر أحب المتدينين الذين يرضون بالبلاء من حيث واقع. هذا أساس طيب أبرر به ما أعمله من حيث أنا رجل دولة. لا تعتبرني ساخراً أتكلف استحسان الشر. ولكن مثل هذا الموقف الديني الذي يقبل الشر من حيث جزء لا يتجزأ من الواقع يجعل كل شيء ممكناً بالنسبة إلينا معشر الساسة : الحرب، العقاب - كل شيء، حتى العنف.»

وأومأ عمر برأسه وقال : «الآن فهمت مقصدك. لابد أن يكون شيء ما مسئولاً عن كل شيء. الإله أو الشر. أو كلاهما معاً. إلا الوزير. هذه تعاليم قديمة شديدة القدم عن نشأة العالم، وعن الخطايا الأولى، ونظريات عن نشأة الكون قبلت بالشر... ما قالت به شيء عملي! يخفف من المسئولية.»

وقال نظام الملك : «لا. هذا هو ظاهر الأمر. إنني أتعلم من أصحاب الديانات الشيء الكثير. ولكن أهم شيء هو الآتي : إنهم يبتدعون مؤلفات هائلة : حكايات، قصص، خيالات. لكي يكونوا كما يريدون أن يكونوا ؛ أقوياء أو متواضعين ؛ أتقياء أو بجحاء. ولكي يبرروا ما هم عليه.»

وخطر ببال عمر بعد تأمل أنهما كلاهما يفكران تفكيراً يفرِط في التبسيط ؛ يفرط في المادية، يفرط في التخابث. أليس من الممكن أن يكون حكمهما كلاهما خطأ؟ أليس من الممكن أن تكون حَمْأَةُ الطين التي خلق الإنسان منها كتلة صلبة مصمتة لا ينفذ منها شيء، لأنها لم تكن بللوراً يحدث انكساراً في الضوء قبل أن يمرره. أليس من الممكن أن تلتهم حمأة الطين الضوء التهاماً؟ وأننا لهذا نختلف اختلافاً كبيراً بعضنا عن البعض في كيفية إحساسنا بتأثيرات الجوهر الرباني، بالضرورة، لأننا لا نستطيع أن نفهم ونخبر وندرك على نحو آخر..

وقال نظام الملك فجأة :« إن ضيوفي هنا يفزعون عندما يعلمون أن إنساناً له ربٌ غير الرب الذي يؤمنون به. وكل واحد منهم يرى أن أي إنسان، أياً كان السبب، يتعلق بهدف آخر غير

الذي يتعلق به، هو عدو له لا محالة. هذا الآخر الذي يختلف عنا اختلافاً شديداً يثير الريبة، والآخر الذي يختلف عنا اختلافاً قليلاً يثير المزيد من الريبة »

وقال عمر بنبرة جافة : «وأنت لهذا تكره حسن».

«نعم، ربما». وتردد ثم استأنف بسرعة: «إن كيفية عمل هذه الآليات الدينية - أو إذا شئت عوالم التصورات - تعلمني كيف أُصَرِّف أمور السياسية. إنني لا أريد أن أتصرف تصرفات خاطئة. ولهذا أبني أعمالي على آفكار ثبتت سلامتها - موثوقة !»

وسار عمر نحو صومعة لاحت له خالية. «سأهيئها لإقامة مريحة. كم من الوقت تريد أن تستبقيني هنا؟ أسبوعاً، أو أسبوعين؟»

ورد عليه نظام الملك : «سنرى». وقال عمر ساخراً : « على الرغم من كل دراساتك للأولياء فقد أخطأت فيّ. »

وقال نظام الملك : «نعم. لم أر هنا واحداً حتى الآن يؤمن بطيبة البشر إيماناً بلا حدود مثلك. أنت تؤمن بالطيبة حتى في المجرمين. كلهم يلقون بالمجرمين في الجحيم. إلا أنت. لقد أخطأت الحساب - والذي أخطأ الحساب عالم في الرياضيات». وهز نظام الملك رأسه في حركة نصفها جد ونصفها متعة : « أنت لم تنل مني، يا عمر ؛ لم تحقق مأربك. أخفقتَ في صرفي عن هدفي. وربما أتمكن من الحيلولة دون قيام الحرب التي توشك أن تنشب، فقد أوغرتَ صدور لواءاتي وعمدائي وكل بكواتي عندما ساويت بنهم وبين القتلة. وهذا بطبيعة الحال كلام فارغ. وأنت تعرف ذلك. أنت شخص غريب الأطوار يا عمر. بالطريقة التي تفكر وتتصرف بها الآن، يمكنك - اليوم قبل الغد - أن تذهب مباشرة إلى الحسن وتتكلم معه. لأنك تؤمن بأن الإنسان طيب خيّر، ويمكن أن يكون خيِّراً، وأن هناك فائدة من الكلام مع الأشرار. أنا لا أؤمن بذلك، أو لم أعد أؤمن به. أما أنت فتؤمن به، ولهذا فأنت قادر على ذلك. أما أنا فلم أعد قادراً، ولم يعد في إمكاني إلا أن أقتل الحسن. وإن لم أقتله قتلني. »

وشك عمر في أن لديه بالفعل القدرة التي نسبها إليه نظام الملك. هل يمكنه فعلاً أن يقوم بهذه المهمة؟ ولكنه اهتبل الفرصة بطبيعة الحال - وتناول العرض الذي بدا نظام الملك أنه يقدمه إليه : « دعني أذهب إلى الحسن ! اطلق سراحي. وسأسافر إلى الحسن على الفور !».

ونظر نظام الملك إليه نظرة جادة ثم أشاح عنه برأسه : «ليس الآن. أو ربما كان الأصح أن أقول ليس الآن ولكن عندما يحين الوقت. امنحني وامنح نفسك وقتاً !»

وأنكر عمر هذا المسلك الرافض، هذا التظاهر بالسلطة لمن بيده السلطة. ما الذي يغير البشر على هذا النحو إذا أمسكت أيديهم بأصغر طرف من زمام السلطة؟ لماذا تغير تفكير نظام الملك عما كان عندما كان أبا القاسم؟ ماذا يقصد بعبارة "ليس الآن"؟ ما هي هذه اللعبة التي يلعبها معه ذلك الرجل الذي كان صديقه؟ما هذه المهمة التي أنيطت به هنا؟ ولكن ربما كان الأفضل له أن يكون هناعلى أن يفكر بالطريقة التي يفكر بها نظام.

وأحس عمر بالعزلة. أحس كأن جداراً قام بينه وبين نظام. وسلك مسلكاً ساخراً فقال : «سلامك معك يا أبا القاسم ».

لم يكن عمر يريد أن يعرف شيئاً عن هذا السلام. بل فكر في سلام آخر ينبثق من القلب، لا من العقل. ولكن نظام فهم تلك التحية على طريقته.

« قلت "سلامك"، وأنت على حق في ذلك. ولا زلت آمل أن أناله على الرغم من طيبتك، ورقة قلبك، وتسامحك المبالغ فيه. »

وانصرف نظام الملك. وجلس عمر في صومعته على الأرض. لم تكن في الصومعة إلا حصيرة وإناء. ونظر حواليه، ونظر إلى الساحة التي التي تفرق فيها جمع الأولياء شيئاً فشيئاً. ثم فكر في أنه لا بد أن يكون من الممكن أن يضم رجال الدين والملحدين والسياسيين والإرهابيين والمؤمنين والأتقياء في رباعية، كل هذة الأشكال العجيبة على هذه الأرض العجيبة. ويضع نفسه أيضاً فيها بطبيعة الحال. ما زال موجوداً هنا. وإن كان وجوده في مكان

رأى أنه لا ينتمي إليه على الإطلاق. ولكن إلى أي مكان ينتمي؟ وافترض عمر في البداية أن الصومعة التي جلس على أرضها هي الآن بالنسبة إليه المكان الصحيح. وتكونت الرباعية شيئاً فشيئاً على نحو مختلف عما كان يتصور في البداية ؛ فلما تمت وتلاها على نفسه رآها مناسبة تماماً. ثم تلاها بصوت عال :

قالوا إنني نَكِبْتُ عن الطريق، نعم، أنا

واتهموني بأنني عاشق. نعم، أنا

انظر إليّ، وقل عني ما تشاء -

أما هذا فقلبي : هذا أنا، أنا، أنا.

جرهارد فريتش
Gerhard Fritsch

عيد الفصح
Ostermontag

كان شارع الكوبري بروكنجاسّه أشبه شيء بساحة المتفرجين التي غصت بالجمهور، فمن النوافذ نظرالمحظوظون من الفضوليين إلى الكوبري ، ومن بين الواجهات ظهر شريط من السماء زرقاء شديدة الزرقة. كانت پيا تلبس معطفاً أخضر بلون خضرة سم الجنزارة ، والحمائم تتراقص في زهو فوق بروز جدران البيوت والشحرور الأسود يصدح من فوق همهمة الجمع المحتشد . لم تكن ڤيتوريا لترضى بالبقاء وراء ثمانية أو عشرة صفوف من الجنود الذين سدوا المرور، فاتجهت إلى أمام . واندس فيليكس بين ڤيتوريا وپيا إلى أن وصل إلى ما يشبه السلسلة التي تكونت من ظهور سوداء . وشق بصره طريقه من بين الخوذات الفولاذية . وداعبت ڤيتوريا يده فسحبها ، فأمسكتها مرة أخرى . كان النورالشديد يكشف الخدوش في جدارالقيادة المتشقق كما يكشف التجاعيد تحت بودرة ڤيتوريا ، كما يكشف ما يعبر عن التوقع من خلجات بين ذغب في الذقن وبشورفي الجلد وشعر في الأنف ، وارتعاش تجاعيد الجفن ، وصفرة العين ، ولألأة الحلي الزجاجية المصنوعة في جابلونتس التي تدلت متأرجحة من شحمة أذنها . كانت پيا في وقفتها تبدل من قدم إلى أخرى كما لو كانت تريد الذهاب إلى

دورة المياه . وعبر جندي مشاة أمامهم عن امتعاضه من نكتة صافحت أذنه . ولامس طائر نورس قضبان الكوبري ، لمسة أخيرة من لمسات الشتاء . كانت هامات الأشجارأمام قاعة الألعاب الرياضية تلمع غضة غنية بالعصارة . وكان الهواء يرتعش فوق برج مدخنة رايموند . ومن فوق الكوبري تقدمت الشبيبة الهتلرية . وداست ڤيتوريا عمداً ودون ترفق على قدم فيليكس . كانت قد أغرته منذ الصباح الباكر بالحضور إلى هنا : كان يوم الاثنين يوم عيد الفصح يوم أجازة رسمية . في الوقت الذي تليت فيه صلاة الصباح حُكِمَ على كرافوجل بالإعدام . سألت الخالة ڤيتوريا الودودة بنت اختها عن حالها وهل هي على ما يرام . فمالت برأسها وأومأت إيماءة واهنة ، لأن رقبتها كانت متصلبةمن برد ألمّ بها ، كذلك فيليكس لم يكن يستطيع أن يلف رقبته وإن ظل قادراً على البلع والتنفس . إلى أن حل المساء فهمست ڤيتوريا متسائلة هل كنت لطيفة . وأرهفت پيا السمع . ووقف فيليكس بينهما حراً أسيراً معاً ، فرداً حراً أسيراً من عامة شعب الرب قبل الصلاة . أول من أمس احتفلنا بقيامة يسوع المسيح ، آه ، كم أنت مريح يا يسوع ، لقد جعلنا ألعوبة بين المزود والصليب ، فأنت تفعل ما نريد ، أنت تخرج لنا كرافوجل ، وأنت تدعنا نحرق اليهود ، وأمك اليهودية لا تعترض ولا تظهر في هذه المناسبة ، على الرغم من أنها تحب الظهور في كثير من المناسبات ، ونحن ندعو للفوهرر [هتلر] بأن يحميه الرب ، ونحمِّل يسوع المسيح المخلِّص مسئولية حمايته ، والعجيب أنه يقود شعبه إلى الهاوية ، آرباب عائلات ، فاضحو العذارى ، جاويشية ، ڤارهيتل ، راديجوند پلابوتش التي سعت وراء شارلوته ڤيبر لتغريها بالانضمام إلى رابطة الفتيات الألمانيات النازية ، رابطة الإيمان والجمال دون أن تدري أنها شارلوته ڤيبر هي فيليكس جندي هارب من الجندية . يا يسوع ، لماذا تدعني أركع أمام ڤيتوريا، ولسوف أركع أمامها مرة أخرى ليس فقط عن خوف ، وقد كففت عن حبها ، لماذا تدع هذه الطيور الفضية ، هذه الطائرات ، تحوم في بطء فوق الجبل ، هذه هي ساعتها ، فالجو بديع ، لماذا لا تردها، إن لم تردها كلها فلترد اثنتين أو ثلاثاً على الأقل ، لماذا لا توحي إليها أن تفرق جمعنا هذا؟ أي

خطيئة أكبر ، الكره أم الحب؟ أنا لا أريد أن أكرهها ، ولا أريد أن أحبها ، اغفر لڤيتوريا لأنها لم تمنع إعدام كرافوجل ، اغفر لي جبني وحركة رقبتي الملتوية ، ألا ليتك تكون موجوداً، ليتك تطلع من مقبرة أعياد الكنيسة وتركب طائرة قاذفة من طائرات الانتقام، يا سيد يسوع ، لقد آمنتُ في الماضي ، لماذا لا أؤمن الآن ، لماذا فلا أؤمن جأة . . .

وقالت پيا من هذه التي ستبكي يا ترى . وقدمت ڤيتوريا إليّ منديلها . ومرقت الطائرات القاذفة من خلال السماء ، مضحكة مثل غمامات المدفعية المضادة للطائرات من فوق الغابات . وفي بطء سارت عربة نقل من طراز أوپل بليتس رمادية زرقاء بمؤخرتها إلى الأمام فعبرت على دار ڤاتسوركا وطلعت الكوبري ووقفت في منتصفه . وزاد التوتر بين المتفرجين ، ورأى فيليكس رقاباً تطول ، وأحس برقبته ترتفع إلى أعلى ، كانت رقبته متصلبة وإزدادت تصلباً . أين كان كرافوجل؟ لم يكن هناك فوق عربة النقل سوى جنود . وتبرم الناس ، ولكن كرافوجل لم يخيب رجاء الذين أتوا لمشاهدة المسرحية . كان موجوداً ، وما لبث أن ظهر، قزماً بين جنديين عملاقين يطاولان الشجرالسامق. وقفز الجنود الآخرون نازلين من العربة ، وظهر رجال من غير العسكريين ، هيئتهم شعثاء ، عمال من شرق أوروبا ، من بولندة ، وقل ما تشاء . ونصبوا سلمين من سلالم النقاشين . ومدوا متريثين لوح خشب على آعلى درجتين . ومرت طيورالنورس عابرة ، فتوقفت قبيل السقالة المنصوبة، وتظاهر واحدٌ من هؤلاء البولنديين الشعث بأنه يريد أن يطعمها ، فرق له الناس، وكسب بفعلته هذه تعاطفاً على نحو لم يتوقعه أحد . وظهر الرجل القصير كرافوجل أسفل السلّمين واضحاً لا تخطئه العين ، وكان سطح عربة النقل يرتفع فوق كتل أخشاب الكوبري بمقدار قامة رجل . كان المحكوم عليه يلبس قميص الجيش الألماني بدون ياقة ، والبنطلون بدون حمالة . ورمش بعينيه في الشمس . لو لم تكن له تلك اللحية لكان منظره منظر فلاح قصير مكير . كانت له لحية رمادية كثة على وجه مثل وجوه الرسل في الرسوم الكنسية . وصافح الأذن صوت امرأة تصيح : «وجه

قذر صنع من الروث !» . وردت جوقة ضئيلة : «خائن !» . ولاذت الغالبية بالصمت . وبدأت الشبيبة الهتلرية المصطفة بجانب العربة تدق طبولها البيضاء السوداء . وسار رجلان بولنديان فوق اللوح الممدد بين السلمين يتأرجحان ، وربطا حبلاً في العمود الذي امتد بعرض السكة تحمل فانوس الشارع المهشم. وعقدوا عقدة المشنقة ، وهزوها ، ودقت الطبول دقاً مكتوماً . وهز الفلاح القصير رأسه تعبيراً عن الحيرة أو الدهشة . ونظر إلى ما حوله ، ولم يرفع بصره إلى أعلى قط . هل كان كرافوجل ينتظر قدوم قسيس؟ وساعد بعض الجنود القسيس على الصعود إلى العربة، وترك الحارسان الرسول القصير ، فركع . وأشار القس إلى الحارسين فحلا وثاق كرافوجل . وحضت ڤيتوريا الواقفين حولها على السكون ، ورسمت الصليب . وفعلت الغالبية مثلها . كذلك فيليكس . كان يعرق ويرتعش في الشمس . كانت الطبول قد سكتت ، وكان الناس قد خفضوا أصواتهم حتى ظن البعض أنهم يسمعون همس القسيس كما يسمعونه في الكنيسة . ولكن الذي سمعوه كان خرير الماء . وغفر له القسيس ذنوبه بسرعة . وقبّل كرافوجل يدي القسيس بعد أن رسم بهما صليباً عريضاً . إذن فقد نجح القسيس في مهمة المواساة . ومسح على رأس الرجل الملتحي كما لو كان طفلاً سرق التفاح من حديقة القسيس فعفا عنه . وارتعدت پيا عندما أطلق الجاويش القائد صفارته . رباه ، يا شارلوته ، إنه لمشهدٌ مثير . وحملوا القسيس من العربة فأنزلوه ، وسلموا كرافوجل للبولنديين . وصعد درجات السلم الأمامي ، لابساً جورباً ، متئداً كأنما يصعد إلى مخزن الدريس . وتلقاه عند اللوح البولندي السمين ، وتبعه البولندي الآخر . وكان يحمل معه لوحة من الورق علقها حول رقبة كرافوجل ، لوحة لونها بني ، اللون الرسمي للحزب النازي ، كتب عليها بحروف كبيرة: خنزير جبان ترك سريته وهرب من الميدان . واهتز السلمان وقرقعا . وأومأ البولنديان إليه برأسيهما ، ووضعا المشنقة حول رقبته، وحرصا على ألا تنحشر اللحية في العقدة ، وعاد الجاويش فأطلق الصفارة . وترك البولنديان الرسول الذي رفع يديه عالياً . وجلس البولنديان فوق كابينة سائق العربة النقل ، فلما أطلق الجاويش الصفارة للمرة الثالثة صاح القسيس :

كيريا لايسون . وانتفضت العربة الأويل بليتس فجأة إلى الأمام ، وانكفأ السلمان ، وانقلب اللوح من فوق حاجز العربة ، وسارت العربة ببطء مبتعدة . ورفع فيليكس يده إلى رقبته الملوية التي تدلى منها عقد من اللؤلؤ . وتأرجح يوزف كرافوجل في عقدة المشنقة شبيهاً بدمية تنتفض تلبس جورباً وقميصاً عسكرياً بدون ياقة وبنطلوناً عسكرياً بدون حمالة وعلى صدره لوحة من الورق المقوى . ومال رأسه بعيداً إلى الخلف حتى بدت اللحية أفقية يشير طرفها إلى السماء . وعزف موكب العازفين لحن : «أيها الشعب هيا إلى السلاح !» وكانت الأشجار اليانعة الغنية بالعصارة تحيط بقاعة الألعاب الرياضية . وفتح الجنود الطريق بعد أن كانوا قد قفلوه .

وقالت ڤيتوريا : تعالوا يا أولاد ، تعالي أنت أيضاً يا شارلوته. لن تتأخري على خطيبك. هل أنت مصممة على أن تسيري في وسط الزحام الكثيف؟ لدي لك عمل حتى المساء ، فأنت اليوم لم تعملي شيئاً على الإطلاق .

ولاذ فيليكس بالصمت . واهتزت قبعة الجنرال التي غطى بها رأسه . وقالت ڤيتوريا : كونياك . وأتت پيا بالكونياك . في صحة المسكين ، لقد ظل هذا الهارب من الميدان متماسكاً رابط الجأش . ودهشت پيا كيف ينتهي الإنسان بهذه السرعة . انتفاضة وينتهي. يقولون يا مدام أن الرجال يشعرون مرة أخرى ، أو يعتريهم في أثناء ذلك إحساس ، هذا ما قرأته . وبدأت ڤيتوريا حديثاً عن عشب اللفاح السحري . وانصرف فيليكس . ووجد نفسه على الدرج ، فقد كان باب البيت موصداً ، فدلف إلى الحوش ، واندس في الممر الضيق بين جداريْ الحريق . واستمر يتحسس طريقه. كان كالجرذون وهو يخطو إلى أمام من خلال أنسجة العنكبوت حتى وصل إلى شارع أدولف هتلر . ثم بعد ذلك وصل إلى السوق، وكان الجرذون قد استحال إلى فأر .

وعادت الطائرات القاذفة بعد أن أدت مهمتها ، وفرح الواقفون في السوق لأن عددها كان قليلاً بشكل لافت للنظر وكانت في تشكيل مضطرب ، وأرهفوا السمع إلى محركاتها هل كانت تقطّع ، إذن فقد أسقطنا دستتين ، وكان موت كرافوجل قد قوّى الثقة في القيادة . وانشغل الصبية والمحاربون القدامى والنساء تحت سماء أبريل الزرقاء في مناقشة الموقف ، قالوا إن الروس إذ تقدموا في بورجنلاند وقعوا في مصيدة، وأن هاوية كبيرة تنتظرهم ، الكماشة من سلوڤاكيا من أسفل وسلوڤانيا من أعلى . واضح؟ حديد . هل فعلاً لم يفكروا في أن القاذفات لم تضطر كلها إلى العودة من فوق رؤسهم؟

ووقف فيليكس تحت بواكي دار البلدية وفكر كيف يعبر الكوبري دون أن يمر ببيت ڤيتوريا . كانت تلك استراتيجية ذكية كتلك التي كان الناس من حوله يناقشونها .

وانسحبت القاذفات . وقرأ فيليكس بيان الجيش الألماني الذي عُلق بالأمس على اللوحة أمام رئاسة اللجنة المحلية . وأقبل من شارع الكوبري جمع من الجنود . هل ساوره خوف؟ هل كانت البنت التي هربت من سيدتها تخاف من العقوبة؟ كانت رقبتها ملوية وكان رأسها من فوقها قد تجمد في ضعة . وما هذه البنت إلا فيليكس متنكراً بعد الفرار من الجندية . أما بانرت الذي ترقى إلى رتبة ملازم ثان فقد كان يقود الجنود ، وكانت صورته الأولى كصف ضابط قد جهزت تنتظر أن يتسلمها . كان ڤاتسوراك قد حكى للسيد هاينرعن خطيبته . وقال بانرت : عظيم ، دليلاً على رضائه بفقدانها ، وبأن يكون الخاسر المحترم . وقاد مجموعته في غلظة إلى ساحة التدريب في غابة يونجڤالت وراء المدينة . وأصلح فيليكس هندامه ناظراً إلى شكله في زجاج نافذة ، ونفض عن كمه ما علق فيه من نسيج العنكبوت ، ثم سار . كان حنينه شديداً إلى غرفته . وحدّث نفسه بحديث كالنبوءة : إذا أنا مررت بسلام من أمام ڤيتوريا ، فسيكون ذلك فألاً حسناً بأنني لن أموت في الحرب ، وبأنني سأفلت من ڤيتوريا ومن هذه المسخرة التي أتخذها للتخفي . إنه لم يشعر بهذا القدر من التعاسة في هذه الهيئة

التنكرية التي تشبه لفافة البضاعة من قبل حتى ولا في الأيام الأولى . وعاد فحرك رأسه على فقرات متصلبة تطقطق .

وصاحت راديجوند پلابوتش أمام دكان أبيها الخباز : « هذه فضيحة! » . كانت هذه الفتاة ذات الأنف المعقوف تتشاجر مع بنت لا تستطيع الدفاع عن نفسها . وأدت المشاجرة إلى تتطاير بعض الشعر من سترتها المصنوعة من فراء الأرانب . كانت البنت التعيسة تجسم نموذج البنت الشقراء كما وصفها جونتر في كتاب علم الأجناس . ووقف فيليكس واغتاظ لأنه لم يخطر بباله أن يفعل شيئاً أكثر من مجرد الوقوف . كانت رقبته تؤلمه . ثم رفعت راديجوند يدها عن السترة وأردت أن تسدد إلى البنت لكمة في فكها : كانت هذه البنت من پولندة ، وهاهي ذي تبسط كفها وتتلقى الضربات كما يتلقى اللاعب الكرة . ماذا فعلت؟ وتحدثت نساء هُرعن لاهثات فذكرن كلمة منديل رأس . لم تكن الشقراء تضع منديلاً على رأسها . وكان شعرها يتدلى مسدلاً . كانت حانقة على نفسها حنقاً مريراً لأنها لم تقدر العواقب الوخيمة . وكانت راديجوند تدوس في حركة مغيظة على خرقة علاها التراب . وجاء المدد ، نساء قدمن إليها العون ، فشددن البنت من شعرها ، وجذبنها إلى الوراء ، وتشبثت في الأرض حتي لا تقع ، واقتلعن من شعرها خصلات وقبضات . وتهيأت راديجوند لتسدد إلى البنت الضربة القاضية ، وهنا أمسك فيليكس ذراعها بقوة .

ـ هل جننت؟

ـ إن ضرب بنت عزلاء نذالة. أي جريمة هذه التي ارتكبتها ؟

وتولت الرد جوقة من النساء تكلمن معاً في وقت واحد . لقد ربطت المنديل على رأسها على طريقة الألمانيات ، المنديل ربطته على رأسها كما تفعل المرأة الألمانية .

وقالت پلابوتش لاهثة :

ـ ربطته على قفاها .

ـ وهذا ممنوع . بنات الحثالة عليهن أن يربطن المنديل تحت ذقنهن ..

وقال فيليكس وقد حسن صوته ليكون صوت أنثى :

ـ الفلاحات في شتايرمارك يربطن المندل منذ قرون ...

وقالت راديجوند :

ـ بجاحة ما بعدهابجاحة .

واستخدمت ذراعها الأخرى في صفع فيليكس . وصرخت « هاتوا دورية النجدة » « هاتوا دورية النجدة» . وكانت نسوة أخريات قد طرحن البنت البولندية أرضاً، فداست راديجوند على أصابعها. « بوليس النجدة» . وأمسكت النسوة بذراعي فيليكس . وتزايد الجمع المحتشد . لو خطر ببال أحد أن يشده من شعره الملفوف على هيئة بوكليهات – –

ونظرت پيا من الشباك من فوق لافتة «صفاء النساء» المكتوبة بحروف ألمانية أصيلة ، وخبطت على جبينها . وكانت بعض النسوة من الرابطة النسائية النازية يبصقن على فيليكس، وكان بعضهن الآخر يدسن بالأحذية على نهدي البنت البولندية المطروحة أرضاً . وأقبل أبو پلابوتش ، ثم جاء عدد من الجنود . وقال فيليكس في نفسه : لماذا فعلت ما فعلت. وظهرت خوذات فولاذية . وأحس بفرص نجاته تتبدد بسرعة . وقالت واحدة تتصور نفسها أذكى وأفضل من الأخريات : هذه ألمانية من الفولكسدويتشه ، هذه هي طريقتهن . ووصلت داورية النجدة في نفس الوقت الذي وصلت فيه ڤيتوريا وقالت : العدالة الشعبية . ووافق پلابوتش بإيماءة . وأعادت راديجوند العبارة . وانضمت الجوقة فرددتها ، ووافقت داورية النجدة ، وانصرف رئيسها يضحك ضحكة صفراء . وانهالت النسوة على فيليكس لكماً وضربا

ًبحقائب اليد وبالشلاليت ، ودفعنه إلى صالون «صفاء النساء» . أما ما جرى على البنت البولندية فلم يستطع رؤيته. وعثرت قدمه وكاد أن ينكفيء إلى داخل الصالون ، وهاهوذا أصبح وحده مع ڤيتوريا . ومن وراء الزجاج كان الجمع المحتشد الثائر يخور ويمور .

وساقته ڤيتوريا إلى المشغل ، واختفت دون أن تنطق بكلمة واحدة . وجد نفسه محبوساً . وخلع المعطف الذي اتسخ ، ووجد فستانه قد تمزق ، واكتشف ضياع فردة حذاء . لقد نطقت العرافة . وتقرر مصيره ، فوقع في يد ڤيتوريا مرة أخرى . ماهي الصورة التي ستتخذها العدالة الشعبية؟

وجاءت ڤيتوريا ، وقهقهت عالياً عندما رفعت الباروكة من فوق رأسه ، وبقي ساكناً عندما سلكت ڤيتوريا بسرعة فائقة المقص في شعره المستعار المتلبد ، وأطلق الببغاء پيلسودسكي منفعلاً عبارات لم يفهم معناها . وأقفلت ڤيتوريا على الباروكة فأحكمت القفل ، وجاءت پيا تحمل صبانة الحلاق تمتليء بالرغوة ، وفرشاة وموسى .

وقالت :

ـ لا تفتحي فمك يا حمارة يا غبية !

وراحت تنفذ تعليمات ڤيتوريا ، فصبنت رأس فيليكس الحليقة مرة أخرى ومرت عليها مرة أخرى بالموسى . ولم تتدخل ڤيتوريا بنفسها إلا في النهاية ، فحكتت رأسه الملوية بقطعة من شحم الخنزير . وقالت پيا :

ـ منظرك فظيع ، أذناك مطرطقتان ، أنت تستحق هذه الفضيحة ! أنا أفضل أن أنتحر على أن يكون منظري منظر واحدة وقفت مع أسرى الحرب -

ـ هس يا پيا . تعالي يا شارلوته ، إننا لم نفرغ بعد من كل ما علينا عمله .

كانت راديجوند تنتظر في المحل ، تلبس الزي الرسمي ومعها جماعتها تلبس الزي الرسمي . وألقت خطاباً قصيراً أشادت فيه بكرامة المرأة الألمانية التي اعتدت عليها تلك التي تسمّى شارلوته ڤيبر . ولقد قال الحس الشعبي السليم كلمته ، إنه يمنحها فرصة أخيرة لتعيد النظر فيما اقترفته.

وعلقوا في رقبة فيليكس لافتة من الورق المقوى وأجلسوه على كرسي في ڤترينة المحل بعد إخلائها ، وربطوه بحبل غسيل ربطاً متيناً : حتى تكوني ظاهرة للأعين وعبرة . ثلاثة أيام من الصباح إلى المساء .

وهلل المارة عندما رأوه . وعلى الرصيف المقابل جلست البنت البولندية في ڤترينة الخباز . كانت رأسها الحليقة تنزف دماً . وهاهي ذي رؤوس السواد يضحك أصحابها ضحكات التشفي، وهذه هي الأيادي لا تكف عن التلويح باللكمات : البنت التي شوهوها بدأت تترنح في الڤترينة المقابلة . كرافوجل . وساعد كرافوجل . وساعدت ڤيتوريا . أنقذت فيليكس من موت محقق .

كان الناس يقرعون ويخبطون ويبصقون على زجاج الڤترينتين ، وكان سخط الناس عليه أشد من سخطهم على البولندية . عسى ألا يفعلوا بها أكثر مما فعلوا . ما اسمها يا ترى؟ كانت اللافتة المصنوعة من الورق المقوى والمعلقة حول رقبتها تحمل عبارة : أنا خنزيرة بولندية بذيئة . ونظر إليها دون أن يحول عينيه عنها ، وخف إحساسه بالدوخة . اصمد . من أجل البنت ، من أجل هذه الفتاة التي كانت شقراء والتي أُجلست في ڤترينة الخباز . ألم تلاحظ أنه كان ينظر إليها فلا يرفع عنها نظره؟ وأخيراً رفعت رأسها ورأته . كانت عيناها ترتجفان وجلتين هنا وهناك . ورسمت شفتاها تلميحة بقبلة لم يكتشفها الرفاق الشعبيون . من حسن الحظ أنهم لم يكتشفوا أن شارلوته ڤيبر كان في تصرفها شيء رجالي . كان الفستان بعد أن

تمزق قد تزحزح حتى تحت الركبتين . واستطاع فيليكس أن يقبض يديه المغلولتين بالحبل وراء ظهر الكرسي ويجعلهما على هيئة لكمتين. كانت ساقاه مربوطتين إلى الكرسي . وكانت الحركة قد بثت حرارة في وجهه . وحاول أن يتخيل ڤيتوريا عارية بدينة ، وكرافوجل المتدلي من المشنقة . لم ير إلا البولندية وفستانه الذي تزحزح فوق حِجره ، رآها تبتسم في غرفة ملابس ڤيتوريا ، واختار هو لها الملابس ، ولكنها لم ترض بقبول شيء منها ، ما جدواها ، إنهم سيعدمونني بعد ساعة ، قالتها بصوت شخصية مأساوية سينمائية . وقال ، سأذهب بدلاً منك، ولكنها أبت -

وقالت پيا وقد وقفت في باب المحل :

ـ إياكم ولوح الزجاج ! لا تحطموه ، فليس من الممكن الحصول على زجاج . امشوا ، فهناك أناس غيركم يريدون أن يتفرجوا .

وقال وهو يحس نفسه سابحاً في السعادة والبطولة ، الآن اسمي شارلوته ڤيبر ، سأذهب بدلاً منك . ولكنها لم تتركه . وخرجت ڤيتوريا من دولاب الملابس ومعها كرباج الكلاب وقالت وهي تضحك :

ـ تعالى يا حمام ، أنت وهو ، ادخلا القفصين مثل الببغاء پلسودسكي . سنعلق القفصين في ساحة السوق بعيدين أحدهما عن الآخر ، أنت يا شارلوته يا حلوة تعرفين صورة اليهودي زوس في القفص . رايموند عنده نسخة من هذه الصورة . أما نحن فنسلك مسلكاً إنسانياً، قد يمكنني - وتلوت عارية فوق السجادة - قد يمكنني، بل ينبغي عليّ أن أتباحث مع لوبيتس ، حتى لا يقصف رقبتك ، بل يطقطق عمودك الفقري ، يبدأ أولاً بشارلوته الحلوة ، فموضوعها دخل حيز التنفيذ -

وعاد بانرت من ميدان التدريب . وهزت خطى سريته على ما ألمّ بها من وهن ألواح زجاج الڤترينة . وأخذ الجنود الصغار ينظرون إلى هذه الناحية تارة وإلى الناحية الأخرى تارةأخرى من تحت خوذاتهم الفولاذية التي عامت فيها رؤوسهم . كذلك في هذه المرة لم يكتشف الجاويش وهو ينظر إلى الڤترينة شبهاً بين من أُجلست فيها وبين فرد يعرفه فر من الجندية . وقل عدد الساخطين تدريجياً، ولكن كان من بينهم من ثبتوا في مكانهم لا يتحركون ، وعكفت بعض الفلاحات على تهجي المكتوب على اللافتة حول رقبة فيليكس « أنا نسيت شرف أمتي » ، وكنّ موقنات من أنه تعاون مع الأجانب . ولوحت بنت عمرها ثلاث سنوات لمن قعدت في الفترينة فجذبتها أمها بعنف فوقعت وشجت ركبتها .

وتسامت البنت البولندية في عيني فيليكس فأصبحت شبيهة بچان دارك . هل ستعرف يوماً ما أنه لم يكن امرأة بل رجلاً؟ لابد أن تعرف ذلك ، ومنه هو نفسه . لن تضحك ولن تعتبره جباناً ، وهكذا كان . من وجهة نظرها ستكون تلك هي المرة الأولى التي جازف فيها بعمل بعد هربه من الجندية . ما هذا العمل؟ لم يكن إلا رد فعل تلقائي . لقد ودع فيليكس التضحية كما تصوِّرها الكتب المثالية الساذجة المصورة . كانت صانعة الكورسيهات قد استغلت بطولته كحيلة ضمت له أن يعيش باسم شارلوته ڤيبر في أمان لمن يعرفه من قبل . لم يكن هناك إنسان يمكن أن يشك في أنوثة بنت حلقت العدالة الشعبية لها شعرها بالموسى . كانت ڤيتوريا تعرف كيف تتصرف وكيف ترتب كل الأمور . هل يمكن إقناعها بأن تعمل شيئاً من أجل البنت البولندية؟ لن يكون ذلك بالنسبة إليها إلا شيئاً هيناً . يمكنها مثلاً أن تطلب عاملة إضافية ، ولن يرفض طلبها أحد . هل يحق له أن يضع البنت البولندية تحت رحمة ڤيتوريا؟ ماذا يحدث لو اكتشفت ڤيتوريا أن فيليكس يحب البنت البولندية؟ كان يحبها ، فعلاً ، حباً قوياً ، حتى وهو مغلول ، إلى درجة أن أطرافه كلها نمّلت ولم تعد تشعر وأصبحت كالميتة ، حتى رقبته . هذه هي روحه ترفرف وجلة في الغسق . فلم يكن يستطع الوصول بنفسه إلى چان دارك على خازوق العذاب عند المعلم الخباز پلابوتش. أما ما كان ينتظره

فالليل وڤيتوريا التي كان عليه أن يوجه إليها الشكر ، وكان يخاف من خيالها وما يتفتق عنه .

والتهبت عيناه من فرط إجهادهما لرؤية الحبيبة . كان الأمل يداعبه في أن يجتمع شملهمابالليل خلف القضبان . كان فيليكس يتوق إلى أن تنزل رتبته من مستوى راديجوند إلى مستوى الشغالة البولندية ، وكانت راديجوند قد ألمحت إلى شيء من هذا المعنى في كلامها .

وفتحت ڤيتوريا الجدار الخلفي لقفصه ووضعت مصباحين كأضواء المقابر عند قدميه ، ورأى في لوح الزجاج صورة شارلوته ڤيبر الحليقة لا صورة بنت أحلامه البولندية . ولقد بذل أقصى ما يستطيع من جهد ليبقي البنت على هيئة چان دارك ، ولكن سمات چان دارك أفلتت ، وبقيت صورته الكاريكوتورية ، بأذن عالية ، وأذن واطئة ، وقفا مال كأنما ألم به ورم أو خراج ، ورأس شابه البيضة على نحو يثير الضحك ها ها ها . وأشار إليه بعض الرجال بأصابعهم إشارات بذيئة ، أما الأشياء القريبة منه فقد رآها ، رأي رفاق الماضي يظنونه امرأة ويفكرون في كيفية العبث به ، كانوا ثمانية ، وكانوا يقولون كلاماً جنسياً فاضحاً - -

لوبيتس عبر عن سخطه على ما فعلته ووصفه بأن أحمق ومناف للذوق. وحلت پيا الوثاق منفعلة في خير تمكن. ولم تعترض ڤيتوريا .

- اعتباراً من الآن فوراً تحظر أعمال ما يسمى بالعدالة الشعبية ويعاقب من يقوم بها . سأتولى أنا أمر هذه الضبعة المنتمية إلى رابطة الفتيات الألمانيات. سيكون عليها أن تحفر بالجاروف كغيرها . لابد أن ننتهي من إعداد الخنادق في الموقع يا حضرة البارونة في غضون ثلاثة أيام ، وإلا فأنا لا أضمن شيئاً . الوضع سيء ، أنت معفاة من العمل يا بارونة ، وأنت يا آنسة ڤيبر . وأنت على هذا الحال لايمكن -

وسأل فيليكس :

- ما المانع؟

وعبر الرائد بوجهه عن الامتعاض . ألا يمكن أن ندبر لها باروكة يا سيادة البارونة؟

- أنت تهتم بالناس على نحو يأخذ بمجامع القلوب، يا سيادة الرائد . ولكن البنت التي نخاف عليها لن تزيد جاذبيتها إذا زيناً رأسها بباروكة عروسة الفترينة. ثم إن عليك أن تعمل للمناخ العام حساباً ، فالناس ساخطون سخطاً حقيقياً على شارلوته . والحقيقة -

- أنه عمل أحمق . يقيناً يا بارونة . سأسمح لنفسي بأن ألقي بنفسي على مسامع البنت كلمات العقاب . سأذهب إليها وأعود بعد ربع ساعة.

جيرالد سيسكوفيتش
Gerald Szyszkowitz

فن النسيان
Puntigam oder Die Kunst des Vergessens

ڤينا في ١١ مارس ١٩٣٨

كان ماريانه قد فرغت على عجل من توضيب الصفحة عندما جرت إلى فندق زاخار.

كان ما يقرب من مائتين من عيال النازية يتظاهرون أمام مكتب سكك حديد الرايخ الألماني، المواجه لدار الأوپرا، وإلى اليمين من قصر توديسكو Palais Todesco، ويحملون صورة لهتلر أكبر من الحجم الطبيعي، ويهتفون بلا انقطاع :

«شعب واحد، رايخ واحد، زعيم واحد»

وقالت في نفسها : العيال لم يذهبوا اليوم إلى مدارسهم لأن ما يجري هنا أكثر إثارة بالنسبة إليهم. ونظرت مدهوشة إلى هؤلاء الصبية كيف وضعوا كميات هائلة من الزهور أمام الصورة، وكأنما كانت هيكلاً شعبياً تُقَدَّمُ عليه القرابين.

وسألت الشرطي الذي كان يقف بجانبها : لماذا لا تتدخل السلطة التنفيذية بشكل أشد حسماً ضد أعداء الدولة هؤلاء الذين يجاهرون بعدائهم لها ؟

فقال لها : « يا سيدتي العزيزة، لأننا لم نعد نعرف هل نحن رجال أم نساء. لقد استدعونا لنقوم بتفريق المظاهرات وإخلاء شارع كيرتنر من المتظاهرين، ثم أصدروا إلينا بعد قليل أمراً ثانياً بألا نخلي الشارع، بل نقوم بإغلاقه، والآن جاءتنا إشارة تحضنا على أن نتحاشى فيما نتخذ من إجراءات، أياً كانت، كل تحرش في شارع كيرتنر. هل يمكنك أن تشرحي لي كيف ننفذ ذلك؟ هل ينبغي علينا نتوسل إلى السادة النازيين أن ينصرفوا طواعية إلى حال سبيلهم؟ إنني عندما اقترب منهم يقولون لي : امشي، ورّينا عرض اكتافك، هوّينا، ابعد، سنقدم فيك شكوى إلى زايس إنكفارات ! Seyß-Inquart أتفهمين ما يجري؟وهذا هو السبب في أنني أقف تحت بواكي الأوبرا ولا أفعل شيئاً. انظري إلى الصورة السخيفة، صورة أدولف، القرد، التي يحملونها هناك. ولكن انظري من بعيد.ولا تقتربي.

كانت محلات عديدة هنا قد أغلقت أبوابها منذ الأمس، ولكن الصورة، التي ظلت على الناصية من ناحية اليسار في اتجاه شارع كيرتنر عادية، تغيرت الآن، كان رجال الشرطة قد اصطفوا على هيئة طابور متماسك، فخاف أصحاب المحلات المفتوحة مما يمكن أن يحدث، وأنزلوا الأبواب الحديدية، الواحد تلو الآخر، محدثين صليلاً متوالياً، ومالبث هذا الصليل أن أفسح مكاناً لسكونٍ يخفي ما يخفي من التساؤلات : هل ستقوم الشرطة الآن بالقبض على عيال النازي أم لا ؟

وطارت حَجَرَةٌ إلى نافذة في الطابق الأول من البيت القائم على الناصية، وبقيت القوات ساكنة لا يتحرك فيها ساكن.

ماذا يحدث إذا اندفع الجميع فجأة؟

وظهرت طوابير متماسكة من « الجبهة الوطنية » متظاهرة في شارع كيرتنر، واستطاعت ماريانه أن ترى عربات نقل ترفع الأعلام الحمراء البيضاء الحمراء، وعربات احتشد فيها فلاحون

يرفعون لافتات. وبين هؤلاء وأولئك سار طلاب مسيحيون بقبعاتهم وشاراتهم المزركشة.

وفي الوقت نفسه اصطف على الناحية الأخرى طابور من رجال الشرطة، ولاحت مجموعة صغيرة نسبياًمن عيال النازية كأنها تتمتع بحماية الشرطة فعلاً، فما لبث بعض المندفعين أن عادوا إلى التحرش، فهتفوا :

« تسقط حكومة اليهود ، نموت ولانقبل العلم الأحمر الأبيض الأحمر الممقوت »

وهتف الآخرون : «انتخبوا شوشنيج ! مع الأحمرالأبيض الأحمر حتى الموت ! »

قال الشرطي الواقف بجواري : « يقال إن انقلاباً سيحدث في هذه الليلة ».

وقالت ماريانه في نفسها : شيء عجيب. أتراهم يقومون بانقلاب قبل إجراء الاستفتاء بيومين؟ » ولكن الكلام يلوح قابلاً للتصديق. فهذا هو أسلوبهم في التفكير. إذا لم يجد وسيلة أخرى يحققون بها النجاح، قاموا بانقلاب.

وأحست فجأة برغبة عارمة في أن تلعب هي بنفسها دوراً في هذه الفوضى التي اتصلت حلقاتها هنا، واتصلت تليفونياً بابن العم فريدمان، في مكتبه بميدان بالهاوس Ballhausplatz.

« ماذا تقولين؟ انقلاب؟ بالعكس ! الأحوال كلها على خير ما يرام. ولقد استدعى المستشار احتياطي دفعة عام ١٩١٥، وعلى هذه القوات أن تعطي التمام اليوم في القشلاقات ـ لا ـ لا ـ يمكنني أن أعيد كلامي وأؤكد : المستشار يمسك حاسماً بزمام الأمور.

«وإلام يستمر ممسكاً بها ؟ »

وقال فريدمان مهوّناً : « على الأقل اليوم وغداً ـ وهذا يكفي. لا تقلقي. فلن يستطيع أحد أن ينتزع منا استفتاء يوم الأحد. »

كانت الهتافات والصرخات في هذه الأثناء قد تعالت على نحو خطير. وسارت ماريانه بحذاء طابور الشرطة، ورأت العبوس بادياً على وجوههم، والسعادة على وجوه عيال النازية وكأنهم نجحوا في امتحاناتهم وحصلوا على تقدير جيد جداً، وكانوا يهتفون بأصواتهم الفرحة الفتية شعارهم المجنون :

شعب واحد، رايخ واحد، زعيم واحد. شعب واحد، رايخ واحد، زعيم واحد.

وسألت ماريانه واحداً من عيال النازية وقف أمام صورة هتلر : أهذا هو كل ما أتيتم من أجله، أن ترفعوا عيونكم في الهواء بنظرات بلهاء، وترفعوا عقائركم بالصراخ؟

فرد عليها متخابثاً لا يكشف عن نيته :« أجيب على سؤالك بنعم ولا، فالموضوع نسبي.

« نسبي بالقياس إلى ماذا؟ »

فلم يرد، واكتفى بأن رمقها بنظرة ساخرة.

وإذا كانت في البداية قد اغتاظت من وقاحته، فقد فكرت في النهاية أن هؤلاء العيال قد لا يعرفون هم أنفسهم ما يراد منهم. فالصحف الألمانية لم تشر أيٌّ منها منذ أربع وعشرين ساعة إلى استفتاء شوشنيج Schuschnigg.

برلين لزمت الصمت.

ولكن أليس هذا الصمت أخطر من الهجوم؟ هذه هي الفكرة التي جالت بخاطرها.

التقت ماريانه في المكتب برئيسها الذي كان الغيظ قد بلغ به كل مبلغ. فقد تدفق من ألمانيا منذ دقائق سيلٌ لا ينقطع من الأخبار الكاذبة، منها مثلاً : «الوزيران الألمانيان القوميان زايس إنكڤارت وجلايزه هورستيناو Glaise-Horstenau لم يحطهما شوشنيج علماً بالاستفتاء الشعبي المزمع » ومنها أيضاً : « براغ تساند علناً الثورة البلشفية في ڤيينا » ومنها : « الإضراب العام يعم النمسا كلها ».

لم يكن من بينها خبر صحيح. على العكس، فقد تساقطت أمام نافذة جريدة التلغراف نشرات هبطت من السماء ـ أسقطتها الطائرات تضمنت - كما تلاها ساعي المكتب لتوه استمرار الدعاية السلمية لشوشنيج ولاستفتاء يوم الأحد.

كذلك لزم الموظفون في هيئة الاستعلامات رباطة الجأش، على الأقل في التليفون، وتصنع غالبيتهم أن يوم الجمعة الحالي الموافق الحادي عشر من مارس آزار من عام ألف وتسعمائه وثمانية وثلاثين يوم عادي كغيره من أيام العمل الأخرى.

أما الإذاعة الألمانية فقد استمرت تبث الأكاذيب الفظيعة : الوزيران الألمانيان القوميان لم يعلما قط بالاستفتاء، براغ تساند الثورة البلشفية في ڤيينا، الإضراب العام يعم النمسا اليوم.

ولم تأت طبول الدعاية النارية هذه وليدة الصدفة، فحكام برلين لا يعرفون المصادفة. هذا ما فكرت فيه ماريانه. ولكن لماذا يدس الموظفون النمساويون رؤوسهم في الرمل بهذه الصورة المفضوحة؟ من الذي ينتظر هنا وماذا ينتظر؟

....كان النهار قد انتصف في هذه الأثناء، وجاءت سكرتيرة تحمل سندوتشات السجق وشيئاً من الفاكهة، فلم تكن بأحد رغبة في الذهاب لتناول الطعام في المطعم.

وقالت ماريانه للسكرتيرة : «شكراً يا ماريا» وتناولت تفاحة. كانت أعصابها متوترة، بل كانت تحس بالرهقان، فهي لم تستطع أن تقرر ما ينبغي عليها أن تفعله. كان بعض الزملاء يتصلون تليفونياً بأصدقاء قدامى في بريسسبورج Preßburg وبرون Brünn يسألونهم عن إمكانية أن يأووا إليهم إذا جد الجد، أما هي فكانت تفكر في أن صحيفة التلغراف لابد أن تظهر وألا يتأخر نزولها إلى الشارع عن الساعة الخامسة على أكثر تقدير.

أهم شيء هو ألا يفقد الإنسان الآن رباطة جأشه.

وفكرت في أن تجعل العنوان الرئيسي : الأحرار، وأنصار الشرعية، والسلوڤان والكروات واليهود والاشتركيون والجبهة الوطنية يصوتون جميعاً من أجل النمسا. خمسة وستون في المائة من الأصوات مضمونة.

وفجأة اتصلت زميلة من برلين هي السيدة كاردورف Kardoff وتكلمت بسرعة مضطربة حتى صعب فهم كلامها، قالت إن جورنج Göring لم يستطع فرض رأيه والحصول على الموافقة على خطته للزحف على النمسا، فقد عارضها هتلر، بل لقد تردد في الدوائر كلها أن هتلر رفضها رفضاً قاطعاً. فإذا اتخذ قرار في القيادة العامة للفورر في الساعات القادمة فلن يكون في اتجاه....

وهرعت ماريانه إلى المكتب المجاور : أليس الأفضل أن يكون الرئيسي : جورنج يريد الزحف على النمسا وهتلر يرفض؟

وقال لها رئيسها وقد شحب وجهه وهو يضع السماعة : العكس هو الصحيح، للأسف، فقد وجه هتلر لتوه إلى شوشنيج إنذاراً نهائياً ينتهي موعده في الساعة الخامسة , وإلا فإن الجيش الألماني سيزحف على النمسا اليوم.

ودخل عليهما زميلهما أوبرجوجنبرجر Oberguggenberger مندفعاً وقال على عجل : « جاءت مكالمة من مكتب المستشار مضمونها : المستشار شوشنيج رفض إنذار هتلر وقرر التمسك بإجراء الاستفتاء الشعبي يوم الأحد ».

وقال رئيس التحرير : « هذا في رأيي أفضل عنوان رئيسي للجريدة، ولكنني أخشى من أن يُحدث عاصفة هوجاء، فلن يقبله الناس في الشارع بارتياح، أياً كان الأمر فإنني لازلت متمسكاً بتقييمي للموقف واستقرائي للمستقبل : حتى إذا أمكن حجز الماء في هذا النهير أو ذاك، فإن المياه كلها مصيرها إلى البحر ! »

وظهرت الطبعة المسائية من جريدة التلغراف في الثالثة والنصف، قبل الموعد المألوف بساعة وربع الساعة. وأخذت ماريانه أول نسخة وصلت إلى يديها من المطبعة وجرت بها إلى ميدان بالهاوس.

ماذا سيقولون هناك؟ لقد صممت على أن تتكلم مع فريدمان، وكان الرأي عندها أن عليه أن يفسح لها وقتاً الآن. مَنْ غيره يستطيع أن يعرف ما سيحدث في الساعات القادمة؟

على ناصية قصر هربرشتاين Palais Herberstein القديم، على الطوار المواجه لكنيسة ميشائيلركيرشه وقف عدد من شباب المتظاهرين يهتفون هتافات متضاربة، « يعيش شوشنيج » و« يعيش هتلر، هايل هتلر » ويضحكون في أثناء الهتاف فلا يملكون أنفسهم من الضحك.

وكانت ماريانه قد رأت في طريقها أمام بنك التسليف وأمام الجامعة عدداً كبيراً من رجال الشرطة، فلما وصلت إلى هذا الموضع صعب عليها أن تشق طريقها وسط الحشد الكثيف من رجال الأمن.

كان الجو الربيعي المشمس قد تحول إلى جو صيفي رطب حار ثقيل فقد هبت ريح جنوبية ساخنة دفعت بمنشورات الاستفتاء خلال الشوارع، وكان الجو ينذر بمطر يمكن أن يسقط في أية لحظة. كانت زَمْتَة كريهة تضغط على الجو في الشوارع، بل إن العاملين في المحلات الكبيرة الذين أُرسلوا إلى بيوتهم قبل موعد الانصراف بساعتين تحسباً لما يمكن أن يقع من أحداث كما قيل لهم لم تبد عليهم البهجة، بل أمسكوا بقبعاتهم وشيلانهم ممتعضين.

ودخلت ماريانه المستشارية بفضل بطاقتها الصحفية ووصلت إلى مكتب فريدمان بسرعة ودون التعرض لكثير من إجراءات التفتيش. ولكن السيد ابن عمها لم يكن وحده، كان رئيسه السيد فروليشستال Frölichsthal، المدير العام، وهكذا كانوا يسمونه رسمياً، وكان يعمل في خدمة المستشار الفيدرالي شخصياً، كان رئيسه هذا يقف بجانبه، وقد استغرق الاثنان في العمل، وبدا عليهما الانشغال والانصراف عنها.

وأحسست ماريانه بما جرح كرامتها لأن الرجلين كليهما لم يهتما بنسخة الجريدة التي أتت بها ولمّا يجف حبرها بعد، وكانت تتوقع أن يتخطفاها، وتحول إحساسها من الامتعاض إلى اتخاذ موقف عدواني استنكاراً للحط من قدرها. وقالت في نفسها : هذا تصرف لا يأتي إلا من الرجال. الرجال لا ينتظرون الأخبار المثيرة إلا من رجال مثلهم. والناظر إليهم يراهم يقفون النهار بطوله يضيعون ساعاته الجميلة لا يفعلون شيئاً إلا الاستغراق في تفسير حركات التأفف التي يأتي بها الزملاء في الحجرات الأخرى المزخرفة على طراز الباروك. لقد بلغت بها الدهشة حد الاستنكار. أما أن ينزل هذا العدد من صحيفة التلغراف الذي ينطق بتفاؤل رائع إلى الشارع فتتداوله مئات بل آلاف الأيدي، فأمر لم يكن يهم السادة في داخل هذه المكاتب هنا على الإطلاق، ولقد ظهرت الحقيقة واضحة للعيان !

وتقدمت خطوة نحوهما، وأحدثت خرفشة بالجريدة، ولكنها لم تنل منهما نظرة واحدة، على العكس زاد استغراقهما فيما يعملان، ودفع فريدمان بورقة أخرى إلى رئيسه الذي عكف على دراستها تفصيلياً.

واقتربت من المكتب الذي وقف الاثنان خلفه، ولكن فروليشستل بقي على حاله، مكباً على القراءة، لا يفرغ من ورقة حتى يتناول ورقة أخرى، وأخيراً أعاد الصحيفة إلى فريدمان وقال : « الله، الله ! »

وفكرت ماريانه : إما أن القسم الصحفي في المستشارية لم يعد يهتم بالصحافة النمساوية، وإما أنه قرر أن يبين للصحافة أنه سجل كلمة كلمة ما كتبه كبار الصحفيين منددين بسياسة الحكومة التي وصفوها بالتردد، وأنه يقف منهم اليوم على ما فعلوه في الماضي موقف الاستهجان العميق.

وسعى السيد فون فروليشستال إلى تركيز ذهنه بأن رتب أقلام الرصاص على منضدته مساوياً أطرافها المدببة لا يبرز أحدها فوق الآخر.

وفجأة رفع بصره نحو ماريانه. فرأت وجهه صريحاً، وعينيه تعبران تعبيراً واضحاً ثابتاً عما يجيش في نفسه. وما مرت لحظة عقد في أثنائها علاقة بين وجهه وبين عنوان الجريدة التي أمسكتها بيدها، حتى استعاد نظرته المميزة التي يصطنعها عندما يدخل في حوار مع أحد الصحفيين، تلك النظرة المهذبة التي ظن أن عليه أن يصطنعها عندما يواجه واحداً من الكتّاب الراسخين. هكذا انتهج نهجه الروتيني فرسم حول شفتيه ابتسامة النفاق الذليلة التي يعبر بها عن رجاء بالحديث الصريح، وهو الأقل لم يُخْفِ نفاقه.

وقال : « هذه هي جريدة التلغراف تكتب أخيراً شيئاً إيجابياً عن المستشار، أيكون هذا صحيحاً؟» وأخذ الجريدة وقرأ فيها ثم قال : «وأنت تعتقدين أن هذه هي النغمة التي نحن بحاجة إليها؟ جاء في الجريدة أن المستشار عاد فأحكم قبضته على زمام الأمور؟ ألا يعني هذا أنه كان نائماً على أذنيه طوال الأسابيع الماضية؟»

وتلاشت ابتسامته التي يصطنعها مع الصحفيين نهائياً، وانحنى أمام ماريانه انحناءة تحية تعبر عن الحنق، وانصرف.

وتبددت انتفاضة الفرح التي تملكت ماريانه. ماذا حدث؟ لقد رفض شوشنيج الضعيف إنذار هتلر، أم تراه لم يرفضه؟ لا، لقد رفضه حقاً وصدقاً بكلمات وجيزة شجاعة ! ثم انظر إلى هؤلاء الرجال المتبلدين الذين يحركون في الإنسان شعوراً بأن كل شيء ضاع؟

واتجه ابن العم فريدمان إليها وقال ساخراً : «يا عزيزتي ماريانه.. » ثم قطع كلامه وقدم الورقة التي وقعها فروليشستال إلى السكرتيرة ثم أردف يقول «.. يسعدني أنك أتيت. هل لك في كأس كونياك؟ جريدتكم نشرت عنواناً رئيسياً جميلاً !»

وقالت ماريانه في نفسها : ما أسرع ما تغير جملة واحدة مشاعر الإنسان وكأنها تكسوه ثوباً جديداً ! فقد أحست على الفور بالبهجة والتفاؤل.

فلما نظرت إلى وجه فريدمان الأبيض النحيل الحليق الذي حلقه بدقة مفرطة، لم تجده يعبر عن فرحة حقيقية، من تحت تصفيفة شعره التي شقُّها فرقٌ مرسوم على المسطرة. وقال لها : «ما الذي يأتي بك إلى هنا؟ أتأتين، أنت المثقفة، إلى مستنقع الاشتركية المسيحية ودعاة الارتباط بالأرض والشعوبية؟»

وسألته : لماذا أبدى فروليشستال الوسنان عدم الاكتراث إلى هذا النحو الفظيع.

وأخذ فريدمان يتأمل الكونياك في كأسه من عدة جوانب، وشم رائحته، ثم رفع الكأس في النهاية إلى النور. ثم قال : «مقالتك هذه لا هي جيدة فائقة الجودة، ولا هي مفيدة عظيمة الفائدة.»

وقالت له : «أرجوك. هل يمكنك أن تكلمني على نحو أوضح؟»

هنالك سألها : « أما كان الأفضل أن تضعوا في الصفحة الأولى صورة كبيرة جميلة للمستشار؟ وتكتبوا تحتها عبارة محددة مؤثرة؟ أما يمكننا أن نتصور على نحو ما صحافة عاطفية تؤثر على المشاعر؟»

وكان ردها : « أنا لا أفهمكم. لقد ظللتم هنا في المستشارية الأسابيع الطوال تخافون من كل عيل من عيال النازية، فلم يتورع هتلر عن تقديم إنذار نهائي، وإذا بشوشنيج على عكس التوقعات يرفض الإنذار بشجاعة الرجال، ونحن نكتب مقالاً نهلل فيه للقرار، وأنتم لا تعيرونه مجرد نظرة.»

« السبب يتلخص في أنكم تكتبون أن إنذاراً رُفض. جميل جداً. ولكن أي إنذار هذا؟ لماذا نشغل أنفسنا بإنذار الساعة الثانية الذي رفضناه وما من شك في أننا رفضناه إذا كان هتلر قد بعث بإنذار جديد؟ لو أنكم كتبتم في هذا العدد الذي أصدرتموه : شوشنيج رفض عصر اليوم الإنذار النهائي الثاني لكان الخبر جديداً. ولكن هذا الكلام المكتوب لم يعد له معنى؟ فما فائدة الكلام عن شجاعة قرار اتخذ عصر اليوم، إذا كان الأمر يتصل بقرارآخر اتخذ في المساء.»

قال فريدمان هذا الكلام كله بلهجته الڤييناوية التيريزيانية المطمْئنة، مستخدماً تلك اللغة الألمانية الخاصة بالموظفين الرسميين والتي تنطبع بطابع الإنعام والتفضل، وهي اللغة التي كان الخاصّةُ في السلك القضائي يتمسكون باستخدامها، تمسكهم بالزي القيصري. ولكن ماريانه التي اشتد بها الغضب ولم تفلح معها نبرة التهدئة هذه.

«ما هذا؟ أتكون الأخبار التي تباع للناس في الشارع أخباراً كاذبة من أولها إلى آخرها؟ رباه، هل تجردتم من الإحساس؟ إن هذا يا فريدمان يعني بالنسبة إليّ عالـماً ينهدم.لا بد أن أذهب إلى إدارة التحرير في الحال». وما فرغت ماريانه من هذه الكلمات حتى جمعت أشياءها بسرعة: الشنطة والقفاز والقبعة والجريدة وهمت بالانصراف.

فقال لها: «الأفضل لك أن تبقي هنا. ثم إنهم لن يسمحوا لك بالخروج من المستشارية، فكل من يقترب من البوابة في نظرهم معتدٍ.»

فقالت: «عليك في هذه الحالة أن تتصل بهم تليفونياً. هذا أقل ما ينبغي عليك أن تفعله.» ولم تنتظر منه موافقة، بل طلبت الرقم من فورها.

لم تكن تريد أن تحدث الشخص الذي رد عليها من إدارة التحرير، ولكن الشخص الذي كانت تريده لم يجده أحد، على ما يبدو. وانقضت عدة دقائق، دون جدوى، وقال لها السيد أوبرجوجنبرجر العصبي إن رئيس التحريربما يكون في طريقه إلى بريسبورج.

وردت عليه بقولها إنها لا يمكن أن تصدق هذا الكلام، وكانت في كل ما يتصل بالرياضة لا تصدق هذا الرجل الذي يلبس سترة من الزي الشعبي ويصطنع الهمة والتقى والبهجة. ولكنها لم تجد أمامها من سبيل آخر إلا أن تملي على هذا الرجل المتحمس للقومية الألمانية العنوان الرئيسي الجديد:

«هتلر يقدم إنذاراً نهائياً جديداً، ولكن شوشنيج سيرفضه أيضاً».

وسألها أوبرجوجنبرجر : «ماذا تعنين؟ هل نرفع المقال الافتتاحي ونضع بدلاً منه صورة المستشار بحيث تملأ الصفحة؟ في هذا الموقف الذي نحن فيه؟ اسمعي، أنا لا أريد أن أتحمل المسئولية. هل تفهمين ما أعني؟ ولكن إذا كنت متأكدة من أن رئيس التحرير سيعود مرة أخرى، فسأضع كل شيء أمامه على مكتبه.»

وأعادت السماعة وقد بلغ بها الإرهاق كل مبلغ.

وقالت : « انتهيت !»

وقال فريدمان : « هل يعني هذا أنك لا تأتين إلى العشاء معي اليوم؟

ووقف الكلام في حلقها. العالم يغرق وهو يتكلم عن فطيرة الپالتشينكن !

لابد أن أذهب إلى إدارة التحرير. علينا أن نصدر طبعة جديدة. ما الذي سيحدث عندكم، في تقديرك؟

فقال : « لاشيء، لن سيحدث شيء. إننا في ساعة الاحتضار. هذه هي نهاية النمسا. وكل النائمين على آذانهم هنا يرون هذا الرأي. أياً كان الأمر، فليس بيننا من يجد لديه الشجاعة الكافية ليقول هذا الكلام صريحاً عالياً. لم يعد الفيصل في الأمر الآن صورة النمسا التي نرجوها، بل أصبح الفيصل هو الخوف من سفك الدم الألماني ولا شيء غير هذا. قد يحارب الإيطاليون من أجلنا. أو الإنجليز. أما أن نحارب نحن معركتنا.؟ من الذي يريد اليوم أن يخرج على رأس مجموعة من الصيادين التيروليين ليواجه جحافل لا أول لها ولا آخر من الدبابات أو الطائرات المهاجمة الألمانية؟

وأبلغت السكرتيرة السيد الدكتور أن السيد البارون يود أن يراه.

وقال فريدمان : « معذرة. هتلر لم يعد فقط يطلب تأجيل الاستفتاء الشعبي وتشكيل حكومة جديدة يرأسها صاحبنا. الذي تدرب في جراتس فثابر، أعني السيد زايس إنكڤارت ـ

بل يطلب علاوة على ذلك أن يكون ثلثا الوزراء من النازيين وأن يجري تغيير المحافظين النمساويين في ظرف ساعة واحدة. وهكذا ترين أن الأمور كلها لا تسير في مجراها الطبيعي، بل لم يعد هناك أمر يسير في مجراه الطبيعي. ابقي هنا يا ماريانه، إنك هنا أكثر أمنا منك في أي مكان آخر.»

كان الغيظ قد تملكها، فقد مقتت هذه الانهزامية، وقالت إنها لابد ذاهبة إلى إدارة التحرير.

«لماذا؟ هل هو شعور بالواجب؟هل هي بطولة؟ إن عليك أن تحافظي على حياتك، لا أن تحافظي على سلال المهملات في إدارة تحرير الجريدة. أم تُراك مكلفة بمهمة؟ لا. هه. فماذا إذن. لن يغتالوا اليوم في ميدان بالهاوس أحداً بالرصاص كما اغتالوا دولفوس Dollfuß من قبل، بل سيتبعون المراسم، وكأنهم خدم الكبراء يقدمون الطعام بأيد أنيقة تلبس القفازات البيضاء. موضوع مباشر لجريدة ألمانيا الناطقة التي ستكون منذ الغد جريدتنا نحن أيضاً.

فقالت : «لن تكون جريدتي. فلما مرت بالمدخل الخارجي على البواب ردّها الحراس بعنف على الرغم من بطاقتها الصحفية، ورأت عربة مرسيدس ضخمة، أضخم من المألوف، عليها علم الصليب المعقوف يرفرف منيفاً، تخرج متئدة من مبنى الحكومة.

فلما عادت ماريانه إلى إدارة التحرير، كانت العملية قد انتهت بسرعة : كان النازي قد أتوا واحتلوا المكاتب وطردوا من رضخوا للطرد، وضربوا من تصدوا لهم.

وحاولت ماريانه أن تسأل هؤلاء الرجال لماذا بحق الله يسلكون هذا المسلك؟

وظلت دقائق عاجزة عن فهم تلك الأحداث التي كانت تجري وكأنها أحداث بديهية، ولم تعرف ماذا تفعل وسط هذا العنف الغاشم، وما لبثت أن أحست كأن شخصاً ما ضربها من الخلف على أم رأسها، لقد سمعت صوت الضربة ودهشت لأنها لم تؤلمها. ولكنها تبينت أنها فقدت القدرة على التركيز. وإذا كانت قد أغمضت عينيها، فقد رأت قبل ذلك بوضوح حذاء

بوت هائلاً من حوله ذراعين وساقين. ثم اكتشفت زميلها أوبرجوجنبرجر ملقى على الأرض بجوارها، وقد نزف الدم من فمه، ولم تصرخ، لأنها في غمرة الوهن فكرت في أن الصحفي الحقيقي شاهد أولاً وقبل كل شيء آخر، وأن المشاعر كلها أقل أهمية من الوقائع. كان أوبرجوجينبرجر طريح الأرض، فاقد الوعي، أو ميتاً، مهيباً ساكناً، وخطر ببالها خاطر عجيب : إنه في وضعه هذا أكثر لطفاً وقرباً من نفسها.

في هذه الأثناء كان السيد فون شوشنيج بكل ما أوتي من سذاجة يعلن من الصالون الأحمر بمقر المستشارية في ميدان بالهاوس على الشعب النمساوي أنه استقال من منصب المستشارية، وأنه باستقالته هذه يحول دون تطور الأمور إلى سفك الدماء.

كان الميكروفون، كما تصور فريدمان، يبعد أقل من خمس خطوات عن الموضع الذي سقط فيه دولفوس، مستشار النمسا السابق، صريعاً، قبل أربع سنوات أو دونها تحت وابل رصاص أطلقه عليه عيال النازية. هل كان شوشنيج يتعمد نسيان هذه الواقعة؟ هل أصبح يرى أن هؤلاء الألمان قد أصبحوا في هذه الأثناء أهل ثقة في الاتفاق والتعاهد؟ أم هل هو مجرد الخوف؟ الخوف على شخصه الكاثوليكي الهزيل؟

وقال فريدمان في نفسه، إنه لا يزال يتكلم عن الإخلاص والإيمان، وعن أنه قدم احتجاجاً. ولكن هذه الكلام كله كان كالأوپرا الطنانة الموضوعة في علبة من الورق المقوى.

وارتجّت النوافذ العالية محدثة أزيزاً لا تخطئه الأذن، فقدت اقبلت على الشارع من نواح مختلفة طوابير جديدة تسير بالخطوة العسكرية. وتناهى إلى السمع من كل صوب وحدب صوت الخطى العسكرية المتلاحقة والأوامر المتوالية وهي تزداد حدة وقوة.

ودفع اثنان من الحرس لابسي الخوذات فريدمان الممدد على الأرض بعيداً عن باب الشرفة، وألقيا بحكم العمل المناط بهما، ولكن دون أن تتملكهما رغبة كبيرة في التدخل، نظرةً متابعيْن بعض الصبية الذين تسلقوا الشرفة، وربطوا في سور الشرفة المزخرف على أسلوب الباروك راية الصليب المعقوف فأحكموا ربطها.

وادعى هتلر أن الحكومة الاتحادية النمساوية لم تنفذ ما جاء في الإنذار الألماني النهائي في الموعد، فلم تعين زايس إنكڤارت مستشاراً للنمسا، وأصدر في الساعة التاسعة إلا الربع في برلين بعدد تردد طويل الأمر بالزحف في التو واللحظة على النمسا.

أما في ڤيينا فقد ظل شوشنيج في ميدان البالهاوس يحاول بأساليب الإقناع البلاغية أن يقنع الرئيس ميكلاس Miklas بأنه تصرف تصرفاً لا غبار عليه. ولكن رئيس الجمهورية ظل على رأيه في أن تنازل المستشار هو الحماقة الكبرى، ثم ارتكب هو نفسه، وهو الذي عرف حتى ذلك الحين بوضوح البصيرة والتؤدة والحنكة، الخطأ القاصم : فبدلاً من أن يعين مستشاراً مناهضاً لهتلر، عيّن بعد تَدَبُّرٍ أليم، امتثالاً لهتلر زايس إنكڤارت، صاحب الوجه الشمعي، التافه الأنيق، مستشاراً، وكان تقديره، كما قال، أنه بهذا القرار سيتمكن من مطالبة هتلر بإلغاء أمر الزحف على النمسا.

ونجح زايس إنكڤارت بعد لأيٍ في إيقاظ هتلر من النوم، وأبلغه رسالة رئيس الجمهورية، فلم يطل بهتلر التفكير، بل قرر أن أمر الزحف على النمسا لم يعد من الممكن الرجوع فيه.

وكان شوشنيج يقف بجواره، وأدرك فجأة أنهم لن يحفلوا به بعد الآن، فقد نزل عن منصبه الرسمي، ولم يعد من الناحية الشخصية يهم أحداً على نحو خاص.

ورد بانحناءة مَهينة على كلمة الشكر التي ألقاها خلْفُه، ومر به زايس إنكڤارت ونبهه بإشارة من يده إلى الحارسين اللذين قاما على حراسة مدخل القاعة، إلى هذين الرجلين الطويلين اللذين كانا الآن أيضاً يحركان رأسيهما كما كانا يفعلان في الأيام الماضية بدقة صارمة، وبدا عليه في تلك اللحظة أنه كان لا يزال سعيداً بحركاتهما. فلما خرج متجهاً إلى بير السلم غشيه الفزع عندما رأى المدنيين جميعاً قد اتشحوا بوشاح النازية الأحمر القاني بالصليب المعقوف حول العضد، وأنهم حيّوه، هو المستشار السابق، رافعين زراعهم مستقيمة صلبة بالتحية النازية.

ونزل شوشنيج الدرج دون أن ينطق بكلمة.

ووجد البوابة مغلقة. وكان عليه أن ينتظر حتى يفتحوا له. وتناهى إلى سمعه من ناحية الشارع ضجيج مستمر اختلطت فيه أصوات المتظاهرين المتشنجين، وصخب آلات التنبيه تبثه سيارات الأجرة، وسمع من ناحية الشارع الدائري صوت أجراس الترام الذي كانت عرباته تروح وتجيء بإيقاعها المألوف عند البيللاريا Bellaria كأنما كانت تلك الليلة، ليلة الحادي عشر من مارس ليلة عادية مثل كل الليالي الأخرى. وأخيراً فتحوا له البوابة. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بدقائق قليلة عندما توارى شوشنيج بعربته دون أن يحفل به أحد.

وقال فريدمان في نفسه إن زايس إنكفارت الماهر سيعمل شخصياً على إقصاء المستشار السابق إلى أبعد مكان ممكن، ولكنه سيعود يقيناً بعد ذلك. ولهذا فإن أفضل شيء يفعله الإنسان هو أن يظل في مكان بارز مستعداً لكل الظروف. وأخرج الصليب المعقوف الذي كان قد جهزه من قبل، وثبته في قلابة سترته، واتجه إلى الدرج فصعده متئداً.

ميلـو دور
Milo Dor

موتى في إجازة
Tote auf Urlaub

ڤيينا في ١٢ أبريل ١٩٤٥

عندما دلف إلى بوابة البيت الكبيرة في شارع زنجرشتراسه، كان قد أفاق إلى حد ما من سكره. لقد أتى لزيارة : وكان من الضروري أن يكون على وعيٍ من أمره. كان منظر البوابة والحوش من ورائها شبيهاً بمنظر حظيرة الخنازير، لما غصت به من قذارات ونفايات وبقايا أطعمة فاسدة تتصاعد منها روائح منفرة تكاد تخنق الإنسان خنقاً ؛ وكان الناظر إلى المكان يتبين بوضوح أن جيشين تتابعا على الإقامة هنا. ونعم بالحياة في هذه البيئة كلب ضال وقطة مسلولة. كانت القطة تقبع فوق كومة من المعلبات لم تفرغ إلى نصفها، وتأكل الطعام الفاسد. وكانت عيناها تتأججان بما يشبه الحمى. أما الكلب فنام على خرقة مخضبة بالدم، وكانت بعض العصافير تتنطط بين روث الخيل الدافيء الذي لم يبرد بعد. وسأل ملادن Mladen امرأة عجوز عن مسكن صديقة رانكا Ranka وتسورا Zora.

فقالت : « كلهم في مخبأ البدروم. لم يعد أحد يأمن على نفسه في شقته بالأدوارالعلوية. » وفي اللحظة نفسها خرج راده Rade من البدروم وأسرع نحو ملادن. كان يقف على السلم فسمع صوت ملادن وعرفه. وحياه كما يحيي المرء إنساناً بُعث من بين الموتى، فعانقه وصافحه بيد ارتعدت من فرط الفرح والانفعال، وربما لأسباب أخرى.

وسأل راده ملادن : « ماذا حدث لك؟ »، ولكنه لم يلح ربما لأنه أدرك أن سؤاله لم يكن لائقاً. ثم قال : « لا بأس. المهم أنك هنا ».

كانت رانكا وتسارا قد خرجتا مندفعتين أيضاً، وعانقت رانكا ملادن وطبعت قبلة على فمه. وكان ملادن يعرف أنها منذ لقائهما ذات مساء عند راده تكن له من الحب أكثر من الود المألوف بين الزملاء، وأنها كانت تنتظر فرصة مناسبة لكي تصارحه بمشاعرها. وكانت فرحة اللقاء أفضل فرصة. وإذا كان ملادن من قبل يصد تلميحاتها، ويحفظ الكلفة، فقد سلم عليها في هذه المرة كما يسلم الزوج على زوجته عندما يلقاها بعد طول فراق.

وقالت : « تعال. هيا بنا ننزل. إننا نعيش الآن في المخبأ كالغجر سواء بسواء ». وكانت نبرة عبارتها تحمل رجاء منها إليه بألا يأخذ عليها اضطراب ثيابها : فقد لبست بنطلوناً وجاكتة منفوخة، ولفت رأسها بمنديل كما فعلت كل النساء آنذاك.

كانت الفَسَحة الأولى في البدروم تضم نحو عشرين سريراً، وكان بعض الأولاد يلعبون الاستغماية في ضوء الشمعة الخافت، ويجدون في السراير الكثيرة أماكن يختبئون فيها. ورأى ملادن امرأة تهيء الطعام البارد لأهلها الذين تحلقوا حولها فوق السراير متلهفين. وهمست تسورا إلى ملادن : « إننا نحرص جميعاً على البقاء دائماً معاً حتى لا ينال منا الروس »، وكأنها خفضت صوتها خوفاً من أن يسمعها أحد. ولاحظ ملادن أن كل المقيمين في البدروم يتكلمون همساً. ونظر إليهم ملادن وهم يطامنون رءوسهم في ضوء الشمعة الخافت إذ

يجلسون على السراير الحديدية أو وهم يسيرون وجلين في ممرات البدروم، فتذكر المسيحيين الأول أيام الاضطهاد عندما كانت المقابر تتخذ في سراديب تحت الأرض، وكان قد رآها طفلاً في فيلم صامت. لعله كان فيلم «كوفاديس».

وقال راده : « لنتقدم إلى مكان نستطيع أن نتكلم فيه معاً على راحتنا »، ودفع ملادن في الممر إلى حجرة صغيرة في البدروم. ووضعت رانكا الشمعة التي أحضرتها معاً على الأريكة في الركن. وجلسا، فإذا هما لا يعرفان ماذا يقولان. لقد رأى ملادن الواقع وقد تجرد من الواقعية، كل الواقع الذي دفعوا به إليه في عنف بالغ عندما أخرجوه من السجن. وفجأة قال : « كنت أريد أولاً وقبل كل شيء آخر أن أشكركم من كل قلبي على كل ما فعلتموه من أجلي ». لم يحدث له من قبل أن أحس بأن صوته غريب عليه كما أحس في هذه المرة. وظن أنالذي يتكلم شخصٌ آخر غيره، شخصٌ عجز عن السيطرة على كلماته.

وسألته رانكا : « علام تشكرنا؟» وكانت في هذه الأثناء قد حلت المنديل من حول رأسها، فانسدل شعرها الطويل على كتفيها يتلألأ ناعماً كحيلاً. ولكم ود ملادن أن يمد إليه يده ليتأكد من أنهما موجودان. ولكنه بدلاً من ذلك قال : « أشكركم على غسل الملابس. وعلى الطرود التي أرسلتموها إليّ. وعلى الاهتمام والصداقة والحب... »

«دع عنك هذه العبارات الطنانة. لقد كان هذا كله بديهياً. المهم أن المحنة مرت ».

وكانوا يسمعون طلقات المدافع تتناهى إليهم من الخارج مثل حركة قطار بعيد بيئز بصوت مكتوم.

وقالت تسورا : «ما أجمل أن تكون الآن هنا. لقد كنا في خوف شديد »، وبدت كعصفور استبد به الفزع.

«خوف؟ مم؟» وأحس ملادن كأنما وجه السؤال إلى نفسه. وتظاهر برباطة الجأش. لم يكن بحاجة إلى إلقاء السؤال، لأنه كان يعرف الإجابة حق المعرفة. لقد أحس بهذا الخوف من قبل، إنه الخوف من المصادفات المقيتة التي تنجم عن تصرفات آلية تنطلق من عقالها فلاترعى إلاً ولا ذمة ولا تهتم بعدل أو ظلم.

وقال راده : « إنها خائفة لأن رأت الكثير من الفظائع - أو على الأحرى سمعت بها. قالوا إنهم [الروس] وقعوا في شارع أناجاسّه في بدروم صالة "فيمينا" على خمسين راقصة فأطلقوا لأنفسهم العنان معهن طوال الليل، فلما أصبح الصباح دسوا لاثنتين منهن زجاجات مكسورة في بطونهن. »

وقال ملادن : «لقد سمعت بهذا»، ودهش كيف ينتشر هذا الخبر بسرعة البرق في ربوع ڤيينا كلها، وأضاف : « ولكن الروس لا يدسون زجاجات مكسورة في بطون كل من يصادفون من نساء »

ورد راده : « لا، هذا ما لا يفعلونه »، ولم يدرك مقصد ملادن بالضبط ؛ ولكنه لم يشأ أن يجرحه بنقد أو اعتراض.

وقال ملادن موجهاً الكلام إلى تسورا ليطمئنها : « لا تخافي فأنت لست راقصة ». ولكن تسورا شرعت تبكي وتنشج.

وقال راده موضِّحاً : « ولكنهم اغتصبوا كل الراهبات في الدير هنا ».

فرد ملادن : «فسعدت الراهبات »، ولكنه لم يفهم هو نفسه لماذا قال هذه الكلمات. فلم يشأ من قريب أو بعيد أن يدافع عن الروس. ولكنه كان يحس في نفسه بشيءٍ يمنعه من أن يسوي في السب بين الروس وغيرهم.

واستأنف راده الحديث : «إنهم لا يتورعون عن اغتصاب النساء الطاعنات في السن ».

«نعم، أعرف هذا. وأنا أعرف فضل هذه النساء العجائز عليّ، فهن قد دفعن ثمن اطلاق سراحي ».

ولم يصدق أحد أن ملادن كان يحمل هذه الكلمات على محمل الجد، حتى هو نفسه لم يكن يعرف الرأي الذي ينبغي أن يراه فيها. لم يكن يحس بالمسئولية على الإطلاق، لأنه كان قد أصبح أداة في يد التسلط الأجنبي. ولقد غشيته في لحظة من اللحظات الرغبة في أن ينضم إلى التسلط الأجنبي حتي يتصدى به لتسلط آخر يتسم بالحدة والآلية والوحشية، ليقتنع بأن الواقع له وجه من لحم ودم. أما في اللحظة التالية فلم تعد به رغبة في شيء.

وأقبلت سيلفيا، زوجة راده، وإرنا، الصديقة التي أقاموا جميعاً لديها، إلى البدروم مندفعتين تلهثان. كانتا قد ذهبتا إلى الشقة لإحضار بعض الطعام، فرأتا ما روعهما. « إنهم قادمون ! إنهم قادمون ! أطفئوا الشمعة !» ونفخ راده الشمعة، فانطفأت. وسمعوا في الظلام الدامس الخطى الثقيلة تدب على الدرج مدوية.

وقال مالدن في نفسه : ماذا لو جاء صاحبنا الروسي مرة أخرى؟ ستكون نهاية مضحكة لقصة حياة جميلة أو نهاية جميلة لقصة حياة مضحكة. وتبين راضياً أنه في هذه المرة لم يكن يشعر بخوف، وأن الأمور كلها كانت تستوي في نظره.« إنهم يدّعون أنهم يفتشون عن أسلحة مخبأة – وهم في الحقيقة لا يأتون إلا من أجل النساء »، قالت سيلفيا هذه العبارة وكأنما أرادت بها أن تعرّف الزائر بما لا يعرف. وأحس ملادن بيد رانكا تبحث عن يده فسحبها وقال : «الأفضل أن نشعل الشمعة كما كانت، حتى لا يظنوا أننا فعلاً نخبيء شيئاً. »

وسارع راده فأشعل الشمعة. وجلس الجميع جامدين صامتين كأنما كانوا في سهرة على ميت لا يحبونه.

وأقبلت المرأة التي أعدت منذ قليل الطعام لأهلها وقالت موجهة كلامها إلى راده : «هناك ثلاثة من الروس، يتكلمون بلا انقطاع، ولا يريدون الانصراف. ونحن لا نفهم كلامهم. تعال أرجوك، فأنت تستطيع التفاهم معهم. »

وخرج ملادن مع راده، وتبعتهما رانكا.

كان ثلاثة من الجنود يقفون وسط المدخل وينهالون بالكلام على رجل استبدت به الحيرة.

وقال ملادن بالروسية : « مهما تكلمتم فلن يفهم ».

ولم يبد على الجنود الدهشة عندما كلمهم بلغتهم.

وقال أقصر الجنود قامة : « إننا لم ننم خمس ليال نومة مريحة. الرائد توڤاريش يريد سريراً» وأشار الجندي إلى الضابط الفارع الذي وقف بالمدخل.

وترجم ملادن : « إنهم يريدون أن يناموا ».

وقالت رانكا : «ولِمَ لا؟ لندعهم يناموا في شقة إرنا. وعسى ألا يتلفوا شيئاً إذا نحن أدخلناهم بمحض إرادتنا ». ووافقها راده.

وصاح الضابط المتعب بألمانية مكسرة : « لن نتلف شيئاً. سننام ! ». إنه إذن يفهم الألمانية

على ما يبدو. فلماذا أرسل جنوده الذين لا يستطيعون التفاهم؟

وقالت رانكا هامسة : « يبدو بالفعل أنهم لا يريدون سوى النوم. فالتعب باد عليهم. » وذهبت فأحضرت إرنا.

فلما صعد أربعتهم ليدخلوا الروس الشقة، لاحظوا أن جندياً آخر كان ينتظر في الخارج. كان وجهه عريضاً شوهه الجدري، وكانت عيناه ضيقتين. فلما بلغوا الشقة في الدور الأول قدم الضابط نفسه.

« أنا الرائد پليوسكين »

وذكر ملادن وراده اسميهما وقدما رانكا وإرنا على أنهما زوجتاهما.

« وهؤلاء زملاء من دبابتي »

لم يكن عمر الرائد على الأرجح يجاوز الخامسة والعشرين. وأخذت إرنا الأربعة الآخرين لتريهم السراير، فجالوا بنظرهم متلهفين في الحجرة من حولهم، وكانوا قد وضعوا أسلحتهم الأوتوماتيكية في ركن بالمطبخ.

« هل تسمحون أن أقدم إليكم مقابل صنيعكم تساكوسكا؟ »

وبينما جلسوا إلى مائدة المطبخ يأكلون البولوبيف البارد والخبز والجبن، أخذ الرائد يقلب في كتاب مهلهل لتعليم اللغة الألمانية أخرجه من حقيبة الخرائط، ليقول اعتماداً عليه كلمة شكر لربة البيت. فلما حكى ملادن قصته مع الجستابو، خفف الرائد من أسلوبه الجاف الذي اصطنعه في البداية، وإن لم يبد عليه تأثر أو حماس.

ولكن أحد الجنود، وكان يلبس نظارة ويبدو كتلاميذ الثانوية العامة، بدا أكثر تحمساً. وما رد ملادن على سؤاله عن مهنته بقوله - كذباً - إنه ممثل، حتى تأكد حماس لابس النظارة.

« فنان! فنحن إذن زميلان. أنا كذلك فنان. رسام. » وأراد أن يدعم كلامه بالدليل فأخرج قلم رصاص وورقة مطبقة مهلهلة من الحقيبة ورسم رأس ستالين. كان الرسم يشبه تلك الرسوم السريعة التي يخطها نفرٌ من الهواة أرسلوا شعورهم ليضفوا على أنفسهم سمات الفنانين، ويبيعونها إلى رواد المقاهي في ظاهر المدينة مقابل مشروب. وكان قصده أن يجعل الرسم يعبر في مهابة عن شخصية ستالين. ولكن الرسم جاء مضحكاً: فقد حرّف لابس النظارة ابتسامة رجل الاتحاد السوفييتي الأول المعروفة الخبيثة الغامضة تحريفاً شديداً، ومال بخط الفك عن موضعه، فإذا بالوجه كله يبدو منفوخاً ممتقعاً.

وأعجب لابس النظارة برسمه إعجاباً لا حد له : «ذلك هو ستالين، جسماً وروحاً، هه؟»

وأومأ ملادن برأسه بما يعني الموافقة، وقال بالروسية « خاراشو » أي جميل. وفي اللحظة نفسها سأل نفسه عما يعمله هنا. لقد خرج من السجن منذ بضعة أيام، لأن الإس إس الألمان لم يستطيعوا إزاء تقدم الروس السريع أن ينقلوا المعتقلين كما كانوا يرجون. وعاد إلى البيت، ففرحت به ربة البيت وتلقته كأنه ابن لها. ولقد أتى الآن ليقوم بزيارة هامة، لم يكن هدفه طلب يد رانكا، وإنما قال للجنود إنها زوجته حتى يحميها. ولم تكن صورة ستالين تهمه في قليل أو كثير، ولكنه امتدحها ليسعد لابس النظارة، ولقد سعد بالفعل. كذلك سعدت رانكا. ورمقها ملادن بنظرة وهي ترفع المائدة وتبين أن وجهها يضيء ببهجة باطنية.

أما إرنا فكانت مشغولة برفع الملاءات القديمة من فوق السراير، لتفرش ملاءات جديدة، وبدا على الجنود التعب الشديد. أم هل كان هذا الذي بدا عليهم هو الملل، لأنهم لم يعرفوا موضوعاً يتحدثوا فيه مع مضيفيهم؟ وقطع راده بأصابعه لقمة خبز وحملق فيها مشغول البال. كان القتال العنيف مستمراً في الخارج. لا شك في أن الإس إس لم يستطيعوا الصمود طويلاً. كانت الأمور من هذه الناحية تسير سيراً مُرضياً. وتجشأ الرائد وقال بعد أن قلب في كتاب تعليم اللغة الألمانية بلغة مكسرة : « بودابست مدينة جميلة أيضاً، جميلة جداً، ولكن الكثير تهدم فيها. » ووجد راده الجندي الجالس بجواره يظهره على الميداليات التي حصل عليها إبان تحرير بودابست. وسأله راده بدافع المجاملة عن ميداليات أخرى. ولكن الحديث تعثر ولم يستمر. وهنا خطر ببال الرائد أن يشرب الصحبة شيئاً، وكلف الجندي القصير ذا الوجه المشوه بالجدري والعينين الضيقتين بأن يحضر براندي من الدبابة، وأمر ملادن بأن يساعده. وابتسم الرائد ابتسامة ذكّرت ملادن بابتسامة بوجدان Bogdan، وإن لم تكن عامرة بالروح مثلها.

وفي الطريق سأل ملادن الجندي القصير عن بلده.

فأجاب «طشقند»، ورفع بندقيته الأوتوماتيكية على كتفه. فقال له ملادن : « لقد قرأت كتاباً عنوانه «طشقند مدينة الخبز الوفير » تأليف ألكسندر نيڤيروف. كتاب جيد. »

فقال الجندي : « لا أعرفه. طشقند مدينة كبيرة. ليست مثل ڤيينا، ولكنها كبيرة جداً على أية حال. » وأراد ملادن أن يقول للجندي القصير إنه ربما لا يعرف الكاتب لأنه مات قبل أن يولد، ولكن المحادثة كلها بدت له سخيفة فآثر الصمت. ولم يبد على الآخر أنه ممن يحبون الكلام ويتحرونه، وإنما نظر باهتمام إلى كنيسة شتيفاندوم وهي تحترق ومن أمامها وحدة من المدفعية الروسية الخفيفة تحتل الموقع. وظهر أربعة من رجال الإسعاف العسكري الروسي يحملون جريحين ويعبرون بهما الخندق، وكان أحد الجريحيْن يحاول دون جدوى أن يسد بيديه جرحاً ضخماً في بطنه ينزف منه الدم دون توقف. وكانت الشوارع المحيطة في وسط المدينة تغص بالجنود، منهم من كانوا ينامون في بوابات البيوت التي سلمت من الهدم. وهبت على ملادن رائحة حمضية كرائحة البول عندما بلغا الدبابة المهجورة التي كانت تقف في شارع ڤايبورججاسّه. لقد سار الجندي القصير طريقاً مطولاً ولف حول الخندق، بدلاً من الطريق المباشر القصير من خلال شارع ليلييبنجاسّه، فبدلاً من أن يقطعوا المسافة في ثلاث دقائق قطعوها في نحو عشر دقائق. ولم يشغل ملادن باله بالموضوع، لأنه افترض أن الجندي سلك الطريق الذي عرفه ؛ فلما شرح له عند العودة ميزات الطريق القصر أبى أن يقتنع. وأعطى ملادن ثلاث زجاجات، ودس هو زجاجة تحت إبطه حيث لا بندقية، وأمر ملادن بأن يتبعه. ولكم ود ملادن أن يشج رأسه بالزجاجة ! وكانت الرائحة الحمضية تلاحقهما في كل مكان. ووقف الجندي ذو العينين الضيقتين عند الخندق وفتح زجاجته وعب منها ما شاء، ثم دفع بها إلى ملادن، فتجرع منها بشهوة عارمة ولم يردها إليه إلا بعد أن فرغ نصفها. كانت الخمر نوعاً من البراندي المحلي استولى عليه الروس على الأرجح من أحد المحلات.

وقبيل الوصول إلى بوابة البيت الذي تقيم فيه إرنا، لاحظا كهلاً مدنياً مخموراً تبعهما، والأرجح أنه رأى زجاجات البراندي معهما فأراد أن ينضم إلى الصحبة، واستند إلى عمود إشارات مرور معوج، ووجه إلى الجندي بضع كلمات بالتشيكية، ونظر إليه عندما التفت نحوه بوجه ارتسم عليه الخضوع والتوسل والخنوع، وارتد الجندي ذو العينين الضيقتين بضع خطوات دون أن ينبس ببنت شفه، وأعطى المخمور الزجاجة التي فرغت إلى نصفها. ثم صعدا الدرج، فإذا بباب الشقة قد أغلقت، واضطر القصير إلى أن يقرع الباب وأن يرفع عقيرته باللعنات حتى فتحوا الباب. كان لابس النظارة هو الذي فتح. فلما رأى ملادن أمامه غشاه شيء من الارتباك. ورأى ملادن راده في المطبخ، يقعد على الأرض تحت النافذة، وقد بدت عليه المذلة أحط المذلة، كان أشبه شيء بالكلب الذي انهرأ بدنه ضرباً وركلاً. في هذه اللحظة اكتشف ملادن لأول مرة أن راده اتخذ شارباً. كان شاربه أفتح لوناً من شعر رأسه، وكان خفيفاً غاية الخفة، زاد من طابع المذلة والضعة الذي ارتسم عليه. ما هذا الخوف الذي استبد به؟ هل خاف من المسدس الساقية الكبير الذي كان موضوعاً فوق المنضدة والذي يبدو أنه كان يخص لابس النظارة؟

وفي هذه اللحظة انفتح باب الحجرة، وخرج منه الرائد متجهاً إلى المطبخ، وفي الوقت القصير الذي بقي فيه الباب موارباً، نظر ملادن إلى داخل الحجرة فرأى رانكا تقف بجانب الكومودينو شاحبة تقفل ما انفتح من ملابسها، ورأى في السرير واحداً من الجنود أحمر الشعر، ولمح ساقي إرنا عاريتين. وأدرك ملادن ما حدث في ومضة كأنها صاعقة ارتجف لها بدنه. وفكر في أن يرتمي على المسدس الموضوع على المنضدة، ولكن ماسورة البندقية الآلية الصلبة التي ثبتها ذو العينين الضيقتين في ظهره اضطرته إلى أن يظل واقفاً كالمنوم مغناطيسياً. وأخذ منه الرائد في هدوء الزجاجات التي كان يمسكها بيديه، وفتح إحداها وقدمها إليه.

« خيرٌ لك أن تشرب ! »

فرمى ملادن الزجاجة فوق الفرن، فتحطمت محدثة صلصلة، وملأت رائحة البراندي الحادة المطبخ . ورفع الرائد يده كأنما أراد أن يضرب ملادن، ولكنه غير رأيه، وفكّر فكرة أفضل، وقال :

« پراڤيلنو، أي حسناً. لقد كانت الزجاجة زجاجتك، ولك أن تفعل بها ما يحلو لك . أما المسدس الذي وجدناه في مسكنك » - وأشار إلى مسدس لابس النظارة - « فلن أعدمك بسببه. »

وانفتح الباب مرة أخرى، وأتت رانكا تجر أذيالها. ومن خلفها ظهر الجندي الأحمر الشعر. ويبدو أن الجندي الخامس انصرف بعد أن نال مأربه. لم يبق إلا ذو العينين الضيقتين . فأخذ منه الرائد البندقية الآلية، وأشار إليه أن الدور عليه الآن : فلم يكن من مبدئه أن يظلم أحداً من رجاله. وجرى ذو العينين الضيقتين إلى الحجرة سعيداً متلهفاً... حتى إنه نسي أن يغلق الباب من خلفه. وتملك ملادن إحساس عنيف بالقرف ولكنه لم يستطع أن يتقيأ. وجلست رانكا كسيرة على الكرسي، ووضعت على حجرها يديها اللتين لم يمنعا عنها شيئاً. ولم يجروء ملادن على النظر إلى عينيها. وتأوه راده كما تأوه عندما ضربوه. وحملق ملادن في الرسم الذي طرزت به ستارة النافذة : كان يمثل بلياتشو يعزف الجيتار ليستعطف قلب كولومبينه القاسي وقد صدت عنه وأولته ظهرها .

كان الجنود في هذه الأثناء قد انصرفوا، لم يبق ذو العينين الضيقتين في الحجرة إلا قليلاً، ولم يأخذ لابس النظارة صورة ستالين معه بل نسيها على المنضدة . وجاءت إرنا إلى المطبخ، وأرسلت نظرة خاوية إلى المنضدة، وأصلحت شعرها بحركات آلية.

كانت شفتاها ووجنتها اليسرى متورمة فيها شيء من أثر عض.

وحملق ملادن في راده بشاربه الخفيف وكأنما أراد أن يقول له مستنكراً : لم يبق إلا أن نغتصبهن نحن أيضاً . فقال راده متأوهاً : « لا تحملق فيّ هكذا. ماذا كنت تفعل لو كنت في مكاني؟ لقد أطلقوا الرصاص وهددوني. وما كانوا يتورعون عن قتلنا جميعاً بكل بساطة، لو... انظر » وأشار راده إلى ثلاثة ثقوب أحدثتها طلقات في الحائط والسقف. «ما كان أحد سيخف إلينا، ويمد يد العون. إنهم يطلقون النار في كل صوب وحدب. قل. تكلم. هل لوكنت في مكاني كنت تتصرف على نحو آخر؟ »

ولم يرد ملادن، فقد اتضح له، أنه لو كان في مكان راده لفعل ما فعله، أي لما فعل شيئاً. حدث ما حدث طبقاً لخطة محكمة التدبير والإعداد لا يمكن أن تكون قد تفتقت إلا عن مخ تلميذ ثانوي مشاغب شغف بشيء من أدب المغامرات ولم يهضمه إلا نصفاً. وتألم ملادن إذ شعر بعجزه . أرأيتَ إلى الذين أذلوه ووسخوه وبصقوا عليه على نحو مهين مشين ولم يستطع أن يفعل شيئاً ! وعلى الرغم أنه كف منذ وقت طويل عن الإيمان بقداسة الجيش الأحمر، فقد شعر بأن الخيانة لم تنل منه إلا الآن.

وخرجوا من الشقة دون أن يلتفتوا وراءهم. فلما بلغوا البدروم تصنعت سيلڤيا السذاجة وقالت : « لقد طال غيابكم. ماذا كنتم تفعلون؟ لقد خفت عليكم أن يكون شيئاً حدث لكم»

فأرسل إليها راده نظرة شلت لسانها على الفور. وقرروا بالإجماع أن ينتقلوا للإقامة عند ملادن، ولم يسألوه إذا كان موافقاً، وكان يقف مجتنباً كحيوان جريح، يترك الأمور تسير مسارها دون أن يعبأ بها.

وساروا صامتين لم يقل أحد منهم كلمة حتى وصلوا إلى الشارع الدائري أو"الحزام"، فلما انتهوا إلى شارع هوتيلدورفر Hütteldorfer وجدوا جمعاً محتشداً سد الطريق، فقد احتشد الناس أمام نافذة عرض محطمة في محل منسوجات كبير، وهللوا وشجعوا عدداً من الرجال كانوا يحملون بالات كبيرة من القماش من المحل ويلقونها في الشارع. فيتقاسمها الناس سريعاً. كان كل واحد يتلقف أقرب بالة إليه دون أن ينظر إلى نوعية أو لون، ثم يسرع بالكنز

المنهوب إلى بيته. وهذه امرأة نحيفة منكوشة الشعرعجزت عن الحركة، فقد حملت ثلاث بالات، تجاوزت قدرتها على ما يبدو، فأعطت ملادن الذي تصادف مروره بجانبها بالة. فوقف في مكانه متسمراً، ونظر إلى القماش نظرة نائم صحا بغتة، ورماه.

وصاحت المرأة فيه بعد أن استأنف سيره : « هذا الغبي ! أهديه بالة من أجمل قماش تكفي خمس بدل على الأقل، فيرميها ! »، وانحنت على الأرض لتلتقط البالة. فوقعت منها البالتان الأخريان، وكان عليها أن تبدأ من البداية في تجميع البالات وصفّها.

وشرع ملادن يسب ويلعن. ولما كان قد عجز عن الاستمرار في المسير فقد قعد على الأرض واهناً، حائراً. ونظر الآخرون إليه مدهوشين، كأنهم لم يفهموا السبب فيما تملكه من يأس بلا حدود، لم يعرف كلمات أخرى يعبر بها عنه سوى بعض اللعنات.

وأمضى بقية ساعات العصر في حوش البيت الذي كان يقيم فيه، وكان بيتاً كبيراً يضم عشرات الشقق. ورأى الأولاد يلعبون في الحوش كأن شيئاً لم يحدث، والنساء ينشرن الغسيل ليجف، ولم يشعر ملادن برغبة في الذهاب إلى شقته، ربما لأنه أحس بأنه فضلة، زيادة فوق العدد . لقد تعرض لأفظع عار في حياته فاشتدت حاجته إلى سكون يخلو فيه إلى نفسه ليرى أين رأسه وأين رجلاه. وهذا هو الجيش الأحمر الذي حرره من أيدى الجستابو قد أذله اليوم أكثر مما أذلوه. كانت هذه الخبرة ضرورية لكي تعرف عن بينة ما لم تكن تعلم، وترى حقيقة هؤلاء الذين قدمت رأسك الغبي إليهم. أنا لم أقدم رأسي إلى أحد، ولكنني عارضت بها شخصاً واحداً، شخصاً بعينه، وكنت على حق.

أَلُويِسْ فوجل

Alois Vogel

دائماً أبداً من جديد

مشدود

الوتر

إلى أن

ينكسر

القوس مرة

جذاذات

تَتَسَنَّه

في عفن

الزمن

لبن مسكوب

بقعة دكناء

دائماً في حركة

أزواج من الأجنحة

تتلألأ

هذا اليوم دون سواه يوم

أرجل مختلجة

قرون استشعار

على حَجَر

السنوات الشمسية

طائر واق يصيح

مجداف يصفق

دائرة تلو دائرة

ترسم

الطريق نحو النهر

بين أفخاذ النخيل

الشذية

يهبط مقدم السفينة المزدان

أي إيزيس

احفظي القارب

في الطريق إلى البحر

تدق أمواج على جذع السفينة

أهازيج حتحور

يا شراع أمانينا

العريض

فوق صاري القارب المتين

هل تدفع بنا

ضد التيار

مسطرة تقود

طباق رمال تجول

خلال الحياة

على الدفة العين

تغوص في التيار

في أبيدوس ينتظر

دغل من السماق

نحن قادمون يا أوزيريس .

شـــد

رباط

الصندل

الطريق

عبر الكثبان الرملية

طويل

ما من طائر يتبع

الإله وحده يغني

أمام الباب

المتجه إلى الخلود

عروق أوراق الشجر

بينها تراب

يهب

على محيا

الإله الأسمر

جرانيت أسود

درقة جعران

موضوعة أمامه

غيره

لم يأت أحد .

فريدريكه مايروكر

Friederike Mayröcker

عصر في عمر الإنسان

من النوم

فجأة فزعت في الساعة الخامسة

وقد أرقني لومي لنفسي وخوفي

من أن يكون الوقت قد فات

لأسأل أمي العجوز

تفصيلاً عن شواهد

زماني المبكر -

هي الشاهدة الأخيرة

على ما قبل تاريخ

ظل مظلماً أمام عيني .

ثلاثية في ٢١ فبراير ١٩٧٨

الموتى الناعمون لا يفتأون يبزغون

من زهرة وشجرة وجُنْبَة وغابة /عما قريب

ظلي تلقيه شجرة ليلاج .

صباح من شهر يونية في نافذة مفتوحة

في نسمة من الريح غربية حقول الزهور تلوّح كالمراوح حول الجبهة

سفينة بيضاء تقف لحظة ساكنة فول المرتفع الأزرق

في الأفق . هنا رائحة مطر و شاطيء استحمام وخبز طازج، نبات ألمانيا :

من نسمتها ونفثتها . أما أني في الدموع رأيت النّمر في مَلَك

الثريات السماوية، إلى أن شُلّت جفوني

في وجهي الذي اجتاحته العاصفة، في مدار العالم المجموع (الدوامة الهبوب)

عين الكتكوت الأعمى يحملق فيّ من المرآة -

لوحة تنافي الزمن -

يبدو أن العام سيتقاعس في مهابة وروعة .

مناورة فائقة الجمال والزرقة

زنبقات ترسم على الصدر

في الشّعر مراوح من أشجار الزيزفون،

من ثمار كروية شمال أفريقية

تقفز في الريح البراق

فتراق على الأرض من فرع شَعر

فتان أو عبق أو خصلة شَعر هولدرلين شاباً

أو يطلع كلب صغير اسفنجي الهيئة

في التاكسي الذي طلبوه

أو أحذية تنس موضوعة لتجف

في الشمس عند النافذة المفتوحة

أو يرقد أحدهم ممداً

بأذنين كالشمع على أريكة في ظلال شجرة

تعد دقات القلب

للقديسة كاترينا السيينية

بعصا الزنبق أمام العينين الغاضتين

البيضاوين

أحياناً عندما أتحرك حركات عارضة دون قصد

تمس يدي يدك ظهر يدك

أو يتكيء جسمي المدسوس في ثياب، دون علم،

لحظة على جسمك في ثياب

هذه الحركات البالغة الصغر التي توشك أن تكون نباتية

نظرتك المائلة، وعينك التي تجول في الفراغ عمداً

كلمات سؤالك الذي انقطع في بدايته أين تذهب في الصيف

ماذا تقرأ الآن

تتغلغل فيّ حتى تنفذ في قلبي

وفي حلقي كالسكين الحلوة

وأجفٌ كبئرٍ في صيف حار .

ربيع في رماد

أيّ ذكرى عن نغمات نفير الصيد

قرون وعول عند أسوار رطبة عتيقة

نظرة من نافذة حجرة في نُزُلٍ باردة مهملة

على غابة أو أشجار متفرقة من تنوب

ميت ولكنها تسعد الإنسان : حنين حزين إلى هذا

المكان (قرب المدينة الكبيرة)، أتسلق فوق درجٍ خشبي وعر تكسوه الطحالب

- لماذا أسأل نفسي اليوم بالذات في هذا اليوم -

المنبيء بيوم ربيعي مستعر بزهور توليب حمراء -

الرابع والعشرين من أبريل صورة الذكرى هذه ؟

أي نسيج من العين : جفن حلوٌ من ماض يلحق بي

عنيفاً، بينما الأرضية في بيت غارق في الشمس

تغص بالنجوم البيضاء، اللبن المسكوب

أو عصارة الزهور -

«هكذا ينبغي تغطية حصى البان »

شبيه

الكلب

اللولو

الأبيض على

قاعدة الشباك ؛ وأنا، آحيط رقبته

بقبعة والدي، التي

تتدلى على وجهي ؛ بجانبنا

الجدة في ثوبها

الأزرق والأبيض

ذي الكشاكيش ، تبتسم –

عندما يشعل أبي شعلة المغنسيوم ننتفض

جميعاً ؛ دفنوا

جميعاً، أما أنا

فأعيش.

إرنستياندل

ernst jandl

قرب المساء

الأسماء كثيرة أكثر

من أن أستطيع أن آعيها

يوم الأعمال الطيبة

ينتهي أخيراً

أياد كثيرة تتحرك

عند إغلاق الأسواق

مواضع مبتلة على بلاط الطريق

ورق ممزق يتطاير في الريح

سادة يلبسون بدل اسموكنج

طهاة كثيرون مشغولون في التقليب

يوسخن بعض الثنيات، يرفعن الصدر

السيدات يعشن في انتظارالنهاية

الحذاء يحوم . السيارة تندفع

إلى المكان الاحتفالي

أنت تقف وتشاهد

ظاهرتان

سأظهر لك

كما دائماً لك ظهرت

وستبكين

لأنني قضيت نحبي

وستظهرين لي

كما دائماً لي ظهرتِ

وسأبكي

لأنه لم يعد بيننا

شيء يقال

عملاق وجبل

منحنياً يقف

العملاق أمام الجبل

ولا يعرف

من أين أتى الاحترام

الذي يكنه للجبل

قصيدة رمادية

رمادي

رمادي مثل الرمادي

كل شيء رمادي نوعاً ما

رمادي فقط

كل شيء رمادي فقط

ليس فقط ولكن رمادي

رمادي في رمادي في رمادي في رمادي

وليس حزيناً على الإطلاق

ريش غبار صغير

في كل مكان على الأرض

قريباً تتجمعون

في طائر تراب صغير

وتطيرون إلى داخل فمي

وتنتفضون فرحين

في حلقي

النبأ

الآن أحضرتُ

لنا نحن جميعاً

طعاماً

ومن هم

نحن جميعاً

إنهم أنا -

قلق خفيض

في أيام هادئة

جلوس وتساؤل :

هل تسير الأمور دائماً على هذا المنوال؟

هل تسير الأمور دائماً على هذا المنوال؟

هل تسير الأمور دائماً على هذا المنوال؟

هل تسير الأمور دائماً على هذا المنوال؟

هل تسير الأمور دائماً على هذا المنوال؟

هل تسير الأمور دائماً على هذا المنوال؟

هل تسير الأمور دائماً على هذا المنوال؟

آه ليت الأمور تسير دائماً على هذا المنوال .

غير المرغوب فيه

إنني متأهب للانصراف

هو متأهب للانصراف

لقد انصرف

لم يكن هنا قط

لم يكن هنا على الإطلاق

ولكن ألم يقل أحدهم أنا

من هذا الذي قال أنا

أنا قلت أنا

إنه ما يزال دائماً هنا

إنني أتأهب للانصراف

كورت كلينجر

Kurt Klinger

ذكريات عن الحدائق

Erinnerung an Gärten

أذكر أن الحدائق لم يكن لها بالنسبة إليّ في طفولتي نظام، بل كانت تبدأ وتنتهي حيثما اتفق، ولم يكن لسطحها مساحة. بل إنني لم أكن أحفظ في ذاكرتي الطريق المؤدي إليها، فما كنت في أكثر الأحيان أجدها وحدي إذا سعيت إليها. ولهذا كنت أعجب بالنساء اللائي قمن على تربيتي إعجابي بكائنات علوية لأنهن أوتين قدرة أي قدرة تتجلى في أنهن كن يأخذن بيدي ويسرن بي دون أدنى تردد في الاتجاه الصحيح حتى تنفتح فجأة الأبواب النباتية الخضراء المتلألئة التي تؤدي إلى عالم اللعب اللانهائي.

كان جسمي، عندما أدخل الحديقة، يفتنه الإحساس المفاجيء بأن القدمين لم يعد تحتهما أديم الشارع الحجري الصلب. وكان هذا الإحساس يضاعف كياني ويزيدني بدناً على بدن. كان لي جسم واحد في البيت، في الصالون الجميل، في تلك الحجرة التي زخرفت حيطانها برسوم من النخل، وكسي فرشها بالقطيفة الحمراء، والتي كان ضوء أيام الصيف ينفذ إليها مخففاً معفراً بالتراب. كان لي هنا جسم واحد. جسم يتحرك إلى الداخل ويصطدم بنفسه. جسم ضيق، شديد الضيق، شكلته الحيطان. أما في الحدائق فكانت النباتات التي تنمو على

سجيتها تناديني فأشعر أن جسمي فقد خجله، ونمت عليه أطراف ومفاصل جديدة، كل منها جسم متكامل بذاته.

فإذا أنا أستطيع فجأة تأدية ألعاب فنية لم يعلمني إياها أحد، من بينها، بل ربما أعجبها: التسلق. أنْ يستطيع إنسانٌ أن يتسلق هذه الأشجار الثقال التي تغطي ظلالها الأرض، يتسلقها فرعاً فرعاً، حتى يصل إلى منتصف ارتفاع الجذع، فينظر من علٍ إلى المتنرهين الذين قصرت قاماتهم من تحته وإلى القبعات التي توارت دونها رءوس بللها العرق، أنْ يستطيع إنسانٌ فعل هذا فأمرٌ كنت أعرفه من الكتب التي كانت تفترض ببداهة تثير الغيظ أن الناس جميعاً لديهم مثل هذه القدرات. أما ما لم يكن ليخطر ببالي فهو أنني يمكنني أن أكون واحداً من هؤلاء الأولاد المعجزين المحظوظين التي أجزلت لهم الطبيعة عطاءها، فما يحتاجون إلا إلى التعبير عن رغبتهم بقولهم «ياريح احمليني» «يا شمس احميني» فتطيع الريح والشمس.

أو المصارعة. بمعى أن أستطيع زنق رأس ولد قوي محتقن الوجه تحت ذراعي وأن أضطره إلى أن يدور معي في دائرتي على الرغم من الضربات التي يسددها إليه بركبته. فجأة أصبح لي جسم بطل مفتول العضلات، لا يقارن بالجسم النحيف الضامر الذي كان يجلس في البيت إلى المائدة يقظاً واعياً، ولكنه كان متصلباً عنيداً يلعب بالحيوانات الصغيرة المصنوعة من المطاط وقد بلغ به السأم كل مبلغ. والحق أن القوة التي نميتها في المصارعة كانت تسعدني وتخيفني في وقت معاً. فقد كانت تفوق النوايا الطيبة والوعود. كانت قوتي تغريني بالانخراط في مغامرات مذهلة إلى حد أنني كنت أطلب إلى النساء أن يحكينها لي مساءً وقد وقفت شعورهن من الرهبة والدهش. ولم أكن آنذاك أستطيع أن أفهم أنني كنت أتلقى العقاب أحياناً على الروشة التي كنت أتردّى فيها عن غير قصد.

ولقد تحولت منذ زمن طويل مرة أخرى إلى حبيس الحجرات الخواف الثقيل الحركة، وساورني الشعور بأنني أحمل ظلماً ذنب إنسان آخر، كما ساورتني الشكوك في العدل في وقت جد مبكر. من الطبيعي أن عينيّ كانتا في الحدائق أشد حدة منها في الحجرات المظلمة التي زخرفت حيطانها بالورق المنقوش، والتي كانت تجرد من الشغف والفضول كل نظرة تأتي لتسأل عن أسرارها، وكانت تلوح له كالبواب الحانق الذي ما يزال يرد القادم حتى يجرده من الهمة. أما في الحدائق فقد كنت على سجيتي أعد الزهور الصغيرة التي تتفتح في الشجيرات البعيدة، وأحسب بسرعة خاطفة عدد الحصى الذي افترش الأرض بيني وبين أول مقعد بجواري. ومن البديهي أن العدد كان عدداً مرئياً، ولم يكن عدداً أستطيع أن أسميه باسم أو أنطقه. وكانت الألوان أليفة إلى نفسي إلى أن أتى الوقت الذي لم أعد فيه أراها : لون برتقالي بنفسجي، لون أخضرأسود، لون أزرق أبيض.

كذلك الأصوات كانت تبلغ مسمعي على نحو أيسر وأوضح. في الحدائق فقط كنت أستطيع أن أسمع دقات جرس الكنيسة، لا دقات الساعات القوية الملحة التي تفزع الحمام وتدفع به إلى الطيران من فوق السطوح المائلة إلى برج السماء الواسعة، بل الدقات الحالمة الخاطفة التي تعلن أنصاف وأرباع الساعة والتي تفلت منا بسهولة عندما نكون في حجرات مقفلة. كنت أسمع في الحدائق كلمات ما كنت أسمعها في البيت مثل «زوجي» و «أول الشهر القادم» و «الجريدة» و«في المحيط الهادي». وكنت أسمع الرمل الجاف عندما يلين تحت حذائي، بل كنت أسمع أنفاسي.

وكنت أعي أنواعاً جديدة مذهلة من الروائح. كنت أعرف من قبل رائحة ورق الحيطان، والملابس، والشيوخ والعجائز، والورق، واللحم النيِّء، والصابون، ورماد السجائر، والشكوكولاته، والطباشير - ولكنني لم أكن أعرف شيئاً عن رائحة المياه الجارية، والطحالب البراقة الباردة التي تجمعت على حافة النافورة، ولا أعرف شيئاً عن الأنسام العبقة التي تكتنف أشجارالزيزفون كغلائل هفهافة تختلج دائماً حولي ولا أعرف إلى الإمساك بها من

سبيل. وربما خدرني أريج الفل والياسمين والكستنة فأحسست كأنما غنى لي بعضهم بصوت رخيم أغنية المهد.. غشيتني فتنة من السحر حتي آن لي أن أفيق. لأنني أذكر اللحظة التي حدث فيها التحول بسرعة شبيهة بالسرعة التي تنقلب بها فكرة إلى عكسها، أو تقع بها على الأرض محفظة عامرة ثقيلة، أويتلاشى بها أثر رسمته الريح.. انهار السحر فجأة دون سابق إنذار. وإنما فصل مرحلة الطفولة عن مرحلة الشباب هذه اللحظة الرهيبة التي تبينت فيها أن المكان الذي ظننته لانهائياً كان متواضعاً أشد التواضع. لم أكن قد سألت الكبار قط: «لماذا توجد حدائق؟» كما أنني لم أسألهم: «لماذا توجد شوارع؟» «لماذا يوجد بشر؟» «لماذا توجد أنت؟» - لأن البيوت والشوارع والبشر كانت تكون - من وجهة نظري - كثافة أو وحدة لا تنفصم عراها تحيط بها أدغال من حدائق خفية، كأنها مدار من مدارات الكرة الأرضية. هنالك تفتت الوحدة الكبيرة التي تأتلف من النباتات والأنسام والنور، واستحالت إلى قطع كثيرة مفككة انتثرت بين كتل البيوت الرمادية - وأصبحت أعرف الطريق المؤدي إليها، وعلمت أنها تحمل أسماء جادت بها المصادفة أو تفتقت عنها ذاكرة تاريخ هذه المدينة. فما علمت بهذه الأسماء حتى انتهى كل ما بيني وبين الطفولة من رباط.

منذ ذلك الحين أصبحت أحب المواضع النائية على مشارف المدينة. فكنت أولي وجهي شطر الجنوب الشرقي فأسلك بين مساكن متفرقة طرقاً ما تلبث أن تتفرق في الردم والحصباء، حتى أنفذ من خلال حزام المراعي الذي أحاط النهر به نفسه ليحافظ على جماله الألماسي. كان من الممكن حتى ذلك الحين أن يشعر الصبي بالحرية والانطلاق، وأن يهرب لساعات من نظرات البالغين - التي لازلت أمقتها إلى الآن - فيتواري وراء أستار من الأغصان العجاف، تنفتح بنعومة وتنقفل بإحكام فلا ينفذ من خلالها شيء. ما زلت أحفظ في أذني كل التنبيهات «من الضرر عليك أن تتمدد على الأرض!» «لا تسخن نفسك هكذا!» «عندما نناديك عليك أن تأتي على الفور!» «كن حذراً فهنا ثعابين!» - وكنت أحياناً أسمع بالفعل عن بعد أصواتهم الواضحة التي رفعوا بها عقائرهم ليناودني، والتي كانت في الحقيقة ضعيفة

حتى أن انسياب الماء كان يغطي عليها فلا تتلقاها الأذن. ولم أعد أحفل بها. فما كنت في مقابل أي مدح أو أي جزاء مهما عظما لأتنازل عن كلفي بالإحساس بأن أحداً لن يعثر عليّ وبأنني لا أطيع إلا نفسي فقط.

كانت قوانين الشقاوة هي التي تحكم تصرفاتي، وهي أن أتمرغ حتى يصبح لوني بلون الأرض، أن أهرب من كل من يقترب مني، أن أتخذ لنفسي مخبأ لا أفشي سره حتى إلى الأتراب الذين هم على شاكلتي، وأن أطلق أحياناً أصوات اجتذاب وأنتظر ساكناً لأتبين هل يستجيب لها أحد، وأكون على الشاطيء مع معارف من غير الخطرين عصابات، ونسترسل في الابتعاد دون أن نرفع عيوننا عن انعكاس السماء في الماء حتى نأخذ حذرنا إذا ظهرت دلائل عدُو بين السحاب المتحرك.

وما لبثتُ أن وجدت أصدقاء يرحبون بالمخاطرة حتى يتيحوا لأنفسهم على الأقل أن يعيشوا يوماً مثل الحيوانات الطليقة. كان من الصعب الدخول في هذه العصبة، فقد تواعدنا على ألا يزيد عدد أفرادها على خمسة أولاد أقاموا الدليل على أنهم يتسمون على نحو خاص بالإخلاص والخبث والسرعة والشجاعة، يهزؤن بكل تحذير، خمسة لا تدفعهم عقوبة على إفشاء سر مكاننا ولا على نقل أخبار عاداتنا إلى الكبار الذين كانوا يقيناً يرتابون فيها.

كنا نسمي أنفسنا بأسماء الحيوانات مثل «عرسة» «دجاجة» «برغوث»، وكنا، بعد مشاورات عديدة، قد اتفقنا على أن نعمل في أيام عطلة المدرسة كل شيء على نحو يختلف عما يستصوبه الكبار. فحرمنا على أنفسنا أن نسير معتدلين كالبشر، وحللنا الجري والمشي على أربع، والقفز على طريقة الضفدعة، والزحف على البطن فوق الأرض. وحرمنا إحضار الطعام معنا أو شرب الماء النظيف من زجاجة، وحظرنا التعبير باللغة العادية المألوفة، وسمحنا بالإشارات والأصوات. ومنعنا النظر إلى الساعات. وكنا نضع الأشياء المحرمة من مناديل ومفاتيح وسكاكين وأقلام وأحذية في مكان خفي قبل أن نتوغل في أدغالنا.

واتفقنا على صيحة خاصة كانت تقريباً وسطاً بين صوت البومة وصوت القاطرة، لتكون إشارة الإبلاغ إذا ما وجد واحد منا قوقعة متحجرة أو هيكل ثعبان خلاه النمل، أو ريشة حدأة، أو قارباً مخبأ يوشك أن يغرق، أو شبكة صيد أو لوحة تحذير غاصت في الماء وصعبت قراءة كلماتها. أو ربما أقبلت باخرة على صفحة النهر في اتجاه المنبع تشبه تنيناً أبيض يضرب الماء بأجنحته المقبوضة. أو سفينة جر صدئة مربوطة بالحبال امحت ما عليها من أرقام. أوقدنجد عدة ملقاة، أو ورقاً مكموشاً، أو روثاً أو قشر برتقال أو أغطية زجاجات البيرة أو مواضع وطأت الأقدام فيها العشب على نحو عجيب.

كانت هناك علامات كثيرة تشير إلى أن عالمنا سلكه من الناس أكثر مما كنا نتصور في البداية، فكنا نرى آثار التخريب الذي أحدثه نفر من البشرالبرابرة دون أن نرى واحداً منهم. إلا على بعد بضعة كيلومترات في اتجاة منبع النهر، عند طرف لسان من الأرض، انحشر من خلفه فرع النهر الراكد المتسخ بمخلفات الزيوت حيث «الميناء القديم» قد اندس في قوس الشاطيء الجميل ؛ تجمعت هناك فوق الأرض الملوثة أوناش وعنابر مخازن، ترتفع مائلة ميلاً شديداً كأنها من فرط الخجل من قبحها تنكفيء على وجهها. وربما لمحنا بعض الخطوط الغامقة تتحرك بعيداً من حين لآخر، هم عمال يغسلون قمصانهم، أو يرقدون على ظهورهم ويضعون قبعاتهم الجلدية في الشمس. وذات مرة، عندما كنا نقف في بركة صناعية ضحلة تكونت بجانب مجرى النهر الكبير، تعلوها جزيرة عليها القليل من الحشائش والخنشار والقرّيصة، مشغولين بملاحظة يرقات الضفادع التي كانت تسرح من حول أقدامنا شبيهة بنقط الزفت الحية، حدث فجأة، في تلك اللحظة التي كنا نتمتع فيها بأشكال تتغير وتتبدل بسرعة هائلة فوق قاع صاف رقراق، أن ركن على بعد بضعة أمتارمنا قارب رشيق أزرق الهيكل، أوشكت حافته الواطئة أن تمس دوائر الماء، ونزل منه رجلان إلى البر، وألقيا بالمجدافين في القارب، ودارا ناحيتنا دون أن يريانا، وكنا نقف في الماء بلا حراك توشك الأغصان أن توارينا، وهنا اكتشفنا أنهما كانا عاريين وأن بشرتهما البيضاء كانت نوعاً آخر من العري غير عري ذراعينا، ورأينا الرجلين، دون أن يغطيا عورتهما بيديهما يتبولان على جذع شجرة.

ولست أعرف الآن من الذي سبق إلى الضحك ونقل إلينا العدوى حتى ضحكنا جميعاً. ولا زلت أرى في مخيلتي إلى الآن الرجلين وقد اغتاظا وألقينا إلينا بكلمات تقريع زادت ضحكنا صخباً وجنوناً، وأرى أحدهما يقبل نحونا بعد أن تناول المجداف ليضربنا به. كان كشهاب أبيض وقع علينا من السماء. وعدونا ولا نزال نضحك، واندفعنا من خلال الماء الذي تناثر رذاذه، ووقعنا في الوحل، ومازلنا نصرخ ونضحك ونسرع، لا يصدنا صاد، إلى أن بلغنا البيوت الأولى. ولم أستطع أن أجشم نفسي مشقة البحث عن مخبأ أمتعتنا لألبس الحذاء وآتناول منديلي. ووصلت البيت حافياً متسخاً مرتعداً... وعندما رأيت أترابي بعد حين وجدت وجوههم قد تلونت ببياض ذلك اللقاء. ولم نعد نفهم بعضاً بعضاً منذ ذلك الحين.

وأذكر أيام الآحاد وساعة الصيف القصيرة بين النور والليل، بين النزهة والنوم، كانت هناك الحدائق بطبيعة الحال. ولكنني أصبحت مطيعاً، لا أفعل ما يجعلني أرهب جانب المربيات ذوات النظرة الحادة، بل أسلك الطرق المنظمة وأعجب بالأشياء التي كانت فيما مضى تسبب لي الحيرة وتنفرني : هندسة أحواض الزهور، النجيلة الناعمة الرقيقة المقصوصة، أشجار القرو في الأقفاص الحديدية. وأعجبني الهدوء الذي ينعم به أولئك المشغولون بأنفسهم الذين جلسوا على الدكك كأنهم يكلمون أنفسهم ليقنعوا أنفسهم بأنهم راضين بحياتهم. والآن وقد تحلل التنوع وتفرق بدأتُ أحفظ التفصيلات في ذهني، وأثبتها في ذاكرتي فلا أجد في إثباتها ما يتعبني. وأدركت أثر التعود، بل ربما اعتقدت أن الجمال لا يصبح جمالاً إلا بالتعود. ولم أشبع من الاختلاف إلى الحوض المنخفض الذي كان يستخدم مسقى للطيور، كانت فيه أنابيب من المعدن موضوعة في الماء الضحل على هيئة درجات : مرابط في ميناء لطيور أتصورها كمراكب صغيرة صغراً هائلاً رقيقة رقة هائلة... وكان الطيور ركاب الهواء ينفشون ريشهم ويجلسون على هذا الدرج متحفزين فاقدي الصبر كأنما كانوا ينتظرون أن يفي إنسانٌ شهمٌ بما وعد، فلا يتحقق أملهم ويطيرون خائبي الرجاء صائحين صيحة نكراء أو يطيرون منتحين ناحية أكثر أمناً، وينشرون أجنحتهم وهم يهبطون إلى داخل حمام التراب الساخن.

أو التمثال البرونزي الرشيق اللامع الذي شهر نحو السماء الصافية سلاحاً يوشك أن يجرحها، كان لسلاحه ثلاثة أطراف اتخذ بينها ورقة مقوسة كالدرع كأنما كان يقاوم بها الريح. وكنت أتصور هذا التمثال إلهاً له قوة تمكنه من استقدام العاصفة وقلب الجو. وكان التمثال يرسم من فوق نظراتنا المبهورة بذراعه الطليقة المرفوعة مسار البروق... وكان التمثال متسامحاً رضي بأن تتفجر من تحت قدميه نافورة تبث الماء من أربع نفاثات عارمة فينهمر الماء مدوياً تتدافع أسراب الأسماك راقصة من تحته، ثم يهبط كضربة تنهال على قاع النافورة الذي تخيم عليه الظلال.

أو شجرة الماجنوليا المزدهرة أمام كنيسة دير طائفة من الرهبان المحسنين، كان منظرها وحده يكفي لبث الأمل في قلوب من ضاقت بهم الدنيا ووسوست هواجس الموت في صدورهم، فإذا هي تحضهم على الحياة، هاماتهم مرفوعة مثل كأس قربان يضم الأزاهير المشرقة، فليس هناك خلاص يمكن أن يفوق جمال الربيع في الدنيا.

وحدِّث عن السفح بمدرجاته ووروده البرية، وفوق ذروته بناء لطيف أبيض على هيئة معبد مستدير؛ تمثلتُه كوجه حجري يطل مصبحاً على تلك الموجات السوداء التي تموج بها تلال الغابة ويتجاوزها جنوباً إلى بعيد، إلى مواضع متهالكة في بقاع الهضبة تبث منها أفران صلب شبيهة بالحرائق البركانية الڤيزوفيه ألسنة نار مروحية شاحبة تتعالى إلى عنان السماء، وفي المساء تبسط كتلة من السحاب لامعة شبيهة بالغاز فوق المدينة أوراق زهرة ليلية عملاقة.قدت من الدخان.

هنا، من أعالي أبراج الحصن، ومن فتحة الشرفات، ومن منطلق عيون الطير، كانت وحدة الحدائق تأتلف وتتصل أسبابها من جديد. من هنا لا تراها العين جزراً متفرقة مبعثرة لا يعرف بعضها عن البعض شيئاً، وتعيش وحدها بنفسها فصول السنة، كما لوكانت دورة التزهير والذبول والسكون تمسها هي وحدها (مثل البشرالذين يخشون أحياناً أن يكونوا هم

وحدهم الذين ولى شبابهم، وهم وحدهم الذين يدركهم الموت) ؛ كنت أرى الحدائق، عندما أنظر إليها من هنا، وحدة متحدة، تربطها حدائق كثيرة خفية لا ترها العين ولا يدخلها أحد إلا أن يقصدها من ناحية السماء، أما البشر فهي تتوارى عنهم من وراء حواجز وجدران، وتضمها صفوف من الشجر تكتنف شوارع وطرقات كأنها أذرع عديدة تلتحم بخضرة هائلة كقوس لانهائي يحتضن مواضع من الأرض مازالت جرداء تغض بالأعمال والمتع في ازدحام صاخب.

وكأننا إذ نرى بقع الألوان في الوادي المكشوف نطل على ميدان حرب صامتة، كما لو كانت الطبيعة قد ضربت على المدينة في صبر طويل منذ قرن من الزمان حصاراً خفيا لا تدركه الأبصار، استخدمت له عربات اقتحام تجسمها التلال، وأسنان رماح تمثلها السنابل، ودروعاً تمثلها ذرى الأشجار، ورماحاً صفراء من سيقان عباد الشمس، بدت كلها كأنها تتأهب لهجوم صامت. هكذا أرى الحدائق أصبحت معدات غزو خضراء اقتحمت دائرة البيوت، وأقامت بوابات واسعة ليدخل منها موكب انتصار الزهور التي تكتب في مضارب خيامها اليانعة شعاراتها وتعلن كلماتها على العمائر في خطوط زخرفية متداخلة دائمة الاخضرار (ملكوت الحب الأخوي بين كل المخلوقات) وتدعو الإنسان الذي نال منه الغزو، وتلح عليه ألا يرى في هذا النظام الجديد للعالم شيئاً آخر ما يزال يعتبر جريمة سوى : تحطيم الحياة المزروعة.

هانيلوره ڤالنشاك

Hannelore Valencak

ابنتي البدينة ليانه

Meine Töchter Liane

في أثناء سنوات الجوع الأولى بعد الحرب وضعتُ بنتاً. خرجتْ إلى الدنيا هزيلة عجفاء، يميل لونها إلى الزرقة. وقالوا لي إنها على الأرجح ستموت.

ولكنها لم تمت. فقد أوتيت إرادة الحياة التي عبرت عنها بأسلوب الرُضَّع، فكانت تصرخ من فرط الجوع صراخاً دائماً عنيداً، وكانت، عندما أرضعها، تمص الثدي مصاً نهوماً، وما تزال تمصه حتى تلتصق بي أشد الالتصاق، وتقفل عينيها الصغيرتين، وتَعُبُّ، وتبذل عضلات رقبتها النحيلة جهداً جهيداً، فتنتفض وتضخ، وتكابد، وتعاني معاناة عنيفة فظيعة. وكان رأس ابنتي الصغيرة في هذه الأثناء يبتل عرقاً وتخضبه الحمرة.

وكنت بعد كل رضعة أشعر بالإرهاق الشديد، كأنني تبرعت بدمي، وأضطر إلى الرقود لكي استرد قواي. وبينما كنت أعود شيئاً فشيئاً إلى نفسي، كانت رضيعتي تعود إلى الأنين والبكاء. ما كانت ساعة أو دونها تنقضي حتى تشرع في الصراخ من جديد، ولم يكن صراخها صراخ أنين أو توسل أو تلهف من قبيل صراخ الرضع الآخرين، بل كان صراخاً فظيعاً لا يهن ولا يضعف. فإذا تجاهلته تصاعد وعلا واتخذ سمة التهديد.

ولما كانت ابنتي رقيقة البنية، فقد أسميتها «ليانه» وهم اسم نبات العلّيق الضعيف. وهاهي ذي تكتسب بشرة وردية بضة كما ينبغي للأطفال الأصحاء. أما أنا فقد انتابني هزال اشتد بي يوماً بعد يوم، وألم بي الوهن حتى ترنحت في مشيتي، وقاربت الإغماء، ولكنني كنت على الرغم من ذلك سعيدة، لأن ابنتي كانت تنمو وتترعرع. فلما فطمتها، وكففت عن أن أكون مادة بنائها المباشرة، استعدت شيئاً من عافيتي. ولكنني بدأت أواجه صعاباً من نوع آخر، فقد أصبح عليّ، أنا المرأة التي ترملت في الحرب، وعانت من الفقر والضيق أن أدبر لابنتي التي كانت تصرخ من فرط الجوع، اللبن والخضروات، ثم اللحم، وكان عليّ أن أنزل عن الملابس والأحذية والبياضات والأواني لكي أحصل لها بالمقايضة على طعام. كانت تلتهم كل شيء التهاماً وتطلب المزيد. وأصبحت طفلة سمينة بضة يسعد الناس بسمنتها، وما لهم لا يسعدون وهم لا يشقون من أجل إطعامها. كذلك أنا كنت كنت أستلطفها، وأغتبط عندما أراها تنط حولي بجسمها المتليء، وتكشف عن مقعدتها الكظة، بل أجد متعة في مسكها لأن جسمها كان في كل مواضعه ناعماً بضاً كالمقانق الصغيرة. وكانت هذه المتعة باهضة الثمن حتى بالنسبة إلى قلب الأم المحب.

فلما حولت ليانه هزالها الرهيب إلى بدانة تمنيت أن يعتدل نهمها إلى الطعام يوماً، وظللت أتعلق بالأمل حتى عندما أدركت أنني أخطيء أشد الخطأ. فقد تزايدت شهيتها، وتعاظم وزنها، بلا انقطاع، فلم تعد طفلة بضة، بل أصبحت طفلة بدينة.

كنت إذا ظهرت معها في الشارع أمام الأعين، ينظر إلينا المارة ساخرين تارة، ومشفقين تارة أخرى. أصبحت ليانه تسير مفرشحة، بخطى، متثاقلة، فقد كان فخذاها مكتظين يتحاكان من فرط الاكتظاظ، ويباعدان بين الساقين. وتكوّن لها وهي في الرابعة ثديان من الشحم، وتزايدت مخاوفي، فقررت ذات يوم أن أجوّعها، وأصبحت بدافع من حبي لها أقسو برغمي عليها، وأكْبِتُ ما لدي من غريزة الإطعام. كانت إذا توسلت إليّ أن أعطيها شيئاً تأكله أتشبث بالمبدأ، وأصبر على ولولتها وعويلها وصراخها، إيماناً مني بأنني أسلك هذا المسلك لأحقق لها السعادة على المدى البعيد.

وتناقص وزن ليانه، وسعدتُ بذلك. وتلاشى ثدياها السمينان، وخداها المترهلان، وتناقص حجم فخذيها شيئاً فشيئاً، واعتدلت مشيتها المفرطحة القبيحة. وعدتُ أماً لبنت جميلة حقاً. ولكنها أصبحت عدوانية شرانية نكداء. كانت ابنتي البدينة في أيام شبعها طيبة مرحة طيّعة، أما في جوعها فكانت شيطانة. كانت تركلني، وتخمشني وتعضني وتكسّر الأواني من فرط غيظها، وكانت ترفس برجليها وترجف طالبة الطعام. وآليت على نفسي أن أحتمل هجماتها، ولا أعطيها. وظلت ليانه تفقد الزائد من وزنها حتى أصبحت رشيقة القد بمعنى الكلمة. ولكنها دفّعتني ثمن جهودي غالياً ! فلم تعد تحبني، بل كانت عندما تصرخ في وجهي تتمنى لي الموت. فإذا سكتت فترة عن الصراخ المقيت تحولت إلى البلادة والفتور والغم، وما تنتهي فترة البلادة والفتور والغم حتى ترجع إلى الصراخ المقيت، وهكذا دواليك. وما أشقى الأم التي لا يحبها أولادها ! ثم إنني كنت فوق هذا وذاك أحس بوخز الضميرلأنني كنت أحرمها من الطعام. واجتهدت طوال سنوات في أن أدخل البهجة على نفس ليانه بوسائل أخرى غير الطعام، فكنت أشتري لها الثياب وأوقفها أمام المرآة لترى بنفسها كم أصبحت رشيقة جميلة. ولكنها أقامت على الفتور والبلادة، ولم تظهر شيئاً من اهتمام أو رضا. فإذا رأت شيئاً يؤكل لمعت عيناها بالحب كل الحب، وانقلب تعبير وجه الطفلة من القسوة والشر إلى الرقة.

فلما ذهبت ليانه إلى المدرسة، تصورتُ بعد بضعة أسابيع أنها أصبحت أكثر بشاشة وودأ. وكم طبت نفساً، وتمنيت أن أستعيد حبها يوماً ما. ولكن ليانه لم تكن ترضى بأنصاف الحلول، إما الحب كل الحب، أو الكره كل الكره. وهاهي ذي تحبني من جديد. ولكن وزنها أخذ يزيد، كلما زاد حبها لي. وإذا جسمها يسمن ويمتلىء، ثم إذا هي البدانة الكظة. وأقولها بصراحة إنني وجدتني أمام لغز محيِّر، فقد كنت متأكدة من أنني أصومِّها بانتظام وإصرار، وأنني كنت أزن ما أقدمه إليها من مقررات اللحم والخضروات. فلا ريب في أن زيادة وزنها كان لها سبب آخر، فما هو هذا السبب؟ وكيف أواجهه ؟ كنت أضيِّق عليها كما كنت أفعل من قبل، ولا أعطيها مصروفاً للجيب، حتى لا تشتري به طعاماً. كذلك كنت أقفل حجرة الكرار بالقفل

وأحمل المفتاح معي. وظلت ليانه تمتليء وتمتليء حتى تفجرت من أعطافها. وما اقتربت مرحلة المدرسة الابتدائية من نهايتها حتى تضاعف حجمها، وكأنما لم يكن عندي ليانه واحدة بل ليانتان. كان عليّ أن أشتري لفساتينها ضعف ما كنت أشتري من قماش، وكان عليّ أن أحيك ملابسها الداخلية خصيصاً لتناسبها. واضطررت إلى أن آستصنع لها كرسياً خاصاً يتسع لمؤخرتين ويتحمل وزناً مضاعفاً. كنت أنظر مذهولة إلى ليانه وهي تنتفخ، وإلى سمنتها وهي تتدلى على بدنها كالعجين. كنت أمقت الحال الذي آلت إليه. ولكنني كنت أحبها دائماً. بل إنني كنت أحبها حباً مضاعفاً على نحو ما، وكنت أحس بشيء من السلوى في مسلكها الذي خفت عدوانيته، بل كان في بعض الأيام لطيفاً مفعماً بالود، كان يبدو عليها الشبع على نحو مريب، على الأقل في أثناء النهار، فما كان المساء يحل حتى تلاحقني بشراهتها.

كانت ليانه قد بلغت الثانية عشرة من عمرها عندما عرفت السبب في بدانتها الجديدة. فقد ذهبت ذات يوم لأحضرها من المدرسة على غير علم منها، فرأيتها في طرقة المدرسة تلتهم رغيفاً هائلاً عليه شرائح من اللانشون، وتمسك في يدها اليسرى رغيفاً ثانياً مماثلاً جاهزاً، وكان فكاها يلوكان بسرعة هائلة، ولاحت لي كيرقة شرهة تأكل النبات فتأتي عليه في لمح البصر. واندفعت نحوها ثائرة حانقة وانتزعت الرغيفين منها. وحملقت فيّ، واحمر وجهها بلون القرميد، وتبينت أن تلك الحمرة لا شأن لها بالخجل، بل هي امتقاع الوجه تعبيراً عن التوعد والعدوانية. وكان أفظع ما رأيته في ذلك اليوم عينيْ ليانه وقد شحبتا، واتسعتا أشد الاتساع وبهتتا وأصبحتا تحاكيان البرك التي يتجمد جزء رقيق من سطحها.

ولكنني مع ذلك لم أدعها تخيفني أو تردني عن استجلاء ما خفي من أمرها، فاسترسلت في البحث والتنقيب، مصممة على أن أكتشف مكان المخازن الزاخرة بالعيش والغموس. وما زلت ألح على زميلات ليانه بالسؤال حتى علمت أن ابنتي تمارس الابتزاز، وتسلك إلى تحقيق هدفها أقرب السبل. كانت تتوسل بالمكر والحيلة لتكتشف زميلاتها اللاتي فعلن ما يخجلن

منه ويتمنين أن يظل في طي الكتمان. هكذا كانت تعرف خطايا التلميذات وتستغلها. فكانت تذهب إلى ضحيتها وتضيق عليها الخناق، وتكشف لها في عنف وقسوة قبيح فعلتها، والعقاب الذي ينتظرها إذا تسرب السر، وتطلب لقاء السكوت طعاماً. ولم تكن تبتز الضحية مرة واحدة، بل تعود إليها مراراً وتكراراً كما يفعل المحترفون العتاة. كانت حريصة على تدبير الطعام الذي يغطي حاجتها، فإذا قل الوارد، لم تتورع عن دفع زميلة ضعيفة الإرادة إلى ارتكاب حماقة حتي تبتزها بعد تهديد ووعيد. هكذا كانت ابنتي! كانت هذه المعلومات أشبه شيء بقذيفة أصابتني وفتتني إرباً!

وأخذت أفكر ملياً لعلّي أن أكشف عن الخطأ الذي وقعت فيه في معاملتي لها، وأقرب الظن أن حرصي الشديد عليها دفعني إلى الشدة المفرطة والصلابة التي لا تلين. ولعلي لم أسع سعياً كافياً لاكتساب ثقة ابنتي. وحدثت نفسي بأنه كان الأحرى بي أن أتكلم معها، بدلاً من أن أعاملها كالطفل الذي لا يفهم، فأغلق كل الدروب أمامها. هاهي ذي تنتقم. وعليّ الآن أن أجرب أسلوباً آخر. وبدأت التجربة بالفعل. فكنت في كل مساء أجلس على حافة سريرها وأتجاذب معها أطراف حديث كله حب ومودة. وكنت أركز فيه على هدفي وهو أن أجعلها تفهم أن هذا الأمر الذي اهتم به هو أمر حياتها ومستقبلها، فهي بهذا المنظر لن تجد رجلاً يرضى بها زوجة، وأنها لهذا ستقضي على نفسها بالوحدة القاتلة، وأن الناس سينبذونها، فتبقى قبيحة عليلة البدن كسيرة الفؤاد. وبدا على ليانه كأنها فهمت كل ما قلته لها، ووعدتني وعداً وثيقاًبألا تأكل بعد الآن إلا في حدود الاعتدال إذا أنا وثقت فيها، ولم أقفل على مخزون الطعام في البيت. وأصبحتْ بالفعل لا تضع لنفسها على المائدة إلا أنصبة صغيرة، وتؤكد لي أنها لا تشعر بجوع على الإطلاق، بل كانت ترفض أحياناً أن تأكل المزيد إذا أنا وجدتها تبالغ في القسوة على نفسها وتأخذ أقل مما ينبغي، فاقترحت عليها أن تكمل وجبتها.

وأثّر فيّ هذا القدر الكبير من التفهم وقوة الإرادة، فاعتقدت أنني لم تعد بي حاجة إلى التجسس عليها، وطابت نفسي، وتنفست الصعداء، وارتحت. ولكنني تبينت للأسف بعد قليل أن ليانه تكذب عليّ، وتفعل ما يحلو لها من وراء ظهري. كانت تتصنع الطهر والقداسة على المائدة فتترك الطعام دون أن تمسه، ولكنها كانت تأكل مثليه أو ثلاثة أمثاله عندما تغيب عن ناظري. وعلى الرغم من أنها كانت بصفة عامة بليدة ثقيلة الحركة فقد كانت ماهرة مهارة لا تصدق عندما كانت تدبر لنفسها الطعام في الخفاء. فلما تعقبتُها لم أتمكن قط من سبر أغوار أساليبها كلها، ولابد أنها كانت تحكم التدبير على نحو خارق للمألوف. من البديهي أنني تنبهت إلى أن كتل الخبز كانت تضمر بسرعة، وأن المربى في البرطمانات كانت تتلاشى بسرعة أيضاً، ولكنني لم أكن أستطيع أن أقيم الدليل على ليانه، وكنت إذا اتهمتها دون دليل ناصع تثور وتغضب. كانت تأكل في ظلمة الليل عندما أنام، أو في أثناء النهار عندما أضطر إلى الخروج من البيت. ولم أباغتها متلبسة بنهب الطعام إلا نادراً. ولا زلت أذكر السرعة الخاطفة التي نشلت بها البرقوق من كيس أتيت به مفتوحاً، عندما أدرت ظهري، فلما عدت إلى وضعي الأول والتفتّ نحوها، رمقتها بنظرةٍ مفاجئة، ولم أقل شيئاً، وظنت هي أنني لم ألحظ ما فعلته وقد أتقنت التخفي، ولكنها لم تستطع أن تخفي بسرعة مناسبة تعبير وجهها الذي اختلط فيه الشر بالفرح.

ولزمتُ الصمت، فلم يكن الكلام ليؤدي إلى نتيجة. وأيقنت أنني لا أستطيع التأثير على ابنتي، وأن سبيلي الوحيد إليها هو الصرامة، ولكنني لم أجرؤ على العودة إلى الصرامة، لأنني لم أكن أريد أن أحمل الذنب إذا عادت إلى إشباع نهمها إلى الطعام عن طريق الابتزاز. وهكذا أخذت أنظر إليها وقد عجزت عن فعل أي شيء. وعلى الرغم من ذلك فإن المعركة لم تنته. وكان تقديري أن ليانه عندما تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، وتنتهي سنوات الإلزام الدراسي، لن يكون عليها أن تذهب إلى المدرسة، فأبقيها في البيت عدة سنوات، وأخضعها لمنهجي الفعال، وأصوِّمها تحت رقابة صارمة كل الصرامة. وتعجلت الزمن وكاد صبري أن

يفرغ. وكنت على بينة من أن حرصي عليها الذي هو حرص الأم على ابنتها داخَلَتْهُ سمة من القسوة قاومتها دون جدوى، فقد كنت أتلهف فرحة أن يأتي اليوم الذي يتاح لي فيه أن أنتقم من ليانة عن عجزي الحالي، ولسوف تعبِّر عيناها عندذلك عن الفتور والكراهية، ولكنهما لن تعبراً عن العدوانية والفرح الآثم بالتشفي.

هكذا انتظرتُ وكابدت وقهرت الإحساس الدائم المتعاظم بالنفور الذي كان منظر ابنتي يثيره في نفسي عندما كانت تمشي فكأنها عاصفة هوجاء ثقيلة تجتاح البلاط فيتأوه من تحتها، أو تتبختر دافعة أمامها شحمها المترهل البشع. لقد كان سلوكها كله يوحي بأنها تجد متعة في الترهل والقبح. كان مسلكها يجسم التحدي عندما تحتل مكانين في الدنيا، وكانت بتحديها هذا تثيرني وتدفع بي إلى الغيظ. وكان غيظي نوعاً متحوراً من الحسد، فقد حرمت نفسي من كل شيء وأعطيتها كل شيء، وأصبحت تكتنز أشياء مختلفة الأنواع لاحق لها فيها. وقلت في نفسي إنهاتختزن في جسمها دهناً سأنتزعه منها انتزاعاً. فلأصبرن عليها حتى تبلغ الرابعة عشرة.

وفي اليوم الذي قعدت فيه عن المدرسة عاجلتها بصرامة غاشمة بخطتي وبتصميمي على تنفيذها على الفور، وعدت إلى منهاجي القديم، أزِنُ ما تناله من اللحم والخضروات، وأقفلتُ درج الخبز، وحجرة الكرار، ومنعت عنها النقود، وأخذت أنظر في برود إليها وهي تروح وتجيء حائرة دون هدف في جنبات المسكن متوترة ثائرة. وصحَت في الليل من نومها صاخبة، ونهضت وأضاءت النور، وأيقظتني، وراحت ترج سريري وتصرخ، ثم زحفت عليه واعتلته وقعدت كعفريت الليل فوق بطني، وزأرت فيّ، وطلعت لي لسانها بطوله وعرضه. فأثار فيّ منظره التقزز، فقد رأيته كقطعة من اللحم الأحمر المخاطي، سميكاً في بدايته، وقحاً متقعاً، عضواً حسِّياً هائجاً تمارس به الفعل الفاضح على طريقتها. وطالبتني بالطعام، وهددتني وتوعدتني، وشتمتني بشتائم شديدة السفالة. وتحملت كل هذا سعيدة بما كانت تكابده، وبالانتقام الذي أنزلته بها. كيف كان يمكنني أن أحب ابنتي ولم أعد أراها، بعد أن توارت

وراء كتل صفيقة من الشحم ؟ أنا لم ألد هذا الغلاف الشحمي السميك المترحل. هي التي اكتسبته بالنذالة والخسة والكذب. إنني أنأى بحب الأم عن هذه الإبنة الثانية التي تتكون من الشحم ولاشيء غيره.

ولما كنت قد عرفت ابنتي وكشفت خباياها، فقد توقعت أن تحاول أن تسرق مني بعض النقود، فلما تأكدت من أنها سرقت فعلاً، اشتريت خزانةحديدية، قفلتها وحملت معي مفتاحها في حلي وترحالي. وما مر إلا وقت قليل حتى بدأت ليانه تخس. وكلما زادت رشاقتها، وهَنَت وقلت قدرتها على الشجار والنقار، وقل نفوري من مظهرها، وتحول انتقامي إلى حب.

ودخلتُ بصفة عامة في وقت أكثر يسراً وسهولة لأن ليانه بدت فجأة كيِّسة شديدة الفطنة، فغمرني إحساس بالفرح المختلط بالامتنان عندما لاحظت أنها كانت تملك عداوتها نحوي، بل كانت في بعض الأحيان تظهر لي من الود ما يفوق المألوف، وفسرت لنفسي هذا التحول بأن ابنتي بلغت مرحلة من العمر تحب البنات فيها الظهور بمظهر جميل، ويكنّ على استعداد لبذل الجهد من أجل هذا الهدف. فلو استطعت أن أضعها عامين تحت عيني، وحرصت على أن تخس بانتظام فسوف ترى بنفسها أنها في الحقيقة جميلة، وستجتهد في أن تبقى كذلك.

كذلك أحدث نقص الوزن تأثيراً طيباً على شخصيتها، فأصبحت تحب مساعدة الناس حباً شديداً، وعبرت لي عن رغبتها في أن تعنى بامرأة عجوز مشلولة تعيش في بيت صغير على مشارف المدينة، ونهضت بهذا العمل فعلاً منذ ثلاثة أشهر. وهكذا أحسست بعد طول عناء بالسعادة الغامرة إذ أيقنت من أن ليانه في حقيقة أمرها طيبة القلب، ناكرة الذات. ولكن سعادتي كانت قصيرة وكأنما بخل بها القدر. فقد عادت ليانه إلى البدانة، ورجحت أنا على الفور أن يكون السبب هو أن المرأة العجوز كانت تعطيها طعاماً، وربما كانت تعطيها مالاً، فقررت التدخل على التو.

ويممت شطر البيت الصغير على مشارف المدينة، وزرت المرأة العجوز، وتحدثت إليها حديثاً صريحاً، وبسطت أمامها همومي ومشكلاتي ونضالي من أجل سعادة ليانه. وفهمتني المرأة تماماً، واعترفت لي بأنها أعطت ليانه نقوداً أَجَرَتْها بها عما قدمت إليها من خدمات، ووعدت بألا تعود إلى ذلك مرة أخرى، وبأن تضع ما تخصصه لها من مال في دفتر توفير تتلقاه ليانه عندما تبلغ سن الرشد. وشكرتها من كل قلبي، وانصرفت.

وانعقدت الصلة بيني وبين المرأة العجوز، واتخذتها حليفة وثيقة، وخست ليانه مرة أخرى. وانقلبتها طيبتها إلى عدوانية، وبرز الشيطان الكامن فيها من جديد، ولكنه ما لبث أن توارى، وأصبحت ليانه هادئة مطمئنة، وكنت أراها تجلس خالية البال مساءً في ضوء المصباح، وتفك خياطة فساتينها لتوسعها، فقد عاد وزنها يزيد مرة أخرى. وهونت الأمر على نفسي وقلت، النساء في الهرَمِ أعصابهن ضعيفة ويحتجن إلى وقت.

وانتظرت بضعة أشهر ترقباً لما يصير إليه الحال، فلما أسقط في يدي قررت أن سلك السبيل مرة أخرى إلى مشارف المدينة، حتى أرجو العجوز أن تبحث لها عن بنت أخرى ترعاها، إذا لم تكن تقوى على تحمل الأفعال الشريرة التي تأتي بها ابنتي عندما تجوع . وكان هذا الحديث الذي أزمعت عليه مخجلاً، ولكنه كان ضرورياً.

وذهبت إليها عصر يوم، لأن ليانه لم تكن تجالسها إلا من الصباح إلى الظهر، وكان عليها أن تعود إلى البيت لطعام الغذاء. ووقفت بباب البيت الصغير، ودققت الجرس، فلم يظهرأحد ليفتح لي. هل أستسلم وأعود أدراجي ؟ لا، ما من شك في أن المرأة المشلولة في بيتها، فعِلَّتُها تحول بينها وبين الخروج. كان أقصى ما تطيقه هو القليل من الحركة في البيت مستندة إلى الحائط. لعلها نائمة. هل يحق لي أن أوقظها ؟ نعم. فلديها الوقت كل الوقت، ويمكنها أن تنام متى شاء. أما أنا فلدي وظيفتي، وعليّ أن أمارسها لأكسب ما أحتاج إليه من مال، ولقد طلبت إجازة اليوم من أجل هذه الزيارة. ولهذا عدت أدق الجرس دقاً شديداً مديداً.

وأرهفت السمع مرة أخرى، لعلي أسمع خطى زاحفة تتقدم بها المرأة العجوز، أو أسمع وقع عصاها، أو سعالها الخفيف. ولكن الانتظار طال بي دون جدوى . فدرت حول البيت حائرة، فرأيت النوافذ مفتوحة، والستائر البيضاء التوللي تمتلىء بهواء الريح. فتقدمت نحو إحدى النوافذ اعتقدت أنها نافذة حجرة النوم، وناديت أولاً بصوت منخفض، ثم رفعت صوتي باسم السيدة العجوز. ما من مجيب. حتى إذا فرّقت الريح الستارة من وسطها اختلست النظر إلى داخل الحجرة فوجدتها خالية. كان على السرير فيها البياضات واللحاف، كلها أنيقة مرتبة، ومن فوقها عدد هائل من مخدات الزينة.

فنظرت من خلال النافذة المفتوحة الثانية. فوجدت غرفة المعيشة خالية أيضاً، ومرتبة بعناية. فقررت أن أتعقب الحقيقة، وتسلقت ودخلت من خلال نافذة حجرة المعيشة إلى داخل البيت. وعدت أنادي بصوت أقل حدة حتى لا تفزع العجوز عندما تجدني أمامها بغتة على غير انتظار. فلم أتلق جواباً، حتى بعد أن كررت النداء. فغشاني همٌ حقيقي تصورت له ما يبرره من أسباب، وخفت على المرأة، لعلها كانت ممدة بلا حول ولا قوة في مكان ما. واجتزت المدخل، ونظرت في دورة المياة، وفي مكان تعليق المقشات، وفي دواليب الملابس. لم يكن هناك أحد، لا يقظاً ولا نائماً، لا حياً ولا ميتاً. كان المطبخ خالياً، ولكنه كان مرتباً، أما أشد الأماكن فراغاً فكان الكرار، لم يكن به شيء على الرفوف، لا بيض ولا سمن، ولا مربى، ولا برطمانات الأطعمة المحفوظة. حتى إذا أوشكتُ أن أفرغ من البحث وتهيأتُ للانصراف، اكتشفت في ركن مظلم بالكرار كسرولة فيها لحم مخلل، حملتها إلى المطبخ، وشممته، وتفحصته فإذا هو من قبيل لحم الصيد المنقوع في الخل. ولاح لي لذيذاً شهياً فقطعت منه قطعةً، وتذوقتها. كان طعمها فيه قليل من الغرابة، ولكنه كان طيباً. أياً كان الأمر فقد اتضح لي أن ليانة كذبت عليّ مرة أخرى. لقد خلا البيت من صاحبته، ولكن ليانه ظلت تذهب إليه لتأكل الطعام المخزون. لقد امتحنني الرب فيها امتحاناً قاسياً.

فلما عدت إلى البيت عقدت لها محكمة أفزعتها رغم بلادتها، وأعلنتها بأقسى الإجراءات، فسوف أحبسها في البيت في الشهور القادمة، وسأقفل عليها وعلى الأكل بالمفتاح. وارتعدت ليانه، وبدا عليها ندم حقيقي ونية التوبة، وتوسلت إليّ باكية ذليلة أن أدعها تخرج مرة واحدة فقط على الأقل، لأن صديقتها العجوز في المستشفى تنتظر زيارتها بشوق ولهفة، فرفضت طلبها من فرط غيظي، فما عدت أصدق كلمة منها أو دمعة.

وأخذتُ الأمور تواً مأخذ الجد، فاستقلت من وظيفتي على الفور، وكان الرأي عندي أننا نستطيع أن نعيش من مدخراتي عاماً، وقررت أن ألازم ليانه طوال العام، وألا أتركها تبعد عن البيت أو عن عيني.

وهاجت ليانه وماجت، حتى إنها أصيبت بحمى عصبية استمرت ثلاثة أيام، شحب لونها في أعقابها، وأصبحت وجلة هيّابة، وفقدت الشهية تماماً، وأصبحت تقلب في الطعام في الطعام أمامها بالشوكة ولا تبلغ منه شيئاً. وكانت كلما دق جرس الباب تنتفض وتقعد متهيئة للنهوض، كأنها على وشك الفرار. وظلت تتوسل إليّ، وتلح في التوسل، أن أتركها مرة واحدة لتزور العجوز المريضة، مصرة على أن تزورها وحدها لأنها ستودعها الوداع الأخير. ومسّ تعلق ليانه بالعجوز أوتار قلبي، ورأيت أن الهم بلغ بها كل مبلغ، فأصبحت تروح وتجيء في المكان قلقة حائرة، فسمحت لها بأن تزور المرأة الزيارة الأخيرة. فلما عادت بدت عليها الراحة وكأنها نجت من محنة نكراء، وحدثتني عن المرأة فقالت إنها ماتت، وإنها ظلت تمسك يدها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة، وأضافت أنها على يقين من أن عذاب المرأة قد انتهى وأنها الآن في الجنة.

والمؤسف أن جوع ليانه عاد منذ تلك اللحظة سيرته الأولى، وعدت أنا إلى صرامتي، فكرهتني كما كرهتني من قبل عندما كانت طفلة. ولست بقادرة على تغيير الأحوال، ولسوف أصبر على رؤية عينيها يغشاهما الفتور والشحوب، ويتلاشى منهما سنا الحب والمودة، ولا تلمعان إلا عندما تريان طعاماً.

صعبٌ على قلب الأم أن يسلك هذا السبيل الفظيع، ولكن هل من سبيل آخر أسلكه مع طفلة من هذا النوع ؟ سأظل من الآن مع ليانه وحدنا وقتاً طويلاً، وسأكسب ثقتها من جديد في تلك الأثناء. وسيأتي اليوم الذي تدرك فيه أنني لم أرد إلا مصلحتها عندما عذبتها. ولكم فرحت اليوم على سبيل المثال عندما لاحظت أن حيرتها في غير ما هدف قلّت، بل لقد شاركت بعمل مفيد في البيت، فبدأتْ بتنظيف الكسرولة الكبيرة الزرقاء المطلية بالميناء، التي لم نستخدمها إلا نادراً، ثم أزالت ما على الساطور من صدأ ولمعته، وشحذت السكاكين، وهي أعمال لا أراها ملحة، ولكنها كانت البداية على أية حال. وأوصتني بأن أشتري توابل : ورق الغار وحب العرعر والفلفل الأسود. ونبهتني إلى أن ما عندنا من خل قد قل. فاشتريت كل هذه الطلبات، فمن المهم أن يحترم الإنسان ابنه أو ابنته، وأن يقبل منهما النصيحة حتى إذا كانت غريبة. فلما عدت بهذه الأشياء إلى البيت رأيت نظرتها قد تغيرت عن ذي قبل كل التغير، فقد عَمَرَها حبٌ غامر. ولسوف تتبين يوماً أنني لست على ما ظنت من سوء.

إلــــزه تيــــلش

Ilse Tielsch-Felzmann

هـــــواجس

Eine Vorahnung

الإحساس بأن شيئاً سيحدث، سيحدث حتماً، شيئاً لا أعلم كنهه، ولا أستطيع إلى تصوره من سبيل، ولا أعرف عنه هل سيقع فجأة آم شيئاً فشيئاً، هل سيكون عنيفاً أم هادئاً، فظيعاً أم رقيقاً - هذا الإحساس يتملكني منذ أيام.

ربما يرجع السبب في ذلك إلى أنني في ليلة الأربعاء الماضي - ويوم الخميس هو اليوم الذي انتابني فيه هذا الإحساس لأول مرة - في ليلة الأربعاء الماضي حلمت بالمهندس الذي اصطحبنا قبل سبع سنوات ليرينا الأرض التي أخذوها ليقيموا عليها الحي السكني الجديد بڤيللاته وبيوته النمطية المصفوفة. لم يكن شارعنا هذا موجوداً آنذاك، وكانت المنطقة كلها تظهرعلى خريطة المدينة على هيئة خطوط لا تحمل أسماء الشوارع. آنذاك قال المهندس إن المشروع يستهدف إنشاء حي جديد في تلك المنطقة، وسرنا وراءه في طرقات موحلة، فقد انهمر المطر بلا انقطاع، بين حدائق واسعة تركت على فطرتها البرية، كانت فيها كلاب شعثاء قذرة تنبح وتزوم، وتجري على طول الأسيجة الصدئة المصنوعة من السلك المتشابك، أو تقبع في أكشاك رمادية كالحة. كانت الحدائق تمتليء بأكوام من الأغصان الجافة، وأشجار الفاكهة

المشوهة، وكانت تتناثر بينها على غير نظام بيوت وأكواخ بدائية أشد البدائية، متباينة في أشكال بنائها أشد التباين، وحظائر للماعز والدجاج والأرانب صنعت من ألواح خشبية رديئة. لم نكن نتوقع هذا المنظر الذي مثل أمامنا، ولم نكن مهيئين لمثله، فقد أتينا نحمل في مخيلتنا صورة التخطيط الرمادي الذي رأيناه في خريطة المدينة. وارتبنا في أمرنا، ولكن المهندس، وكان رجلاً قصير القامة مدموك البنية، له لحية صغيرة مدببة مهوشةمهملة، وعينان تحاكيان عيون الفئران، تصنّع أنه لا يرى البيوت والكلاب في الحدائق، وظل يتكلم دون توقف، ويرسم في الهواء صورة المشروع بذراعيه المبسوطتين إلى أوسع مدى. كانت المنطقة كلها في نظره بالفعل مساحة واسعة تامة مخططة، أخذ يقسمها بكلمات وتلويحات إلى مربعات ومستطيلات محددة، تكتنف شوارع خرسانية مستقيمة رمادية فاتحة، وأرصفة مسفلتة، بينها أماكن للركن، ومسطحات خضراء زرعت فيها أشجارالبتولا والتنوب الأسود المنتشرة في المنطقة، وساحات للعب في الرمل، وملاعب للأولاد. وأذكر أنه تكلم وحده، فلم يتكلم غيره، وكنا جميعاً سكان المستقبل في هذا الحي المزمع إنشاؤه بصفوف نمطية من البيوت، نقف حوله وجلين قلقين، وكانت أحوال الجو العاصف والكلاب التي لا تفتأ تزوم وتنبح وراء أسيجتها تسهم بنصيبها في وجلنا وقلقنا، وكنا نسمعه يتكلم، ولكننا لم نكن نتصوركيف يمكن أن يتلاشى كل هذه الذي نراه أمامنا في المدة القصيرة التي ذكرها، فقد تحدث عن عامين، ويترك مكانه لحي جديد تماماً، رسم على اللوحة، بمجاورات وعمارات شاهقة وجراجات تحت الأرض ومدارس وصالونات حلاقة ومحلات تجارية، ولم نستطع أن نقنع أنفسنا بما يمكن أن يجري على كل هذه البيوت والأكواخ وكل هؤلاء البشر الذين كانوا يعيشون فيها، وكل أشجار الفاكهة، وكل الكلاب، فلم يكن لها مكان في رسومات المشروع التي مثلت أمام عيوننا واضحة لا غموض فيها. وأذكر أنني في ذلك اليوم دسست إصبعي في أحد الأسيجة لكي أوقن من أنه موجود فعلاً، وأن هذه الأسيجة لم تكون وليدة هذيان.

وخرج من بيت من تلك البيوت رجل طاعن في السن يلبس معطفاً كالزعبوط، وقبعة فقيرة أكل عليها الدهر وشرب، وحملق فينا حملقته في العدو، وتراجعنا خطوة ليمشي إلى حال سبيله، ولم يعبأ به المهندس واستمر في حديثه وكانت قد وصل فيه إلى وصف حمام السباحة المغطى والساونا التي ستلحق به وبهو القهوة وقاعة الجمنازيوم وساحة حمام الشمس فوق السطح.

ثم استأنفنا السير حتى بلغنا نهاية البيوت والحدائق، ورسم المهندس بذراعيه دوائر، ولوح ذات اليمين، وذات اليسار، وقال إن هذا الخط الذي ينتهي عنده المشروع سيكون هو شارعنا، وعدنا ننصت إليه وهو يرفع القواعد أمام مخيلتنا، فيقيم عليها صفاً طويلاً من الڤيللات النظيفة، ذات الطابق الواحد، صممت بحيث تكوِّن كل ڤيللتيتين وحدة، ويفصل صف الڤيللات عن الطوار خط من الزرع الأخضر، وينتهي من الخلف إلى سلسلة من الحدائق الصغيرة النمطية. وشرح المهندس ما أسماه هدفانية المشروع، أو قل التزامه المباشر الدقيق بالهدف، والبدرومات التي ستبنى تحت البيوت، والمجاري التي ستزود بشبكة حديثة متينة، تقينا في بيوتنا من الفئران، وحدثنا عن أشكالٍ حديثة من النوافذ روعيت الهدفانية في تصميمها، وحدثنا عن التيراس الصغير المتصل بحجرة المعيشة. واحمر خداه من فرط الانفعال الحماس، ولاحظت رعشة عصبية في عينيه.

حدث هذا، كما قلت، قبل سبع سنين. وكنت بعد تلك الزيارة أفكر بين الفينة والفينة في الناس الذين اجتمعوا في ذلك اليوم، وأتساءل عما لفت نظري من سماتهم. لم يلفت نظري شيء آخر سوى أنهم كانوا جميعاً أبناء عمر واحد تقريباً، أقرب إلى الشباب، أناساً مثلنا أحرزوا في ممارسة أعمالهم شيئاً من التقدم والسعة، ففكروا في أن يخرجوا من مساكنهم بقلب المدينة إلى الخضرة - كما كانوا يقولون. ولم يكن ما ادخروه من مال يكفي لبناء ڤيللات أوبيوت خاصة مستقلة، على خطط خاصة بهم. ولا أستطيع أن أذكر أنهم كانوا متشابهين في

الشكل على نحو يفوق المألوف، على الرغم مما عرف عن البشر من أنهم، إذا كانوا أبناء سن واحدة، تبدو عليهم في الجو المطير علامات تشابه معينة، ترتهن بالملبس وتعبير الوجه، ولعل ظهور علامات التشابه في تلك الظروف يرجع إلى أن الناس لا يدققون في الملاحظة تدقيقاً كبيراً عندما ينهمر المطر ويعصف الجو. وأستطيع أن أقول عن قدر كبير من اليقين، إن الناس الذين اجتمعوا في ذلك اليوم - وكانوا في الغالبية الغالبة أزواجاً تركوا أولادهم في بيوتهم - لم يكن يميزهم طابع فارق فائق للمألوف، أو على الأقل لم يكونوا يتسمون بسمة من شأنها أن تثير فيّ القلق، ولم يتحدث پاول فيما بعد بشيء من ذلك.

ولست أعرف كيف أنجز أصحاب المشروع ما وعدوا، وما كان أحد بيننا يتوقع منهم هذا، ولكن ما مر عامان حتى كانت ڤيللاتنا قد قامت في بنائها الخام، وامتدت شوارع خرسانية ملساء تقسم المنطقة التي شاهدناها آنذاك، إلى ما رسمه المهندس في الهواء من مربعات ومستطيلات، وتلاشت الحدائق الهائشة المختلطة، وحلت محلها حفر عميقة للأساسات، وقامت فوقها أوناش وتحركت بولدوزرات، وكانت أجزاء من البيوت النمطية المصفوفة قد اكتملت، وكانت هناك عربات نقل تحمل أجزاء خرسانية سابقة التجهيز فيها نوافذها بكل مستلزماتها حتى الزجاج، وظهر على مساحات مُهِّدت وسوِّيت بشائرُ لونٍ أخضر فاتح نمطي هو لون النجيلة الجديدة، وكانت مجموعات متفرقة من أشجار البتولا والتنوب الأسود قد غرست بالفعل،

وما جاء الصيف التالي حتى انتقلنا إلى الحي الجديد.

وأنا عندما أفكر فيما حدث لنا في البداية لا أستطيع أن أفهم أنني وجدت فيه آنذاك ما أضحكني. كذلك پاول ضحك. فقد وقفنا، يوم وصلنا، في المطبخ بين كراسي ودواليب وحقائب وصناديق كتب، وفوجئنا بأننا أخطأنا في العد. كان دولاب الملابس قد اتخذ مكانه في الطابق العلوي من الڤيللا، وكانت رفوف الكتب قد ثبتت على الحيطان، بل كان البيانو، البيانو الكبير الثقيل الكوده، قد استقر في موقعه، عندما أقبلت عربة نقل أثاث أخرى،

وتهيأ ثلاثة رجال أشداء ليحملوا دواليب وكراسي وصناديق كتب أسرة أخرى إلى الڤيللا نفسها. وظننا في بداية الأمر أن الآخرين أخطأوا ثم تبين لنا أننا نحن الذين أخطأنا، ودخلنا بأشيائنا إلى مسكن غير مسكننا. كانت الڤيللات متشابهة حتى إننا، بعد أن استقر بنا المقام في ڤيللتنا، لم نكن نتعرف عليها إلا إذا عددنا ما قبلها. ولهذا حاولت في البداية أن أغير ملامح البيت وأن أجعله مميزاً يسهل التعرف عليه، في المقام الأول بالنسبة إلى الناس الذين كانوا يريدون أن يزورونا، والذين كثيراً ما كانوا يتعبون أشد التعب في السؤال والإلحاح في الاستعلام لكي يصلوا إلينا لأن أرقام البيوت كانت مثبتة على أبعد ركن قرب السطح وبغير إضاءة، ولم تكن لهذا السبب تظهر للعيان. كذلك كانت لافتات الشوارع يكتنفها الظلام الدامس. ولهذا زرعتُ شجرة ورد أحمر متسلقة إلى يسار باب الڤيللا لتمد فروعها ناحية الجراچ. وما جاء فصل الربيع التالي حتى رأيت جارنا إلى اليسار يتجه إلى حديقة ڤيللته الأمامية حاملاً الجاروف فحفر حفرة وزرع شيئاً تفتقت عنه في الصيف التالي نفس شجرة الورد الأحمر المتسلقة التي زرعناها، حتى الصنف كان هو هو بالضبط.

فلما حل الربيع التالي جاء ثمانية من أصحاب الڤيللات في الحي يحملون لفافات من المشتل نفسه وساروا بالجواريف إلى حدائقهم الأمامية وحفروا حفراً على يسار أبوابهم. وهكذا تغطت واجهات البيوت كلها بنفس الورود الحمراء المتسلقة. ولا جدوى من اقتلاع شجرتي، وزراعة شجرة عنب بري أو ياسمين بري، فلن يأتي الربيع التالي حتي تكون أشجار الورد الحمراء المتسلقة قد اقتلعت ونبذت، وزرع مكانها العنب البري أو الياسمين البري.

فلما فشلت كل المحاولات التالية لتمييز بيتنا بصناديق خطابات مدهونة بطلاء فاقع، ومقابض عجيبة، وشجيرات زينة، وتماثيل أقزام الحديقة - حتى المصباح الذي اشتراه پاول من حي ناءٍ في أطراف المدينة وركبه فوق المدخل أصبح يتدلى مضيئاً فوق مداخل البيوت كلها - رفعتُ يدي، بل ركَنْتُ إلى الاستسلام للغواية ورحت أنقل عن الآخرين.

فقد ركّبت جارتي التي إلى اليمين على سبيل المثال ذات يوم على بير السلم ستارةً بكشكشتين متساويتين من الناحيتين، وبقلابتين متداخلتين من الوسط. في صيف العام نفسه اشترت خمس عشرة ربة بيت في شارعنا القماش نفسه، وخِطْنَ على ماكينات الخياطة الكهربائية التي يضعنها جميعاً، كما أعلم اليوم، على مناضد صغيرة أمام شباك الحجرة المطلة على الناصية، ستائرً بكشكشتين متساويتين من الناحيتين، وبقلابتين متداخلتين من الوسط. فلما نظرت أنا إلى شباك بير السلم عندي، وكان مصراعاه الزجاجيان يستتران وراء ستارة معدنية،ساءلت نفسي عن حقيقة ما بيني وبين الستارة ذات الكشكشتين المتساويتين من الناحيتين، والقلابتين المتداخلتين من الوسط. وما أسفر الصبح حتى اشتريت بقية عثرت عليها من هذا القماش، وسعدت بالعثور عليه وشرائه، وحملته معي في حقيبتي، ثم ما قارب الأسبوع نهايته حتى كان منظر شباك بير السلم عندي مثل منظره عن الآخرين جميعاً سواء بسواء.

كل هذا ما كان ليقلقني لو اقتصر الأمر على ذلك اللون الغريزي العادي من المحاكاة المعروفة والمنتشرة والتي يشاهدها الإنسان في كل مكان، ولكنني ما لبثت أن دعيت ذات يوم لتناول فنجان من القهوة بدعوة من السيدة برجمان Bermann صاحبة الڤيللا الثانية على الشمال. كنا، السيدة برجمان وأنا، في أثناء شراء الحاجيات من محل الخدمة الذاتية الجديد، قد انهمكنا في حديث، وإذا بنا في اللحظة نفسها نمد أيدينا إلى علبة

مسحوق الغسيل نفسها، ثم دعتني لزيارتها بعد ذلك مباشرة، ولما لم أكن مرتبطة بشيء ذي بال عصراً ذهبت إليها.

وشد انتباهي على الفور عندما دخلت أن الأرضية عليها الكليم نفسه الذي فرشناه في المدخل، وأن مرآةً مدورة مثل مرآتنا معلقة على الحائط فوق الكومودينو في الموضع نفسه وعلى النحو نفسه، وأن الإضاءة هي هي، وحامل الشماسي هو هو، والشماعات هي هي. لم

يكن الحائط بما عليه، وما قاربَهُ من أثاث يختلف في شيء عن الحائط عندي بما وضعناه عنده من كومودينو وحامل شماسي، وما اتخذناه من إضاءة. بل لقد كانت غرفة المعيشة مؤثثة بالسجاجيد نفسها، والموبيليات المنجدة ذاتها، والنجفة هي هي، حتى الصور ونباتات الزينة الموضوعة على قاعدة الشباك. لقد أحسست كأنني أدخل حجرة المعيشة عندي. كانت الرفوف تحمل الكتب نفسها، حتى الزهرية رأيت فيها أزهار التوليب نفسها التي أحضرها پاول معه مساء أمس.

ولم يبد على السيدة برجمان أنها فزعت مثلما فزعت، بل لم يبد عليها شيء على الإطلاق، فقد ذهبتْ إلى المطبخ وأتت بالقهوة في إبريقي الأزرق، وصبتها في الفناجين التي تلقيتُها هدية من خالتي إيمّه Emma بمناسبة زفافي، ووضعت الجاتو على المائدة، هو الجاتو الذي اعتدت أن أعده مرة كل أسبوع لأن پاول يحبه حباً شديداً، وقدمت إليّ سيجارة من الصنف الذي أدخنه، ودفعت إليّ بواحدة من طفايات (أوْجارتِن) بنقشة الزهور على البورسلين وهي التي اقتنيتها وأحب استعمالها.

لا أعرف كيف عدت إلى البيت، كل ما أعرفه أنني تركت السيدة برجمان بمجلسها وقهوتها وسجائرها وزهورها التوليب الحمراء وزهريتها، وهببت واقفة، وجريت مفزوعة مروعة، ورزعت الباب ورائي، وظللت حتى المساء لاأستطيع أن أفعل شيئاً.

وسخر پاول مني، وقال إن الأكلمة الرمادية والمرايات المدورة والموبيليات المنجدة التي لدينا موجودة في كل مكان، يستطيع كل من يريد أن يشتريها. وليس طقم القهوة الذي لدينا شيئاً فريداً، وزهور التوليب اشتراها من محل الزهور الذي على الناصية، فما الذي يمنع السيد برجمان من أن يفكر أمس أو أول من أمس الفكرة نفسها ويشتري كما اشترى. وانتهى إلى أن القصة من أولها إلى آخرها سخيفة، وأن سببها الوحيد هو أنني أظل وقتاً طويلاً وحدي، ودعاني إلى أن أخالط الناس، وألا أقضي النهار كله في البيت لا أخالط أحداً إلا أولادنا.

ولكنني في اليوم التالي ادّعيت أنني أتيت لأستلف بكرة خيط ودخلت بهذه الحيلة بيت جارتي التي على الشمال، فلم أكتشف لديها حجرة معيشتي بكل موبيلياتها وسجاجيدها وصورها ونباتاتها فحسب، بل إنني - عندما تبعتها إلى الطابق الأعلى - اكتشفت حجرة نومي وتسريحتي وپلاكاري، وحجرة أولادي بكل ما فيها، والحجرة المطلة على الناصية بمنضدة الكي، ومرآة اللبس، وماكينة الخياطة الكهربائية، والمنضدة الصغيرة التي يمكن فتحها وتطويلها والتي أضعها عندي أيضاً أمام الشباك.

وابتدعتُ أعجب الحجج لأدخل كل بيوت الجيران في شارعنا، وكنت أضغط على زرار الجرس وقد تملكتني رجفة يداخلها الخوف والحياء، وأدخل يحدوني الأمل في أن أجد كرسياً أو دولاباً أو على الأقل مجلة لا تكون عندي في بيتي، ولكن هذا الأمل تبدد. وأشرفتُ على الجنون عندما اكتشفت أن رفوف الكتب التي رتبت خير ترتيب متضمنة كل الكتب التي لدينا، لم تكن تحمل كتباً حقيقية بل أغلفة فارغة قُلدت بمهارة، وكانت تخفي من ورائها صناديق الخياطة وزجاجات الويسكي وما يتصل بها من كئوس وثلج وأنبوبة الصودا والپيك أپ.

ولقد كان سكان شارعنا قبل عام مضى يختلفون بعضهم عن البعض الآخر فيما يتصل بالملبس وتصفيف الشعر على الأقل اختلافاً ظاهرياً. ولكن هذا الاختلاف تغير دفعة واحدة بعد أن تم إنشاء المركز التجاري الكبير في قلب الحي الجديد. وعرض هذا المركز التجاري نوعاً معيناً من الملابس المنزلية وملابس الخروج تمتاز بجمال ورخص فائقين، وما مرت أيام قلائل حتى كانت كل السيدات في شارعنا، بل كل السيدات في المناطق المتاخمة والقريبة، تلبس هذه الملابس التي لم تكن تختلف بعضها عن البعض الآخر في اللون والتفصيلة والقماش إلا اختلافاً طفيفاً. كذلك افتتح محل لملابس الرجال ودُهِشْتُ لپاول الذي كان حتى ذلك الحين يحرص على أن يشتري بدله وقمصانه وكرڤتاته من محلات متخصصة في وسط البلد، أو

يفصّلها على مقاسه، فقد تحول إلى عميل دائم للمحل الجديد مثله مثل كل الرجال الآخرين. ثم افتتح حلاقٌ محلاً جميلاً زين حيطانه بمرايا من البللور وخشب التيك، وحشد فيه عاملات حلاقة يتميزن بجمال باهر، ويلبسن زياً ورديّ اللون. ونشأت تحت أيديهن منذ ذلك الحين على رؤوس النساء، وعلى رأسي أنا كذلك، تسريحة واحدة سابغة يلف فيها الشعر في لفائف كبيرة، كن هن أيضاً يصففن شعرهن على نمطها.

لقد أصبح من الصعب التمييز بيننا. وكما تشابهت بيوتنا، تشابهنا نحن أيضاً. ولم يكن مفرٌ من أن يحدث ما حدث. فقبل ثلاثة أشهر تقريباً وقفتُ ذات مساء حول الساعة السادسة أنتظر عودة پاول. ولمحته قد عاد بالفعل، ورأيته يدور بالسيارة في الشارع، فلا يقف أمام بيتنا، ويبدو أنه أخطأ عد البيوت، فقد استأنف السير مسافةً ووقف أمام البيت الثالث والعشرين، ونزل من السيارة، وفتح باب الجراج هناك، ودخل بالسيارة فيه، ثم دلف إلى ذلك البيت يحمل حقيبة ملفاته،لم يخرج. وبعد ساعة ركَنَتْ السيارةُ التي كانت عادة تقف دائماً أمام البيت الثالث والعشرين في جراجنا، ودخل علينا رجل يلبس ملابس كملابس پاول، ويصفف شعره مثله، ويتكلم مثله، وسلم على الأولاد، وقبلني على خدي، وكنت في ذلك الوقت ألبس فستاناً بيتياً معتدل الثمن من تلك الفساتين التي يبيعها المركز التجاري، ولم يتبين الرجل الفرق، وأيقنت من أنه لا جدوى من أن أنبهه إلى خطئه، كما أيقنت من أنه لا جدوى من المقاومة، فنحن جميعاً في نهاية المطاف مسئولون عن وصول الأمر إلى هذا الحد، ولقد وصل بنا فعلاً ألى حد أننا لم نعد نعرف في الصباح أي رجل سيودعنا ليذهب إلى عمله، ولا في المساء أي رجل سيعود إلينا، ومع من سنجلس إلى التليڤزيون، ومع من سنأوي إلى فراشنا، نعم، فمن المكن أن نكون قد تبادلنا بيوتنا منذ وقت طويل، فلم يعد يخطر ببال أحد أن يعدَّ البيوت ليصل إلى بيته هو، ونحن نلبس الملابس الداخلية نفسها، ووجوهنا لها نفس الملامح، وتسريحة شعرنا هي هي، وتعبيراتنا هي هي، ولم يعد من الممكن تمييز أصواتنا بعضها عن البعض الآخر.

ولم يعد الأولاد في شارعنا يُسمَّون إلا باسمين لا ثالث لهما، اسم للبنين واسم للبنات، وقد أدى هذا إلى تبسيط الأمور، وأولادنا راضون مرتاحون، ويبدو أنهم، أولاً وقبل كل شيء آخر، لم يلحظوا شيئاً على الإطلاق.

ولقد وجدت قبل أسبوعين في الجريدة اسم المهندس الذي أرانا موقع المشروع آنذاك، وقرأت في الجريدة أنه نجح في إنشاء مؤسسة هائلة للمباني ضم فيها عدداً كبيراً من شركات المقاولات معاً، وأن المؤسسة ستقوم في العالم كله بإنشاء الأحياء النمطية ببيوتها وڤيللاتها المصفوفة المتشابهة والمشروعات السكنية طبقاً لتصميمات هذا المهندس.

ما قرأت هذا الخبر هذا تملكني الوجل. ولقد نسيت أن أحكي الحلم الذي رأيته ورأيت فيه المهندس، وهو الذي نوهت إليه في البداية. رأيت في المنام أن كلباً ضخماً كثيف الشعر اقتحم مكتب المهندس الذي خطط حيِّنا، وافترسه بجلده وشعره ومسطرته الحاسبة وبَرْجَلِه ولوحته ومسطرته، وفي صباح اليوم التالي، صباح الخميس، صحوت وقد خالجني إحساس بأن شيئاً ما سيحدث حتماً، شيئاً لا أستطيع تصوره، ولا أعرف عن كنهه شيئاً.

والرأي عندي أن مثل هذا الحلم لابد أن يكون له معنى، وقد يكون إرهاصاً بنازلة نُبتلى بها ولا نستطيع التصدي لها.

وهأناذي أقف بالنافذة، عندما يأتي المساء، وأسرح ببصري إلى ما وراء الحدائق والمساحات الخضراء وحمام السباحة المغطى وملاعب الرياضة فأرى ذلك الموضع الذي ترتسم فيه على صفحة الأفق صورة ظلّية مشرئبة تأتلف من برج الكنيسة، وبيوت بدائية البناء، متباينة الأحجام، مختلفة الألوان، تكتنفها من خلفها عن بعد ناحية الشمال خضرة دكناء مختلطة تضم هامات الأشجار تعلو من فوق حدائق فسيحة هائشة مختلطة شعثاء، أفكر أحياناً فيما إذا كانت الكلاب الضالة الضخمة الشعثاء - التي طردناها من هذه المنطقة ودفعناها إلى التشرد - ماتزال حية. بل إنني وجدتني بالأمس أتمنى في السر أن تعود.

جراتسييلا هلاواتي

Graziella Hlawaty

جدران رقيقة

Dünne Wände

ظلت الأسابيع الطوال تناضل لتمنع نفسها، فلم تفلح. كانت تسلك الطرق البعيدة، وتحاول ألا تقترب من محل بيع اللعب، وأن تلف لفة مطّولة لتنأى عن نافذة العرض بما فيها من لعب، ولكنها ذات يوم تشجعت، ودلفت إلى المحل.

هذا هو جرس الباب يدق، وبائع يظهرأمامها كأنما طلع من تحت الأرض. أو انشق عنه الماء. «طلباتك؟»

وهذه هي المرأة ذات الشعر الأبيض، الرقيقة، القصيرة، النحيلة، التي تبدو كأنها توشك أن تتكسر، تتحسس الحصان الهزاز، والدبدوب الكبير الأصفر، ومسرح العرائس، والمهرج ذا الطرطور. ثم تقف أمام لعبة على شكل سيارة النجدة تتحرك وقد أضاءت نوراً أزرق متقطعاً وشغلت سرينة صارخة مندفعة فوق المنضدة جيئة وذهاباً، فتتراجع إلى الوراء خطوة. وتنظر إلى دمى تمثل رجالاً قدموا من المريخ يطلقون شرراً أخضر. ودمية شريف أمريكي يطلق صفارته مستدعياً معاونيه، ويمسك طبنجة يسددها نحو قلبها.

ويتكرر السؤال :« طلباتك؟ »

وتبتسم المرأة العجوز مضطربة ثم تقول وكأنها لا تطلب بل تسأل :« كرة ».

ويرد البائع الشاب النشيط الابتسامة ويعيد الكلمة : « كرة ». ثم يقول بلغة الحديث الودي: « كرة للحفيد الصغير العزيز - - أي نوع من الكرات خطر ببالك؟ »

وترد معتذرة : « أنا - - أنا لم يخطر ببالي شيء. » وترتعد يداها قليلاً، فهي متقدمة في السن، تجاوزت السبعين يقيناً. وتحاول أن تشرح المطلوب قائلة : « كرة كما تكون الكرة عادة ».

ويقول البائع في نفسه، لابد أنها تشتريها لأبناء أحفادها. هي إذن تريد كرة لأولاد أولاد أولادها. ثم يرفع صوته ليقول : « لدينا كرات على مختلف الأشكال والألوان، كرات صغيرة، كبيرة، مزركشة، لون واحد، قدم، يد، تنس. »

وتقول المرأة مندهشة : « لديكم تشكيلة كبيرة »

ويشرح لها البائع :« الاختيار يحدده غرض الاستخدام.. وسن الطفل يلعب أيضاً دوراً. لدينا كرات تنط عالياً إلى أقصى حد، وكرات صلبة جداً. ولدينا كذلك كرات لينة - إذا جاز هذا التعبير في هذا المجال. »

ويبدو أن السيدة ذات الشعر الأبيض لم تسمع الجملة الأخيرة. لأنهاصاحت في حماس مفاجيء : كرات صلبة؟ لديكم كرات صلبة جداً؟ » ونظرت في حماس المنتصرة إلى الأدراج العديدة والرفوف المكدسة. « كرات صلبة - - نعم - هذا هو ما كنت أبحث عنه. أريد كرة صلبة، نعم ! ولا أريدها صغيرة »

* * *

وتنقضي الأمسية كما تنقضي كل أمسية.

في التليڤزيون فيلم صامت مضحك.

والكرة موضوعة على البوفيه بجانب كتاب عن الرسامين الفرنسيين. إنها تحب هؤلاء الرسامين، لم تقم في السنوات الماضية برحلات إلا معهم، بطريقة بسيطة جداً : تتصور السيدة ڤيتمان Wittmann نفسها تركب الطائرة، طائرة لطيفة ساكنة ساكتة تحوم دون أن تحدث محركاتها أزيزاً، وتدخل في اللوحة، في قطع السحاب الحائمة فوق ميناء أونفلير Honfleur وتشم رائحة المياه الرمادية المصفرّة؛ وتهب نسمة رقيقة من ناحية البحر فتحرك الرايات الصغيرة على الصواري عالياً، ويتناهى إلى السمع صوت طقطقة حبال السفن كأنه الأنين والتبرم، البحر هادىء كصفحة كالمرآة، يمكن أن يركبه الإنسان ويتوغل إلى الأفق البعيد حتى يبلغ سلاسل التلال الزرقاء... وقد تسافر السيدة ڤيتمان إلى اشبيلية، وتتنزه هناك مع السيد ديلكروا Delacroix فيعبران ساحة فسيحة خالية، إلى اليمين صف من الأشجار، وإلى الأمام نخلة سامقة يتجهان نحوها، ويبقيان. والنهار ينتصف، والأشجار لا تلقى ظلالاً، والبيوت بيضاء فاترة مغلقة. وهذه شرفات ومشرفات وعرايش وحنيات معرضة للضوء السافر، زخارف، وانسحاب لمن يريد الانسحاب... وفي البروڤانس جنوب فرنسا تصعد مع السيد سيزان Cézanne جبل سانت ڤيكتوار

Sainte Victoire دون جهد، في النور، والزرقة؛ الصخور، لبنات رقيقة، مرصوصة بعضها فوق بعض، مخلخلة، تبين الطريق إلى أعلى... وفي الرحلة إلى باريس تذهب السيدة ڤيتمان ومرافقها السيد جرانيه Granet في يوم غائم إلى شاطىء نهو السين؛ هناك درج ضيق يؤدي إلى قارب مسطح على نهر السين، تحت سقفه الخشبي العريض ظلمة ساترة حانية. والناس ملتحفون في ثياب سوداء، قابعون، متكورون على أنفسهم، يتحسبون سقوط مطر خفيف. وتظهر عقود الكوبري الواسعة في الخلفية بخطوط غامضة، وتضيق الدنيا وتوشك أن تغرق

في الغيام؛ والكوبري يمد عقده هكذا فوق ماءمنبسط رمادي مخْضَرّ ويتيح النظر والسير إلى بعيد... هل نعبر هذا الكوبري؟ هل نذهب إلى انجلترة؟ مونيه Monet ينتظرنا عند نهر التيمس، ويحرك يديه حركة لطيفة تجعلنا نستشف خطوط المباني، البرلمان، البرج، كوبري وترلو. والغيام والدخان الصاعد من السفن لا يواريان انعكاسات الأضواء فوق الماء، برتقالي يتلألأ، أصفر، ذهبي، ينساب متأرجحاً حتى يتجاوز التيمس... والكرة على البوفيه بجانب رفيق الرحلات.

ويحكي الفيلم الصامت وعنوانه «جدران رقيقة» قصة مرحة عن جارين يتصنتان بعضهما على البعض. يلصق أحدهما أذنه على ورق الحائط المشترك من هذه الناحية، ويلصق الآخر أذنه من الناحية الأخرى، ويحاول كل منهما أن يكتشف ما يحدث خارج شقته. لماذ صمت جاري هكذا؟ماذا يفعل؟ إنني لا أسمعه. ليس هذا وقت النوم. ويحبس المتصنتان أنفاسهما في وقت واحد ليستطيعا التصنت على نحو أفضل : فلا يسمعان إلا الأنفاس المحبوسة من وراء الحائط - - السكون.

آه.. السكون ! وتطلق السيدة ڤيتمان زفرة وتقفل التليڤزيون. لم يعد من الممكن تصور مثل هذا السكون.

وتنهال عليها على الفورألوان الصخب الليلي المعهود وكأنها جاءت تؤكد كلامها. جلبة باب المصعد : جارها في الشقة التي على اليمين وصل. تعقب جلبة باب المصعد جلبة إغلاق باب الشقة. ثم يأتي رنين التليفون المعهود في الشقة التي تحتها : ليس هناك على ما يبدو أحد يسرع إلى التليفون، فيظل الجرس يدق ويدق ويدق. وهنا تبدأ الجارة في الشقة التي على اليسار في تجفيف شعرها بمجفف كهربائي له حفيف، والجار في الشقة المقابلة يشاهد فيلم رعاة بقر من النوع العنيف وتصل فرقعة الطلقات النارية حتى حجرة نوم السيدة ڤيتمان؛ ولقد كانت في الحقيقة تود الإفلات من التراشق بالنار في الفيلم، فأغلقت التليڤزيون.

والآن يبدأ الجحيم المستعر في الشقة بالدور الأعلى. زلزال رهيب، موجات عارمة من الرعد تدوي من فوق السيدة ڤيتمان. وتلتمس نجدة فتنظر إلى البوفيه... وتتناول رساميها الفرنسيين، وتحاول الفرار، وتجد نفسها في فرنسا أمام كاتدرائية روان التي اصطبغت بزرقة لامعة، وتتوغل في الظلال الداكنة عند البوابات القوطية التي تكتنفها أعمدة زافرة. وهنا - فوق رأسها مباشرة : يدوي صوت انفجار. فرقعة. قرقرة. دك. صراخ. زعيق. ثم فرقعة مرة أخرى. انفجار، صخب، دوي زحف مكتوم. ويصيح السيد مونيه : «القنبلة أصابت الهدف في الصميم. إنني أحس كأنني أتعرض لغارة جوية.»

وتهز السيدة ڤيتمان رأسها في يأس. «يحدث هذا كل يوم. ولا يحدث في اليوم مرة واحدة. بل يستمر بلا انقطاع. ومن كل ناحية.»

ويقول السيد مونيه : «إنها حالة حرب. حالة حصار، وحالة حرب. لابد أن يطلب الإنسان حماية السلطات.»

وردت السيدة ڤيتمان :«آه، رباه، السلطات لا يهمها ما أعاني ». وضغطت بقبضتيها على أذنيها يائسة. « لو كان لدي السلطات أدنى إحساس بالواجب، لحظرت بناء مثل الجدران الرقيقة» وأشارت بيدها حواليها.« ما ينبغي التصريح ببناء مثل هذه الجدران الرقيقة.»

. ويواسيها مونيه قائلاً:« إن عصرنا بلغ أعلى درجة من المنجزات التكنولوجية. عندنا مواد من كل نوع، ونحن متمكنون كل التمكن من استخداماتها. فلماذا لا يكون من الممكن بناء جدران ملائمة؟ لا أقول بناء جدران من نوع جدران الكاتدرائيات» ويضحك مونيه ويضيف : «لنقل : بناء جدران تليق بكرامة الإنسان »

وتضحك السيدة ڤيتمان ضحكة مريرة : «صدقني يا مسيو مونيه، إن السلطات وأصحاب المباني لا يشغلون بالهم بالمصير الذي نبتلى به وراء جدرانهم.» وأقصى ما سيقولونه لي إذا شكوت :«إنني أنا الحسّاسة للجدران الرقيقة.»

وقال مونيه وهو يتكيء على البوفيه ويقلب في صفحات الكتاب :«إذا كان الأمر كذلك، فلا حل إلا الهرب. يمكننا مثلاً أن نهرب ونشترك في سباق الريجاتا في أرچنتوي Argenteuil. الجو هناك رائع. انظري. ماء أخضر بديع. وبيوت خشبية حمراء تنعكس صورها فيه، وانظري إلى أشرعة المراكب البيضاء العالية، والأشجار والشاطيء الأخضر الغامق. والشجيرات التي تكتنف المراعي - هل تشمين رائحة الأرض السوداء المبتلة؟أترين إلى الأشرعة البراقة كيف تتلألأ في الماء، كيف تنساب، تتسلل، ترفرف على تموجات رفيقة. يوم صحو، أليس كذلك؟ السماء مثقلة بالصيف خضراء زرقاء...»

... هل هذه عاصفة؟!

لا، في الشقة التي فوقنا انفجارات، طلقات مدافع تدوي فوق رأس السيدة ڤيتمان. انفجار. انفجار ثان. انفجار ثالث.

لا، الآن لم تعد تستطيع التحكم في نفسها. هذه هي السيدة ڤيتمان تنسى مونيه، وتندفع نحو الكرة، وتمسكها، بحرص العابدين، وغيظ الحانقين، وتحكم قبضتها عليها. وتركز حواسها أشد تركيز، وتجمع قواها، وترفع بصرها نحو سقف الحجرة، وتلتقط نفساً، وترجع يدها إلى وراء في وضع الاستعداد، وتصوب نحو مكان الدوي، وتدفع الكرة بأقصى قوة إلى أعلى. كرة صلبة حقاً. تحدث دوياً، وجلبة، وانفجاراً ورجعاً.

ثم : سكون، سكون القبور، يخيم على الشقة العلوية. وسمعت السيدة ڤيتمان بعد لحظات بوضوح صوت امرأة في الدور الأعلى : «أرأيت! هذه هي النتيجة. إنها العجوز تحتنا. تشكو منا وتحدث هي نفسها جلبة هائلة ! لم يعد الإنسان يحتمل الحياة في هذا البيت !».

توماس برنهارد

Thomas Bernhard

عند آخر حدود الأشجار فوق الجبل

An der Baumgrenze

في اليوم الحادي عشر، في وقت متأخر من المساء، استأجرت فتاة وفتى حجرة في الفندق، وتبين أنهما من مورتستوشلاج Mürzzuschlag. ودلف الاثنان بعد وصولهما بقليل إلى قاعة الفندق لتناول طعام العشاء، وعبرا عما يريدان من طلبات بسرعة، دون أن يبدو عليهما أقل ارتباك، وكان كل واحد منهما يتصرف مستقلاً عن الآخر؛ ورأيت أنهما تعرضا للبرد قبل أن يأتيا فاقتربا من المدفأة يلتمسان الدفء. وقالا إنهما دهشا لما يسود هذا المكان من الخلو من البشر، وسألا عن ارتفاع مولباخ، فأجابت ابنة صاحب الفندق بأننا في مكان يرتفع ألف متر عن سطح البحر، وهي قد كذبت، ولكنني لم أقل «تسعمائة وثمانين»، لم أقل شيئاً، لأنني لم أشأ أن يعطلني شيء عن ملاحظة الاثنين. وهما لم يتنبها في البداية إلى وجودي عندما دلفا إلى القاعة، ففزعا، كما رأيت، عندما أبصرا بي، وحيياني بإيماءة، ولكنهما لم يسترسلا في النظر إليّ من فوق المنضدة. وكنت قد بدأت أكتب رسالة إلى خطيبتي، لأقول لها إن الكياسة تفرض عليها أن تبقى حيناً صابرة صامدة عند والديها إلى

أن آتكيف مع الحياة في مولباخ Mühlbach ؛ فإذا تمكنت من تدبير غرفتين لنا خارج الفندق « ربما في تينيك Tenneck » ، كما كتبت، عندذلك سيكون لها أن تأتي. وكانت في خطابها الأخير إليّ قد كتبت، علاوة على الشكوى الكثيرة من والديهما اللذين لا يفهمانها ، أنها تخاف من مولباخ، فرددتُ عليها بأن خوفها لا أساس له، وأن حالتها تتغيروتتخذ صورة مَرضيَّةً تظهر في أنها أصبحت الآن تخاف من كل شيء. وكتبت إليها ، إنها عندما يولد الطفل سترى من جديد بوضوح أن كل شيء على ما يرام. وقلت، من الخطأ أن نتزوج قبل نهاية العام، هذا ما كتبْتُه، وكتبتُ :«الربيع القادم سيكون موعداً مناسباً. ومهما كان الوقت الذي يولد فيه الطفل» ـ هذا ما كتبته ـ «فسيكون مولده محرجاً للأهل والصحاب على أية حال». وفكرت، لا ، لا يمكن أن تكتب هذا الكلام، كل ما كتبته إلى الآن في الخطاب لا يحق لك أن تكتبه، لا يليق بك أن تكتبه، وبدأت أكتب الخطاب من جديد، بدأت على التو بجملة نقلت إليها فيها شيئاً محبباً إلى النفس، شيئاً يلهيها عن مصيبتنا ، ضمّنتها خبراً عن زيادة المرتب التي وُعِدتُ بها ابتداء من شهر أغسطس القادم. وقلت إن المركز في مولباخ بعيدٌ ناءٍ، هذا ما كتبته، وفكرتُ في أن نقلي إلى مولباخ هو بالنسبة إليها وإليّ عقوبة، عقوبة إعدام، وكتبت «إن النقل في الشُّرطة يجري حسب تقدير المفتش العام. وكنت اعتقد في البداية أن النقل إلى مولباخ لا يزيد ولا ينقص على أن يكون بالنسبة إليّ وإلينا كارثة، أما الآن فلم أعد أفكر هذه الفكرة. فهذا المركز له ميزاته. والمفتش وأنا مستقلان تماماً في عملنا » هذا ما كتبته وفكرت : إنها عقوبة إعدام، فماذا أعمل لكي أخرج يوماً من مولباخ كما دخلتها ، وأنزل إلى الوادي، أي إلى الناس، إلى الحضارة. «على أية حال في مولباخ ثلاثة فنادق » هذا ما كتبته، ولكنني أدركت أنني أجافي الكياسة عندما أكتب هذا الكلام فشطبت الجملة واجتهدت في ألا تظهر من تحت الشطب وفي أن أجعل قراءتها مستحيلة، وأخيراً قررت أن أعيد كتابة الخطاب كله للمرة الثالثة. (أصبحتُ في الفترة الماضية أكتب كل الخطابات ثلاث أو أربع أو خمس مرات من فرط الانفعال الذي يتملكني في أثناء الكتابة ويستبد بأفكاري وعباراتي). كتبت

أن العمل في الشرطة ركيزة طيبة بالنسبة إلينا، وذكرت زيادة الأجر، وفرقة التدريب على السلاح التي تقرر أن أشترك فيها في ڤيلس في أواخر الخريف، عندما دخل الاثنان، شيء عجيب البنت تقدمت الشاب الذي تبعها من خلفها، دخلا قاعة الفندق، وكنت أكتب عن زوجة المفتش التي مرضت بالسل وأشرفت على الهلاك وذكرت أنها من تشيللي Cilli في سلوڤانيا. واستأنفت الكتابة، ولكنني كنت أحس أنني لن أستطيع إتمام هذا الخطاب أيضاً وإرساله، وشد الفتى والفتاة اهتمامي منذ اللحظة الأولى، وتبينت أن تشتتاً كاملاً ألمّ بي وأفسد عليّ التركيز على الخطاب، ولكنني استمررت أكتب كلاماً فارغاً حتي أستطيع أن أراقب الغريبينْ على نحو أفضل مضللاً إياهما بأنني أكتب. ولقد طابت نفسي إذ رأيت مرةً وجوهاً جديدة تأتي في هذا الفصل من السنة، ولقد علمت الآن أن الأغراب لا يأتون أبداً إلى مولباخ، ولهذا كان ظهور الاثنين أمراً مثيراً لمزيد من العجب، وظننت أن الشاب عامل يدوي وأن الشابة طالبة وأنهما من منطقة كيرنتن. ولكنني تبينت أنهما يتكلمان كلاهما لهجة منطقة شتايرمارك. وتذكرت زيارتي لابن عمي الذي يعيش في شتايرمارك في كاپفنبرج Kapfenberg، فأيقنت أن الاثنين من منطقة شتايرمارك فالناس هناك يتكلمون على هذا النحو. ولم أتصور بوضوح أي حرفة هذه التي يمارسها الشاب الذي خلته عاملاً يدوياً ؛ وتصورت في البداية أنه عامل بناء، استنتجت ذلك من كلمات مثل «رباط الحائط، طوب حراري » الخ، ثم ظننت أنه كهربائي، وكان في الحقيقة عاملاً زراعياً. وتصورت شيئاً فشيئاً مما كان الاثنان يقولانه، أرضاً زراعية لا يزال والد الشاب الذي يبلغ الخامسة والستين يقوم على شئونها، (وفكرت، أرضاً على السفح). واستخلصت أن الابن يعتبر آراء الأب حمقاء، وأن الأب يعتبر آراء الابن حمقاء، وأن الأب يتصدى للإبن، وأن الابن يتصدى للأب. وفكرت، «عناد ». ومثلت أمام ناظريّ مدينة صغيرة يذهب إليها الإبن مرة كل أسبوع للتسلية، فيلتقي فيها بالبنت التي يصارحها الآن عند المدفأة بما عقد عليه النية في أمر أملاك الأب، فيقول إنه سيُجبر الأب على الاستسلام، على النزول عن العرش. وفجأة ضحك الاثنان، ثم صمتا فأطالا الصمت.

وأتتهما صاحبة الفندق بطعام وشراب وفير. وكان كثير من مسلكهما يذكرني، وهما يتناولان الطعام، بمسلكنا نحن. فعليّ أنا يقع دائماً عبء الكلام مثل هذا الشاب هناك الذي يتكلم بينما تلوذ البنت بالصمت. وكان الشاب في كل ما يقوله يهدد. تهديد، تهديد في تهديد. وأسمع أنها في الواحدة والعشرين (هل هو أكبر منها سناً ؟، هل هو أصغر منها ؟)، وأنها تركت دراستها (الحقوق؟)، وأنها أصبحت من حين لآخر تدرك أنها تسير في طريق مسدود وتهرب إلى القراءة العلمية (الحقوق ؟)، وأنه «يزداد سوءاً »، وأنها تكتشف فيه أكثر فأكثر ما أسمته «وحشية تطبيقية»، وأنه يزداد شبهاً بأبيه، وأن ذلك يخيفها. ودار الحديث حول لكمات انهالت على وجوه الإخوة وأبناء العمومة، وجروح بليغة في أجسادهم، وعن الحنث في الوعود، والقسوة حيث تُطلب الرأفة. ثم قالت : «وجدتُ الدنيا حلوة فوق قمة التل» وقالت إن بدلته تعجبها والقميص الجديد عليها. كان طريقهما إلى المدرسة يخترق غابة مظلمة حالكة كثيفة، كانا يخافان فيها، هذا ماتذكراه كلاهما : وتذكرا أنهما اكتشفا سجيناً فر من جوللرسدورف Göllersdorf، وكان يلبس ثياب المساجين، وتردى في الغابة السامقة الكثيفة فوق جذع شجرة فأصيب بجرح غائر في دماغه ونزف حتى الموت ونهشته الثعالب. وتحدثا عن ولادة مبكرة وعن تحويل نقود... كانا كما علمت فجأة قد برحا الشتايرمارك منذ أربعة أيام، ونزلا لينتس Linz ثم شتاير Steyr ثم ڤيلس Wels. وسألت نفسي عما أتيا به من حقائب. يبدو أن معهما الكثير من الحقائب، لأن صاحبة الفندق حملت أشياء ثقيلة، لا زلت أسمعها، أسمع شخصاً يصعد إلى الدور الأول إلى حجرات النزلاء. صعدت صاحبة الفندق مرتين. في هذه الأثناء ستكون الحجرة قد تدفأت. أي حجرة هي ؟ المشكلة التي تواجهها الفنادق الريفية في الشتاء هي التدفئة. فكرتُ، مدفأة وقودها الخشب. كل شيء يتركز في الشتاء في الريف على التدفئة. ورأيت أن الشاب يلبس حذاء عالياً ريفياً غليظاً، أما البنت فكانت تلبس حذاء حضرياً رقيقاً صغيراً. وفكرت أن البنت بصفة عامة تلبس ثياباً لا تناسب هذه المنطقة وهذا الفصل من السنة على الإطلاق. وفكرت، لعلهما لم يكونا ينويان الإقامة في الريف أساساً.

ولماذا مولباخ ؟ من الذي يذهب إلى مولباخ إن لم يكن مضطراً مجبراً ؟ ثم أخذت أسمع ما يتبادلانه من حديث، عندما فرغا من تناول الطعام، ثم شرباً البيرة، من ناحية، ومن ناحية ثانية أقرأ ما ظللت أكتبه، وفكرت في أن الخطاب لا يمكن الانتفاع منه بشيء على الإطلاق، فهو يلقي الكلام على عواهنه، كلاماً وقحاً دنيئاً معيباً لا كياسة فيه. وفكرت، ما يليق بي أن أكتب شيئاً على هذا النحو، لا، على هذا النحو لا يليق، وفكرت، سأترك الخطاب وأنام ليلتي، وفي الغد أكتب خطاباً جديداً. وفكرت، مثل هذه العزلة المقطوعة عن العالم تهلك الأعصاب. هل أنا مريض ؟ هل أنا مجنون ؟ لا، أنا لست مريضاً، ولست مجنوناً. لقد كنت مرهقاً، ولكنني في الوقت نفسه عجزت بسبب الشاب والفتاة عن مبارحة قاعة الفندق والصعود إلى حجرتي في الدور الأول. وقلت لنفسي الساعة الحادية عشرة، اذهب ونم، ولكنني لم أذهب. وطلبت كوباً آخر من البيرة، وظللت جالساً وشخبطت على ورقة الخطاب زخارف ووجوهاً، دائماً نفس الزخارف ونفس الوجوه التي كنت في طفولتي بدافع الملل أو الفضول الكامن أشخبطها على الورق المكتوب. وفكرت، ليتني أنجح فجأة في استجلاء موضوع هذا الشاب وهذه الفتاه، هذين الحبيبين. وتكلمتُ مع صاحبة الفندق بينما أرهفتُ السمع إلى الغريبيْن، وفجأة خطرت ببالي فكرة هي أن الاثنين «خروج على القانون». ولم أعرف شيئاً أكثر من أن هذا شيء غير سوي، من قبيل وصولهما في وقت متأخر من الليل إلى مولباخ بالأتوبيس واستئجارهما حجرة، وشد انتباهي أن صاحبة الفندق سمحت لهما بأن يبيتا معاً في غرفة واحدة كما تفعل مع كل زوجين، وأنا أجد ذلك شيئاً طبيعياً، وأقف منه موقفاً سلبياً، وأراقب، وأشعر بالفضول، وأتعاطف، ولا أفكر دون شك في أن هذا موضوع يستدعي التدخل. التدخل ؟هأنذا أبدأ فجأة في لعبة إقامة صلة بين الجريمة وبين الاثنين، عندما يرفع الشاب صوته ويطلب بنبرة الأمر أن يدفع الحساب، وهذه صاحبة الفندق تذهب إليهما وتحسب ثمن مشروباتهما في حساب واحد، وما يفتح الشاب حافظته حتى أرى فيها نقوداً كثيرة. وأفكر فى أن أبناء الفلاحين يسحبون بين الفينة والفينة مبلغاً كبيراً نسبياً من

الحساب الموضوع تحت تصرفهم ويخرجون مع بنت وينفقون النقود بسرعة. وتسألهما صاحبة الفندق متى يحبان أن توقظهما في الصباح، فيقول الشاب « في الثامنة» وينظر الآن إليّ، ويضع لابنة صاحب الفندق بقشيشاً على المنضدة. الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف عندما يخرجان من القاعة. و صاحبة الفندق ترفع الأكواب من فوق المنضدة وتغسلها ثم تجلس إليّ. وأسألها، ألا يبدو الاثنان لها مثيرين للشك . مثيرين للشك ؟ وتقول لي «طبعاً». وتحاول مرة أخرى أن تقترب مني على أحط نحو، فأدفعها بعيداً، أضع مصباح البطارية على صدرها وأدفعها، وأنهض، وأذهب إلى حجرتي.

كل شيء هادئ في الدور الأول، أنا لا أسمع شيئاً. وأنا أعرف الحجرة التي ينزل فيها الاثنان، ولكنني لا أسمع شيئاً. وبينما أنا أخلع الحذاء ذا الرقبة أظن أنني أسمع حفحفةً، نعم حفحفةً. وأرهف السمع بالفعل برهة ولكنني لا أسمع شيئاً.

وفي الصباح في الساعة السادسة، أفكر، إنني لم أنم إلا أربع ساعات، ولكنني أكثر نشاطاً مني في أي وقت آخر عندما أنام، وأسأل على الفور في قاعة الفندق في الدور الأرضي صاحبة الفندق، التي تقوم بتنظيف الأرضية وتلميعها، عن موضوع الاثنين. لقد شغلت بهما طوال الليل، وقالت، هو، صحا في الساعة الرابعة مبكراً وخرج من الفندق، لا تعلم إلى أين ذهب. أما البنت فهي في الحجرة. وقالت صاحبة الفندق، الآن، إنهما بلا حقائب على الإطلاق. بلا حقائب ؟ وما هذه الأشياء الثقيلة التي حملتها صاحبة الفندق بالأمس إلى حجرة الاثنين ؟ « خشب للمدفأة». نعم خشب. الآن، بعد أن هرب الشاب مبكراً في الساعة الرابعة صباحاً («لقد استيقظت وراقبته »، هذا ما تقوله صاحبة الفندق، «خرج بدون معطف، في البرد»...) تقول إنها أحست «بإحساس رهيب غامض» حيال الاثنين. وسألتها، هل أخذت منهما جوازيْ السفر، بطاقتيْ تحقيق الشخصية. لا، لم تأخذ لا الجواز ولا بطاقة تحقيق الشخصية. ولو فعلت لعرضت نفسها للعقاب، وكنت قد قلت ما قلته بنبرة عميقة. وتناولتُ

طعام الإفطار، ولكنني ظللت أفكر في الغريبين، وكذلك صاحبة الفندق كانت تفكر فيهما، على قدر ما استطعت أن أتبين من الملاحظة، وظللت طوال الصباح الذي أمضيته مع المفتش في المركز مشغولاً بالغريبين، ولم يكن لي أن أبرح المركز ولا مرة واحدة. لماذا لم أقص على المفتش شيئاً عنهما، لا أعرف. لقد كنت أعتقد بالفعل أنه لن يمر وقت طويل (ساعات؟) حتى يحين حين التدخل. التدخل؟ كيف، و«على أي أساس» يكون التدخل ؟ هل أبلغ المفتش بالواقعة، أم لا أبلغه ؟ هل أبلغه عن عاشقيْن في مولباخ ! وضحكت. ثم صمتُّ وعكفت على تأدية عملي. وكان عليّ أن أعد قائمة جديدة بأسماء السكان. والمفتش يسعى إلى نقل زوجته من مصحة المصدورين في جرابنهوف إلى مصحة جريمن

وهو يقول إن نقلها يكلفه جهداً في تقديم الطلبات الكثيرة ويكلفه المال الكثير، ولكن حالتها تسوء في جرابنهوف ؛ وفي جريمن طبيب أفضل، وإنه سيكون عليه أن يأخذ يوماً كاملاً إجازة ويسافر إلى جرابنهوف لينقل زوجته إلى جريمن. ولقد كانت السنوات العشرون التي قضياها في مولباخ هو وزوجته كافية في رأيه لتحويلها، وهي ابنة المدينة، مدينة هاللاين Hallein، إلى مريضة تشرف على الموت. وقال المفتش «الإنسان العادي لا يمرض مرضاً صدرياً في هذا المكان المرتفع في هذا الهواء الطيب». وأنا لم أر زوجة المفتش قط، فمنذ أن نزلتُ مولباخ لم تعد إلى البيت. وهي في مصحة جرابنهوف منذ خمس سنوات. وسألني عن خطيبتي، وهو يعرفها، بل لقد رقص معها في آخر مرة أتت فيها إلى مولباخ، هذا الرجل الهرم السمين، فكرت في هذا وأنا اتطلع إليه. وقال « من الجنون أن يتزوج الإنسان قبل الأوان» كما إنه «من الجنون أن يتزوج بعد الأوان». وسمح لي في النصف الثاني من فترة العمل الصباحية بأن أنتهي من كتابة خطابي إلى خطيبتي (إذ أمرني : «اكتب»). وإذا أنا فجأة صافي العقل متهيئاً لكتابة الخطاب. وقلت لنفسي عندما فرغت من الكتابة دون أن أضع فيه أدنى كذبة، هذا خطاب جيد، وقلت سأرسله بسرعة، وذهبت إلى حيث وقف الأتوبيس

ووجدته قد سخن المحرك استعداداً للتحرك، وما أعطيت السائق الخطاب حتى تحرك، وكان في. ذلك اليوم خالياً من الناس فيما عدا السائق. كانت درجة البرودة واحد وعشرين تحت الصفر، كما قرأتها على الترمومتر المعلق بجوار باب الفندق، وكانت صاحبة الفندق قد رأتني في المدخل المفتوح فلوحت إليّ أن أدخل. كانت قد قرعت باب الحجرة التي رقدت فيها البنت وظلت منذ ساعات تعاود الكرّة المرة تلو لمرة فلم تتلق رداً، على حد قولها، «لاشيء». فصعدت من فوري إلى الدور الأول وقرعت الباب. لا شيء. وقرعت مرة أخرى، وقلت للبنت أن تفتح. قلت «افتحي. افتحي »، مراراً. لا شيء. وقلت، لما لم يكن هناك مفتاح آخر فلابد من فسخ الباب، ووافقت صاحبة الفندق على فسخ الباب دون أن تنطق بكلمة. ولم تكن بي حاجة إلا إلى الضغط بنصفي الأعلى على الباب ضغطاً قوياً، فانفتح الباب. كانت البنت ممدة بعرض السرير المزدوج مغشياً عليها، فأرسلتُ صاحبة الفندق إلى المفتش. واكتشفت أن البنت مصابة بتسمم دوائي عنيف، وغطيتها بالمعطف الشتوى الذي أنزلته من فوق عَظْم الشباك، ويبدو أنه كان معطف الشاب. وفكرت، إن البنت لم تبدأ في تنفيذ محاولة الانتحار فعلاً إلا بعد اختفاء الشاب (خطيبها ؟). وكانت هناك حبوب منثورة على الأرض. واحتار المفتش في أمره. كان من الضروري الانتظار حتى يأتي الطبيب، وتبينّا جميعاً مدى صعوبة استدعاء طبيب ليصعد المرتفع حتى مولباخ. قد تنقضي ساعة إلى أن يأتي الطبيب، هذا ما قاله المفتش. أو ساعتان. وقال إننا لم نجد أنفسنا في مولباخ من قبل قط في وضع الاحتياج إلى طبيب. وفكرتُ، الأسماء، البيانات، نعم البيانات، وفتشت حقيبة يد البنت، دون نتيجة. وفكرت، في المعطف، وبحثت في المعطف، الذي غطيت به البنت، بحثاً عن حافظة. وبالفعل كانت حافظة الشاب في المعطف. كذلك كان جواز سفره في المعطف. ڤولزرWölser ألويس Alois، مولود في ١٩٣٩/١/٢٧ في ريتنئج Rettenegg قرب مورتسوشلاج، هذا ما قرأته. أين الرجل ؟ خطيبها ؟ وجريت إلى قاعة الفندق وأبلغت كل المراكز تلفونياً بالحادثة التي بدت لي كافية لإصدارأمر بالقبض على ڤولزر. وفكرت في أننا نحتاج إلى الطبيب بأقصى سرعة، فلما أتى بعد نصف ساعة لم يكن في قدومه نفع : كانت البنت قد ماتت.

وفكرت، هذا يبسط الأمور، ستبقى البنت في مولباخ.

وألحت صاحبة الفندق على إخراج الجثة من الفندق ونقلها إلى المشرحة. ورقدت البنت هناك يحملق فيها أهل مولباخ الفضوليون بلا انقطاع، يومين، إلى أن تم التوصل إلى والديها، ووصلا إلى مولباخ بعد طول انتظار في اليوم الثالث، السيد والسيدة ڤولزر، والدا ڤولزر، وكانا في الوقت نفسه والدي البنت، فقد اتضح ما أثار الجميع، أنهما أخ وأخت. ونقلت البنت على الفور إلى مورتسوشلاج، ورافق الوالدان الجثة في عربة نقل الموتى. وظل الابن والأخ مختفياً لا يعثر عليه أحد.

وبالأمس، الثامن والعشرين، عثر عليه اثنان من الحطابين فجأة على غير توقع تحت آخرحدود الأشجار بقليل، على الجبل فوق مولباخ، وقد تجمد من البرد، وتغطى بوعلين ثقيلين من وعول الشاموا كان قد قتلهما .

بيتر مارجنتر

Peter Marginter

صناعة وسعادة

Industrie und Glück

كان يوزف ب منذ طفولته يتسم بالرقة والسماحة. وكان أهله ومدرسوه سعداء به كل السعادة، يقولون عنه : «مَلَكٌ كريم»، وكان يصدقهم. ولم تكن الحياة على هذه الصفة أمراً صعباً عسيراً، بل على العكس تماماً : كان يفعل الصواب والخير عن فطرة سعيدة فطر عليها. كان قلبه الحنون يرق للزهور والحيوانات والمسنين، وكان ينفق مصروفه على عجل، يعطيه لمتسول أو يضعه في صندوق التبرعات يوم الأحد دون أن يفكر في أن الله سيضاعفه له. كذلك كان حسن العلاقة مع الصبية الآخرين، لأنه كان سمحاً واسع الخيال، يغدق عليهم من بنات أفكاره الممتعة، ويسبِّقهم عليه راضياً عند تخرج الفكرة إلى حيز التنفيذ. ومن البديهي أنه كان بين الفينة والفينة يقع في براثن أشرار ممن يحلو لهم الشجار، عرفوا فيه أنه مسالم لا يدافع عن نفسه، فعمدوا إلى إيذائه. هنالك كان يتذكر طبيعته الملائكية، فينأى بنفسه ويحلّق بعيداً حتى لا تراه الأعين. فإذا أخفق في مسعاه وأحاطوا به من كل جانب صبرعلى الألم في صمت حتى يدركوا أنه ضحية مملة فيرفعوا أيديهم عنه. ومن أجمل ما أوتي من حكمة يقينه من أن كل منازعة تتحلل من تلقائها وتتلاشى إذا رفض الغريم قبول الاستفزاز،

وهكذا تأكدت موهبته في تسوية المنازعات حيث كان يحض الضعاف على الصبر حتى لا ينهزموا.

وإذا كان الطيبون كثيراً ما يلفون لف الأغبياء، فإن يوزف ب كان حالة استثنائية تثير العجب. كان سهل الفهم، قوي الذاكرة، يحصل على أعلى الدرجات، ويبرر الآمال العظمى التي علقت عليه. وكان عيبه الوحيد أنه لم يكن يخص علماً بعينه منذ البداية باهتمام خاص فائق كما هي الحال بالنسبة إلى التلاميذ الآخرين الذين أوتوا ذكاء شبيهاً بذكائه وكانوا يهتمون بهذا أو ذاك العلم اهتماماً متميزاً بنبيء بمستقبلهم. ولهذا قبل دون معارضة رجاء أبيه، ودرس التجارة العالمية وأتمها بالحصول على درجة الدكتوراه.

واشتغل يوزف بعد حصوله على الدكتوراه في شركة مرموقة، وأنيط به فيها في البداية مهام إحصائية رياضية. وأثبت جدارته في هذا العمل، مما لفت أنظار رؤسائه إليه بعد وقت وجيز. ولما كان في تعامله مع زملائه نموذجياً يبث من حوله في غير تكلف جواً من الاطمئنان المرح يجعلهم يزيدون نشاطاً عن ذي قبل، فقد قرر المدير أن يستعين به في المفاوضات مع العملاء والمنافسين التي تتسم بصعوبة ودقة. وأسهم يوزف إسهاماً فعالاً في إنجاز اتفاقات هامة وتقدم تلقائياً بعد خروج النائب القديم فشغل منصبه. ولكن هذا الارتقاء واكبه تطور لم يكن أحد يتوقعه ولا يوزف نفسه على الرغم من أن أسبابه كانت موجودة في طبيعته.

والحق أن يوزف لم يحس بالارتياح كل الارتياح عندما أبلغه الرئيس بهذه الترقية، ولكنه فرح في البداية بهذا التقدير الذي رفعه مكاناً علياً فرحاً غطى على كل ما ساوره شكوك غامضة. يضاف إلى ذلك أن الصعود إلى منصب أعلى كان يعني طفرة مالية، ولم يكن يوزف على الرغم من كرمه يستهين بالمال قط. حتى جاءت أول مصادمة شديدة فكشفت له عما يكمن في وضعه الجديد من تناقض. كان العميل الذي لقيه شاباً فجاً وقحاً لا يتورع عن شيء، ولا يفلح في مجابهته إلا من شمّر كميه.. كان يقيناً من أسوأ العملاء، وإن لم يكن

يختلف عن غالبيتهم إلا في الدرجة. كان من الضروري اهتبال أول فرصة لرفع الصوت والضرب على المنضدة، والانصراف عن المبررات العقلية، حتى يسلّم الغريم، وهنا يأتي الحديث عن الضمير وتمثيل دور الأصم أو العبيط. ولم يطل بهذا الوقح الذي أطلقوه على يوزف الوقت حتى انتهز فرصته ليحيط به. ولم يجد يوزف من قوة يتشبث بها إلا قوة اليأس، ولم يحقق في الجولة الأولى إلا حلاً وسطاً معيباً إلى حد كبير، ثم كان عليه أن يعيد الكرّة لينتصر في الجولة التالية على نحو ما. ولكن قواه خارت، عندما فرغ من المباحثات، وأحس بركبتيه ترتعدان، ووضع رأسه على زجاج مكتبه وبكى.

وكلما أوغل في هذا الكفاح، زاد تقززه من كثير من التجار الشطار الذين كانوا يقيسون أنفسهم به. وكان من بينهم من برعوا في تحقيق المكاسب، وتمكنوا من التخطيط والحساب الجريء، فسلكوا في مفاوضاتهم مع يوزف سبلاً منفرة مقززة، ولكن الشخص الذي كرهه يوزف أشد الكره كان ذلك الوقح الذي حرص على أن يشعره في كل لحظة بأن طيبة القلب والابتسامة الودية تدخلان ضمن مجموعة الحيل التي يستخدمها كما يحلو له عندما يكون الموضوع موضوع المال. هكذا كره يوزف الرجل الوقح كرهاً لا مراء فيه، أما الآخرون فاكتفى باحتقارهم. ولقد حاول في تعامله مع المحيطين به أن يكون أكثر أدباً ورقة من ذي قبل، ولكن حنقه الكامن كان يندفع أحياناً فجأة، فينطلق من عقاله، ويطفو إلى السطح كما يصعد حرقان المعدة إلى الحلق، وكان يوزف عندئذ يحس بالاضطراب والحرج، ويجنح إلى تنازلات يحاول بها على نحو ما أن يعتذر، ولكنها كانت تزيد عن الحد وتجاوز الاعتدال. وكان إذا تساهل مرة يحاول في أول فرصة تالية أن يصلح ما أفسده التساهل، فيتشح بالكلمات الغليظة ويتدرب على تمثيل الشدة بأن يقصم أقلام رصاص رخيصة. ولكنه لم يفلح : فقد تفوق عليه آخرون في ذلك المضمار، ولم يلبث الأذكياء، بعد أن أخذتهم المفاجأة في البداية، أن فهموا الأسلوب البسيط الذي اتبعه يوزف عندما تأرجح بين الود الفطري والوقاحة المتكلفة. وعرفوا أنهم يستطيعون أن يوقعوه في الارتباك والحيرة ويخرجوه عن مخططه

عندما يقولون له بعض الجمل المهذبة المحفوظة. وكان يوزف من الكياسة بحيث سبر أغوار هذه الأساليب، ولكنه كان من الضعف بحيث عجز عن أن يصمد في مواجهتها ، وكان يجنح إلى الاعتقاد بأن أصحابها صادقون فيها معه. ولكن كرهه زاد واتسع مداه وامتد شيئاً فشيئاً ليشمل أناساً لم يكونوا يسعون إلى شيء آخر سوى الحفاظ على مصالحهم بالطرق المألوفة، وكانت نواحي العري الواضحة في يوزف هي التي تغريهم باستخدام هذه الطرق معه. وأدرك يوزف أنه تغير، وعانى من ذلك. وكان في ساعات الراحة يخلو إلى نفسه ويبعد عن الناس، ويقوم بجولات بعيدة في الخلاء في نهاية الأسبوع، ولكن الطبيعة لم تعد تحدثه، بل أصبح ينظر إليها من خلال حاجز يشبه الستار الحديدي، وكأنه كان ينظر من خلال قضبان قفص هائل انحبس فيه، وظل يعدو جيئ{ وذهاباً يحركه نفس الدافع الغامض الذي يجعل الحيوان الحبيس يعدو في قفصه هنا وهناك دون أن يذوق طعم الراحة. وكانت تمر به لحظات ثمينة ينسى فيها نفسه ويظن أنه وجد مخرجاً، ثم ما يلبث أن يتبين أن كل مخرج يرده إلى حيث بدأ. وشكا أصدقاؤه القدامى من أنهم لم يعودوا يروه إلا نادراً، وخشوا أن يكون شيء رهيب قد حدث له. وكان يوزف يرد عليهم بقوله إن العمل كثير، وإن تلك الظاهرة صاحبت ترقيته. أما الأعداء فكانوا يلاحقونه حتى في النوم، كان يرى نفسه في الأحلام وقد عظمت قوته فناهزت قوة الدببة وعظم غيظه حتى كاد أن يهلك الجميع، ولكن ما إن يظهر العدو اللدود أو واحد من الغرماء الأقل شأنا، حتى تتراجع قبضاته، وتتسمر قدماه، ويتضخم لسانه فيصبح كالشكيمة تسد فمه.

وذات مساء يوم جمعة قر قرار يوزف على أن يشرب حتى السكر، فدخل خمارة من الدرجة الثالثة كانت تعج بحركة عارمة، وعب لتراً من النبيذ الأحمر. ومن البديهي أن هذه المحاولة انتهت نهاية سيئة، لأن رواد الخمارة شموا فيه رائحة الرجل الرفيع القدر الذي اندس في محفلهم، فلاحقوه بالسخف والتهكم، ثم انهالوا بأيديهم عليه عندما ابتسم ابتسامته الخجولة التي زادت استفزازهم. وتدخل صاحب الحانة فأنقذه. وفي التاكسي أحس بدوار.

أيقن يوزف بعد تلك الأمسية النكراء من أن الدنيا كلها شريرة، واشترى مسدساً لم يستخدمه بطبيعة الحال على الفور، بل بعد شهور. واقتصر رد فعله في البداية على إتلاف الأشياء، فكان يقوم مع كلبه بجولات طويلة في غسق المساء يمر بفيللات غرمائه، فيرى من حين لحين سيارة تقف في الشارع لم تجد لها مكاناً في جراج الفيللا، أو أخرجوها ليركبوها بعد قليل. وكان يوزف قد استعد بمطواة عملية إلى أقصى الحدود، لم تكن تضم السلاحين المألوفين، بل كانت تضم الكثير من العدد الصغيرة الهامة، منها مخراز حديدي صغير، يمكن استخدامه عند الضرورة في إصلاح الأحذية. كان يخرج هذا المخراز ويضم قبضته على المطواة بحيث لا يبرز إلا طرف المخراز من بين اصبعين. ولم يكن صاحب السيارة يكتشف الخدش القبيح الذي شوه جنب السيارة إلا في صباح اليوم التالي. وكان أعداء يوزف يسكنون بدافع من الحنكة في حي واحد، وما مر وقت قليل على ما جرى على السيارات حتى كان رجال يلبسون أزياء موحدة أو الملابس المدنية يحومون في المنطقة على نحو لا يلفت الأنظار، مما دعا يوزف إلى الكف عن عملياته. ثم جرب النبلة رمى بها حجراً فكسر زجاج نافذة، ولكنه وجد هذه الطريقة صبيانية وخطيرة. وتفتق ذهنه عن وسيلة مبتكرة، وإن عابها أنها لم يكن من الممكن تكرارها، فقد انتهز فرصة سفر صاحب بيت في رحلة عمل وعلق على باب الحديقة إعلاناً بأن البيت الجميل فيه شقة للإيجار بإيجار منخفض. فلما عاد صاحب البيت وجد الناس يقفون طابوراً أمام مكتبه، وكان الاضطراب الذي استبد به عنيفاً لأن يوزف رفع الإعلان قبل عودته بقليل. وتعددت هذه المقالب وأشباهها، ومنها وصول كتب إباحية بالبريد بناء على طلب مزور في مقابل الدفع عند وصول الطرد. كانت هذه الألاعيب تثير في يوزف إحساساً بالتفوق عندما كانت يتخيل المقصودين وهم يحاولون فك اللغز، لمعرفة من الذي دبر المقلب. ولكن إحساسه بالانتصار لم يدم طويلاً. كان ذات يوم يخفي أنبوبة ورنيش أحذية سوداء في حقيبته ينوي أن يضع منها على مقبض باب غريم له، عندما التقى بصديق من رجال الأعمال وجده يضرب صبياً ضرباً مبرحاً. فلما حياه يوزف توقف عن ضرب الولد وحكى له القصة، وقد انحبست أنفاسه، عن ألاعيب صبيانية يشيب لهولها الولدان أصبحت تتكرر دائماً في المنطقة

منذ حين. وهكذا سمع يوزف بأذنه أن أعماله كانت تعتبر من قبيل الصبيانية. «وهذا الولد الذي لم يشب عن الطوق أشعل النار ثلاث مرات مؤخراً في صندوق الزبالة عندي » ثم قال: «إلام يصير حال الشباب اليوم، هذا سؤال الله وحده أعلم بإجابته.. شم بنفسك الرائحة الخبيثة المتصاعدة من صندوق الزبالة؟» كانت الرائحة خبيثة بالفعل. وعبر يوزف عن أسفه، ورفع قبعته للتحية وانصرف. ورأى أنه لا يستطيع الاستمرار في هذا المسار. فلما التقى بالصبي عند أول ناصية أعطاه أنبوبة ورنيش الأحذية هدية له.

زادت معاناته وأصبح ما يلقاه من عذاب مريراً شديد المرارة. واعتاد الكحول شيئاً فشيئاً، ولكنه لم يجد في عبه أدنى نفع. كان يوزف عندما يلعب الكحول برأسه يجنح إلى البكاء. وكان في اليوم التالي يجلس وراء مكتبه مصدعاً، لا يستطيع أن يخرج من قريحته فكرة واحدة معقولة. وكان الرؤساء يتابعون حالته قلقين عليه، وانتهوا إلى أنه يحتاج حاجة ماسة إلى إجازة استجمام. ولما كانوا يعلقون الآمال الكبار عليه فقد قبلوا تحمل التكاليف وأرسلوه إلى منتجع مشهور.

وسعد يوزف بالإفلات من العذاب ثلاثة أسابيع ونزل في فندق جميل من النمط القديم، فندق من الدرجة الثانية كأنما لم يكن قد شغل منصب نائب مدير في حياته. كان الناس جميعاً، من عاملين ونزلاء، يتلطفون معه، وكان النزلاء في غالبيتهم العظمى من المتقدمين في السن، بل إنه أحب السنجاب والعصافير في الحديقة المنسقة التي كان يتناول فيها قهوته عصراً ويوزع على السنجاب والعصافير لباب الخبز في كرم وسعه. وأصبح ينفر من النبيذ والبراندي نفوراً شديداً. وتعلم أن يشرب المياه المعدنية على النحو المألوف في المنتجعات : كان يذهب مرتين يومياً إلى العين فيشرب راضياً نصف لتر من المياه المعدنية لها طعم الملح والزهور الذابلة ثم يتمشى في طرقات فرشت بالحصباء على أرض المنتجع الواسعة وما يزال يسير حتى تعمل المياه المعدنية عملها الشافي وتدفعه إلى كشك من الأكشاك الخشبية الكثيرة التي لا تلفت الأنظار والتي يقضي فيها الإنسان حاجته. وأصبح يأكل بشهية أفضل كميات أكثر وأطعمة أشهى.

وتخلص يوزف يوماً بعد يوم مما ران على بدنه، ومما ران على روحة أيضاً. ولم يكن يربطه بالواقع القبيح، بغض النظر عن موعد الرحيل الوشيك الذي كان يتهدده، إلا المسدس الذي حمله معه. كان هذا الشيء يسبب له إزعاجاً حقيقياً، لأنه لم يكن يريد أن تراه خادمة الفندق عندما ترتب الحجرة، ولهذا كان يحمل هذه العدة الفولاذية المبططة في جيبه . ولكم ود أن يرميه، ولكنه كان يخشى لو رماه أن يقع في يد شخص ما. ثم إنه دفع فيه ثمناً عالياً، فكيفن يرميه دون أن يحزن على تضييع المال، ولهذا أصبح هذا الشيء يتقاسم المكان الضيق في الجيب مع تذاكر دخول الحفلات الموسيقية في المنتجع، وإيصالات حفظ الملابس، والعملات المعدنية الرنانة، ومفاتيح الحجرة، والمنديل. وكان يوزف يحمله معه عندما التقى أمام تمثال نزيل شهير من نزلاء المنتجع بالوقح الذي يكرهه أضد الكره وأعنفه.

حدث ذلك في صباح مبكر. كان عمال الحدائق قد انصرفوا، وكان النزلاء العجائز بعيدين لم يصلوا بعد إلى هذا الموضع النائي من الحديقة، أما الشباب فكانوا يلعبون التنس في هذا الجو الرطب .

وصاح الوقح : «آه، سيادة النائب. ماذا تعمل هنا؟ ممن تريد أن تستريح؟»

ورد يوزف رداً مباشراً : «منك!»

وضحك الوقح :« هاها، كلام جميل. ولكنك لن تفلت مني هذه السهولة التي تتصورها. لقد كنت لتوي أفكر فيك. أنت تعرف طبعاً لماذا؟»

فقال يوزف :« لا. للأسف...»

ورد عليه الوقح بلهجة الأمر:«إذن فتعال معي.»

كان هناك على مسافة في وسط الطبيعة الطليقة شلال كان رواد المنتجع النشيطون يعتبرونه هدف نزهة مريح. وأخرج يوزف مسدسه، مستتراً بالصخب، ووضع فوهة المسدس

على ظهر الرجل الذي عذبه، وضغط على الزناد. وكان، عندما سارا أحدهما وراء الآخر على طول القناة قد حدد على الجاكته الفاتحة المصنوعة من التيل الخام موضع القلب. وبعد الطلقة التي كتمها جسم الرجل البدين على نحو عجيب لم يتوقعه، لم ينتظر يوزف حتى تسقط ضحيته على الحصباء التي اكتست بالطحلب، بل التفت وسار بالخطوة المطمئنة المألوفة في المنتجع متجهاً إلى الفندق. وفي منتصف الطريق وجد مكاناً يرفعون فيه قواعد معبد للصداقة، ويصبون الخرسانة حول دائرة من الحجر. وكان البناءون يجلسون في ظل شجرة يشربون على راحتهم. وسمع منهم يوزف في صبر ما حكوه من حكايات عن المعبد ثم أغرق مسدسه في عجينة الأسمنت والخرسانة التي اصطبغت باللون الرمادي.

وعثرت جماعة من السيدات على الجثة عند الشلال بعد حين. ومن البديهي أن الحادث أحرج إدارة المنتجع أشد الحرج، التي رجت المحققين في أدب بالغ أن يؤدوا واجبهم دون أن يحدثوا الكثير من اللغط. وسأل المحققون فيمن سألوا يوزف الذي عرف عنه أنه كان يبكر بالخروج للنزهة، عما إذا كان سمع طلقاً نارياً أو شيئاً يثير الريبة. وهز يوزف رأسه بالنفي، ولكن إحساساً بالبشاعة غشيه عندما ذكروا له اسم القتيل، اسم رجل أقر أنه من أبناء مدينته، وأنه يعرفه، بل قال إنه كان يتعامل معه. وقال إنه لا يعرف عن الأعداء شيئاً، وإن عرف أنه لم يكن مريحاً في المباحثات... في ذلك الوقت.

وأكمل يوزف إجازة الاستجمام، فلما عاد، واتخذ مكانه في المكتب، نظر الرؤساء بعضهم إلى بعض راضين مغتبطين : لقد عاد يوزف القديم، مهذباً ودوداً كما عرفوه، ولكنه كان أيضاً يوزفاً جديداً امتلأ قوة وثقة بالذات . ورأى الرؤساء أن الأخذ بفكر اجتماعي أمر مفيد على ألا يتجاوز الحدود.

يوليـان (يـوتا) شـــوتينج

Julian (Jutta) Schutting

القاهرة ١

أنا في الرجل الهَرِم

الذي يقعد أمام مشنة بلحه

ينظر نظرة ثاقبة إلى ذلك الذي سيأتي يوماً ما .

وفي الأولاد

الذين يقفزون في رمل الصحراء قفزهم في الماء .

وفي كافة الحيوانات المغلولة،

الذي تبلغ الكلأ المحرم رغم أغلالها .

وفي حزمة الديكة الرومية التي تدفع الفلاحة رءوسها

دامية إلى ذلك

الذي لا سبيل إلى فهمه بالحب .

وفي القارب الذي يتأرجح نهاراً لينام .

وأنا كل هؤلاء

الذين يجلسون في ظل رياح آمالهم

أو أمام باب لم يزل مغلقاً .

أو الهلب

الذي يرميه نحوك شخص المرة تلو المرة .

وأنا الذي يغفو على قارعة الطريق

وهو يعانق خميلة قرنفل

وكذلك ذلك الذي يقلفط قاربه وكله ثقة .

وكذلك العراقيب التي تدفع الحمار إلى الإسراع

وكذلك الخُضرة المنثورة

التي تُجمع من الشارع وتُعاد إلى المشنة –

أما أنت فتنساب ثمانية أيام أخرى عابراً علينا جميعاً

وتملأ الآبار التي جفت

بالعطش، أنت يا من أنت،

يا وقت الجفاف،

الذي لا يتبدد بين الأصابع أبداً .

القاهرة ٢

عاكفين على أنفسهم

متسترين بذواتهن

أكثر مما تسترهم أسمالهم

هكذا يجلسون على الأرض،

رمل صحراوي ، يبرز من بين بلاط الشارع،

كأنهم يجلسون هنا منذ قرون

في انتظار الحب .

ثم يأتي النيل سابحاً نحو المصب

قارب بشراع أبيض،

يسبح في نعومة، كالتي يبدأ بها الحب الأول .

أحد العاكفين على أنفسهم

أمامه مناديل كثيرة،

والباب الذي يقعد أمامه يؤدي إلى مستشفى -

رمل في عينيْ ، يحضني

على أن أغسل صورتك التي حملتها معي إلى هذا العصرالوسيط

وأخذت منها جزءً معي

بقفزة زمنية إلى العصر الحاضر

ولكن بدونك يبقى الرجال في جلابيبهم البيضاء،

الذين يهدّمون في العاصفة بيتاً بالمعاول المدببة،

راهبات على رفرف كنيستهم التي تصاعد منها دخان

يهدمن مذهبهم الذي خانوه

بيتر هاندكه
Peter Handke

الزنابير

Die Hornissen

فجأة تبدأ امرأة في الكلام .

إنه بطبيعة الحال نائم، يا أولاد؛ نائم في الحجرة، وراء الباب . وأظن أنه كان يحلم؛ فقد وجدت اللحاف ملقىً على الأرض، عندما ذهبت إليه منذ قليل . ولما كانت الظلمة حالكة فقد خلته وقع من السرير، وأصابني الهلع . ولكنني ما لبثت أن سمعته يتحرك فوق المرتبة من غير لحاف . وسألته هل يحتاج شيئاً؛ فلم ينبس ببنت شفة . وعلى الرغم من أنه كان مغمض العينين فقد بدا عليه الغيظ ثم التعب؛ إنه مريض، يا أولاد . ولهذا فلا يصح أن تدخلوا عليه الحجرة عندما أذهب إلى الحظيرة؛ ابقوا هنا قاعدين، وسأعلّي شريط اللمبة لأزيد الإضاءة . ولكنني قبل أن أنصرف أريد أن أحكي لكم كيف أتى إلينا أبوه آنذاك؛ عندما كنت أنا نفسي صغيرة؛ كانت الحرب مشتعلة في ذلك الوقت، الحرب العظمى؛ كانت الحرب مشتعلة وجاء أبو الولد الراقد في الحجرة إلى البيت وأبَى أن يعود إلى الحرب . ولم يكن بيننا أحد يعرف هذا الرجل الذي جاء إلى بيتنا فجأة وقال : الزنابير آتية؛ فلم يكن من أهل هذه المنطقة . ولم نعرف إلا فيما بعد أن رجال الشرطة كانت تتعقبه وتريد أن تضربه بالنار؛ ولكن

ما من أحد منا رأى عليه ما يدل على ذلك عندما اقترب منا وقال إنه يريد أن يشترى بعض العجول، وعندما ضحك حين سمع السعر الذي ذكره جدكم . ورد عليه قائلاً إن الجد يمكنه دون لأيٍ أن يطلب ضعف هذا السعر، فالأسعار ارتفعت في وقت المسغبة؛ وأضاف أنه لن يشتري اليوم شيئاً وإنما أراد أن يستعلم. وهنا نظر الجد وهو يعض شفتيه إليّ نظرة حانقة رهيبة، وقال : هاتِ اللحم والخبز من الكرار حالاً حتى نُقْري السيد . السيد . نعم، ثم أتى بعد ذلك بين الفينة والفينة فكان يأكل ويشرب ما يأمر الجد بتقديمه إليه، حتى جاء رجلٌ من الوادي وطلب شراء العجول وسمع السعر . ينبغي أن أذهب الآن يا أولاد . وعندمايأتي أبوكم ومعه الطبيب قولوا له أين أنا . وليدخلا عليه على الفور .

لقد استيقظتُ . استيقظتُ قبل أن تدخل وتصرخ بصوت خفيض . ولكنني لم أصْحُ لا من النوم ولا من أي غيبوبة أخرى، لقد صحوتُ من وعيّي الذي كان يتعذب على السرير مع الجسم الذي كان وعيي فيه . ثم وقع جسمي خارج الوعي عندما وضعتِ اللحاف فوقه وعندما انحنيتِ فوقي وأمسكتِ بوجهي بين يديكِ . كنت قد أغمضتُ عينيْ وأدركت أن جسمي وقع خارج وعيّي، كما وقع من قبل في ذلك الماء الأصفر، في تلك الثلوج الغامقة؛ صحوت من وعيي واستطعت أن أسمع كل ما كان يدور حولي، وكل ما لم يكن يدور حولي. اسمك هو ... اسمك كان .... نسيت اسمك . وأنا قد نزلت من كوخ أبي في أيام كثيرة عندما كان زوجك في الوادي وأولادكِ في المدرسة . وأنا الآن أرقد في البيت هنا في السرير قد شلتني التشنجات؛ كان الأجدر بي أن أتنبه إلى الجرح الذي أصبتُ به إصبعي، عند تجهيز خشب الوقود مثلاً .

كانت الحرب حتى لا يصحو الكبرى .

ثم لم تكن هناك حرب عندما نزح أبى من الوادي صاعداً إلى هنا . ووسّعنا بناء الكوخ الذي كان ينام فيه عندما آن له أن ينام في مكان آخر . وكانت عندنا لمبة جاز ترتعش شعلتها دائماً كأنها في ريح عاتية، يجلس تحتها ويكتب حسابات . كان يقول إنها حسابات. وكثيراً

ما كان يهبُّ واقفاً ويندفع نحوي وقد ضم رأسه بين كتفيه، فيرفعني إلى أعلى ويضغطني على خشب السقف، ويهمس إليّ، هل يؤلمك؟ كان يمكنني دائماً أن أتصور نفسي شجاعاً، لأنني كنت أحتمل الألم الذي كان يسببه لي؛ ولكنني كنت أسلك مسلكاً مختلفا : عندما كنت أتمدد من فوق رأسه مضغوطاً في الخشب، كنت أفكر دائماً وبلا انقطاع في أنه كان حتى هذه اللحظة يقعد منحنياً على الآلة الكاتبة، متكوراً، ضئيل الهيئة، تزيد من ضآلته تلك الظلال التي كانت تختلج فوق خديه، وكنت أنظر إليه من الطرف الآخر للمائدة . وهكذا كنت أقول نعم، تؤلمني، وأرفع عقيرتي بأصوات الألم المعروفة حتى ينزلني وهو يضحك .

هل تعتقد أنه يسمع شيئاً عندما أفتح الباب؟

لا. إنه نائم . أمي قالت إنه نائم . وأنا لا أستطيع أن أرى شيئاً من خلال ثقب المفتاح فالظلمة حالكة في داخل الحجرة .

لماذا ينام في حجرتنا ؟ لأنه مريض .

ولكن لماذا لا ينام في كوخه . لقد زحف في صباح اليوم مبكراً وحده على أربع نحونا . ووجدته أمي، وكان يبدو كامريء حدته رغبةٌ في الضحك والقهقهة، ولكنه لم يضحك، ولم يستطع حتى الكلام . أريد أن أراه .

ثم أخذ أبي فيما بعد البنت التي استطاع أن يعذبها والتي كان قد أتى بها ذات مساء معه عندما قدم من الوادي؛ لم تعد بنتاً تلك التي نظرت إلى قلب الحجرة، من خلال ثقب المفتاح إلى قلب الحجرة الحالكة التي كنت أرقد فيها والتي دخلتِها أنتِ منذ قليل، التي تدخلينها أنت ومعك لمبة تهتز في يدك لأنك ترتعدين عندما ترينني . وأنت تضعين اللمبة على الأرض وترفعين اللحاف من فوق الأرض وتظنين : إنه وقع من السرير. وأنت تتناولينني وتعيدنني إلى الفراش، وأشم منك رائحة لاذعة، رائحتك خبز، كانت رائحة خبز تفوح منك، عندما دخلت وتناولتِ وجهي بيديك، بين يديك . كنت أستطيع الشم . كانت رائحة لاذعة تفوح من أبي

عندما يعذب البنت . انتظري : إنني أرقد هنا في سرير غريب، على سرير غريب . لقد أتيت لأنني جرحت اصبعي . وأنا أرقد الآن في حجرة مظلمة على السرير وانتظر الطبيب الذي أتى به زوجك . الآن ينفتح الباب؛ الباب لا يحدث طقطقة ولكنني أسمعه ينفتح . إنهما يدخلان : وجهاهما أسودان إذ هُما في فتحة الباب التي انساب النور من خلالها . أستطيع أن أسمع النور . النور صامت الآن : يخفت في البداية ثم يصمت . ولكن صرخات البنت لم تصمت قط إذ قطعت شريانها بسكين الخبز في الغابة في مكان يرتفع على السفح هلى مسافة من كوخنا. كانت قد ارتدت إلى وعيها مرة أخرى عندما أحست بالألم وبالدم الذي تفصد من جرحها وانهمر فوق التوت البري الذي كانت تجلس تحت شجيراته . وأنا أتصور أنها راحت بكل بساطة، بعد أن عذبها أبي، كما يروح شخص ما في أثناء النوم .

يداك تفوح منهما رائحة الخبز .

تناولَت سكين الخبز التي كانت كبيرة جداً بالقياس إلى يديها وقطعت قطعاً عميقاً غائراً في شرايينها ، التي انهالت عليها تقطيعاً، ولعلها تطلعت إلى الجرح وقد تكورت على نفسها تحت شجيرات التوت البري التي كانت قد نضجت لتوها على الجبل؛ ولعلها بدلاً من أن تقطع شرايين يدها كانت تستطيع أن تقعد هنك وتأكل من التوت البري؛ أو ربما أمكنها من أجل الصورة أن تأخذ سكيناً أخرى، أصغر . ولكن لم يكن هناك مشاهدون . لابد أن تلك الصورة ظلت فيها حيناً من الزمن لأنها لم تتحرك، بينما تطلعت عيناها إلى يدها : صورة أبي وقد أتى في الصباح ورماها من السرير، فارتطمت بالحائط ووقعت وتهشمت اللمبة؛ ثم إذ قال لها : تعالي يا حبيبتي، بصوت فظيع كل الفظاعة : هات اللحم والخبز من الكرار . لا لم يكن لأبي صوت فظيع، قال : تعالي يا حبيبتي . أتيني بماء دافيء، أريد أن أخلع ملابسي وأن أغتسل . وذهبت لتسخن الماء في المطبخ، بينما خلع هو ملابسه، وقال لي : مالك تنظر إليّ . خيرٌ لك أن تذهب إلى الركن وتتلو صلاة الصباح . ووقفت في الركن، وهمهمت مشيحاً بوجهي صاباً لعنتي في اتجاه الخشب ونسيج العنكبوت وتلوت صلاتي . في هذه الأثناء سمعتها

تدخل بالطشت وتقف بالباب . وقالت : الدم ينزف منك . فقال : لا . لا ينزف دمٌ مني . أنا مخضب بالدم . ولم تقل شيئاً . وحملقتُ في عنكبوت : كان له ثماني أرجل قبل أن أجتث منها اثنتين؛ وتلوت صلاتي . وقال أبي حمّيني . وقطعت رجل العنكبوت السادسة؛ ثم قطعت الخامسة والرابعة دفعة واحدة . ثم سمعت كيف أخذت تحميه بالماء الساخن ووفوطة؛ كانت تنحني وتنهض وهي تغسل بدنه كله، بينما اجتثثت أنا بقية أرجل العنكبوت . ويمكنني أن أقول الآن : إنني لا أذكر تجذيع خشب العرق الذي نظرت إليه ولا أذكر أي شيء يستطيع الإنسان أن يراه بعينيه؛ لا أذكر إلا شقشقة الماء عندما كانت تعصر الفوطة . على هذا النحو كان سيمكنها في المساء أن تعصر يدها عندما تمددت تحت شجيرات التوت البري؛ ولكنها لو فعلت لما خرج من الجرح شيء بعد الذي نزفه . ولكن صراخها قبل ذلك وصل إلينا عندما ذهبنا من البقاع إلى الكوخ : كنت أسلك الوادي آتياً من المدرسة، وكان أبي قد قدم من لا مكان؛ والتقينا في الطريق . وقلت، من هذا الذي يصرخ في الغابة . قال، لعله نسر أو ديك بري أو نمر. وقلت متعجباً، ولكنه صراخ . وقال أبي، نعم إنها تصرخ على هذا النحو . انصت إليها كيف تصرخ . لابد أن تعرف عندما تكبر كيف يصرخ النمر وكيف يصرخ ديك البرية . ولقد كبرت الآن وما زلت أجهل كيف يصرخ النمر؛ ولكنني أعرف في هذه الأثناء كيف يصرخ إنسان يقبع في شجيرات التوت البري ولا يجد القوة لكي يخرج . فلما ذهبنا في ساعة متأخرة من المساء نبحث عند البركة أتت الزنابير . كنا في قلب الخريف أو في قلب الشتاء . وبقي أبي واقفاً وثنى السمّار إلى جانب وتلصص عما يكون قادماً فوق الماء، وقال : الزنابير أتت، فلنعد أدراجنا . ودار إلى الخلف وتبعتُه ورائحته تملأ أنفي؛ كانت لأبي رائحة لاذعة . وسرت من خلفه، وكان هو يسرع الخطى نحو الغابة، وأتت الزنابير، وقال إن الزنابير صرخت في الغابة . وبدأت الثلوج تتساقط كثيفة، بيضاء وصفراء، وتناهى إلى السمع صوت طنين، وفاحت رائحة الزنابير حامضة كانت تتساقط هنا بينما كنا نسير نحو الغابة التي كانت تتمدد فيها تحت شجيرات التوت البري وتلزم السكون . وقال أبي أسرع وأحدث آثاراً في الزنابير التي افترشت الأرض، أحدث آثاراً بحذائيه الثقيلين، آثاراً عميقة في الثلوج وفي الريح وفي

الظلمة، وكان الهواء يئز ويئن، وكان هو يحدث آثاراً عميقة، عميقة كانت الآثار التي أحدثها بينما كنت أنا أسير من خلفه حافي القدمين من فوق الزنابير التي كانت تتحرك وتنصهر .

هل هو نائم

لا إنه صاح وعيناه مفتوحتان

قولي له إن عليه أن ينام

نم

لماذا لا يقول شيئاً

لماذا لا تقول شيئاً

المس يده وجسي النبض هل ما يزال

لا أحس نبضاً

لعله

التي كانت تتحرك وتنصهر الزنابير الآثار العميقة التي كان يحدثها بحذائيه العميقين حتى وصلنا إليها في شجيرات التوت البري الآثار العميقة التي يحدثها ونسير فيها ونحن ننظر ونحن نولول وأنا أسير في أعقاب أبي .

ماريــانه جــروبر

Marianne Gruber

وبــــاء

Die Epidemie

كانت كلماتها تخالطها نبرة غريبة، قالت : «الآن أودعك.» كلمات كان لها جرْسٌ عجيب، ولكنها لم تحرك فيه ساكناً. كان ك يمسك سماعة التليفون في يده حائراً لا يستقرعلى قرار، عندما أدار رقم حماته، وشكا لها وكلفها بأن تعقّل زوجته، ثم ذهب إلى العنبر الكبير، إلى الألات التي كان عليه العمل عليها.

كان السير الدوّار يمر عليه بالإصلاحات المطلوبة، فيقوِّم الأرجل التي تحتاج إلى تقويم، ويستأصل الأجزاء التي لا تؤدي وظيفتها، ويسد الشقوق، ويفتح الأمخاخ.

فلما سؤل عما حدث، هز كتفيه. وتبددت إجابته وسط ضجيج المحركات الدائرة. ونفذت الشمس من خلال النوافذ المقفلة إلى عنبر الشغل، كان النهار قد انتصف.

وقبل أن يوقف السير الدوارمؤقتاً طلبوه مرة ثانية إلى التليفون.

قالت له حماته : «لم أجدها»، وكانت نبرتها تنم عن الحيرة. وقال في نفسه : «هكذا النساء» يأتين دائماً بأفعال تناقض المسار وتهدم الجدول : كان النهار قد تم تخطيطه، كان لديه أمر التشغيل والخطة المفروض إنجازها : تركيب مسامير في ساق، عمل فتحتين في بطن، حقن، شاش.

وتركه رئيس العنبر ينصرف وهو يهز رأسه معبراً عن أسفه. وفجأة جرى، جرى نحو السيارة، وقاد السيارة في الطريق الطوالي بسرعة مبالغ فيها، وانزلق عند الملف، فرفع قدمه عن البنزين، واندفع بالخطوة السريعة من السيارة إلى البيت، وهنا خفف من سرعته، ودخل البيت بخطوة معتدلة ولكنها متعجلة.

لم تكن في البيت. كانت حماته قد أبلغته بذلك. ووجد أشياء قليلة مبعثرة ترسم مساراً مضطرباً يتجه إلى الخارج. وانحنى فوق الأشياء الملقاة، وراح يجمع الآثار، وداردورة من حجرة المعيشة إلى القاعة ثم عاد إلى حجرة المعيشة، وذهب إلى الحمام، وإلى حجرة النوم، وإلى الحجرة الأمامية، ثم الحديقة. ووجد الجراج في الحديقة مغلقاً. وأخذ يرج الباب، ثم راح يبحث عن مفتاح، واضطر في النهاية إلى الالتجاء إلى جار له كان بطريق المصادفة موجوداً وكان يعرف صنعة الكوالين، وطريقة فتحها بدون مفتاح، فساعده حتى انفتح باب الحديقة.

كانت ممدة في قلب العربة الجديدة وكانت لا تزال دافئة، ولكنها لم تكن تتنفس. كانت يعرف هذه الحالات. حوادث مستمرة تأتي على شريط التشغيل الدوار. التنفس الصناعي من فم إلى فم. وشدها فأخرجها من السيارة، كان وزنها يتجاوز المعدل، ومدها على الخرسانة، ومال على شفتيها.

ولكنه في هذه الحالة لم يحقق ما كان يحققه دائماً. لم يأت صوتٌ يوحي بأن المحرك سيدور. فعاد ينفخ في فمها، وظلت دافئة ساكتة.

وقال لحماته : «استدعي الإسعاف» وانحنى مرة أخرى فوق جسم زوجته. لم يعد متفوقاً، ولم يعد بارد الأعصاب. وجاء رجال الإسعاف، وتولوا أمرها، وقفز هو إلى داخل عربة الإسعاف معهم. كانت استعدادتهم سيئة. فلما وصلوا إلى الورشة، كان الأمل قد تبدد. لم تتحمل المحركات الحساسة التي ركبت عليها التوقف الكامل إلا فترة قصيرة.

واستمروا في بذل الجهد، فالاستسلام كلمة من الكلمات الممنوعة في قاموسهم، وتدخل خبراء المؤسسة. وفي النهاية أداروا ظهورهم. وشدوا على يده في صمت. كانت النهاية.

بعد نهاية الوردية جلس مع بعض الأصدقاء وسكر على نحو معتدل. وتقارعوا الكؤوس دون أن يقولوا له شيئاً. ولم يطلب أحد منهم ساندوتشات. وكانت الوردية التالية قد أعدت الحالات على السير الدوّار. وعندما انصرف كان المساء قد حل.

وفي الصباح التالي جلس قبل بداية الوردية في حجرة الانتظار ولم يعرف له شيئاً محدداً يعمله. واختلط الغيظ بما استبد به من حيرة. هل تركته هكذا. لماذا؟ لقد كان موتها في الحقيقة ابتزازاً. ووافقه أصدقاؤه مترددين. وكانت كلمته قد فاجأتهم وأخرجتهم من محيط أفكارهم. من الذي يعلم؟ لماذا؟ لأي سبب؟

وخرج من المصنع وبدأ يرتب أمر دفنها. كانت هناك أمور متعددة لابد من التدبر فيها، لا لم يكن من الضروري التدبر فيها بمعنى الكلمة، ولكن كان من الضروري الاختيار. الألوان آحمر أم أزرق، الزهور : قرنفل أم ورد، الكتابة : لم تكن هي الكتابة على الحائط، ولكنها كتابته. ثم عاد إلى المصنع واتخذ مكانه عند السير الدوّار.

كانوا بصفة عامة يشاركون ك رأيه وأفكاره. كانت زوجاتهم في مكان ما في الخارج يتربصن بهم لكي يغلبنهم، ولكي يفسدن عليهم خططهم، وليحطمن نظامهم. ولم يكن يترددن عن فعل أي شيء. حتى الانتحار.

في الصباح الذي تلا ذلك اليوم أقبل زميل من نفس العنبر إلى ك، كان يلبس كراڤته سوداء، وكان تعبير وجهه هو نفس التعبير الذي اتخذه وجه ك في اليوم السابق. وقال ف : «في هذه الليلة، بعد أن حكيت لزوجتي عن زوجتك، انتحرت. لا أعرف لماذا. لم تتكلم كثيراً، على الرغم من أنها اعتادت الثرثرة. سألتني عن رأيي في الحكاية، وقبل أن تنام سألتني إذا كنت أريد أن أقول لها شيئاً. فانتحيت الناحية الأخرى ولم أجب. أنت تعرف هذا المسلك. هكذا يبدأن عندما يردن التشاجر. في الصباح اكتشفت أولاً أن الإفطار لم يكن معداً، ثم أنها كانت لا تزال في السرير - ولم أكن قد التفت إلى ذلك عندما نهضت. وانحنيت فوقها، فإذا هي قد ماتت. لابد أنها تناولت حبوباً منومة. دون اعتبار للأولاد.»

وذهب ك إلى الدولاب واخرج زجاجة كونياك. وشربا معاً. فلما بدأت الوردية بقيا برهة في مكانيهما، ثم اتجها إلى العنبر، ووصلا إلى السير الدوار متأخرين تأخراً طفيفاً. والتقت بهما عاملة النظافة وتابعتهما بنظراتها طويلاً. وحمل إليهما السير حادثة صباحية. وانتشر خبر الواقعة الجديدة شيئاً فشيئاً في العنبر، وفي العنابر المجاورة، وبعد تغيير الوردية جلس ك وف معاً، وسكرا إلى درجة معتدلة. وكان المساء قد حل عندما خرجا.

وبعد بضعة ساعات وصل إلى ك و ف خبر وفاة زوجة ب، وجدها ميتة بعد عودته إلى البيت. قطعت شرايينها، ولا بد أنها قطعتها بعد أن خرج من البيت إلى العمل.

كانت قد نزفت كمية هائلة من الدم أذهلته على الرغم من أنه لم يكن يدهش للدم الذي ينزف بكثرة من الجروح. وتواعد ك وف وب في أثناء الليل دون انتظار، والتقوا جميعاً عند ك في بيته الذي كان في وسط الخضرة ولم يكن فيه لا زوجة ميتة ولا أولاد.

وذهبوا من هناك إلى المصنع، حيث التقوا مرة أخرى بعاملة النظافة التي حملقت فيهم طويلاً، وأحضرت، دون أن يطلبوا، الكونياك وأربع كؤوس، ولم تقل لهم شيئاً. وبعد قليل

أقبل ف ودخل من الباب، كان يلبس كراڤتة سوداء، ولم يستخدم كلمات كثيرة، كانت زوجته قد انتحرت أيضاً في الليلة الماضية.

في ذلك الحين كانوا لا يزالون يميلون إلى اعتبار هذه الأحداث في المصنع وحوله من قبيل سلسلة من المصادفات. حتى الخبراء لم يجدوا أي علامة تشير إلى وجود أي علاقات بينها. كان ما حدث مأساوياً، بكل تأكيد، ولكن العمل على الشريط الدوار كانت له الأسبقية على أية حال. لم يكن بينهم من شيء مشترك إلا هذا العمل، هذه الحركات المباشرة وغير المباشرة التي يؤدونها بأيديهم، وإلا هذا التفكير في كيفية حدوث الشيء بعد أن يكون قد حدث.

أما فيما يتعلق بـ ك وف وب وف فلم يكن للعمل بالنسبة إليهم الأسبقية فحسب، بل كان العمل هو سبيل النجاة الوحيد. كان هو العلاج بالشغل. التلهي. عدم التفكير. القيام بعمل له معنى. وكان ك أحياناً يقطع عمله ويرفع يديه أمام وجهه، ويقوم بيديه بتلك الحركة اليائسة الصامتة التي لا يعرف إنسان غيره كلمة تسمى بها : الصمت ثم الصمت. كانت تلك الحركات عابرة لا تأخذ من الوقت إلا أقل القليل ولا تزعج إيقاع العمل - إذا هي أزعجته - إلا على نحو ضئيل غير محسوس. كان مسلكه جليلاً، وكان يسهم إسهاماً جوهريا لا يستهان به في دعم الزملاء، وعلى رأسهم پ الذي جاء الدور عليه، فقد ألقت زوجته بنفسها أمام عجلات قطار سريع. وبعد ذلك نزلت النازلة بـ ك٢.

عندما جاء الخبر إلى المصنع ذهل الجميع إلا عاملة النظافة التي أقبلت على ك ٢ بكأس كونياك رفعته إلى شفتيه وأجابت على نظرته المتسائلة : « طبعاً طبعاً، زوجتك... »

فلما اكتملت الدستة الأولى من الزوجات المنتحرات اجتمع مجلس الإدارة. كانت المصادفات بهذا الكم شيئاً رهيباً أو لم تكن مصادفات على الإطلاق. ولم تنته المشاورات إلى قرار ولا إلى معرفة جديدة. وأخيراً تركوا الأمر كله على ما هو عليه، وانتظروا.

إلا عاملة النظافة تركت العمل في النظافة واشتغلت بعمل آخر، هو الانتظار على الباب عند تغيير الورديات واستقبال الأرامل الجدد. وظل مسلك الجميع نموذجياً. إلا ي شذ على القاعدة، فعندما اتصلت زوجته ذات يوم ظهراً وتوسلت إليه أن يأتي إليها لأن خوفاً هائلاً استبد بها، ترك السير الدواردون أن يلوي على شيء، وترك المصنع، ولم يعد إلى العمل إلا بعد عدة أيام. وانتظرته عاملة النظافة على الباب، وتحققت من نظرته فلم تقدم إليه كأس الكونياك التي أعدتها، وقالت له: « زوجتك لم - -؟ » وهز ي رأسه.

وتوالت الأحداث في العنابر المجاورة.

وتخصصت مؤسسة جنائزية في تنظيم جنازات أهل المصنع وحدهم، وأعطتهم خصماً. واعتاد الناس. كان يحدث من حين لآخر أن يفرط البعض في السكْر بدلاً من السكْر باعتدال. ولم تكن إدارة الفابريقة تمنح إجازات لإتمام مراسم الجنازات إلا في الحالات الاستثنائية. وكانوا في حجرات الانتظار يحزرون ويفزرون فيما يكون عليه الدور، ولكنهم لم يكونوا يراهنون.

وهددوا ي بالطرد من العمل، فقد ترك العنبر وهرع إلى البيت مراراً. فلما جاء ذات صباح إلى المصنع، رفعت عاملة النظافة الكأس وشربت نخبه، وعادت فتناولت الدلو والمقشة وقالت:

« أنت آخر رجل متزوج. وأنا انتظر بلا جدوى، وقد يطول بي الانتظار أكثر من الحد».

ومرت الأيام. ووقف ك وف و ب و ڤ هم والآخرون إلى السير الدوار. ونفذت الشمس من خلال النوافذ المغلقة التي كان زجاجها خشناً. كانوا يقوِّمون الأرجل، وكذلك الأذرع، ويسدون الشقوق، ويفتحون الأمخاخ. كانوا نادراً ما يتكلمون، وكثيراً ما يعملون. وكان الموردون يأتونهم بالمزيد، ويسرعون إليهم بالمدد حتى يستمر السير في الدوران. وكثيراً ما كانوا يعملون ساعات إضافية.

كانت الحاجة فيما مضى تدعو إلى العمل ساعات إضافية، مراراً وتكراراً، ولكن العمل الآن تضاعف. ولهذا السبب لم يكن من الممكن فصل ي من العمل. وأصبح من الصعب على الناس ترتيب إمورهم. كان للكثيرين أولاد وضعوهم عند أجدادهم ولم يكونوا يأتون بهم إلا في أيام العطلة، إذا كانت هناك أيام عطلة.

وربما تكلم بعضهم بين الفينة والفينة عن زوجته. فقال إنها كانت تعمل هذا أو ذاك فتجيد، وإن الحياة آنذاك كانت ألطف بكثير، وبخاصة في الأيام التي كانت تلوذ فيها بالصمت. وكان من الممكن أن يتزوجوا من نساء أخريات، ولكنهم لم يجدوا. والواضح أن النساء تحاشت المصنع.

وذات يوم همت الوردية الأولى أن تخرج فمنعهم جمع محتشد ثائر من الخروج إلى الشارع، ورد الجمع رجال المصنع إلى داخله بصيحات الاستنكار وبالقذف بالحجارة. واتصل ي بزوجته على الفور تليفونياً وتوسل إليها أن تأتي لتأخذه. واجتمع مجلس الإدارة، وأبلغ قسم البوليس المختص، ولكن عربات البوليس التي أرسلوها كانت كلها تقودها نساء شرطة لم يقمن بفك الحصار بل بدعمه. ولم يمنعن أحداً من الدخول، ولكنهن لم يسمحن لأحد بالخروج بعد الدخول.

ودفع إحساس غامض بالتضامن كل العاملين إلى الوقوف معاً، حتى أولئك الذين لم يكونوا في المصنع أو الذين كانوا قد تركوه. وتم تدبير الطعام والشراب للمحصورين على نحو لم يدع مجالاً للشكوى. وفي أثناء الأيام الأولى من الحجز كانت الجرائد والكتب تأتي إليهم. وكان الموردون مستمرين في تزويد السيور الدوارة بالعمل. وسُمِح لمن لهم أولاد بأن يرسلوا خطابات، وسمح لهم بالاتصالات التليفونية، وباستقبال الإذاعة.

وبعد عدة أيام تزايدت الدلائل على أن الموقف لا يمكن أن يظل على ما كان عليه. أولاً ارتدت الخطابات، بعد أن رفض المتسلمون استلامها. وتوقف ورود الصحف. وإذا بالرجال الذين كانوا أساساً يرضون بكل شيء في طمأنينة رواقية يصابون بالقلق. وتردد الموردون في إحضار المدد للسيور الدوارة، بل أصبحوا يوردون حالات لا سبيل إلى إصلاحها، لا لشيء إلا للحفاظ على نسبة التشغيل. وذات صباح توقفت التليفونات، واستحال استقبال الإذاعة، وفتحت أبواب المصنع مرة أخرى لاحضار الطعام والشراب.

ووقف ي في إحدى النوافذ وأرسل بصره إلى الخارج. وإذا به يرى في موضع بعيد في وسط الجمهور المحتشد الذي حرس المصنع قبعة صغيرة، قبعة صغيرة تافهة كانت زوجته تلبسها. كان ي قد اشتراها لها على الرغم من أنها لم تعجبه. كانت ماريا تحب اللونين الفيروزي والأخضر، ولكنها كانت تفرح كالأطفال، وعندذاك لم تكن تعبأ بالألوان.

كانت تقف بعيداً جداً عنه، وكان قد ترك السير الدوّار بدون تصريح، فظل السير يدور ليلاً ونهاراً، فلم يكن من الممكن إيقافه إلا من الخارج، وهو ما لم يفعله أحد على ما يبدو. وأصبحوا لا يعالجون شيئاً بالفعل. كانت الحالات التي تأتيهم حالات موتى، موتى، ولا شيء غير موتى، كلهم من الرجال.

ورأى ي أن القبعة الصغيرة بدأت تتحرك وتندفع إلى الأمام. ورأى وجهها. كان شاحباً يبدو عليه التعب. ولوح إليها، على الرغم من أنه لم يكن يتوقع أن تراه. وهاهي ذي تقف في الصف الأول وتتحدث مع بعض النساء. وفجأة رفعت بصرها إليه. ولوح لها بحركات كثيرة ونادى اسمها. ومر من ورائه أحد الزملاء، تبين أنه ك.

وقال له ك : « كف عن ذلك، فقد يساء فهمه. وأراد أن يجذب ي بعيداً عن الشباك، فتخلص ي منه وجرى إلى الفناء في الخارج.

وكان في أثناء الخدمة العسكرية قد تعلم أن يتفاهم عن بعد بدقات هي إشارات تلغرافية. فلما تعرف بماريا بعد ذلك أصبح التفاهم بدق الإشارات التلغرافية لعبة يلعبونها من حجرة إلى حجرة. وراح ي يدق على باب المصنع دقات تكون الكلمات السرية المشتركة، ومضت برهة قبل أن يتلقى الرد.

فقد دقت ماريا : « أحبك »

« أحبك.... » ثم : «انتظ انتظر انتظر... »

وانتظر ي. وأقبل من الخارج دوي آلات، بلدوزرات ولودرات وأوناش ومسّاحات. كانوا يبنون شيئاً ما بجانب المصنع أو ربما من حوله. وانتظر ي طوال الليل. واجتمع ك ثم ف ب ڤ وحاولوا أن يأتوا به من حيث وقف. وكانت نيتهم طيبة تجاهه. كانوا طوال الساعات المنصرمة قد قاموا بعمله على السير حتى لا يلفت غيابه الأنظار. فلما انتهت الوردية جلسوا إليه، وأتى ك معه ببطاطين. ولكن ي تبين فجأ أنه لم يعد يفهمهم. فلما اقترب الصباح تركوه وشأنه، فقد اقترب موعد الوردية التالية. وبزغت الشمس من خلف الأسطح وتناهت إلى السمع من وراء الباب دقات مرة أخرى.

« هل أنت صاح؟ »

ورد ي بدقات تلغرافية : «صاح إلى درجة مؤلمة»

«هل أنت وحدك؟»

ورد تلغرافياً : «نعم. وحدي كما كنت قبل أن أولد»

وفجأة انفتح الباب قليلاً. وتابع ي أشعة الشمس مندهشاً وهي تسقط من خلال الفتحة إلى ظلمة الفناء. ثم نهض. كانت ماريا تقف في الخارج. وأمسكت بيده وشدته بسرعة. فانقفل الباب.

وقالت له : « أنت الوحيد »

ونظر ي حوله. كانوا قد شرعوا يبنون سوراً عاليا حول المصنع. كان نصف العمل قد تم وكانوا مستمرين في البناء بسرعة هائلة.

وسأل ي : «لماذا كل هذا؟» وظلت امرأة من اللاتي يلبسن الزي الرسمي واقفة، وقالت:

« إننا نعزل به المصنع »

وسأل ي :« ثم ماذا؟»

وقالت ماريا :«تعال» ولكن ي تشبث بها وعاد يسأل : ثم ماذا؟»

فردت المرأة : «لا شيء.» ولم تبتسم حتى مجرد ابتسام، عندما أولته ظهرها. ومر بهم موكب حزين، دستة من العربات السوداء، جوانبها من الزجاج. ونظر ي من خلال الزجاج اللامع إلى داخل نعوش زجاجية، كلها رجال، رجال، موتى.

فقالت له ماريا : «هكذا تكون قد اكتشفت ما حدث.. لقد كنت أرجو أن نصل إلى اليت قبل أن تعرف...»

وسأل ي :«كل شيء هنا في الخارج على عكس ما في الداخل؟»

وطوقته ماريا بذراعيها، وقالت :«لا تنظر». وتخلص ي من عناقها وتبع العربات. كانت تسير بالخطوة البطيئة. وفجأة وقف وهتف باسمها. وشعرت هي بخوفه من الموت.

«كنا نغش بعضنا البعض دائماً في إطار ما سمحت به الأمانة ». وارتعد.

وقالت : «فإني مازلت أعرف لنا طريقاً». وتبعها كأنه في حلم. وفتحت أمامه كتاباً مصوراً. ورأى فيه من فوق مرج أخضر طريقاً يؤدي إلى جبال زرقاء زرقة السماء.

وسألها : «أفأنت ترين أن نترك كل شيء؟»

فأومأت برأسها. وأمسكها من يديها كليهما. وقال : «أحبك. أحبك حقاً».

وسارا معاً دون أن يلتفتا وراءهما فدخلا في كتاب أطفالهما المصور، أطفالهما الذين لم يولدوا. فلما دخلا الكتاب قفله أحدهم من خلفهم ورفعهما في حرص.

وتحدثا طويلاً معاً. فلما تأخر الليل وكانا في النهاية قد وجدا كل الكلام مرة أخرى، رقدا جنباً إلى جنب.

وناما في العراء ومن فوقهم سماء عامرة بالنجوم.

إريش ڤولفجانج اسكـوارا

Erich Wolfgang Skwara

محاولة العودة إلى الوطن

Versuch einer Heimkehr

« ... وهناك شروق الشمس كل يوم. وقد يسأل سائل : ألا يمكن أن يحدث أن نظل في الظلام فلا تشرق شمس؟ قوانين الطبيعة تقول لا، وهي تضمن لنا الأمان والاطمئنان.» ولم يحرك كلام أستاذ الفزياء فينا ساكناً، إنما ضحك الفصل كله، فلم تكن أفكار الأستاذ تدخل مخنا بسهولة ويسر، وما حاجتنا إليها، والتعود يكفينا. كذلك الإبن نفسه لم يكن يحفل بمعرفة يقينية، بل جرى من المدرسة وهو لا يلوي على شيء. وكان مدرس اللغة الألمانية هو الذي قال : «إذا نظرنا إلى غالبية التلاميذ وجدنا أننا نضيع الوقت وهم لا يتعلمون شيئاً.. هذه الغالبية تتحول إلى حثالة التجارة.» ولقد كان مدرس اللغة الألمانية معروفاً بتهكمه، ولم يكن أحد منا يحبه، إلا ابنه. أياً كان الأمر فقد مات مدرس الألمانية مبكراً على أثر مرض فظيع؛ وقالت الأم : «هذا عقاب من الله، والأعمال الصالحة يثاب الإنسان عليها في الآخرة.» كان كل واحد يقول شيئاً، عبارات فوق عبارات ترتفع مثل الأشجار في الغابة، تتخللها أغصان صغيرة متفرقة هي ما تهامس به الناس سراً، وما فكروا فيه مما لا يليق، وكان على ابن المدرس أن يشق طريقه في وسط هذا التهامس وهذا التكتم الحرام. فنما التناقض فيه. ولم

يرض بالدنيا ولم ترض هي به، وحفظ هذه وتلك من أبيات الشعر، ولكن اللغة وقفت منه موقف العناد. كان مدرس الفزياء يعزف البيانو، وكان قد استعد استعداداً رائعاً لحفل لن يقام أبداً. وكان أحياناً يغني للفصل مختارات من أوپرات ڤاجنر، فيتحول إلى إنسان آخر، كان صوته التينور يرتعد رعدة النصر، ولكن التلاميذ كانوا يظلون هم هم لا يتغيرون، يتغير المدرس ولكن التغير لا ينتقل بالعدوى إليهم. وكان المغني ينهي حفله حزيناً، ويعزف بعض النغمات في خجل على البيانو، فينفجر الفصل ضاحكاً. وكانت الأم تقول :« الأشرار من الناس من كانوا بغير غناء»، وكان مدرس الفزياء يطيب نفساً. وربما رمى على ابنها بعض الدرجات التي تنقذه من الرسوب. ولقد قال له ذات يوم على درج السلم : « أنت لست بحاجة إلى العلم، فلماذا أثقل عليك وأطالبك بهذا وذاك؟ أنت في الحياة ستعمل شيئاً آخر».

وهكذا قال بوضوح إن المدرسة شيء والحياة شيء آخر. كان المشوار من البيت إلى المدرسة خلال شوارع متربة قبيحة حملاً ثقيلاً ومعاناة في حد ذاته، فمن الذي كان يتوق إلى مزيد، إلى مذاكرة وإلى نجاح في الامتحانات، كان الحضور في الفصل بالبدن كفاية. ولقد أرهقت مظاهر الحياة هذا الابن في وقت مبكر، واستهلكت قوته فلم يبق منها لبذل الجهد وتحقيق الهدف إلا الشيء القليل. كان ولداً مقلقاً لا يزعج نفسه بل يزعج من يقلقون عليه، من يدبرون أمورهم في الحياة على مستوى العاملين البسطاء الذين لا ينظرون إلا إلى الموازنات التي تسوي بين الداخل والخارج. أما عندما كان يسير من البيت إلى المدرسة فقد كانت تتاح له الفرصة على الأقل ليحلم بأن البحر يمتد من وراء أسقف البيوت.

ولقد كانت الأم موهوبة في الموسيقى، وكانت في أيام الآحاد تغني لنفسها، بعض الأغاني الحزينة، مقتطفات من الأوپريتات لم تحرك في ابنها ساكناً. بل كان يطلب منها في خشونة أن تسكت : «كفاية اسكتي !» فكانت الأم تبكي لأن ابنها الوحيد لم يفهم ما كان يعتمل في نفس أمه. كانت تدافع عن ذكرياتها، ذكريات فاترة ترجع إلى ما بين الحربين العالميتين وتتصل بسنوات الطفولة والشباب، تبرز من بينها الأوپرات كالأعياد. كان باخ بالنسبة إليها مملاً، تقول عنه :«موسيقاه كلها تكرار» «أما موتسارت ففيه بشاشة، وشوبرت فيه العاطفة»،

كانا يعيشان في بلد الموسيقى، وكانت على علم بالموسيقى. ولكن الفن كان تسلية، والحياة تتطلب جد البقالين والموظفين.

في أيام السبت كانت دلاء مليئة بالماء تحيط بالسيارات الراكنة، ويعكف قضاة ومحامون وأطباء ومديرو بنوك ومدرسون على غسل سياراتهم وتلميعها، ليوفروا الشيللينات القليلة التي كانت محطة البنزين ستطلبها في مقابل هذا العمل. وهكذا كان هؤلاء الناسيأخذون بالأرخص ويحققون الغنى. وما لبث الصبي أن فهم أن الاقتصاد يعني التخلي عن الكرامة. كانت هذه الكلمة، الكرامة، تسبب له الحيرة، فقد كان يعيش في البلد الذي لا يصلح على الإطلاق لفهم معنى هذه الكلمة وإدراك كنهها.

كانت الشقة الجديدة في المباني الجديدة التي انتقلوا إليها منذ قليل قريبة من محطة السكك الحديدية. تركا البيت الذي عاشت الأم فيه ثلاثين سنة مستأجرة، وكان بيتاً عمره سبعة قرون يجمع بين ملامح الطفولة والتجارة، وأصبحايمتلكان شقة. ودخل اسمهما في سجل الملاك في الشهر العقاري، وتحولا من أناس يصبرون عليهم في بيوت الإيجار، إلى أصحاب ملك، وكانت أمي تحرص على إبراز الفرق بين الحالين. كان عدد سكان المبنى الجديد يقدر بمئات من الناس، أكثر من ستين أسرة تكاد جلودهم تتلامس من فرط الزنقة. أما القبو تحت الأرض فكانت فيه طرق متشعبةظلت تثير في الصبي الإحساس بالغموض حتى الثالثة عشرة من عمره. كان الطريق إلى محطة السكك الحديدية يتطلب عشرة دقائق سيراً على الأقدام، وثلاثة دقائق بالدراجة الزرقاء. وكان الإبن يحب المحطة على طريقته، كما كان السكيرون والشواذ يحبون المحطة على طريقتهم. أياً كان الأمر فقد كان هؤلاء يجمعهم شيء واحد وهو قضاء وقت طويل على أرصفة المحطة وفي صالاتها القبيحة. كانت المحطة ملكاً لهذه الجماعة المخلصة لها من الناس، لأن المسافرين كانوا يعبرون على عجل فلم تكن المحطة مخلوقة لهم.

وكان رجال الشرطة يروحون ويجيئون على فترات منتظمة فيعبرون على السكيرين والشواذ والصبي، وكان أكثر رجال الشرطة هنا من أصحاب الرتب الدنيا، منهم لا يحملون إلا

نجمة واحدة. ولكن هؤلاء الذين فرض عليهم أن يسيروا في جنبات المحطة لم تكن تنشأ بينهم علاقات مودة وألفة وتواطؤ. وكان الصبي يجد أن ذلك ليس من العدل في شيء، ويتمنى أن يحييهم أو يبتسم لهم اعترافاً وتقديراً، ولم يكن يرى هؤلاء الآخرين على حقيقتهم. لم يكن يطلق أسماء متباينة على ما يرى من الدنيا، بل كان يسلم على كل الناس دون تفريق أو تمييز. وعلى الرغم من ذلك فقد كان السكيرون يرتابون فيه، وكان الشواذ يعبرون بوجوههم عن استيائهم واستنكارهم، وكان رجال الشرطة يعبرون عليه عبوراً ولا يحفلون به على طريقة عجرفة أصحاب المناصب الحكومية. وتعلم الصبي شيئاً فشيئاً أنه لم يكن يعيش في بلد التحية الودية، ولم يكن يعرف شيئاً عن الوشاية المقيتة التي تحاك في هذه المدينة من وراء الظهر، والنفاق أسلوباً للحياة. وشعر بخيبة أمل تتلقاه شبيهة بنفثة هواء باردة نكراء واتجه إلى القطارات السريعة التي كانت تشده إلى المحطة يوماً بعد يوم مخلصاً كل الإخلاص. ولكن عربات القطار الخضراء والزرقاء بدا عليها كأنها كانت تسخر من حنين الصبي إلى البعيد، وقد بقي لا يتحرك من مكانه.

كانت مراسم قيام القطارات، وحركة العربات الثقيلة على عجلاتها الأربع، تعذبه وتحفزه في وقت واحد. وكانت هناك برامق حديدية تتدلى تحت سقوف الأرصفة حاملة مصابيح بيضاء، كان المصباح الأول المستدير يضيء عندما يقترب موعد القيام بنورأبيض لا يخطف البصر، وبعد ذلك كانت تأتي الإشارة الثانية من المصباح الثاني والإشارة الثالثةمن المصباح الثالث. فإذا جاءت الإشارة الثالثة أغلقت الأبواب، وربما اندفع بعض المسافرين المتأخرين إلى القطار على الرغم من إغلاق الأبواب. وكان الإبن يرى بعض عمال المحطة يخبطون بشواكيش طويلة على العجلات ويلينون الفرامل، ويسمع المحركات الكهربائية للقاطرات تحدث أزيزاً؛ ويرى علامة عبارة عن جمجمة، أو شرارتين : احذر، خطر الموت، تيار عال. كان الإعلان عن القطار في الميكروفون يتم إما بالألمانية أو بلغات ثلاث بحسب وجهة القطار. نتمنى لكم رحلة سعيدة ! صفارة من نظارة المحطة. القطار يقوم. كان الجد يقول غاضبا مستنكراً : «ما يقف عند القطارات في المحطة إلا شيوعيون !» والنمساويون يقولون :«من يفشل في المدارس يشتغل

في البريد أو السكك الحديدية !» ولكن النمساويين كانوا مع ذلك يبذلون أقصى الجهد للحصول على وظائف حكومية مضمونة في البريد أو السكك الحديدية أو غيرها.

كانت القاطرات تشد عربات القطارات السريعة من خلال ربوع أوروبا. عربات زرقاء وعربات حمراء، منها عربات السكك الحديدية الألمانية، عربات الدويتشه بونديسبان، التي لم تكن تجرها قاطرات ألمانية، بل كانت تعامل معاملة الترانزيت. ومنها عربات السكك الحدية الفرنسية، عربات الإس إن سي إف، الخضراء ذات اللمعة الألومنيومية. اكبريس موتسارت. فرنسا الحلوة، هدف لا تهفو إليه فقط القطارات المتجهة غرباً. وحدِّث عن عربات السكك الحديدية الإيطالية، فيروڤيه ديللو استاتو، بعرباتها القديمة، التي يصل حجم مسامير البرشام فيها إلى حجم قبضة اليد. والسفر إلى إيطاليا يحتاج إلى الحب والمال. كانت النمسا تحتقر إيطاليا، وكان أهل النمسا يقولون : «الإيطاليون خانوننا مرتين». وكان النمساويون على الرغم من ذلك يذهبون إلى بلاد الأعداء ويتمتعون فيها بإجازاتهم، ويستنكرون ما يفعلون وهم يخونون أنفسهم بأنفسهم. كذلك فعلت الأم عندما أخذت الإبن ليرى فلورنسه وروما وغيرهما، وأصبح چوڤاني هو الحب الأول الذي قبله الأبوان في تسامح رقيق، بينما خجلت الأم من الإبن فلم تعد تجرؤ على الظهور في قاعة الفندق. وأعقبت ذلك الصيف خطابات متأججة، وتعلم الإبن المنحرف اللغة الإيطالية بهمة دونها همة المحموم، وتبين أن انفصاله عن وطنه البارد أصبح شيئاً لا رجعة فيه. وحضت الأم الإبن على ألا يتخلى عن حب وطنه والاعتراف بفضله، وقالت له إن الوطن هو الذي أنشأه طفلاً ونشّأه رجلاً. ولكن الدنيا كلها على هذه الحال، فيها أطفال يولدون ويشبون، ولهذا تلقى كلمات أمه بالشك ولم يقتنع بها مبرراً لحب وطن والاعتراف بفضله. كان وجه الأم المرهق، الذي خلّف الخوف من الغارات الجوية الليلية البعيدة عليه شحوباً، مطبوعاً بحب الوطن. ومع ذلك فقد كانت العزة القومية التي تأخذ بها الأمهات الواهنات ترعب الإبن عندما يتعمقها. ماذا فعل البلد لأبنائه؟ ألم يتصرف البشر كل واحد لحسابه الخاص؟

كانت الأم في أيام الأعياد تذهب إلى القرافة، وكان الابن يرافقها. كانت هناك في القرافة شواهد حجرية قبعت عليها أسماء كانت الأم ترى فيها مشاعر احتفرت في الحجر وكان هو يرى فيها مجرد حروف. كان الصغير يرى نفسه مستبعداً من عالم الكبار في كل مكان، فقد كانت الأسئلة التي يلقيها لا تجد إجابة شافية. كانت الأم تحكي أشياء من حياة هذه الأسماء، ولكن الإبن كانت تتملكته رعدة فيأبى أن ينصت إليها. كان يحس كما لو كان قد غُرِّر به، وكما لو كانت هذه المقابر تصب هجوماً عليه؛ ما شأنه بها، هو الذي لم يكن يحب موتى أمه.

وكان يعود مع أمه في أوتوبيس أصفر كان يغص إما بعمال أو تلاميذ مدارس أو عجائز بحسب الساعة من النهار، فيجلس الإبن والأم متقابلين صامتين، ولكن صمتهما لم يكن طبيعياً، فلم يكن التوتر بينهما ليحتمل الصمت. وكانت الأسلاك العلوية للمركبات الكهربائية في المدينة تحدث شرراً، بل قد تحدث قفلات أحياناً. فيرتج الترولّلي باص ويقف فجأة، فإذا الولد وأمه يتكلمان معاً بصوت عال، ثم يصرخان الواحد في الآخر، فيحملق فيهما الركاب. عندئذ كان الإبن يقفز إلى الشارع، ويجري الى المحطة لاهثاً.

فأذا ألم بالمحطة حملق في القطارات المسافرة وعاد إلى نفسه فاطمأن مرة أخرى. كانت أغلب العربات قديمة صنعت قبل الحرب. كانت المواد التي صنعت منها ما تزال تؤدي واجبها، وتنسجم في الأنماط الحديثة. ودهش الولد كيف عبرت هذه العربات سنوات الرعب التي يتحدث عنها كل الناس، وما زالت سليمة بعد كل ما شهدته، قادرة على أن تقف حسب جدول المواعيد عند رصيف رقم ثلاثة أو رصيف رقم سبعة. لماذا لم تكن هذه العربات تحمل آثار ما يتحدثون عنه؟ وكان يدهش للكبار كيف مروا بصروف الماضي وظلوا أحياء وأصبحوا يضحكون من جديد. أياً كان الأمر فإن الإنسان يجدد خلايا جسمه، «إننا نصبح كل سبع سنوات كائنات جديدة»، على حد قول مدرس الأحياء. ومن الناس من آمنوا بالزمن ومروره وتقسيماته، ومنهم من كفروا بالزمن وأخلفوا وعده.

كتب جده في خطاب الوداع: «والآن، وقد مرضت مرض الموت ولن استرد عافيتي، أصبح من حقي أن أذكر الأحداث الهامة في حياتي. ولكنني مهما أتعبت مخي لأتذكر، لا أجد أي شيء بارز خرج على المسار العام الذي سلكته الأحداث على مر الأعوام. كل ما جاءني طائراً ولى عني طائراً، ولا بأس بما جاءني وبما ولى عني.» وفي يوم معتدل الجو من اكتوبر جاء الجد فجأة يتناول الغذاء عند الأم. وتحدث في أثناء تناول الطعام عن موضوعات تافهة كانت دائماً بمرور الوقت تكتسي أهمية. وعندما جاءت لحظة الانصراف ضم يديه وتلا الصلاة «أبانا الذي...» بصوت عال. وفكرت الأم في أنه يصبح غريب الأطوار شيئاً فشيئاً.

ونعرف من خطاب الجد أنه بعد ذلك صعد جبل الكبوشيين. كان جبل الكبوشيين أحب أماكن الدنيا إلى نفسه، وكان الجد أيام صحته يصعد هذا الجبل كل يوم. وهناك دفن ببغاواته. ولولا أن قوانين البلد فرضت عليه دفن تسيتسيليه، زوجته، في القرافة، لدفنها في الجبل هي أيضاً عندما حان حينها. ولم يبعد الجبل عن مناله إلا في السنوات الأخيرة من عمره عندما أنذرته ساقاه في تصميم متزايد بإنهاء خدمتهما. وكانت الأهداف التي يسعى إليها الجد أهدافاً قريبة، فهو لم يقم برحلة في حياته، إلا مرة واحدة في شبابه، سافر إلى ترينتو. فلما وجد الأشجار والأزهار هناك يتغير شكلها شيئاً فشيئاً ألم به الخوف وعاد من حيث أتى. ولم ير الجد البحر قط، ولم يكن به شوق إليه. ولكنه على الرغم من المرض والشيخوخة ارتقى الجبل في اليوم الأخير من حياته، وأصبح الناس فيما بعد يتساءلون كيف فعل ذلك.

فلما عاد إلى سكنه بدأ التنفيذ، فصعد إلى السندرة العلوية بعد أن وضع الخطاب وساعة الجيب والمحفظة على المنضدة في غرفة المعيشة. ووقف أمام النافذة التي اختارها فخلع الچاكته وعلقها على ظهر كرسي باحتراس. فلماذا يوسخ الچاكتة الجيدة عندما يرمي بنفسه ولماذا يجعلها غير صالحة للاستخدام؟ كذلك خلع النظارة، ووجدوها في علبتها المعدنية في جيب الچاكتة. فلما فرغ من إعداد كل شيء، واطمأن إلى عدم التبذير، صعد الرجل المتعب إلى المنطّة، ورمى نفسه من النافذة.

وهوى عامداً من خلال المنور القليل الضوء الذي كان يفصل البيت الذي بناه الأعيان عن فندق من الدرجة الثالثة، حيث الحوش الخلفي، الذي كان الإبن منذ وقت ليس بالبعيد يجتازه ببصره متلصصاً في حجرات الفندق عله يرى نزلاء يخلعون ملابسهم. وأضافت الجثة الساقطة إلى هذا الحوش على صمته صمتاً، ونَفَساً خامداً . والأرجح أن الوقعة لم تحدث ضجة كبيرة لأن الجثة ظلت عدة ساعات هناك إلى أن اكتشفها اثنان من العمال. وفهم الإبن أن الإنسان قد يعيش في الحياة طوال العمر على خطأ، قد يكون وجوده خطأ، ثم يقوم بحركة واحدة يحقق بها التصحيح الكبير. وأيقن الإبن أنه ليس هناك شيء اسمه أن الوقت فات، وأن كل إنسان من حقه أن يقوم بتصحيحٍ أخير. ولهذا أصبح من المبذرين.

وبرح الإبن المبذر مكان الموت في اليوم نفسه. لقد قرر أن يرحل، ولم يكن من شيء يستطيع أن يمنعه. وكانت الحرية الجديدة تتضمن فرحة بالنقود القليلة التي ورثها، والعربة الأولى التي اشتراها المبذر بها. ولقد حذره البائع : «خذ حذرك خاصة في البداية، ولا تقد السيارة بسرعة زائدة، فلابد من تليين المحرك.» لابد من تليين العربة، ولا بد من دفن الميت. لا. الجد سيُحرق ويحول إلى رماد قليل : «مرحباً بالاقتصاد»، الاقتصاد حتى النهاية. وحققوا للميت رغبته.

والآن حققت عضوية الجد في "اتحاد دعاة الدفن حرقاً"، اتحاد «اللهب»، هدفها الأول والأخير. وعثر الإبن مصادفة على البوليصة، وكان الجد منذ صباه يسدد الاشتراكات بانتظام، ويضع الإيصالات بعضها فوق بعض حتى تراكمت وأصبحت تلاً صغيراً. كان الإبن يكره الحرق، ويحب الحركات الرقيقة التي تنزل بها الجثة في الأرض، كان مخلوقاً يحب المتعة. وتناهت إلى الأذن موسيقى ناعمة مسجلة قادمة من محرقة الجثث، وجاءت كلمات القسيس الناعمة الروتينية، وانقفل الباب دون ما صوت. لا مجال هنا للملل، فالوقت مال، وهاهي ذي الكلمات ذات المقاطع الإيقاعية «رماد إلى رماد وتراب إلى تراب» تأتي مجللة بالسواد، فتستميل وتحذر. هاهوذا النعش قد اختفى، والنار الكهربائية قد حميت في فرن حرق الجثث من صناعة شركة زيمنس، وبعد أربعة أيام كان النتاج جاهزاً، إناء براق، يمكن استلامه من

مكتب إدارة القرافة، وفي هذه الأثناء تكون فاتورة الحساب عن عملية اختزال الجثة إلى رماد قد وصلت إلى البيت في صندوق الخطابات.

كانت السيارة الجديدة متعة للعين! انطلقت بالإبن من خلال الريف، ووجد في منظر المراعي ما أثار حماسه. ولم يسمع همسات المراعي الخضراء الهامسة التي كان تحضه على العودة إلى الأرض، فقد كان صوت المحرك صاخباً. كان الإبن يرجو أن تطول رحلته بالعربة طوال حياته، فقد تملكه ظمأ عارم إلى الصور. وإنه ليذكر في شقة الجد صورة مطبوعة كانت معلقة على حائط، يظهر فيها عامل زراعي بسيط من الأزمان القديمة يجلس وسط الحشائش ويقطع بالحربة شريحة من الخبز، ومن وراء ظهره منظر طبيعي كان دائماً يحدث في الصبي الصغير فزعاً، ويجتذبه في الوقت نفسه اجتذاباً لا قبل له على صده. كان الخبز في الصورة يبدو قرمزي اللون، وكأنه لا يصلح للأكل. كانت الدنيا التي عُرف عنها أنها تحتقر الشِّعر تنكر هذا التناقض وتسخر منه. فلما أحاط به منظر طبيعي حقيقي اكتسب العامل الزراعي البسيط واقعاً جديداً.

وطلب الإبن في المطعم أطعمة فاخرة كان يتوق إليها : كبدة الأوز بالتروفيل، خس الشتا بلحم من صدر البط، الإسكارجو في الرقاق الملفوف، فيليه من سمك الزيبارب عليه صلصة من كريم الكرات - كان خمر الجفورترامينر يكفيه حتى الآن - شرايح البتللو الرقيقة على الطريقة التقليدية، ظهر الأرنب البري مع صلصة الميرريتيش، أصناف الجبن - هنا فرغ من عب نبيذ البوبي - الأرز بأبي فروة - وأخذ يفكر دون تحديد في قهوة اسبريسو، في أنبذة الأرمانياك، والروميو وجولييت.

ولمح الغريب يجلس خلفه. انهما لا يعرف أحدهما الآخر، ولكنهما اشتركا في الرحلة معاً حتى بلغا هذا المكان، ودخلا هذا الفندق. كان الغريب في سيارته الفارهة قد تبع سيارة الشاب ساعات طوال، يعطيه أحياناً إشارات ضوئية لكي يسرع، ويصرف النظر عن تجاوز سيارة الشاب إذا أبطأ. فلما ذهب الشاب المذهول إلى محطة بنزين ليمون ذهب إليها الآخر

أيضاً. وهناك وقفا وجهاً لوجه ولكنهما لم يتكلما كلمة واحدة. ولم يظهرالغريب أي اهتمام بأمر الشاب، وكان الشاب من الجبن بحيث لم يسأله. وهو قد جلس إلى عجلة القيادة يلبس بنطلوناً من الشتريزمان مخططاً بخطوط بيضاء وسوداء، وجاكته سوداء، وصديرياً رمادياً وساعة ذهبية بسلسلة. كان هندامه أنيق وإن كان على الموضة القديمة. إنه يلبس هذه الثياب الآن، ولكنه يبدو فيها نشيطاً كأنه لم يقم بالرحلة المرهقة بالسيارة. ولقد حاول أن يبتعد عن محطة البنزين وأن يتخلص من متابعة الغريب له، ولكن المحاولة لم تؤد إلى نتيجة، فقد عادت العربة الثقيلة تسير وراءه. ودخل المطارَد في حانة على الطريق، ووقف الغريب، ودخلها وجلس إلى أبعد مائدة. كان وجود الغريب قد أحدث في نفس الشاب في البداية قلقاً، ولكنه ما لبث أن تصور أن القلق والغريب من مقومات الرحلة. وقرر ألا يصعِّب على الرجل ملاحقته. وأصبح ينظر في مرآة السيارة لكي يطمئن إلى أن الآخر وراءه. حتى إذا احتوتهما حركة المرور في المدينة لم يعد المطارَد يرى المطارِد.

حتى إذا دخل الفندق حاملاً حقيبته ووصل إلى مكتب الاستقبال في الفندق اكتشف الغريب وكأنه صورة منه انعكست في مرآة. ووقف كلاهما جنباً إلى جنب يملآن استمارة الفندق. ولاذا هنا أيضاً بالصمت عندما رجاهما خادم الفندق أن يتبعاه إلى المصعد، ودلهما على حجرتيهما المتجاورتين. فلما دخل الشاب الحمام حاول ألا يفكر في الغريب. ولكنه سمع من خلال الحائط الرقيق بطبيعة الحال كركرة الماء في الحمام المجاور. كل هذا كان وليد المصادفة ما في ذلك شك. فلما خرج الشاب إلى الطرقة خرج إليها الآخر أيضاً. فلما انفتح باب المصعد قدَّم الشابُ الآخرَ على نفسه في الدخول دون كلام. وشكره هذا بإيماءة. فلما نزلا أسرع الشاب الخطى من خلال القاعة وخرج إلى الشارع. وغاب في الزحام. ووصل دون مضايقات، أولاً جرياً، ثم متمهلاً إلى المطعم الشهير، وطلب طعام الذوّاقة في الوقت الذي أحس فيه بدافع قهري إلى أن يلتفت خلفه فوجد الغريب يطلب نفس الشيء، وطلب نبيذ الجڤورتسترامينر وزجاجة برويي.

وحملق الشاب في الزجاج القديم، بينما سمع من خلفه جلبة عالية. يبدو أن النبيذ لم يعجبه، نبيذ الجڤورتسترامينر الذي لم يعجب الشاب كذلك، لا لأنه كان رديئاً، ولكن لأنهم طلبوا زجاجة أخرى. فقد فتح الجرسون زجاجة نبيذ أخرى دون كلام . وهذا تصرف استبدادي فيه إهانة، ولكن الزبون الذي يغشّونه بهذه الطريقة يلزم الصمت من فرط الارتباك، على الرغم من أنه يتمنى أن يفرغ ما أثقل صدره من غيظ. وطلب الغريب ثائراً رئيس المحل وألقى على مسامعه شكواه فأنصت إليه، ثم قال له في تعالٍ : « يؤسفني ما حدث ولكن نوعي النبيذ لا يكاد يكون بينهما فرق». وسمع الجميع كيف خبط الغريب بقبضته على المنضدة، وطلب معطفه وأعلن أنه سيأكل في مكان آخر لا يغش فيه الرواد. وحسده الشاب، وتمنى لو كانت لديه مثل هذه الشجاعة. والغريب على حق فعندما ينسى التاجر أنه يدين للعميل بوجوده يكون متورطاً في الغش.

وظل يفكر في أمر الرجل المجهول وهو يقلب منقبضاً في الأطعمة التي أتوه بها. هذا الغريب شبح، ولا بد أنني سألتقي به فيما بعد، فليس هناك من سبيل إلى زحزحته من مخي. ثم قال في نفسه، إنه غير موجود ولا ينبغي له أن يوجد. هذا هو القرين يسير بجانبنا مسافة يمكن أن تكون حياة إنسان، وقد يختفي صاخباً أو صامتاً، إلى أن يثور علينا مرة أخرى ويتخذ له جسماً. ثم يتبدد النورالجميل من جديد، ويتحلل الإنسان الذي يسير في اتجاه واحد ويستحيل إلى أطلال تثير الأسى.

ويبلغ الإبن باريس حيث تحدوه الرغبة في الدراسة. ولكن فن الحياة هو فن النسيان. وباريس رحيمة كريمة، فهي تلقي ببركة نورها الرقيق إلى القادم الجديد، إلى الغشيم، إلى أن تنتصف ليلة الأول من مايو فتنهمر تيارات عارمة من الشباب، ألف شاب، كلهم يريدون أن يبيعوا للربيع في أسبتة مضفورة زهور سوسن، زهورسوسن حلوة الرائحة، ويضحكون، زهور رخيصة، يجلسون في الخلاء ، والناس تشتري وتشتري، فمن الذي يقول لا ؟

مناظر غروب الشمس في المدينة الجامعية بباريس حيث يمثل الشاب دور الطالب. في هذه الأثناء انساب ماء كثير في نهر السين وفي نهر الزالتساخ، والأم تعيش بلا بَشَر، والإبن يعيش بلا بَشَر على الرغم مما يحيط به من بشر. وهو قد تعلم أشياء لم يكن يعرفها، ولكنه ما يزال عاجزاً عن الوقوف بقدميه على الأرض. وبيت الطلاب كئيب، والسلالم فيه تطقطق، وحيطان الحجرة يكسوها خشب أسود. والمبذر يعيش حياة تبدو متقشفة. إنه يقرأ ويكتب ويسمع موسيقى. والنور يتفرق كالشظايا في هامات أشجار الصنوبر التي ترسم اتجاه الجنوب أمام الشباك الذي يعلوه التراب. والتحول ينشيء بعمل من قبيل السحر دير رهبنة وحفلة متعة أمام الهارب الذي لم يقر على قرار... ولكن الحديث الآن يدور حول ما يكابده الحبيب. تعال يا أيها الربيع...

وسيأتي الربيع، سيأتي شهر مايو، وستمتليء الليالي بالتوتر، والتهديد يتربص من وراء الظل، تهديد لا سبيل إلى الإحاطة به، أو معرفة اسمه، إلى أن يتدافع الشرر وتتحول الكلمات الحبيسة إلى شعارات صارخة. وتصور الإبن أنه لا شأن له بهذه الأمور. خطأ في الحساب إما أن يكون نعمة أو نقمة. والحب يطول ما طالت حركات سيمفونيات موتسارت، والشفاه تتلاقى وتتباعد مع إيقاعات مبتهجة أومتريثة. وهو يقرأ شاعره الأثير. هو وحده في هذه المدينة الهائلة وفي تلك الساعة، وهذا الشاعر.

ويسير الطلاب مسيراتهم. وينقلبون إلى الحماس العسكري الذي يدعون أنهم يكرهونه، ويدوسون بأقدامهم العنيفة النجيلة الرقيقة في الحديقة، وتتعالى هتافاتهم : « يسقط ديجول. يسقط الرؤساء. يسقط العجائز. » ويضع الإبن اسطوانة على البيك أپ، إنه يريد أن يلوذ بالموسيقى ويقبع فيها، ولكنه لا يلبث أن يكتشف أنه ملتصق في حجرته، ويدفع نفسه دفعاً للنهوض، ويندس وسط المتظاهرين، ولكنهم لم يحفلوا به، ولم يعتبروه حتى من قبيل الرمل الذي يزعج تروس نقل الحركة. ولقد نظر إليهم، إلى هؤلاء الثائرين الشباب النحاف الذين يساووه سناً بجلدهم الزيتوني، ووجدهم يختلفون عنه، كانت حركتهم المرنة تقع عليه وقوع الصفعة، فقد ظل ثقيل الحركة، لا يحسن التصرف. ولكنه سيحقق نصره عندما ينتهي

كل شيء. لأن غضب هؤلاء الأولاد في هذه الليلة من شهر مايو سيدفعهم إلى نوع جديد من الممالأة، ولكنهم لم يدركوا ذلك حتى الآن. إنهم يتصورون أنهم من نوع فريد، لم يجد الزمان بمثلهم، ويعبثون بمفهوم التاريخ، ولن يلبث شهر النعيم العارم أن يتحطم على صخرة ضعفه وينتهي.

وهذا هو الإبن يصبح طاعناً في السن، يحرك غرائزه انعكاس أضواء العربات التي أشعلت فيها النيران بطول شارع جي لوساك. وانتهت ساعة الأشباح، وتحولت مخلفات الحريق إلى تماثيل من نوع التماثيل التي أبدعها نحاتون مثل برانكوسي الجريء، ومانثو صاحب المطارنة، وجاكوميتي صاحب الهياكل العظمية في عصر الذرة، تحولت مخلفات الحريق إلى الفن الجديد الذي ما لبث أن أصبح فن الأمس بعد أن كان فن اليوم. رائحة الحريق تخز رئتي المتفرج الذي اكتشف نفسه وقد أصبح شاهداً راضياً على ثورة غلبها النعاس. وسيوقف سيارة أجرى لتقله إلى محل البيبيه دي كوشون حيث يعمل طباخون وجرسونات ليلاً ونهاراً، ويضحك رغماً عنه : هم أيضاً من المظلومين الذين ثار الطلبة من أجلهم. في مطعم البيبيه دي كوشون يريد أن يشفط قواقع وأن يلتهم ستيك بالفلفل عند الفجر. وسيصب في جوفه زجاجة من نبيذ سانسير، وسيحطم كل المقاييس، ولكن الناس هنا علقوا نتائج العام، في كل مكان شهر مايو، وإلى المائدة المجاورة جلس أناس شعرهم طويل وعيونهم براقة استرسلوا في الشجار. الكلام يشبه الريح العاتية التي ظلت طوال هذه الأسابيع تهب حادة، أو الأصابع الحادة التي تقطع الهواء، إنها ليست مقصلة، عام ١٩٦٨ عام إنساني حائر، الموضوع قديم ممجوج مثل قهوة باردة قديمة سخنوها من جديد.

(...) وبقي الصبي بطبيعة الحال أعسر حتى بعد أن غش الدنيا بيده اليمنى. كان الصبي يكتب بيسراه التي تأتي من ناحية القلب. لم يكن من الجائز في أرض النفس الذهبية أن يأتي شيء من ناحيةالقلب. كانت الدولة القزمة تتدخل بسلطتها حتى في أيدي الأولاد. هكذا صرخ فيه المدرس وقد امتقع وجهه :« كل واحد في هذه المدرسة يكتب بيمناه، ولا مجال عندنا

للاستثناءات !» هكذا كان المدرس يمثل النمسا أحسن تمثيل وأضاف : «من لا يلين برغبته ينقصف رغم أنفه» ويقبع الأولاد الذين ولدوا في البلد الظالم، طائعين. عليهم أن يتكيفوا، اليد اليمنى ثقيلة، تتملص، وتظل الكتابة دائماً محملةبالمعاناة.

وما يكاد الطفل يفرغ من محنة الإكراه حتى تضع الدولة نذالتها في دور المحفوظات وتصبح دولة حديثة. وهذا تصورعرفه الأقدمون عن حرية الإنسان في النمو قد عبر المحيط الأطلسي ووصل إلى جبال الألپ، ولكنه جاء متأخراً بعد فوات الأوان. وتنقضي عشرات السنوات، ويقدم رجل طيب القلب هذا الأعسر إلى ابنة هوجو فون هوفمنستال في نيو يورك، ويقول الرجل الكريم :« لابد أن تتعرفي إلى الشاب ». ولكن ابنة هوجو فون هوفمنستال العجوز لا ترضى بأن يغشها أحد، وتحملق في الأعسر وتقول : «ما صاحبك بشاب»؛ لقد فهمت السر الكامن. ولا تمد يدها المبطعة إلى المأخوذ إلا مترددة، وتقول ساخرة : «الشاب، نهارك سعيد يا شاب !».

هذا الإنسان الناقص الذي على وجهه طفح يناسب أمريكا. والطبيب رقم مائة في سلسلة الأطباء الذين استشارتهم الأم قال له عابراً : «طفحك الجلدي عنيد بلا شك. مفروض أن يختفي حب الشباب من وجهك عندما تصبح في العشرين.» كلامه له نبرة عسكرية مقيتة.«هناك حالات يبقى فيها المرض مدة أطول.» الطبيب يقول «يبقى» كأنه يتحدث عن زائر محبوب. «موضوع هرمونات، لا أكثر. والالتزام بنظام تغذية قاس مع النوم الكثير والأدوية يخفف الحالة. كلْ خميرة، أكثِر من أكل الخميرة، وعندما تبلغ الثلاثين ستكون قد تغلبت على المرض المزعج، هناك مرضى بطبيعة الحال يعانون طول حياتهم من حب الشباب.» ويضبط اتجاه المصباح الكوارتز فوق المريض الراقد على منضدة الكشف. ويمتليء المكان الصغير بطقطقة خفيفة ورائحة أوزون. ويخرج الطبيب ليكشف على المرضى الذين تفتح مناظرهم النفس. نور أزرق يغمر المراهق.

ما من مكان ذهبا إليه، هو وأمه، إلا تحدثت فيه أمه دون ما خجل عن مرض ابنها الجلدي. حتى إذا لم يكن الناس قد نظروا إليه :« ابني منظرة بشع، ولكن ماذا أعمل، لقد ذهبنا إلى كل أطباء المدينة، فلم نجد بينهم من يستطيع علاجه. لا تأخذوا على ابني طفحه الجلدي، وأنا لا أستطيع أن أحبسه لهذا السبب». وكره ابن الخامسة عشره أمه ولم يعد منذ وقت طويل يقف بجانبها، بل لقد غاص عميقاً في باطن الأرض. إنه يريد أن يهرب إلى أمريكا».

هناك يقدم إلى نفسه وإلى الناس حكاية جديدة. لقد حذرته قبل أن تصبح أماً، وقالت له بوضوح : «ليس الآن» ولكنه أسكتها بالعبارة الفارغة الحاذقة : «من يرضى باللعب عليه أن يرضى بكل شيء». انهما يحتفلان في المطعم اليوناني، مع صحبة من الأصدقاء، يشربان سانتا لاورا، فقد أوشك الطفل أن يولد. واتفقا على اسم المولود. وإذا بالأم تحس بآلام الوضع، ويسرعان إلى المستشفى ورائحة خمر السانتا لاورا تفوح من فيهما. وإذا بالأعسر يلعن الإسم الذي اتفقا عليه.. ما تكاد كلمة تطفو على السطح حتى تبحث لها عن واقع. والاسم يصرخ منادياً صاحبه. حساب الأطباء لا يفيد، وإنما الأمر أمر اندفاع الكلمة.

فلما ولد هذا الطفل لم تكن عيناه مقفلتين ملتصقتين، بل كانتا مفتوحتين رائقتين، تنظران إلى الأب. هذا هو طفله الذي ينتظر منه شيئاً، ولكن : كيف يقدم إليه شيئا وهو صعلوك . ومِنْ قائلٍ : عليك أن تتعلم أن تلعب دوراً. ويبرح الأب المستشفى الذي ابتني من الطوب الأحمر، وتلفح وجهه حرارة ظهر يوم من شهر يونيه. لم يحس بهذه الحرارة من قبل قط، أما الآن، وقد خلت نفسه من التوتر، واتسع مجال بصره بدخول إنسان جديد، فقد ازدادت حواسه حدة عن ذي قبل. إنه الآن يرى ويسمع ويشم على نحو أفضل. لقد ولد من جديد هو الآخر.

وهذا هو عادم السيارات يخنقه وهو يعبر ساحة ركن السيارات التي تأجج أسفلتها. والفراشات تحوم حول شجيرة ذات أزهار فتصيبه بالدوار؛ طفله ولد في هذا الخليط الأليم. وأزيز طائرة من فوقه ينفذ إلى داخل عظامه ويوجعه. تحت هذه القبة السماوية الممزقة ولد طفله، ليس في الدنيا مكان للطفل. كلام فارغ، العالم يمكن أن يمتد. إنه يتمنى أن يفرح، ولكنه يلعن، ويعض بنان الندم، لابد أن يستطيع الإحساس بشيء. لابد أن يفرح. إنه يبكي. لا يبكي في صمت، بل يبكي متشنجاً، يرتج، وإذا بحارس ساحة ركن السيارات التابعة للمستشفى يقف خلفه فجأة ويسأله : «هل أتيت بحالة وفاة؟»

الإنسان يكتسب اعتياداً روتيناً في خلف العيال، وفي حبس البكاء، وفي نسف الكباري. يمكنه الآن أن يعود إلى الحبيبة التي صحت لتوها. المولودة : «بنت صغيرة». يهنئونه. لم يعد شيء بعد الآن لريئاً براءة عذرية، بل الأشياء، كل الأشياء، أصبحت تتكرر وتتكرر، تنويعات لا حاجة بها إلى فن الفوجه. الأفضل أن يلزم الإنسان الصمت والسكون.

يوأخيم جونتر همر

Joachim Gunter Hammer

تآكل - ١

ساقية الشمس تدخل

في دائرة الجبال

الأخدود يزداد عمقاً

قاع بحر يهيم في هذا الغدير نحو البحر ،

حجر يحرك حجراً ،

شيء يتكامل في اتجاه الغربة القديمة

ويتحلل إلى مصب متعكر

كذلك بيت الشعر عند حدوده .

تآكل - ٢

قطرات السحابة المدورة

الناعمة تولد وعورة

ما ء يفلق الصخر ،

ذرى العالم

في البحر قد تحللت .

هذا الحجر الجيري الجليل ،

تابوت ألف حياة

مزقه صقيع بعد صقيع ،

يتمدد قليلاً في دفء هذا الصباح ، يتمطى

أنت تقبِّله

خجولاً

وراء الظُّهر النائمون ،

عميقاً في الشرق

نصف تون صول .

صوت إلي عينك أحب

تناغم نظراتنا ،

أنت تحيين نحو موسيقاي

وتنفذين إلى أذني ؛

اقترب مني من فوق السلم

الدائري نحوي - قناة السمع

في بيت الأشباح الأربعيني ،

اقترب مني ، لأن النظر

ما يزال بعداً كبيراً ، وأنصت

كيف تتنفس الحجرة كيوم العيد ،

في الداخل شمسٌ تبث أنغامها الأولى ،

لا رأس مال يجتنى منها ،

لا صورة ترسم لها .

نصف تون صول عميق ، تمتد إليه أيدي الأشجار،

نصف تون صول عميق ، ونحترق .

استيقظ

عند وجه الشمس الفرعوني ،

بينما البحر ، امرأة زرقاء كحلاء

ترفع مبتسمة ثوباً كثير الثنيات ،

عابرةً على صديقك ، المثّال ،

الذي ينحت في بازلت القمر قططاً ،

ويحادث الحجرعن الواقعة

ويصمت مع الواقعة عن الحجر ،

ويسعد في الواقع

أن يكون نوراً كأنوار أُخَر ، نحو هدف

كل العيون في سعيٍ إليه ...

وقفت أنت أيضاً على شاطيء من أكتوبر

وأردت بغير جدوى ، مفرغةً كل مِلكك الرنان في الماء أن تبقي ، تبقي فقط ،

ولكن المكان امتلأ بساعات ، بغتة

دارت العقارب للوراء ، وقبعت

الأرقام في الصفر ،

وفتّت كلمات من العبارات ،

نشأ محيط متجمد في القلب ،

أنفاس بيضاء ... وسط

يوم العمل وضربات أجنحة حالكة

صرخت النجوم مبحوحة في عناد لارجعة فيه

فوق دول البشر

وتركت الليل

في الرءوس

وحيداً .

الحديقة

لا يصل إليك عبقها إلا في النوم

قذ تتجاوز السياج المفعم بحيوية مفرطة

ثم تثقلك الذكريات أي إثقال

فلا تستطع النهوض ،

ما من منبِّه من الحياة اليومية يستطيع

أن ينزعك برنينه من السعادة ،

حتى الشمس تعجز

ولا تعود تستطيع أن تحرك ظلك ،

اسمك القديم لا يعني شيئاً

صمتك لا يعني شيئاً

وأصوات أولادك

زقزقة أطيار غريبة

حول ألف ركن

ولا ركن .

أم الغربان جميعاً ...

يا شمسُ ، ليست بشمس ٍ، منيرةُ أمام معرفة الليل

أو يا علامة سيادة سلطة حالكة ، بأي اسم أسميك ،

نجم حلم يقظتي ، علبة دهان الاخضرار ، الاصفرار ...

إن الذي حفز الموجة على أن تستقيم

وحفز الاستقامة على أن تتموج هو أنتِ

أنت في الواقع تحرثين الحقول

تميلين مع هذا الذي تولد سافراً عنك ،

نبْتات تتجه نحوك ، تدعين السكر

يتبلور في أوراق الشجر ، يا شمس ، أين تنتهين ؟

رأيتِ كل شيء منذ الأزل

وأنت تدورين فوق الزرقة بغناء ٍ شارد ،

عِلْمٌ هَرِم ، تكامل في انسياب ثواني المكان ،

ينير نفسه بنفسه ، عجلة قيادة

لم تمسها يد ، بسفينة مهابيل كثيراً ما يستحضر عموميتها

أولئك الذين يحتفلون في كبائن مترفة :

ما يزال صوتك في المصابيح الكهربية ،

أنت تطقطقين في أفراننا وكل شعلة هنا

هي شعلة من معابدك ، حيث كل شيء

قد كُفِّن لحياة جديدة تبدو بسمات طفولية ،

نتناولك دائما إلى أفواهنا ، وأنت تحتمين ظُهراً

بأيدينا منك أنت ، يا شمس . . .

لك أن تلفّي قلبي بعد حين

في غزلك الأبيض ؛

ولَيُقِمْنك لي من حجر رملي أحمر

شاهد قبر

بغير اسم .

أداچيو

في الحلم نحو النور، عابراً على رأسيْن من
رءوس القطط ، من حجر القمر ، من محاجر
يتشعب أخضر ، مليئاً بالبرتقال ؛
مهيبة ترن في اللون أسود جرار الأرواح ،
صفوف مطياف النجوم ؛ ربـ
ـما قالت الحياة الكلمة الأخيرة
وهذا الذي يزدهر هنا يسقط من مائدة
بعض الموتى ، الكريزة تنضج
مِن فيهم ويسفر النهار نافذاً ،
المرايا تكتسي ؛ بغير كلام
يوافق متأخراً ، كالطفل والحيوان ، يعود
إلى الشمس من خارج ومن داخل ،
ما خطر بالبال يوماً ما ، المركز

هو قلبك البارد ، وتتطاير ،

تتطاير على الأرجح خلال الحجرة المدهونة بالأبيض

خيوط لغزل ذاتي ،

ومن فوق حشيتك الأخيرة ذات اليايات

يهيم ذكاء دلفين رحيم ...

وعيُك صافٍ ، فقد حلمت كثيراً ، ورأيتَ نفسك أمس

إذ كنتَ طفلاً يبتسم ويحمل بالونة

حمراء في يده اليسرى ، ثم

ينطلق بغتة نحو الليل

في عربة حنطور عتيقة

الشمس فيها عجلة احتياطية

تكون فيها وحدك ، تتنزل من نظم الإحداثيات

زَبَد الزمن وغُرَز السرداب اللانهائية

بحرية تتنفس من جديد ، وبحرية

تحبس النفس .

سيلفيا ترويدل

Sylvia Treudl

قوة دموية ثيرانية...

قوة دموية ثيرانية

بغير تركيز ولا اتجاه

تواقة إلى التخريب

عاصفة سَمومية نزقة

ربما يكون لها

أن ترفع الشال

عن كتفي

عن البعض قد

أطفأت جذوة الحواس

ثم المخ من بعدها

في ذبح للذات

أمام جدار بيمارستان

محطم للأعصاب

هياج زرقة أبريل

وهم يستحضرونه في رقة

قدر قسوته الدائمة

كل شيء يستحيل

أيضاً

إلى خطر عن رغبة شريرة .

*

قمرٌ أحمر بلون الدخان والدم ...

قمرٌ أحمر بلون الدخان والدم

يكوي أسفلتاً يتصبب عرقاًذ

ويلطخ

جلداً معطراً بالزيت

صيف مفعم باقترابٍ مستعار

أكتاف عريضة

كلها مستعارة

طرق زراعية بالليل

و: اتجاه الرجوع

رجوع دائماً

رَجَعَ

أُبعد

على حبل قضبان ملفوف من صيد فؤاد

في مطر العنصرة أيضاً

لاشيء إلا لاكيه لامع أمام فتحة التصويب

عودة من الرجوع

ثم

خطاب من بلد حار

سيرتعش

ميناء أبيض

مينا بيضاء

بارد جداً زلق جداً

قطع يتشكل .

الشمس ...

الشمس

شلنٌ براق

مجنون في مصباح

متأجج

منغمسٌ

في كتلة من رصاص ليلة عيد الميلاد

دراهم يهوذا الفضية

بلون رمادي

عندما تختفي العملة

المجنونة

يهلل القمر الشقي القديم

نكسوه فضةً

وندفعه إرباً إلى البحر -

الذي ليس من الطيبة

كما يبدو عليه في نعاسه -

نهديه

إلى الشيوخ والشباب

إنه جميل جداً

جميل جداً

وسريع وخفيف كالفكرة

كذلك إلى

شجرة جنوبية ضخمة

حتى الشّعر النابوليتاني المجعد

كم هو جميل

جميل إلى حد الموت

ليال بطولها ...

قطة بلون الرغاوي

دُس بالدغدغة

يأسٌ في شعرها

كلمات وداع

نخرت في نعال من المطاط

مآسي أحذية التنس

أمام باب البيت

بصمة على بلاط الطريق

من وطأة السندال

ثقالات رصاص

توازن بندول الروح

قصور مناهج البحث عن الماء بالعصا

لكرتين

لا تنطان

أبداً

في اللحظة ذاتها

الصيف الأخير ...

الصيف الأخير

في شكل

أجسام حشرات ممزقة

مختزن

على لاكيه أسود

طوال الشتاء

الآن

مخمناً قدوم الصيف

فوط مشبعة بالبنزين

كطلسم

كما كانت في الماضي

بنات القرية

يمسكن مناديل

مشبعة بالعرق

بعد ساحة الرقص

يأخذن رائحة المحبوب معهن

تحت حشية من شعر الخيل

أو أقرب .

روبـرت مينـاسه

Robert Menasse

لم أرك منذ وقت طويل

Lange nicht gesehen

عندما أرى صورة تجريدية فإنني لا أرى إلا صورة تجريدية. واختبار رورشاخ - الذي يستخدمه النفسانيون - لا ينتهي معي إلا إلى الاختبار نفسه، لا أكثر. وإذا أنا رأيت العذراء محلّقة في الهواء فإنني أرى امرأة تبدو لي محلّقة نتيجة لطائفة من حيل الساحر الفنية الخفية. والفنان الإيهامي يتلقى أجره في مقابل إخفاء الحيل عن أعيننا، ومعنى هذا أنني أثق هنا أيضاً فيما تدركه عيناي. أما فيما يتصل بعالمي الصغير الذي أعيش فيه وأراه رأي العين، وأعرفه معرفتي الواقع، فلم أشعر يوماً بأنني لا أدركه الإدراك الصحيح. وأنا لا أعرف كل ما يمكن أن يكون. ولكنني عندما أرى الشيء فإنني أعرف أنه واقع. وهكذا فإن رؤية شيء والذهاب إلى أنه غير ممكن أمر غريب بالنسبة إليّ يشبه قفل العين حيال ما هو واقع وتخيل إمكانات مختلفة كل الاختلاف، بل قد تكون مستحيلة، ولهذا فإنني لا أحتملها.

كل هذا غير صحيح بطبيعة الحال، ولكنني كنت بحاجة إلى خبرة تمكنني من إدراكه. حتى رأيت شيئاً بعينيّ ما كنت أعتقد قط أنه ممكن. ولكن تلك كانت البداية.

كنت كعادتي كل مساء أقوم بنزهة مع كلبي حول صف البيوت المتجاورة. ولقد مررت مرات لا تحصى في أثناء نزهاتي المسائية بباربيكدامه دون أن يخطر ببالي أن أدخل. ولا أعرف لماذا دخلت في ذلك المساء فجأة لأشرب البيرة، ربما كان حنيني الهلامي إلى الحياة قد غلب خوفي الذي كان دائماً يعمل حساباً مسبقاً لكل خيبة ويتحاشاها، وبصفة خاصة إذا كان الأمر هيناً من قبيل المرور أمام حانة مشبوهة في مشارف ڤيينا ينطلق منها الضحك الصاخب فينتهي إلى الشارع.

لابد أنني أحدثت انطباعاً بأنني أعمى عندما وقفت في الحانة ومعي الكلب وحملقت بعيني مفتوحتين على سعتهما من تحت نظارة تغبش زجاجها. أما ما رأيته من خلال الغمامة التي انقشت من النظارة تدريجيا وما ظللت لحظات لانهائية لا أستطيع تصديقه فقد كان عصبة من الرجال المخمورين الصاخبين تحلقوا حول منضدة كانت ليشنر ترقص فوقها.

ماريا ليشنر. عرفتها مثال الهمة والثقة والاستقامة منذ أيام المدرسة، فقد كنا في فصل واحد. لم تكن ترضى بالغش مخافة أن يؤدي بها إلى تعثر تقدمها في المدرسة. وظلت حتى نالت الثانوية العامة تضم شعرها في ضفيرتين، ونجحت طبعاً بامتياز. فلما أعلنت النتيجة ذهب نصف تلاميذ الفصل إلى المدينة للاحتفال بالنجاح. ودهشنا عندما علمنا أن ماريا ليشنر قررت أن تأتي معنا، ولكن دهشتنا لم تطل، لأنها كانت الوحيدة التي لم تكن ترضى بركوب الترام مثلنا بالتهرب من دفع التذكرة، وأصبح علينا أن ننتظرها وقتاً طويلاً أوشك ألا ينتهي إلى نهاية لأنها ذهبت إلى مكان ما لشراء تذاكر الترام. ولم تشرب إلا الصودا مزجتها بشيء من شربات فراولة الفرامبواز. أما ڤيبورا مثلاً فلاحت لنا ماجنة لكثرة ما شربت من خمر المارتيني. ثم اختفت فجأة عن أنظارنا مع كايزرالذي كان يشرب خمر الأوزو ولا يشرب غيره.

وفيما بعد كنت أرى ليشنر بين الفينة والفينة مصادفةً، ولكنها ظلت حتى بلغت الثلاثين من عمرها نفس البنت المتينة التي كانتها عندما كان عمرها عشر سنوات تعمل واجباتها المدرسية بدقة ومثابرة. وعندما بلغت الرابعة والعشرين أتمت دراسة الحقوق في الجامعة، وفي الخامسة والعشرين بعد سنة في المحاكم نجحت في امتحان الترشيح لوظائف القضاة، وبعد أربعة أعوام نجحت في امتحان التعيين. سارت كل الأمور في حياتها دائمة ناعمة بلا مشكلات، بلا تشتت، حسب الجدول الزمني المثالي، حتى أصبحت قاضية، ثم غفلتُ عنها فلم أعد أراها.

واليوم بعد خمسة أعوام تقريباً، أوستة أراها سكرانة تضحك وتصخب وترقص فوق منضدة، وتتصنع أنها ستقع فتمتد إليها الأيدي كأنها تريد أن تسندها فتردها باحتقار.

ولاحظت أن الموسيقى التي ملأت البار الصغير الغائم أتت من جهاز راديو، فما انتهت الأغنية حتى تبعتها نشرة الأخبار. جمهورية ألمانيا الديموقراطية. بدأوا في هدم سور برلين، نظام مابعد الحرب يتفكك، وتناهت إلى مسمعي واضحة من خلال الضحك والصراخ عبارة نظام ما بعد الحرب مرة ثانية. ووقفت ماريا فوق المائدة واضعة يديها في وسطها. وفجأة لمحتني، فأطلقت ضحكة عالية، إما لأنها عرفتني، وإما لأن الرجال الذين أعانوها على النزول من فوق المائدة.... لا، لقد أطلقت الضحكة العالية لأنها عرفتني، فقد أقبلت نحوي. ورمقتني بتلك النظرة اللامعة الثابتة التي تصدر عن عينين زجاجيتين دستا في قناع يوشك أن ينصهر بين لحظة وأخرى. وتعثرَتْ، وأوشكت أن ترتمي على رقبتي صارخة مهللة، قائلة : أهلاً يا هولتسر، لم أرك منذ وقت طويل. وشرع كلبي ينبح، وتصببتُ عرقاً، وعادت نظارتي فتغبشت مرة أخرى، بعد أن كانت قد صفت. وقالت لابد أن نحتفل بهذا اللقاء، ولكن ليس هنا.

تذكرت البلوڤر الوردي الضيق الذي كانت الجرسونة تلبسه، عندما وقفت أمامي فجأة، وراودتني بسرعة صورة جسم امرأة ككأس من زجاج امتلأت بالصودا عليها شربات الفرامبواز،

ثم لمحت شنطة الجرسونات الضخمة السوداء التي انفتحت كهاوية سحيقة لمعت على أرضيتها عملات، وذراعاً تلبس قميصاً مخططاً آبيض في أزرق، أتت من مكان ما ، ولا أعرف كيف ولا من الذي ردها ، وجاشت حركة كبيرة حولي مباشرة، ووقفت جامداً، ونبح الكلب مولولاً، وقلت : تأدب، و : مضبوط الحساب ! ستمائة شلن وخمسين ! من حسن الحظ أنني قبل الخروج لهذه الفسحة أخذت معي محفظتي. في الشارع تأبطَتْ ماريا ذراعي. قص عليَّ حكايتك! ولم يكن بد من أن أضحك على الفور. فلم يكن لديَّ ما أقصه.

لقد عشت حتى تلك اللحظة حياة لا يستحق منها الذكر إلا أنها سارت في تتابع عجيب لا يستحق الذكر على الإطلاق. وعندما بدأتُ مرة أحس بشيء من فخار متصوراً أنني أعيش حياة مثيرة، لاحظت أن السبب الذي يرتبط به هذا الفخار لم يكن إلا مقالب غبية وتافهة ترجع إلى أيام التلمذة. فلما اعتقدت مرة ثانية أن لي أن أرى أنني بدأت حياة نضالية مفعمة بالأعمال الجليلة لاحظت أنني أضفيت على مشاجرات طلابية عقيمة أهمية مفرطة لا تناسبها. لم أتم دراستي الجامعية بل قطعتها وعملت في بنك ما أزال أعمل فيه حتى الآن. وعشت منذ ذلك الحين حياة يمكن وصفها وصفاً كاملاً محيطاً بكلمات قليلة مخجلة :

الدقة في المواعيد، الود، الاجتهاد الذي يرى الأعمال الواردة تتزايد بنفس السرعة المنسجمة التي يتم بها الإنجاز. ولست براغبٍ في كتابة سيرتي الذاتية، ولكن ثمة فكرة راودتني فأرقتني أي آرق، وهي أنني لو اشتريت ورقاً أبيض لكان شرائه تمام سيرتي الذاتية لأن حياتي لا تتكون إلا من صفحات خالية بيضاء. والحديث عن عدم الرضا في حياتي غير مفهوم، لأنني إنسان بلا هموم. ولكنه من ناحية أخرى مفهوم لأنني لم أكن سعيداً في يوم من الأيام.

وأنا على شاكلة أبي. فهو رجل مستقيم وودود بغير حماس مفرط، يعيش مع امرأة وديعة خوافة أبداً هي أمي.

ولكم تمنيت أن أكون على شاكلة جدي. في عام ١٩٦٨، وكنت آنذاك في الرابعة عشرة، حكى لي لأول مرة عن حياته، قال إنه شارك في عام ١٩٣٤ كديموقراطي اجتماعي في الثورة العمالية ثم ناضل فيما بعد في الحرب الأهلية الإسبانية في صفوف الفرق الدولية ثم هاجر إلى انجلترة وعاد مع الجيش البريطاني عندما جاء ليحرر البلاد. وقال إنه لم يحقق نصراً. لماذا؟ انظر حواليك ترى ما أعنيه. إنهم لم يحسبوا لنا تلك السنوات، سنوات النضال، ولا حتى في تقديرالمعاش. أصبحت اليوم تتيح لي أن أقعد على دكة في حديقة عامة. هل أطعم الحمام البري؟ هذه الطيور البشعة.

فلما مرضت جدتي، ابتلعا معاً كمية ضخمة من الحبوب المنومة. وانتهى الأمر. حدث هذا عندما كنت في السابعة عشرة وأوشكت أن أرسب في الامتحان.

ومن المؤكد أنني استقيت إحساسي بذاتي في ذلك الوقت من الاحتقار الذي أحسست به حيال كل الناس الذين سارت كل أمور حياتهم سهلة منسجمة بلا مشكلات، لا يخطر ببالهم سؤال، بل الإجابة الصائبة هي التي تخطر ببالهم دائماً. كنت أحتقر كل هؤلاء، ومن بينهم بطبيعة الحال ليشنر.

ودهشتُ كم تمتعت بلقائي معها. الآن وقد بلغتْ الخامسة والثلاثين راحت فجأة تتصرف تصرف بنت في الثامنة عشرة، تبالغ في الاستعراض الساذج الذي تتحراه البنت عندما يتاح لها أن تدخن مبالغة مضحكة. ولكنها كانت تشدني بجاذبية وقفت أمامها هياباً ومشوقاً، ومازالت بي تثيرني على نحو لا أسبر أغواره حتى ملت إليها كل الميل واتبعت خطواتها. وتنقلنا من حانة إلى حانة نلهو ونلعب، حتى ظننت أن قدراتي قد لا تواتيني، ثم ذهبنا إلى البيت، فنعمت معها بما لم أكن أعرف أو أتوقع من متع قد تطلع على الناس بها بعض الأفلام (...) لا أجد تعبيراً أعبر به عما نعمت به إلا أن أقول إنني أصبحت إنساناً آخر.

ورأيت الدنيا الآن بعين مختلفة كل الاختلاف. وسألت نفسي مذهولاً كيف أمكن أن تصبح ماريا بالنسبة إليّ شيئاً بديهياً، وكيف رضيت بما قدمته إليه. ورددت ما جرى عليّ إلى هذا الترتيب المنظم الذي يستهلك نفسه بنفسه بلا هوادة، وهذا الشغل المنظم المرتب السهل الذي يتواتربلا مشكلات والذي لا يجازَى الإنسان عليه عادة بما يمتعه.

ومن الطبيعي أن مسلكي حيال ماريا أصبح على الفور من قبيل الإدمان. كنا اثنين ألقيا في الطريق المستقيم واكتشفا فجأة أن ألوان العبث واللهو في الكرنفال التي لم أعرفها من قبل قط يمكن أن تستعاد. وارتدنا حانات المدينة بلا عدد، ولهونا بغير حدود. واختلفنا إلى أماكن الحب. لم نقل قط كلمة : أحبك، ولم نخف عبارة : أنا لا أحبك. فما كنا حبيبين، بل كنا أشبه شيء بالزميلين اللذين جمعهما اهتمام مشترك، هو ابتداع الاستثناء ات.

استثناء ات أصبحت قواعد. اتفقنا على مبالغات وضعنا لها جدولاً حسب التقويم، واستهلكنا متع الحياة التي كان لها سوق تقوم على حساب دقيق كالذي تقوم عليه أعمال البنك الذي أعمل فيه. وكانت أنواع اللهو التي نسترسل فيها تولد رغبات جديدة، فنهفو إلى رحلة للاستجمام، أو إلى تناول طعام صحي خاص، أو إلى شرب عصائر الفاكهة، إو إلى مشاهدة برنامج تليڤزيون معين.

وألفيتني عندما أصحو من النوم صباحاً أحس وجهي مشدوداً وعينيّ وارمتين، واعتدت تناول قرصين من الأسبرين ضد الصداع كما كنت معتاداً من قبل على تناول بيضة الإفطار. ولم أعد أستطيع قراءة الجريدة صباحاً قبل الذهاب إلى العمل، بل كنت أعبر على السطور دون أعي ما أقرأ.

فإذا سرت من خلال الحديقة العامة ذاهباً للعمل أحسست بمخاوف تكاد تخنقني حيال تلك الزرافات العاصفة من الحمام، الذي كان يتجمع كعراجين رمادية هائلة ويحوم كالدوامات

حول النساء العجائز اللاتي حملن إليه أكياساً فيها طعام. فلما قابلت ماريا مساء الجمعة الماضي في بيتها لنخرج معاً طلبَت أن نشاهد نشرة الأخبار في التليڤزيون أولاً قبل أن نخرج، فالأحداث مذهلة، كما قالت، وفي كل يوم يجد جديد لم يتوقعه أحد. الاتحاد السوفييتي وجمهورية ألمانيا الديموقراطية وتشيكوسلوفاكيا. انظر. كان يبدو عليها التعب والتوتر. فلما جاءت الأخبار المحلية بدأت تحكي لي عن حالة لا يصدقها العقل كان عليها أن تنظر فيها اليوم في المحكمة. لقد أحالوا إليها قضية تعبت فيها أشد التعب. موضوعها إجراءات فرض وصاية. وسألتها عن معنى هذه الكلمات. فقالت الموضوع ببساطة هو فرض حجر. فالإنسان الذي يعاني من مرض نفسي أويكون معوقاً عقلياً ولا يستطيع تسيير أعماله كلها أو بعضها دون إضرار بنفسه يُحجر عليه بناء على طلب منها أو من الحكومة ويعين عليه وصي. واضح. ولكن تصور : رجلاً في التاسعة والثمانين يسير كالأعمى في الحي الأول، ويرتطم بهذا أو ذاك، ويتعثر، ويصطدم بالناس حتى ينقلبوا على الأرض أونحو ذلك، باختصار : يحدث إزعاجاً عاماً. وله سجل عند البوليس لأن قسم البوليس كان يتلقى بيانات عنه، وشكاوى بل بلاغات، ولما كان يتسبب في مشكلات في الشارع فقد كان رجال الشرطة العابرون يضطرون إلى التدخل لحلها، إلى آخر ذلك. وإنما نشأت المشكلة أساساً لأن الرجل لم يكن يحمل شارة العميان، فلم يكن يلف حول ذراعه شريط العميان، ولم يكن يستعين بالمعينات التي اعتاد العميان أن يستخدموها في الشوارع لكي تمكنهم من الحركة وحدهم، من قبيل العصا أو كلب العميان. كلب العميان مثلاً عملي جداً كما تعلم، وأنت عندك كلب من هذا النوع، وضحكت ضحكة عابثة. والخلاصة أنه تبين أن الرجل ليس أعمى، وليست معه بطاقة شخصية خاصة بالعميان، واعترف في تحقيق أجراه معه موظف في مديرية شرطة وسط المدينة أنه، باستثناء بُعد النظر المرتبط بالشيخوخة، لا يعاني من مرض يعوق الإبصار. وحذّره البوليس، ولكنه ظلعلى مسلكه، واستمر فيما بعد يتظاهر بالعمى، وجاء في الملف أنه استمر في ذلك العمل الذي تسبب في الإضرار المستمر بالنظام العام. وبناء على هذا طلب البوليس من المحكمة

اتخاذ الإجراءات للحجر عليه. ولما لم يكن من الممكن إقامة الدليل على أن الرجل يتصرف بنية الغش، فهو لم يلجأ إلى الاحتيال للحصول غشاً على معاش العميان، بل إنه لم يتسول في الشارع من الناس بل كان على العكس يصطدم بهم ويوقعهم على الأرض، فلم يكن من الممكن بطبيعة الحال إقامة الدعوى عليه. وإذا بالملف يأتي إليّ على مكتبي في شأن الحجر، وما إذا كان يتعين تعيين وصي عليه. وقالت ماريا : في مثل هذه الأمور الحمقاء التي تتعلق بأوهى الأسباب يكون عليّ أن ضيع وقتي.

وسألتها لماذا تصنع الرجل أنه أعمى.

بالضبط.. هذا هو الشيء الذي كنت أريد معرفته. ولهذا حددت جلسة لأستجوبه، وانعقدت الجلسة اليوم. والحقيقة أن الرجل ليس مالكاً لقواه العقلية، فيما أعتقد، ثم إنه مشاكس. أتعلم ماذا قال؟ قال إنه يعرف أن العجز هو أقرب الامتيازات في النمسا إلى قلوب الناس وأنه لهذا أصبح هدف كل نمساوي. وقال إنه لا يريد أن يُعتبر من العجزة، ولا يريد امتيازات. ولا يريد صدقة أو حسنة. ولهذا السبب فهو قد رفض تلك المنحة الشرفية، منحة الأربعة آلاف شلن التي قدمتها جمهورية النمسا في العام الماضي لليهود الذين بقوا على قيد الحياة. إنما الأمر بكل بساطة هو أنه لم يعد يستطيع أن يرى كل ما يراه الناس عندما يسيرون مفتوحي الأعين في الشوارع. ولهذا فإن تصرفه هو رد فعل طبيعي وسليم، التصرف الطبيعي هو أن يقفل عينيه.

وسألته : ما وجه الفظاعة في الأشياء التي تراها الأعين. عندئذ حكى لي قصة حياته الطويلة بطول البؤس، وحاولت أن أقاطعه، ولكنه استمر يحكي. قلت له إن عليه أن يجيب عن سؤالي، فأجاب : هذا هو بالضبط ما أحاول عمله. وسألت ماريا عما قال.

قالت : آه، لقد تكلم وتكلم، وحاول أن يحكي لي قصة حياته، يمكنك أن تتصورما قاله، أعني إن هذه الأشياء معروفة، فذلك الجيل رأي من الصعاب الشيء الكثير. ولكنني لم أعد احتمل هؤلاء العجائز الذين ما يزالون إلى اليوم يحبون أن يحكوا عن الحرب أو عن الحرب الأهلية، أنا - -

وسألتها : أي حرب أهلية، الجمهورية الأولى أم إسبانيا؟ ماذا تعني؟ إسبانيا، آه. نعم إسبانيا، كان يريد أن يحكي عن إسبانيا، أظن؛ لا أعرف، المهم أنه ناضل كثيراً، ولهذا سألته مرة ثانية : ما هي الأشياء البشعة التي تراها، هل هي صور من الماضي لا تستطيع الخلاص منها؟

كان التليڤزيون لا يزال يبث إرساله، ووصل إلى فقرة الدعاية بين النشرة الجوية وأخبار الثقافة. كان الاضطراب قد بلغت بي المدى، وكنت أتمنى أن أهب واقفاً وأقفل التليڤزيون، ولكنني كنت أخشى أن أقطع على ماريا حديثها. قالت : أجاب الرجل بالنفي، بل صور الحاضر. أنا لا أفهمه. كان الأحرى به أن يغتبط ويسعد أن هناك سلاماً، وأن الاضطراب السياسي انتهى، والبؤس الفظيع انتهى. تصو ماذا قال عندئذ : ألا ترين ما أرى يا سيدتي المستشارة؟

فقلت لا، لا أرى هذا الذي تقول إنه فظيع بشع. فقال : هكذا يا سيدتي المستشارة، إنني أود أن أعمل من الآن على أن أتكيف على نحو أفضل مع أيام شيخوختي، ولهذا أقفل الآن عيني حتى لا أراها.

وسألتها : هل قال هذا؟

فقالت : نعم. الرجل مريض في عقله.

وماذافعلتِ؟

لاشيء. كان المطلوب مني أن أتحقق من أن شروط الحجر متوفرة. ورأيت أنها غير متوافرة. لا أستطيع أن أفرض عليه وصياً، ولا أستطيع أن أعطيه كلب العميان. وأقرب الظن أن الرجل يجري الآن في الشوارع ويسلك مسلك الأعمى. إنه مخرف صغير، ماذا تعمل معه؟

وجلست أسند ظهري في مقعدي، وأغمضت عيني، ورن في رأسي صوت ماريا كالصدى يواكبه دوي إعلان عن مسحوق غسيل.

وسألتها : ألا يمكن أن نقفل هذا الجهاز اللعين؟

قالت : لا، انتظر، إنني أريد أن أرى النشرة الثقافية.

لم أعد قادراً على أن أتكلم معها كلمة واحدة. وما لبثَت أن أحست أن سبباً انقطع بيننا، حتى وإن تظاهرت بأنها لم تفهم لماذا.

وذهبنا إلى مطعم لنأكل فلم نتكلم، إلا ما كان لازماً لطلب الطعام. وشربت بأسرع وأكثر من عادتي. وتطلعت إليّ ماريا متسائلة. فلما سألتني أخيراً عما بي، لم أفهم سؤالها على الفور. لم تكن حواسي كلها معي. كنت أتوقع أن أرى دائرة كلام مرسومة - كتلك التي يرسمونها في المجلات بجانب فم المتكلم - عندما تقول شيئاً حتى أقرأ ولا أضطر إلى الاستماع. ولكنني لم أستطع أن أرى الجملة. وعادت تسأل : ماذا بك؟

لم أعطها إجابة. فلما دخل بائع ورد المحل، مالت ماريا نحوي بعيداً عن المائدة، فلمست ذراعي وقالت : اهدني وردة واتركني وحدي.

باربارا نويفيرت
Barbara Neuwirth

خذي هذه الورود أيتها الحسناء
Nimm diese Rosen, Schöne

لماذا أحسست بالغرابة حيال هذا الإنسان الذي أدخل كلمة الحب في لغتي منذ أن احتواني بذراعيه لأول مرة؟ كانت نظرتي التي أحطت فيها بحركاته السريعة وهو يشد الحبل نظرة فاترة.

ولقد هتف بي دون أن يرفع رأسه قائلاً : «ساعديني»

فقفزت من فوق الطوف إليه وشرعت ألفُّ الحبل المبتل.

وارتسمت على وجهه الابتسامة العريضة عندما التفت نحوي : «رحلة أخرى !»

وشعرت كيف ارتجفت شفتاي، وكيف انطبقت عيناي في خلجة بالوجه مفعمة بالميل. في تلك اللحظة مسحت الابتسامة التي ارتسمت على وجهه المستدير كل ما ساورني من الشكوك، وفتحت له قلبي ؛ هكذا سَهُلَ عليّ إلى هذا الحد أن أقدم إليه ثقتي فيه هدية في مقابل ابتسامته.

وقبضت يداه القويتان على المجداف قبضة المتمكن، وحركته لنخطر شيئاً فشيئاً على صفحة النهر مع التيار.

على الشاطىء أينعت أشجارالدردار وشجيرات البندق والورود البرية، « أبتاه، آه، آتني بغصن وردة »، اكتنفها لبلاب الياسمين البري، وازدانت في خميلة رائعة علتها ثمارعام مضى شبيهة بالعهن المنفوش. وتعالت من بين الخضرة الكثيفة أوراق شبيهة بالرماح الرفيعة تنطلق من النباتات البصلية الربيعية وكأنها تشق طريقاً إلى عنان السماء. وترعرعت على حافة الماء مروج تفجرت نواراتها مبكرة، كأنها نافورات صفراء ترش حبوب اللقاح من كيزان تحاكي ذيول القطط، وتهتز في الهواء الدافىء اللطيف الذي هب من الشرق.

وظللنا أياماً بطولها على الطوف فوق الماء، لم نلق إنساناً، ولم نر إلا هنا وهناك حقولاً مهجورة تمتد وراء خلجان واسعة. وربما حام سرب من العصافير فوقنا، فرفرف صاخباً أشد الصخب، وهو يقترب من الغابة، ثم توارى عن نظراتنا، يئز أزاً.

وجلس الرجل بجوار المجداف، يحملق بعينيه إلى بعيد ؛ جلسته التي كثيراً ما كان يجلسها. هل تراه كان يفكر في المدن والبقاع التي تمتد أمامنا؟ كان النهر يزداد عرضاً يوماً بعد يوم، ولكن الرجل قال إننا مازلنا بعيدين أشد البعد عن المصب. هل سلكه هذا الطريق من قبل؟ أجاب على سؤالي بالنفي. لعله سلكه ونسي؟ كذلك أنا نسيت أشياء كثيرة حدثت في الماضي.

وفجأة نظر الرجل نحوي. كنت قد اتكأت على جدارالقمرة الصغيرة الضئيلة، وربما كانت نظرتي هي التي شدت انتباهه نحوي.

وقال : «شعرك.. يلمع جميلاً بديعاً في نور الصباح»

ومددت يدي إلى شعري، وسلكته فيه أصابعي فانساب من بينها. كان شعري قصيراً جداً لا يصل إلا حيث يعلو صدري عندما أقف معتدلة القامة.

وسألني : « هل تطلقين شعرك من أجلي مرة أخرى؟ »

وبينما سرت نحوه لأقعد عند قدميه، لمست الشريط فوق شعري. ورفعت وجهي نحوه مبتسمة. ومسحت يده برقة فوق فرق شعري حتى مس وجنتي.

«إلى أين الرحيل؟ ». كنت خالية الذهن كطفل حديث الولادة.

«إلى كل بقاع هذه الدنيا، إلى حيث تشائين. »

وضحكتُ سعيدة منشرحة الصدر إذ سمعت منه هذا العرض : «هيا إلى الصين، وإيسلنده، إلى بتاجونيا، وجزر الجلاباجوس، إلى قاعة الرقص.... »

وبينما استرسلت في خيالي، وهمت بيني وبين نفسي، انحنى نحوي، ولمست شفتاه شفتي لمسة عابرة. فطوقت رقبته بذراعيّ، وضممت نفسى إليه.

ورأيت تحت الطوف حوتاً ضخماً على القاع الموحل، لمس ظهره الأسمر لاهياً أرضية مركبتنا. وتجمدت في رعب استبد بي، ولكن الرجل، وقد أحس بفزعي، أمسكني برقة وهمس في أذني :« هذه الحيتان ضخمة البدن، ولكنها لا تؤذي الإنسان. لا تخافي من الحيوان، لأنك أنت السيدة والحيوان في خدمتك. »

وانصرفت. وتذكرت غصن الورد : نوارات صغيرة حمراء مخملية غامقة، تضم مئات من الوريقات الزهرية، مفعمة بعطر حلو ثقيل. قدم إليّ الغصن إنسان بارد اليدين . خذي هذه الورود يا أيتها الحسناء، ولكن ثمنها سيكون غالياً.

وظهرت أمامنا جزيرة في وسط النهر يانعة الزروع. وهاجت المياه وماجت فبللت النباتات، واندفعنا بسرعة كما لو كان فيضان يحركنا إلى أمام. وهز الرجل المجداف هنا وهناك، وتركز اهتمامه كله على حركة الطوف، وكأني كنت بضاعة ينقلها. وهذا هو التيار قد ألقى بنا الآن

إلى منتصف النهر ناحية الجزيرة. وثنى الرجل ركبتيه قليلاً حتى يتمكن من السيطرة على المجداف. ودخلنا في دوامة. وتعالت أمواج عارمة هائجة من حولنا، وبدت لي فَرِحةً تكاد فرحتها تغشاني، وخالجني إحساس بالضحك والقهقهة، وغاص جانب من الطوف تحت الماء، وسمعت الرجل يلهث، وتلألأت الرغبة في الضحك على شفتيّ، وصفقتُ من فرط المتعة، ثم فزعت عندما مرقت موجة نحوي فغمرت قدميْ . وقفزت قفزة واحدة أويت بها إلى سقف القمرة وتأملت الماء الذي بدا لي كالعدو الذي سعى إلى أن يمنعني من بلوغ سعادتي.

وسبحنا بسرعة هائلة حتى تجاوزنا الجزيرة. وعوت المواضع الخالية من الشجر شبيهة بوجوه عبوسة نحوي، وكأنما ضربت الأشجار المتحللة المجتثة فأحدثت جراحاً في قلفتها أخذت تنز عصارة كأنما انضوى مواتهاعلى نشاط حيوي بالغ الحيوية.

ثم صفت نظرتي بغتة، فقد تجاوزنا الجزيرة، وهدأ الموج، وتهادى الطوف بنا فوق صفحة الماء.

كان الرجل عندما خيم الغسق قد ربط الطوف قريباً من الشاطيء، وجلسنا أمام كانون فحم أخذ يطهو فوقه طعاماً.

وقسم الطعام على صحنين وقدم إليّ صحناً. وذقتُ.

«هل يعجبك طعمه؟»

وأومأت برأسي.

« من أين أتيت؟». ولمس بإصبعه أنفي.

وابتسمت :«لا أعرف».

ولمع شيء ما في عينيه وهو يقول :«ستحكين لي عن ذلك يوماً ما ».

كان الأمل الذي كمن في كلماته يبدو لي أحلى من كل ما عرفت في حياتي من قبل.

ورجوته : « أرجو أن تضمني كما ضممتني بالأمس »

وارتجفت يده التي أمسك بها ملعقة الطهي عندما أجاب : « إنني أحس بالسعادة الغامرة لأنك تقولين هذا »،

ولما كنت عاكفة على التعلم فقد ظننت أنني أخمن ما أحس به.

وقال الرجل :« هل تسمحين لي بأن أنظر إليك ...؟»

ورفعت عيني مندهشة فلم أكن أعرف أن هذا الطلب يحتاج إلى سؤال. وأومأت برأسي وأمسكت بثوبي....

وقال الرجل :« أيتها الحسناء هل تقبلين أن تكون زوجتي؟ »

واقتربت منه ووضعت يديّ على صدره. ولم أجب في البداية، لأنني لم أفهم معنى الكلمات، ولكنني رأيت شفتيه قد رسمتا الكلمة دون صوت، الكلمة التي ربطني بها إليه، كلمة حب حب حب، وهنا قلت مرتعدة : «نعم، يا رجل » وأحاطني بذراعيه وهو يتنهد، ومهما كنت في الماضي فقد أصبحت هذه الزوجة التي تمناها، وأصبحت أسمائي ثلاثة، أول اسم : الغريبة، وكياني : المرأة»، والكلمة الذي عرفني بها : الحب».

واكتشفَنا صباحُ يومٍ من شهر مارس الغض زوجاً وزوجة، نطوق بعضنا بعضاً في رقة، وألقت الشمس المشرقة نورها على وجهي السعيد، بينما كانت نظرات الرجل ونظراتي تتلاقى في حب عميق.

وسألني الرجل : «هل تحبينني؟»، وظل يعيد السؤال مراراً وتكراراً دون ما تعب، واعترفت خائفة :«أنا لا أعرف معنى الكلمة». الذي حدث هو أن هذه الكلمة كانت من اختراعه، كانت سحره العظيم، الذي استطاع به أن يربطني به، وأن يربط نفسه بي، فلماذا طلب مني أن أسيطر على قوة هذه الكلمة؟

كانت الأشجار قد كستها خضرة وفيرة عندما ظهرت المدينة الأولى على شاطيء النهر إلى اليسار. وتهلل الرجل غبطةً، ومد يده إلى كتفي وقال ضاحكاً : «المشي معك عبر الشوارع والبولفارات، والجلوس في المقاهي الصفيرة، والتطلع إلى لوحة حقول عباد الشمس!»

فأجبته :« نعم. ألى كل مكان سأتبعك وأتعلم طريقتك».

فتأملني بانتباه، وخلُصت طمأنينةُ عينيه مما شابها من تساؤل، ولما كنت قد أحسست أن حمرة سخيفة قد صعدت إلى وجهي، قلت : « ولكن أليس ثوبي قبيحاً بالغ القبح لا يناسب مدينة كبيرة كهذه؟ »

كانت نظرته مفعمة بالحب العميق عندما أجاب : «أنت جميلة جمالاً فائقاً يازوجتي، لا يمكن أن يخفي جمالك شيء. »

كانت المدينة ورماً بشعاً من الحجر والحديد، فيها آلف عربة، آلف رجل، آلف امرأة. في ذلك اليوم تبينت أنني أحد هذه الكائنات التي لا يحصيها العدد والتي يطابق بعضها بعضاً. وسرت من خلال الفرج بين البيوت، أو على قاع تجاويف هائلة، وشعرت أن نظرات الألف رجل والألف امرأة تجردني دون استئذان. والتمست يدي يدَ الرجل الذي لاح لى سؤاله آنذاك عجيباً كل العجب، أدركت أن اللغة بنية تصبح بها أحاسيسي مفهومة. كان كل موقف مررت به تتغمده كلمات منذ ركبت الطوف في صباح يوم من شهر مارس حتى أصبحت اللغة الآن في وعيي أهم ركن من صيرورتي البشرية. هل كنت فيما مضى عندما تأملت النهر والخليج حيث الورود الثلجية، قد فكرت بجمل أو كلمات فيما أرفل فيه من سكون ودعة؟ أم هل كنت قادرة على المعرفة دون لغة؟ كيف كان تفكيري عندما ركبت على الطوف مع الرجل؟ هل ذهبت إليه بلا كلمات، بلا لغة، لا أحيط إلا بصور؟ هل كانت ساعاتي الأولى على شاطيء النهر بلا لغة، بل مفعمة بالوعي بالذات؟ وقبل ذلك، راودني ذلك الحلم العجيب عما كان من قبل، أم هل كان هناك آنذاك عدمٌ فقط، ولم يكن هناك شيء قبل ذلك؟ كيف كان وعيي قبل أن يمد الرجل إليّ يده قائلاً هذه الكلمات :« تعالي، لابد أنك ترتعدين في هذه العزلة»؟

في بطء تجمعت الكلمات في ترابطات تعطي معان وفتحَت الطريق إلى ذكريات دهشتُ أنني أمتلكها، خذي هذه الورود يا أيتها الحسناء، ولكن ثمنها أيتها السعيدة سيكون غالياً. وضغطت يد الرجل الذي حاول أن يعلمني هذه الكلمة، هذه الكلمة التي فهمت منها أنها ترتبط أيضاً بالسؤال :« أيتها الحسناء هل تسمحين لي بأن أنظر إليك...؟» وترتبط بفرحتي بنظرة هذا الرجل ؛ فبينما كانت نظرات ألف رجل وألف امرأة لا تعني بالنسبة إليّ شيئاً، بدا لي أن نظرة هذا الرجل تعني بالنسبة إليّ كل شيء، ولهذا أوقفته في المدخل المظلم المؤدي إلى مدينة غريبة والتفتُّ إليه وقلت له : «نعم، أحبك؟»

ووجدَنا الصباحُ الغض في يوم من أيام مايو في شرفة مقهى على الميناء نجلس وسط كراسي حديد، حبيبة وحبيباً، وكنت قد فهمت من الكلمة أنها تعبر عن أحادية ما كانه الرجل بالنسبة إليّ. ولاحت لي الحياة أكثر قيمة لأنني ظننت أنني فهمت كنه الحب.

ثم عدنا، واستأنفنا رحلتنا على الطوف الذي لاح لي دافئاً لطيفاً، ولكنه أخافني حتى إنني لم أتبع الرجل قط عندما قفز إلى الماء وسبح بعيداً في قوة وناداني أن أتبعه.

كان يهتف بي :« تعالي، الماء رائع!»

ولكنني تمنعت، أنا التي كنت أعرف كيف أقرأ كل رغبة من رغباته من عينيه، والتي كنت مستعدة لكي أعطيه كل شيء في مقابل هبة الكلمة ؛ وأصبحت لا ألمس ماء النهر إلا إذا كان محصوراً في دلو أو إناء.

وضحك الرجل :«خوافة من الماء إلى هذا الحد » وحاول ذات مرة أن يدفعني إلى الماء عنوة، فلم ينقذني من السقوط إلا أنني درت دورة يائسة. ولكنني وقعت وقعة غشيمة على الخشب وأطلقت صرخة الألم.

«سامحيني»، وانحنى فوقي مروعاً. وقرأ على وجهي الرعب الذي استبد بي، وطوقني بذراعيه.

«هل لخوفك صلة بذهابك إلى الخليج حيث الورود الثلجية؟ لم أكن أعرف أنك تخشين الماء إلى هذا الحد. والآن وقد عرفت، فسأحميك من الماء».

وهنا اعتقدت أنني تعلمت شيئاً عن الكلمة.

فلما بلغت الشمس نقطة تحولها، بدأ الرجل.. يحدثني أنه يتمنى أن يكون له طفل مني يكون علامة على حبنا، ولم أفهم في البداية فيم نحتاج هذه العلامة، لأن الحب لاح لي في ذاته العلامة، وأنا لم أكن من قبل كائناً يَلِد، ولكن كلمة الحب حولت أمنية الرجل هذه إلى شيء كان عليّ أن أفكر فيه.

وسألني الرجل، وهو يمسح على ظهري بيديه الرقيقتين :« كم عمرك؟

فالتفتُّ ونورته بنوري وقلت :« مائة يوم وعشرة» واحتواني بذراعيه بوجه جاد وهمس في أذني بالكلمة دونما نهاية.

وذات صباح قال لي الرجل :« أنت لا تنزفين»

فأجبت مندهشة :« لأنني لم أصب بجرح».

وتأملني طويلاً.

«من أين أتيتِ؟»

فغضضت الطرف كما لو كنت أخفي ذنباً :« لا أعرف».

ولكنني اكتشفت في وجهه ريبة وهمّاً، وفي قلبي همـاً وتوجساً. خذي هذه الورود يا أيتها الحسناء، ولكن ثمنها أيتها التعيسة سيكون غالياً.

أصبح الرجل في الأسابيع التالية ينسى في بعض الأيام أن يأتيني معه بصحبة زهور جميلة، وإذا تلقيت منه زهوراً جديدة، فعندما تكون الزهور القديمة قد أصبحت قبيحة تمجُّها

العين، وكانت تعوم طويلاً بجانب الطوف كأنما لتثيرحنقي عندما كنت أنثرها في الماء، بينما كانت المياه تلتهم الزهور التي مر عليها يوم واحد بسرعة فائقة : حركة اعتدتها دالة على السلام بيني وبين الماء.

وها هي ذي الليالي تصبح أشد برودة، ولكن الرجل غطاني... وأبعد عني البرد.

وذات صباح في شهر أكتوبر اتسع النهر أمامنا وأصبح بحيرة، ولم أكن قد رأيت مثل هذه المساحة المائية من قبل، وألفيتني لا أرى الشاطيء في أي مكان. وصرخت صرخة خوف ورفعت يديّ أمام عينيّ .

وراقبني الرجل مقطباً حاجبيه، ونظر إليّ نظرة غاضبة :« كم أنت طفلة. هذا هو مصب النهر. وهذه منطقة انتقال من حال إلى حال، هنا يلتقي المعروف باللامعروف، هنا يخرج شيء جديد من القديم، هنا شيء يتحور».

ونشر الشراع الذي لم يكن قد استخدمه قط، ليتجه إلى الشاطيء ناحية اليسار.

كان الصباح بارداً غشيه الغمام، وارتعدت خائفة على ذلك الشيء الذي بدأته أحبه : على حياتي. وما لبثْتُ أن اكتشفت المدينة التي انساب من وسطها نهر أخر إلى المصب، كان يعلوه كوبريان، خصص الكوبري الخارجي منهما للقضبان فقط. فلما مررنا تحته مرق من فوق رؤسنا قطار، أفزعني زئيره وعويله وعنف سرعته، وألقاني على الكتل الخشبية، ولما لم أكن قد خبرت شيئاً من هذا النوع، فقد ظننتني وقعت على قاع النهر والتصقت به.

واختفى العفريت، ووقف الرجل إلى المجداف وأولاني ظهره.

وسألني :« من أين أتيت؟» ولكن صوته كان بارداً خلا من الحنان، والتقت نظرتي بظهره عندما همست :«من العدم»

وهز كتفيه كأنما كان متبرماً من شيء ضاق به منذ وقت طويل.

في الميناء أضاء تعبير وجهه العابس، ووضع السترة على كتفي وقبلني على وجنتي : «الآن نذهب لنأكل».

وأخذني إلى محل صغير في الميناء، كان دافئاً عبقته رائحة الأطعمة. وظلت نظرات الألف رجل في المحل معلقة بي يحدوها الفضول، ولكنها لم تهمني، فقد تعلمت أن الحال على هذا المنوال، وكانت الجرسونة لطيفة ولعلها أدركت غمي لأنها تأملتني بانتباه.

وبعد قليل جاءت جماعة من الناس الصاخبين، بينهم امرأة رشيقة نشيطة، تركز همها على شد نظرات الناس نحوها. ولاح جسمها كأنه يتكلم ويقول : جردني بنظرة منك ؛ ولقد جمعت نظرات الرجال والنساء، ولكنها، على ما يبدو، لم تعبأ بها، وأهَمَّها انصرافُ الرجل الجالس إلى جانب ظاهرياً عنها، وكانت يداه ترتجفان وهو يرفع الكوب إلى فمه، فقد كان هذا الرجل هو الذي شحذ اهتمامها الحقيقي. كان حولها ألف رجل يحيطون بها، ولكنها نظرت إلى ذلك الواحد الذي كان يعرف الكلمة.

وتملكني ألم عجيب عندما لاحظت أن الرجل نظر إليها. وفهمت أنني سأتعلم اليوم شيئاً جوهرياً عن الكلمة، وأنني قد أحيط بكل شيء عن ماهية الإنسان، وربما كذلك عن أصلي وغايتي، من أين أتيت، وإلى أين أذهب، وقد بلغت هذا المصب الفظيع.

ودفع الرجل الحساب وذهب إلى الباب، وفتحه وأمسكه مفتوحاً حتى أخرج، وعبر عليّ بنظرته عبوراً، وعاد ببصره إلى المحل. ثم ذهبنا إلى رصيف الميناء صامتين، حيث كان طوفنا يقف هادئاً عن طرف المرسى النهائي. واتجهت نحو الرجل، وتأملني هنيهة.

« أنت تعلمين منذ وقت طويل من أين أتيت. »

فهززت رأسي بالنفي.

وكأنما كان موقفي تشبثاً عنيداً بكذبة لم يعد مستعداً لاحتمالها، وانقفلت نظرته حيالي.

وأومأ برأسه قائلاً : «طيب. عليك أن تعرفي بنفسك ما هي المبالغة التي لا تحتمل. »

والتفت حوله، ونأى عني وتركني أقف في الظلام. من ورائي لطم الماء الشاطىء الذي اكتسى بالحجر، ومرج هنا ومرج هناك، وبث خريراً في مكان بعيد. ونا ء ثقل فظيع عليّ حتى مال بي إلى الأرض، ووهنت ركبتاي. وهويت على كفيّ، فأمسكت نسمة من الريح بشعري كأنما كانت تريد أن تشدني إلى الماء. ونهضت بصعوبة، ووقفت على ساقيّ، كنت إنساناً حمل على كاهله إصْرَ كلمة.

وتبعتُ الرجل إلى المحل، ولكنني لاحظت من إشاحة الجرسونة عني إشاحة تعبر عن الشفقة والإشفاق أنه انصرف مرة أخرى، ولم أعرف أين أجده في هذه المدينة الكبيرة. ورأيت في الساحة الجرداء أمام المطعم نهايات حارات كثيرة صغيرة مظلمة، واتبعت الكلمة الواحدة التي ظننت أنني أسمعها في الظلام، وما زلت أتبعها حتى أيقنت من أنني أسمع صوته، وسمعتها هي تهمس، تهمس بصوت فيه توسلٌ وفيه شهيق عميق حب حب حب، أنت يا امرأة، وهذه تنهيدة مفعمة بالسعادة أجابت على كلمته السحرية، وانزلقت شفتاى متباعدتين حتى أحاط الهواء الخريفي البارد بلساني، حب، سمعت هذه الكلمة من فمه، وتصورت الشفتين الناعمتين اللتين ستكونان قريبتين أشد القرب من أذن المرأة، وتصورت النظرة المفعمة بالوجد التي سيتغلغل بها في حدقتها، ستكون يداه الآن على كتفيها، كتفي الحب، أما كتفاي فقد تجردتا من الثقل، وأحسست كأني جسمي يتجرد من ثقله الإرضي، عندما تجردت فجأة من هذا الثقل الذي أسماه هذا الرجل حباً، وانفتحت عيناي تملأهما الدهشة، لأنني أحسست بمعرفة تتكرر في هذا الوضع المجرد من الوزن، أحسست بشيء أليف، وسقط مني الشك مع كلمة حب، لقد همس فمه الرقيق بكلمة الحب على صدرالمرأة، وأصبحت جميلة في مداعباته، واكتسبت أشكالها المختلطة طلاوة تحت يديه، أما أنا فأصبحت بلا وزن، كما لو كان جسمي قد أصبح مجرد فكرة جسم، أبتاه، آه، ليس الوحش حيواناً، بل هو إنسان، خائن لما أكون، فماذا أكون؟

وقفتُ في مدينة من حولي جبال حجرية من البيوت، في كل حُجرة منها رجل مع امرأة، قصيرة وطويلة وبدينة ونحيفة وسمينة ورشيقة ودكناء الشعر وسوداء الشعر وحمراء الشعر، ووجهها جميل وقبيح، وهي عجوز وفتية، وصدرها متهدل أو متكور، وبطنها مترهل ومشدود، وكلماته هي الحب الحب الحب، واسمها ألف اسم، ولكن اسمي أنا ثلاثة فقط، الاسم الأول : غريبة، والثاني أوندينه (عروس البحر أوندينة).

وأنا أقف في شارع، من فوقي يبرق النور من نافذة من خلفها رجل يعانق ألف امرأة...، وأنا أتراجع خطوة إلى الوراء، لأن شيئاً ما يقطع سبب حياتي، وأسدل شعري. لكِ أن تتمني وأن تأمري !! أنت هنا السيدة، هكذا يهمس الرجل في آذان ألف امرأة، وأنا أسمع كل كلمة من كلماته حب حب حب، ولكن هذه الكلمات لم تعد موجهة إليّ، وأخطو خطوة إلى الوراء وأجد نفسي فوق طوف متأرجح يترنح تائهاً وسط مصب نهر واسع، على الحد بين لانهائية البحر المالح ومحدودية مجرى النهر، وأنا الآن خفيفة جداً، وشعري يغطي جسمي العاري كله، الذي لا مثيل له، ولكنه هو أيضاً لم يكن قبل حين إلا واحداً مثل ألف، وخجلت من أن أسمع الكلمة، حب، الكلمة التي كادت أن تجعلني من البشر أبتاه، آه، لماذا لم تعلمني كيف يكون البشر، لماذا لم تعلمني أن البشر في رحلة قصيرة يلوون معنى الكلمات على هواهم، ولماذا لم تمنع الورد عني.

نورالمدينة يتلألأ على الشاطيء البعيد، ومن خلال السكون يتناهى إلى أذني همس، وآه، وشكوى : حب حب حب. كيف أصبحتُ بلا وزن بدون سعادة الحب العجيبة هذه. ولكن الذي ضاع مني قد يؤرقني وأنا أكمل خطوتي الثالثة إلى البعيد، وأترك نفسي أنزلق في المياه فاتحة عينيّ، وأعود، من حيث أتيت، إلى ذلك العالم الذي يمتد في ليل رقيق عند شاطيء يغص بورود الجليد. على شفتيّ أذوق قليلاً من الملح، ولكنني أيمم شطر منابع النهر حيث ألوذ بصدر أبي، وكأنني لم أخرج من مملكته قط.

وأسير بحركات متلوية هادئة متجاوزة مدينة البشر التي فيها رجل قوي يغوي بكلمة، ولكنني أرقد مفتوحة العنينين في نهر موحل، وشعري يلعبث من حول كتفيّ، وأسمع كلمة هي، حب حب حب ولكنني لا أفهم ما قد تعنيه، وأرقد في الماء مفتوحة العينين، ولم أعد أعرف ما هي الكلمات، ثم إذا أنا بعدت بعداً شديداً عن هذا الجسد وأراه، مثله مثل نبات مائي مجتث من أي مكان، يهيم إلى البحر العميق، وأسماك صغيرة ترضع من حلمتي ثدييه الورديتين، أو تعشش في شعره الذهبي، وتقبل شفتيه المنفرجتين، وتلحس الملح من عينيه.

وبحركة صغيره أفقده تماماً من ذاتي وأنزلق إلى العدم، الذي اجتذبني منه ذات مرة شيء ما، أحلى من الحياة.

باربـــارا فريشمـــوت

Barbara Frischmuth

الراهبـــة والحصـــان

Die Nonne und das Pferd

الموضوع في نهاية المطاف هو موضوع شتانك.

هانحن أولاء نجلس على راحتنا في القطار، أخته كارولين التي نداللها باسم كاري وأنا.

فأقول لكاري، اسمعي يا كاري، عندما يمر بائع المقانق مرة ثانية، نشتري منه اثنتين نقتسمهما بيننا، أنا وأنت.

جلسنا كلانا إلى النافذة. مناظر الطبيعة خارج القطار، أسيجة وأسوار وحواجز. في البداية عددنا المحطات التي مر بها القطار، ثم اكتفينا بعد ذلك بعد المحطات الرئيسية. فقد فقدنا منذ حين الرغبة في ذلك.

ربما كان شتانك Stanck في هذا الوقت يرتكب حماقة من حماقاته.

أنت بطبيعة الحال لا تتصورين أين يمكن أن يقوم بما يعن له من عبث؟

تهز رأسها. هذا هو ما توقعته، بالضبط.

فأقول لها، انتظري، وتجملي بالصبر، سأجده بكل تأكيد.

ويمر مفتش التذاكر مرة ثانية. ويقف في وسط الممر، وينظر إلينا. فنشير إلى حقائب إيدينا.

فيقول، صحيح، لقد رأيت التذاكر، ويستأنف السير.

وأقول لكاري، إذا لم يكن مفتش القطار قد لاحظ أننا نجلس في قطاره منذ ساعات، فلا بد أن السبب في ذلك يرجع إلى شكل ملابسنا.

فتطلق زفرة.

وأقول لها، ستتغير بعض أحوالنا عندما نجد شتانك.

فتحملق فيّ.

فأقول لها، نعم ستتغير بعض أحوالنا.

الدفء جميل في القطار، ووسائل الراحة متوفرة فيه، حتى التدخين مسموحٌ به. وعلى جدران دواوين القطارعلقت من فوق المقاعد صور أو مرايا، تارة هذه، وتارة تلك. وتقفل كاري ستارة النافذة ناحيتها وترجع بظهرها إلى الوراء وتتظاهر بأنها تريد أن تنام. فألكزها بركبتي.

اسمعي يا كاري، أعرف قصة، من أجل شتانك. كنت أريد أن أقصها عليه بالأمس. ولكنني لم أجده.

فتنظر إليّ، وقد تعكرت عيناها، وتتثاءب وتطرقع بأصابعها.

وأقول لها، يمكنني أن أقصها عليك إذا أردت وكانت بك رغبة حقيقية فيها.

وتنظر إليّ نظرةً أعرف معناها، فهي أخت شتانك.

وأقول لها، إذن اسمعي،إليك أولاً بداية القصة. إذا لم تكوني تريدين الاستماع إليها، قولي لي.

فتهز رأسها.

تدور القصة حول راهبة وحصان. ليست هناك تفصيلات كثيرة تُقال عن الراهبة، أما الحصان، فلم يكن في ريعان الشباب، ولكنه كان قوياً، وكان من قبل حصان سباق. ما العلاقة بين الآثنين؟ هذا هو موضوع القصة. لا شك في أنها ستعجب شتانك. هل فكرت، أين نبدأ بالبحث عنه؟

فتهز رأسها. هذا ما توقعته، بالضبط.

وأقول لها، ولكن أنا.

وتعود بظهرها إلى الوراء مرة أخرى، وتتأهب لقفل عينيها.

وأقول لها، إذا كنت حقاً تريدين أن تسمعي القصة.. وألكزها بركبتي. فإذا هي يقظة تماماً.

تبدأ القصة هكذا، الراهبة والحصان يلتقيان. القصة في الحقيقة تبدأ قبل ذلك بكثير، تبدأ في الوقت الذي عرفت فيه الراهبة أن عليها أن تبرح ديرها الحالي وتعود إلى الدير الرئيسي. ولكن الوقت وقت حرب. فهي لا تستطيع أن تركب القطار. لم تكن القطارات

تتحرك على قضبانها، ولم تكن هناك عربات لأنها كلها صودرت وعبئت للحرب. لم يعد هناك شيء يستطيع الإنسان أن يعوِّل عليه. لهذا كان عليها أن تسير على قدميها، حاملة المخلاة على ذراعها، ولم تسلك الطريق الزراعي مخافةَ أن يصادفها هذا أو ذاك، بل سلكت سبيلاً متخفية، من خلال الحقول والغابات.

أما الحصان، فقد كان وضعه مختلفاً. كان منذ البداية ينفر من الخدمة العسكرية. ولكنه لم يكن يستطيع التصدي للسلطات. فصبر حتي إذا سنحت له أول فرصة مواتية هرب. هذه هي القصة التمهيدية التي تسبق القصة. وأرجع مرجعي إلى البداية فأقول إنهما التقيا.

وهذه هي نظرة كاري تتركز عليّ ثقيلة، وكأنها تريد أن تسألني : أين التقيا؟. التقى الاثنان في الغابة. بطبيعة الحال، وهل يمكن أن يلتقيا في مكان آخر غيرها، فالغابة في زمن الحرب هي أكثر الأماكن أمناً. الحصان يقف في تلك اللحظة خلف شجرة، شجرة قرو، ويوشك أن يأكل من الحشائش، عندما تمر الراهبة وقد ألمَّ بها شيء من تعب بعد اليوم الطويل. وهنا يقول الحصان، سلام الله عليك يا سيدتي! ويخرج من وراء الشجرة. ولا أظنني بحاجة إلى أن أقول لك إنها فزعت فزعاً شديداً، عندما سمعت فجأة صوتاً مذكراً وهي امرأة وحيدة تماماً في الغابة. وإذا بها تقول، سيدي، نعم تقول سيدي، من إنت؟ ويقول الحصان، بعد إذن سيدتي، أنا إسمي إسميرالدو، وقد هربت من الخدمة العسكرية لتوي. فتقول له، ويحك، ألا تخجل يا سيدي مما فعلت، ألم تفكر في الوطن الخ الخ...؟ فيقول لها، وأنت يا سيدتي، لماذا لا تمرِّضين الجرحى؟ وما الجرحى الآن إلا كثيرون. وترددت في هذه المرة بصوت أقرب إلى الانخفاض منه إلى أي شيء آخر، لم يخطر هذا ببالي. فعليك أن تعرف أن طائفتي طائفة صلاة لا تمريض.

وألكز كاري، بركبتي، وأقول لها، إن الأحداث بدأت تتحرك على هذا النحو، إذا كنت لا تريدين مني أن أستمر في قصتي، فما عليك إلا أن تقولي.

وتعتدل في جلستها لتبين لي أنها تنصت إلي كل الإنصات.

وأقول لها، ألا ترين أن سفر الإنسان هذا السفر الطويل دون أن يتناول شيئاً من طعامٍ حقيقي شيء فظيع؟ ليت الرجل الذي يبيع المقانق يمر في القطار مرة أخرى. إذا جاء سأخرج النقود التي أمسكتها وحفظتها في المحفظة، ولن أقتربعد الآن.

وترمقني بنظرة من عينيها المتعكرتين، وتومىء برأسها.

وأقول لها، لقد أتيح لك أن تأكلي على راحتك شيئاً قبل أن نسافر، بينما كان عليّ أنا أن أهتم بإعداد كل شيء. وعلى الرغم من ذلك فأنت التي تَهِنين وتضعُفين، وأنا التي لا أزال قادرة على أن أحكي لك قصة.

وتفرك عينيها. بل ترفع شعرها عالياً فوق رأسها.

فأقول لها، فأنت تبالغين، ماهذا هو الذي قصدت إليه، ولكن دعيني أقص عليك القصة قبل أن أنسى أين وقفت. وألاحظ أنها تنظر إليّ مشوقة من بين جفنين غضيضين.

ولما لم يكن بين الاثنين أمر من تلك الأمور التي تستحق اللوم فهما يقرران أن يسيرا معاً. لم يكن الحصان يعرف له اتجاها يتمسك به، فكل الاتجاهات لديه سواء، كذلك الراهبة لم تعد على بينة من طريقها، فلم تكن رئيسة الراهبات قد شرحته لها على وجه التقريب. وما بالهما لا يسيران معاً وهما يتبادلان المنافع. فعندما يحس إسميرالدو وخزاً في ساقه تدلكها له الراهبة وتدهنها بدهان الدير الذي أعطتها رئيسة الراهبات زجاجة صغيرة منه، دستها في المخلاة، لتستعين بها في الطريق عند الطواريء. كذلك نفس الراهبة تطيب لما يحدثها عنه إسميرالدو من أمور الدنيا. فحتى لا تطول بهما الطريق يحدثها طولاً وعرضاً عن مسلك الإنسان في المجتمع كيف يرق، وعن الكلام كيف يلين، وعن الملابس كيف يحسن ارتداؤها، وما إلى ذلك

من أمور مفصلة كثيرة. كان من الممكن أن تصبح شيئاً، ولكنها كانت راهبة. وهي عندما ترى الكلام يتصل بالدنيا اتصالاً وثيقاً تكتفي بأن تقول، الحمد لله أنني لا أتعرض لما يغريني.

وألكز كاري لا بركبتي في هذه المرة بل بذراعي وأقول لها، إن لم نجد شتانك في حلبة سباق الخيل، فمن المؤكد أنه ارتكب حماقة. وأراهن على أنه وضع كل النقود رهاناً على أول حصان رأى اسمه في قائمة سباق الخيل.

وتهز كتفيها دون أن تفتح عينيها.

لن أضمن شيئاً بعد الآن. لو فعل ما أخشاه فلن أضمن شيئاً بعد الآن.

وتتناول قائمة أسماء الخيول من جيبها وقد تكمشت وتمدها نحوي.

فأقول، رباه رباه، لم تعد تفيدنا الآن بشيء. خيرٌ لي أن أكمل قصتي، فهكذا ننشغل على الأقل بأفكار أخرى.

ويسيران في الطريق معاً زمناً. وتضطر الراهبة ذات يوم أن تخلع الخمار، فهذه ثيابها تشتبك في شوك وحسك وتمزق الخمار. ويقول اسميرالدو لا بأس يا سيدتي، فسينمو شعرك أسرع. وما من شك في أنك ستتسعدين به.

وفي الطريق تحدث بين الفينة والفينة بعض الأشياء الطريفة. فذات يوم جمعة تمسك الراهبة مصادفةً بطة عرجاء فتذبحها وتشويها، وتهم بأن تقدم إلى إسميرالدو جناحاً كذيذاً، فيقول لها إنني يا سيدتي أعرف أن يوم الجمعة هو يوم الصوم المفروض وأنا حريص على التمسك بالفروض. وتخجل الراهبة من خطئها المزدوج خجلاً شديداً، حتى إنها تدس البطة كاملة في المخلاة وتدعها يومين دون أن تقربها أوحتى تشمها. وتجد الراهبة في المقابل من حين لحين

فرصة لتضحك منه، فهذا هو اسميرالدو مثلاً يصر على أن عيد الميلاد يأتي بعد عيد العنصرة، وكل طفل يعرف أن السنة الكنسية تبدأ بمجيء المسيح.

وأقول، أتعتقدين يا كاري أن شتانك ترك لنا في مكان ما خبراً؟ في هذه المرة احتاجت كاري إلى برهة ليست بالقصيرة لكي تفتح عينيها. أعني، ربما حدث له شيء، هذا احتمال قائم، فمن يعلم.

وتهز كتفيها. هذا ما توقعته، بالضبط. كان الأحرى به أن يفكر في هذا، عندما يحلو له أن يطلق لنفسه العنان. عندنا نجده سأقول له هذا على أية حال. أما الآن فأود أن أحكي لك بقية القصة.

تسير الراهبة والحصان طريقهما معاً. الأيام والأسابيع والشهور، يتحريان الحيطة نفسها، ولا يخالجهما من الأمل إلا بصيص قليل يتضاءل. الأمل في ماذا؟ وهنا تبدأ القصة في الالتواء والتعقيد. لم تر عيونهما للدير الرئيسي أثراً بطبيعة الحال، ولو سألا الناس على الطريق لعرضا نفسيهما للخطر أشد الخطر. والحقيقة أنهما لم يعودا يتكلمان عن الوصول. ولو أنهما وصلا، أعني إلى الدير الرئيسي، فماذا ستكون العاقبة. سيقصون للراهبة شعرها مرة أخرى، بعد أن نما نمواً جميلاً رائعاً - واسميرالدو؟ يمكنك أن تتصوري ما كانوا سيفعلون به، في تلك الأيام النكراء. ربما لم يكن الأمر قد وصل إلى حد أن الراهبة لم تعد تريد البقاء راهبة، وأن اسميرالدو لم يعد يريد البقاء حصاناً، ولكنهما اعتادا بعضهما البعض أشد الاعتياد.

وإنهما ليدهشان لأنهما نجحا حتى الآن في أن يسلكا طريقهما دون يلم بهما مكروه، بينما القذائف تتلاحق، والصراع يحتدم، قريبة أشد القرب منهما، بل إنهما ليستطيعان أن يسمعا أحياناً من خلال جدرانٍ رِقاق من الأغصان والشجيرات كلمات أناسٍ أصيبوا إصابات قاتلة.

وهما يقرران أن يدعا الأمور تجري في أعنّتها. وعندما يريان أنفسهما قد أحيط بهما ذات يوم، يفزعان، ولكن فزعهما ليس بالفزع الهائل. وهما لا يحاولان الهرب بحال من الأحوال، بل يلوذان بخندق امتلأ إلى نصفه بورق شجر يابس، وينتظران أموراً ستحدث ما في ذلك من شك. وبينما الجنود الأعداء - أو لعلهم من الأنصار - يقبلون برماح مائلة، وشفاه مبللة، شفاه هذا بللها لعاب سال على العذراء، وشفاه ذاك بللها لعاب سال على لحم الحصان المشوي الحنيذ، يقبلون من كل ناحية، تقول الراهبة : ألا فليغفر الله لهم. ويقول اسميرالدو: إنها نهايتنا قد أوشكت. وتضيف الراهبة فيما بقي من وقت : إلى اللقاء في السماء. ويضيف الحصان : كان من الممكن حقاً أن تصبحي شيئاً. ولكم ودت الراهبة أن تحتج بدافع من الحياء، ولكنها لم تستطع. فقد حدثت أشياء فظيعة.

وسألتني كاري فجأة وبصوت عال علواً ارتعدت له فرائصي : ماذا حدث؟ ما هذا الذي ظللت طوال الوقت تقصينه؟

وأقول لها، في مقدورك أنت وشتانك أن توردا الإنسان موارد الهلاك.

وتقول كاري، إنني أود أن أعرف عما كنت تقصين طوال الوقت، أريد أن أعرف عن يقين. ولقد صَحَت صحوة تكاد عينيها فيها أن تبرزا من رأسها.

وأقول، كانت تلك قصة من أجل شتانك، سأقصها عليه اليوم ولن أخلف موعدي، ثقي من ذلك.

فالموضوع في نهاية المطاف هو موضوع شتانك.

ڤولفجـــانج هرمـــن

Wolfgang Hermann

هو

Er

صحا من نوم بلا أحلام. فإذا الطاقة في سقف الحجرة بالفندق القديم مبللة بقطرات المطر. وسمع صوت طنين المدينة كأنه يتناهى إليه من خلال مصفاة كبيرة. تمثّل في الخارج الشوارع الباهرة المتجهة نحو النهر، والشوارع العادية تتفرق من محطات السكك الحديدية متباعدة كما تتفرق الأشعة من مصدرها. وتصور تلك المنطقة بين المحطتين حيث يقف مساءً عند النواصي رجالٌ يلبسون سترات رديئة، ويضعون أياديهم في جيوبهم. وكان الإنسان يراهم أيضاً في الصباح لم يغتسلوا، يلوحون كبقايا تخلفت عن ليل مسهود. كان كل شيء في تلك المنطقة يأتلف من قيام ووصول، ومسافرين يحملون الحقائب، على رصيف المحطة، في داخل تاكسي، ولكن الأرض التي كانوا يسيرون فوقها كانت أرض هؤلاء الآخرين الذين لا يمتلكون حقائب، ولا يتلقون رسائل بالبريد : أناس ضائعين، بلا وطن، لا يعرفون أين سيقضون الليلة القادمة.

كذلك كانت المدينة تتلاشى هناك، حيث المنشآت الصناعية، والأوناش ومنصات الشحن الصدئة، التي كانت أحمال حديدية ثقيلة تضج عندها ضجيجاً صاخباً. وهذا قطارالضواحي

يحدث دوياً كالرعد فوق الجسر الفولاذي، وهذه طيور ثلاثة تصعد في الوقت نفسه عالياً من وراء منصة الشحن، ويبدو عليها كأنها تتشابك لحظة في جسم واحد ما يلبث أن يتفرق بعضه عن بعض.

تصور الخارج، بعيداً عن مدى أنفاسه، حيث يقف عمال بناء على شفا الحُفَر ويرفعون الكوابل من خنادق تحت الأرض، ويلفون وصلات رصاصية بعضها في البعض. ومن فوقهم، على الرصيف، قوافل المارة، يتقدمها رجل أسود يبرز تارة من هنا وتارة من هناك، ويندفع خارج الصف، ويسرع الخطى أمام الآخرين، وكأنما كانت قبعته الحمراء راية مرفوعة؛ أو يتقدمها رجل يلبس بدلة، ويحمل حقيبة أوراق، ويخطو بخطى مختلجة نحو محطة مترو الأنفاق التالية، فليس لديه هنا ما يعمله.

كل هذا هناك في الخارج، فيما وراء مدى أنفاسه. ومر بنظرةٍ على حيطان الحجرة التي تدلى عليها ورق حائط مصفرّ، تتخلله مواضع مرقّعة وأثار كوابل وأسلاك كهربائية منتزعة من أماكنها. هنا بريزة قديمة، صفراء. وهناك مسمار معوج. وهذه طاقة سقف الحجرة تركها موارية يرى من خلال فتحتها المطر يتساقط. كان المطر يتساقط فوق سقوف المحطتين، فوق مدارج السكك الحديدية، وفوق القضبان التي كانت تمتد لتختفي عند مشارف المدينة شرقاً. هناك القطارات تعدو والنهر نحو الجنوب، والقضبان تمتد إلى مالا نهاية. وفي اتجاه الشمال الغربي، من ورائه، محطات السكك الحديدية الأخرى بمدارجها التي تمتد إلى ضواحي الشمال، إلى الشاطيء، إلى الحدود الشمالية.

كان هو يرقد هناك، عند قدمي تلك الليلة، كأن خيوطَ كُتْلَتِها الكبيرة تنتسج حوله. من وراء طاقة السقف، في الخارج، المدينة؛ وهو هنا منذ وقت طويل، لابد أنه يقاس بالشهور، ولكنه لم يكن يعلم شيئاً، كان ينتمي إلى النسيان، لم يكن يحس إلا أن هناك حياة..

حركة.. سرعة.. أناساً يكسبون، وأناساً آخرين دائماً يخسرون،.. حيوانات، مثل الألوان.. شعشعة لا تهدأ في الشوارع، مدينة غريبة، أتى ليتنفس فيها من بعيد، من أعماق الليل. كان بلا تاريخ.. لم يكن إلا نَفَساً، إلا ذراعاً تمتد نحو الحائط. الحائط، ورق الحائط، الحقيبة، في الخارج، من وراء طاقة السقف شبكة الطرق المتفرعة التي تتلاشى إلى بعيد، المنشآت الصناعية، تلك الكتل الصلبة الصدودة. وهنا في سكون الحجرة الدائم جسم، وجلد دافيء، وعينان.

كان قد نسي. نسي الشهور هنا في المدينة، نسى لماذا حل هنا، وكأنما كانت حكايته حكاية مختلقة.

هنا، في حجرة رخيصة بفندق قديم إنسن ما يتنفس، يتأمل الحيطان. هل يضع يده على هذه الحقيقة ويخرج من الباب؟

جرهارد روت

Gerhard Roth

نظرة قاتل

Blick eines Mörders

عندما قبض رجال الأمن عندنا قبل عشرين عاماً على قاتل، وفتحوا المحضر لأخذ أقواله، قال: « إنني أرى كل شيء وكأنه قريبٌ مني، وأتطلع إليه ببلادة ما بعدها بلادة : أحشاء الحيوانات المذبوحة، علبة السردين، الإبرة والخيط. وإذا دخلت مكاناً فأول ما يشد انتباهي العروسة التي يلعب بها الأطفال والتي تركوها على الأرض، ثم الأرنب المذبوح الموضوع في الحلة، ثم الأسماك التي قُطعت رؤوسها، ثم القفاز. وأنا لا أستطيع أن أضم التفصيلات معاً، ولا أستطيع أن أفهمها. بل تظل متفرقة : كأس نبيذ، يد مفتوحة فيها قطعة نقود، أحذية منزلية مستهلكة. وجوه الناس تشبه بقايا الإعلانات الملصقة على جدران الحاصل، أو تشبه الحصى على الطرق المعبدة بالردم. وقدماي لا يهمني منهما إلا أنهما تحملاني. الأرنب المسلوخ يثير البهجة في نفسي، كذلك شفرة الحلاقة، المشط القديم الذي عَلَقتَ فيه بقيةٌ من شعر، أو دلو به ماء قذر، تعوم فيه قطع من الخيش». (وجاء في المحضر أن المحبوس على ذمة التحقيق عندما وصل إلى هذه النقطة طلب سيجارة، وكأس نبيذ، فأجيب طلبه. واستأنف أقواله:) «في أثناء الصيف اشتغلت من حين لآخر ببعض الأشغال الطارئة وكنت أنام في أي

حاصل أو شونة في المنطقة المحيطة. بينما كنت جالساً في الحانة سمعت حديثاً علمت منه عن تحويشة الرجل العجوز. ذهبت بدافع الفضول، وبدون أية نوايا أخرى، إلى البيت القائم في مكان منعزل. أمام باب البيت سقط مني زرار من أزرار البنطلون على الأرض، فلما التقطته أحسست كأنه يعطيني إشارة. (ولكنني لم أستطع أن أشرح لنفسي هدف هذه الإشارة). في المدخل شممت رائحة فاصوليا وبصل كانت مكومة هناك، وأحسست مرة أخرى كأن انتباهي يُوَجَّه إلى شيء ما. فبقيت هنيهةً واقفاً، وتلفتُّ حولي. وبالفعل رأيت فأساً موضوعاً، قائماً، في ركن بالمدخل، فقلت في نفسي : "لا بأس". وسرعان ما انفتح باب المطبخ، وسألني الرجل العجوز بوجهه المرتاب عما أريد، فلم تخطر ببالي إجابة. وكان على منضدة المطبخ ورق جرائد مكموش، فاستنتجت أنه إما كان يلف بيضاً، أو يفك لفافاته. وهممت بالانصراف، ولكن الفأس خطر ببالي. إلا أنني بدلاً من أن أتناول الفأس، شرعت أخنقه. فارتميته عليه وأنا أنظر إلى نفسي وما أفعل. وقلت في نفسي وأنا أراني أبرك فوق الرجل العجوز وأطبق على رقبته إطباقةً فتاكة : كفاك هذا الآن. ولكنني لم أتركه إلا بعد أن كف عن الحركة تماماً. ثم بحثت عن النقود، فلم أجدها تحت المخدة، (وكان السرير في المطبخ)، بل وجدتها تحت طبق غويط مقلوب في النملية. ودق مُنَبِّهٌ كان الرجل قد وضعه هناك، ولا أعلم لماذا. فتملكني فزع عميق حتى إنني دسست النقود في جيوبي وخرجت من البيت. والحقيقة أن ما حدث لا شأن له بي. وركبت دراجة الرجل العجوز وبرحت الناحية. وفي ڤوجاو التحقت بِسرِكٍ متجول كان يمر من هناك، وتحسس رجال الأمن أثري، وقبضوا عليّ. وإنْ كنت لا أعرف كيف توصلوا إلى مكاني. »

إلزه أيشينجر

Ilse Aichinger

حكاية فى مرآة

Spiegelgeschichte

إذا دفع أحدهم سريركِ إلى خارج العنبر فى المستشفى، ورأيتِ السماء يتغير لونها فتصطبغ بلون أخضر، وإذا شئت أن توفرى على القسيس مشقة إلقاء العظة الجنائزية، فعليك أن تنهضى من فراشك فى سكون، مثل الأطفال الذين ينهضون من فراشهم عندما يسفر الصباح ويطل بنوره من خلال فُرَج الشيش، وعليك، عندما تتسللين، أن تأخذى حذرك حتى لا تراك الممرضة، وأن تسرعى.

ولكن القسيس قد بدأ بالفعل فى إلقاء العظة الجنائزية، وأنت تسمعين صوته الغض ينبض بالحماس، ويتدفق فلا يحجزه حاجز، نعم أنت تسمعينه. ولكن لا عليك. دعى الأمور تسير سيرها. دعى كلماته الطيبة تغوص فى مياه المطر الأعمى. لقد فغر قبرك فاه. دعى القس وشأنه حتى تتبدد ثقته الهوجاء، وتستحيل إلى حيرة تتلمس العون. فإذا أنت تركته وشأنه فلن يعرف، عندما يصل إلى نهاية كلمته، هل بدأ فى إلقائها أم لم يبدأ بعد. حتى إذا بلغت به الحيرة كل مبلغ، أومأ إلى الحمالين أن يحملوا النعش. وهاهم أولاء يستجيبون له، ولا يلحون فى السؤال، فيحملون نعشك كما حملوه من قبل، ويرفعون الإكليل من فوق الغطاء، ويردونه إلى الشاب الذى وقف على حافة القبر ينظر إلى الأرض. ويتلقى الشاب إكليله،

ويمسح بيده مرتبكاً على ما ازدان به الإكليل من أشرطة ليسويها، ويقطب جبينه هنيهة، فيلقى المطر إليه بقطرات كأنها دموع قليلات تنزلق على وجنتيه. ويعود الموكب أدراجه يحاذى الجدران. وتوقد الشموع فى الكنيسة الصغيرة القميئة كما أوقدت من قبل، ويتلو القسيس صلاة الجنازة، لكى تستطيعى الحياة. ويشد على يد الشاب بحرارة، وتخذله الكلمات فيتمنى له السعادة كل السعادة، فقد تملكه ارتباك هائل لم يعهده من قبل، فتلك أول جنازة يقوم بشعائرها، وتعلو وجهه حمرةُ خجل هائلة تنتشر فتفترش رقبته. ويختفى الشاب عن الأنظار قبل أن يتمكن القس من تصحيح الخطأ الذى تورط فيه، وأنّى له أن يصلح ما أفسده بمثل هذا الخطأ، فكيف يتمنى الرجل لإنسان حزين على فقيدةٍ عزيزة السعادة كل السعادة. لم يبق إلى أن يشيع الميت إلى داره.

وهذه هى عربة الموتى تنطلق بنعشك مرة أخرى عبر الشارع الطويل، الذى تحف به بيوت من يمين، وبيوت من يسار، ازدانت نوافذها كلها بزهور النرجس الصفراء، هى نفس الزهور التى يصنعون منها الأكاليل، كل الأكاليل، وذلك أمر لا سبيل إلى تغييره. وهناك أولاد يلصقون وجوههم لصقاً فى زجاج النوافذ المغلقة، والمطر يتساقط، ولكن أحد الأولاد يخرج برغم المطر من باب بيت، ويعتلى مؤخرة عربة الموتى، فيردونه عنها، فيقف مشدوهاً فى مكانه، حاجزاً المطر من فوق عينيه بيديه، ويلاحقك بنظرةٍ غَضْبَى. فعلى أى عربة ينط هذا الصبى، ما دام يسكن فى الشارع المؤدى إلى القرافة، إن لم يكن على عربات الموتى؟

وتقف العربة عند التقاطع وتنتظر إشارة المرور الخضراء. لقد خف المطر، إلا من قطرات تتراقص فوق سطح العربة. هذه رائحة الدريس تهف إلى الأنوف من بعيد. والشوارع بللها المطر، وكأنها تلقت التعميد لتوها، والسماء هبطت بسُحُبِها فكأنها تبسط يدها على الأسطح كلها. أما عربة نعشك فتأخذ نفسها بالأدب، لعلها لا تهتم بشيء غيره، فتسير مسافةً محاذية لعربة الترام لا تسبقه، وهذان صبيان يقفان عند رصيف الشارع يتراهنان على من سيكون له شرف السبق : الترام أم عربة الموتى. وخسر الذى راهن على الترام، كان فى مقدورك أن تنبهيه حتى لا يخسر الرهان، ولكن هذا شرف لم ينزل إنسان من قبل لأجله من نعشه.

تذرعى بالصبر. نحن الآن فى بدايات الصيف، والنهار فى بدايات الصيف يطول ويقتطع من الليل جانباً كبيراً. ولكن العربة، قبل أن يخيم الظلام ويختفى الأولاد من فوق أرصفة الشوارع، تنحنى وتدلف إلى حوش المستشفى. عندئذ تهبط شريحة ضيقة من القمر نحو مدخل العربات. ويسارع الرجال إلى العربة، ويخرجون النعش منها، وتعود عربة الموتى إلى دارها سعيدة مغبوطة.

ويحملون نعشك ويدخلون به من المدخل الثانى إلى ثلاجة المشرحة حيث تنتظره قاعدة مائلة عالية سوداء كالحة، فيضعونه فوقها، ويفتحونه كما أغلقوه من قبل، ويرفع أحدهم عقيرته باللعنات لأن المسامير التى أغلق بها دقت بإحكام بالغ الدقة. تباً لهذه الدقة اللعينة!

وسرعان ما يأتى الشاب، ليعيد الإكليل إلى موضعه، كان موعد وضع الإكليل قد أزف. ويصلح الرجال الأنشوطات، ويضعون الإكليل فى المقدمة. لا تقلقى. فقد أحسنوا وضعه. ولن يسفر الصباح حتى تكون الزهور الذابلة قد انتعشت وضمت وريقاتها إلى براعمها. ستقضين الليلة وحدك، تمسكين بالصليب بين يديك، وستنعمين فى أثناء النهار بالكثير من السكون. ذلك سكون لن يتاح لك مثله فى مرقد بعد الآن.

وفى اليوم التالى يأتى الشاب مرة أخرى. ولما لم يكن هناك مطر يلقى إليه بدموع على وجنتيه، فإنه يحملق فى الفراغ، ويقلب قبعته بين أصابعه. لن يلطم وجهه بكفيه إلا عندما يرفعون النعش ليضعوه على الرف. ثم يبكى. ولن يطول بقاؤك فى ثلاجة المشرحة. لماذا يبكى؟ هذا هو غطاء النعش بلا مسامير تثبته، والصباح قد أصبح وضاحاً منيراً. والعصافير تشقشق فى مراح. إنها لا تعرف أن إيقاظ الموتى ممنوع. ويتقدم الشاب النعش بخطى وئيدة، كأن قدميه تخطوان بين أكواب من زجاج مصفوفة. والريح تهب باردة، عابثة كالطفل الذى لم يشب عن الطوق.

ويحملونك إلى البيت، ويصعدون بك الدرج. ويخرجونك من النعش، وقد أعد سريرك بفرش نظيف، ويقف الشاب يحملق من خلال النافذة إلى الفناء من دونه، ويرى زوجين من الحمام يتغازلان ويبثان هديلاً صاخباً، فيشيح الشاب عنهما وقد أصابه القرف.

هاهم أولاء قد مددوك فى فراشك، وعقدوا الرباط حول رأسك ليثبت فمك، والرباط يجعل منظرك غريباً. وإذا بالشاب يبدأ فى الصراخ، ويرتمى فوقك. ويأخذونه عنك مترفقين به. كل الحيطان عليها لافتات «الهدوء»، فقد ازدحمت المستشفيات الآن فوق طاقتها، ولا ينبغى أن يوقظ الضجيج الموتى قبل الأوان.

من ناحية الميناء يتناهى إلى السمع دوى صفارات السفن. أقدومٌ هو أم رحيل؟ من يعلم؟ السكون. الهدوء من فضلكم. لا توقظوا الموتى قبل أن يحين حين إيقاظهم، فنوم الموتى خفيف. ولكن السفن لا تكف عن إطلاق صفاراتها المدوية. سيكون عليهم بعد قليل أن يفكوا الرباط من حول رأسك، شاؤا أو لم يشأوا، وسيغسلونك، ويغيرون ثيابك، وسينحنى أحدهم فوق قلبك انتحناءة سريعة، ما دمت ميتة، فعليه أن يسرع، لأن الوقت قد أزف، والسفن مسئولة بما تحدث من صخب. والصباح يزداد حلكة. هاهم أولاء يفتحون عينيك، فإذا هما تبرقان ببريق أبيض. لقد كفوا الآن عن الحديث عما يبدو عليك من سكينة، فقد ماتت الكلمات، بفضل الله فى أفواههم. اصبرى، فسرعان ما ينصرفون ويتولون عنك، فما من أحد منهم يريد أن يكون شاهداً، فمازال الحريق يتهدد من يقف هذا الموقف.

ويتركونك وحيدة. وحيدة أشد الوحدة، حتى إنك تفتحين عينيك، وترين السماء الخضراء. لقد تركوك وحيدة أشد الوحدة حتى إنك تبدئين فى التنفس، إنك تتنفسين نفساً عميقاً له حشرجة وصلصلة كصلصلة سلسلة الهلب عندما تنحل عن بكرتها.

وثمة صوت من خلفك يقول : « هذيان الحمى يخفت، وصراع الموت يبدأ ! »

تباً لهم ! ماذا يعرفون؟

اذهبى الآن. هذه هى اللحظة المناسبة. لقد استدعوهم جميعاً، وخلا المكان. اذهبى قبل أن يعودوا، وقبل أن يعلو تهامسهم مرة أخرى. انزلى السلم، ومرِّى على البواب مروراً عابراً، من خلال هذا الصباح الذى سيكون ليلاً. الطيور تتصايح فى الظلام، وكأنما بدأت آلامك تهلل من

الفرحة. عودى إلى البيت، عودى إلى سريرك الأليف، وارقدى فيه كما كنت دائماً تفعلين، حتى إذا كانت أوصاله تطقطق وتقرقع من الوهن، وحتى إذا كان الفرش فيه لا يزال مضطرباً أشد الاضطراب لم تمتد إليه يد بالتسوية والنظام. ما عليك إلا أن تثورى على نفسك ثلاثة أيام، وأن تشربى السماء الخضراء حتى الشبع. ارفضى الحساء الذى تقدمه إليك المرأة التى تسكن فى الطابق الأعلى، وتمسكى برفضك ثلاثة أيام، ثم إذا أنت تقبلينه فى اليوم الرابع.

وأنت فى اليوم السابع، يوم الراحة، تذهبين، تدفعك الآلام دفعاً. هناك طريق. تسيرين إلى اليسار، ثم إلى اليمين، ثم إلى اليسار مرة أخرى، وتسلكين تخريمة من خلال حارات الميناء، تجدينها شديدة البؤس فلا يكون أمامك من سبيل إلا الاتجاه نحو البحر.

ليت الشاب كان معك، بجوارك. ولكنه ليس معك. كنت فى النعش أكثر جمالاً. أما الآن فوجهك شوهته الآلام. لقد كفت الآلام عن التهليل. والعرق يتفصّد مرة أخرى من جبينك، طوال اليوم. لا. فى النعش كنت أجمل.

الأولاد يلعبون بالكريات فى الشارع. وهأنتذى تندفعين بينهم، وتسيرين كأنما كان ظهرك إلى الأمام. ليس بين الأولاد من هو ابنك. وكيف يمكن أن يكون أحدهم ابنك وأنت تسعين إلى المرأة العجوز التى اتخذت عند الحانة مقراً لها؟ ذلك أمرٌ يعرفه الميناء كله، فالمرأة العجوز تتلقى من الميناء من النقود ما تدفع به ثمن ما تعبه من براندى.

إنها تقف الآن بالباب، والباب مفتوح، وتمد إليك يدها، يدها القذرة. كل شىء هنا قمىء. المدفأة تكتنفها زهور صفراء، هى الزهور الصفراء التى يضفرونها فى الأكاليل، الزهور نفسها. والمرأة العجوز لطيفة جداً، لطيفة لطفاً مفرطاً. والدَّرَجُ يقرقع هنا أيضاً. والسفن تطلق صفاراتها المدوية حيثما ذهبت. صفارات مدوية فى كل مكان. والآلام تعتصرك وترج كيانك رجاً، ولكنك لا تصرخين، وأنّى لك أن تصرخى. اعطى المرأة العجوز نقود خمرها. وهى لن تسد فمك بيدها إلا بعد أن تعطيها النقود. إنها يقِظةٌ واعية من فرط ما عبت من براندى، هذه المرأة العجوز. أنت لا تحلمين بأولئك الذين لم يولدوا بعد. الأطفال الأبرياء لا يجرؤون

على أن يرفعوا إلى القديسين شكوى ضدها، والآثمون كذلك لا يجرؤون. أما أنت فتجرئين «ردّى ابنى إلى الحياة !»

هذا ما لم يطلبه إنسان من العجوز من قبل. أما أنت فتطلبينه. المرآة تمنحك القوة. المرآة العمياء التى رانت عليها أدران الذباب تدعك تطلبين.

«رديه إلى الحياة، وإلا ألقيت بزهورك الصفراء عرض الحائط، وفقأت عينيك، وفسخت نوافذك، وصرخت فى الحارة حتى يسمع الجميع منى ما يعرفون من قبل، سأصرخ - - »

هنا ترتعد فرائص المرأة العجوز. وإذا هى فى الفزع الكبير، وفى المرآة العمياء تلبى طلبك، إنها لا تعرف ماذا تفعل، ولكنها تجد سبيلها إلى ذلك فى المرآة العمياء. وهذا هو خوفك يصبح خوفاً فظيعاً، وآلامك تسترسل أخيراً فى التهليل. وقبل أن تشرعى فى الصراخ، إذا أنت تعرفين أغنية المهد : « نم يا حبيبى، نم... » وقبل أن تفتحى فمك بالصراخ تهوى بك المرأة على الدرج، كما فعلت من قبل، وتدعك تسيرين. إنها تدعك تسيرين. فلا تسيرى بسرعة مسرفة !

خيرٌ لك أن ترفعى عينيك عن الأرض، فقد تصطدمين، فى أثناء سيرك، عند السور الخشبى القائم حول أرض قد تجرى فيها أعمال البناء برجلٍ، بالشاب الذى يلف قبعته بأصابعه. أنت تعرفينه من عبثه بقبعته. إنه هو الشاب الذى وقف عند نعشك ولف قبعته بأصابعه. هاهو ذا جاء مرة أخرى. إنه يقف كأنما كان يقف فى هذا المكان دائماً، فلم يبرحه قط، وهو الآن يستند إلى ألواح السور الخشبى. وهأنتذى ترتمين بين ذراعيه. وعيناه فى هذه المرة أيضاً لا تجودان بالدموع، امنحيه بعض دموعك. ودّعيه وانصرفى قبل أن تتعلقى بذراعه. ودّعيه وانصرفى. لن تنسى أنت، إنْ نسى هو، أن الإنسان يودِّع فى البداية. قبل أن تستأنفا السير معاً ينبغى عليكما أن تفترقا إلى الأبد عند السور الخشبى المحيط بمكان البناء الخالى.

ثم أنتما تستأنفان المسيرة. هناك طريق يمر بمخازن الفحم متجهاً نحو البحر. وتلوذان بالصمت، أنت تنتظرين منه الكلمة الأولى، وتتيحين له الفرصة ليقولها، حتى لا ينتهى بك

الأمر إلى أن تقولى الكلمة الأخيرة. ماذا سيقول؟ أسرعا قبل أن تصلا إلى البحر الذى يجرد الإنسان من الحرص والحيطة. ماذا يقول؟ ماهى الكلمة الأولى؟ هل يمكن أن تكون صعبة كل هذه الصعوبة، فتضطره إلى أن يتلعثم وإلى أن يخفض بصره؟ أم هل يرجع السبب فى صمته إلى أكوام الفحم العالية التى تظهر أعاليها من فوق السور الخشبى والتى تلقى ظلالاً تحت عينيه وتبهره بسوادها؟ الكلمة الأولى - هاهوذا يقولها بعد لأيٍ - الكلمة الأولى التى ينطق بها هى اسم حارة، اسم الحارة التى تقطنها المرأة العجوز. أيكون هذا ممكناً؟ أقبل أن يعرف أنك تنتظرين الطفل ينبئك باسم المرأة العجوز؟ أقبل أن يصارحك بأنه يحبك يذكر المرأة العجوز؟ ولكن لا عليك. إنه لا يعرف أنك ذهبت إلى المرأة العجوز، وأنّى له أن يعرف، وهو لا يدرى عن المرآة شيئاً. ثم إنه ما كاد ينطق بالكلمة حتى نسيها. هكذا الإنسان يقول فى المرآة كل شىء حتى ينتهى به إلى النسيان. وما كدت أنت تخبرين بأنك تنتظرين طفلاً حتى أحطت الخبر بالكتمان. والمرآة تعكس كل شىء. أكوام الفحم تتراجع من ورائكما، وإذا بكما تبلغان البحر وتشهدان القوارب البيضاء وكأنها أسئلة تقوم على آخر مدى لنظرتكما - ولكن لا عليكما، طيبا نفساً، فالبحر يبتلع ما تريدان قوله. ستسيران من هنا مرات ومرات على الشاطىء طالعيْن، وكأنكما تسيران نازليْن، نحو البيت، فإذا أنتما تبعدان إلى بعيد، وكأنكمان تلمان ببيتكما.

بم يتهامس هؤلاء الذين يلبسون الطواقى البيضاء؟ يقولون « هذه هى سكرات الموت! ». دعيهم يتكلمون.

ويأتى يوم تبهت فيه السماء، ويزداد بهتها ازدياداً مستمراً حتى تكاد صفحتها الباهتة أن تلمع.

فى هذا اليوم تعكس المرآة العمياء صورة البيت اللعين. والناس يصفون البيت الذى يهدم باللعين، يقولون اللعين لأنهم لا يعرفون كلمة أفضل. لا ترهبنكما هذه الكلمة. ولقد بهت لون السماء فبلغ المدى. وشبيه بالسماء الباهتة ذلك البيت الذى ينتظر بعد اللعنة النعيم

المقيم. عندما يكثر الإنسان من الضحك توافيه الدموع سهلة. ولقد بكيت أنت فبلغت المدى. خذى إكليلك الذى أتيت به. سيتاح لك عما قريب أن تحلى ضفائرك مرة أخرى. كل شىء فى المرآة. ومن وراء كل ما تفعلان يمتد البحر بلونه الأخضر. عندما تغادران البيت يمتد البحر أمامكما. عندما تنزلان من النوافذ الغارقة مرة أخرى، ستكونان قد نسيتما. حينذاك سيبدأ إلحاحه عليك أن تدخلى معه. ولكنكما تبتعدان من فرط الحماس عن هذا المسار، وتنحرفان عن الشاطىء. ولا تنظران خلفكما. ويبقى البيت اللعين من ورائكما. وتسيران على شاطىء النهر طالعيْن، وانفعالكما المحموم ينساب نحوكما، ثم يتجاوزكما. لن يلبث إلحاحه أن يخبو. ويخبو استعدادك أنت فى اللحظة نفسهما، ويزداد خجلكما. إنه الجزر الذى يسحب البحر بعيداً عن كل الشواطىء. حتى الأنهار ينحسر ماؤها فى وقت الجزر. على الناحية الأخرى تحل هامات الأشجار أخيراً محل الأوناش. ومن تحتها تغفو سقوف البيوت المكسوة بشقاف خشبية بيضاء.

خذى حذرك، فسيبدأ الآن حديثاً عن المستقبل، وعن الأولاد الكثيرين، والحياة المديدة، وستستعر وجنتاه من فرط الحماس. وستؤجج وجنتاه وجنتيك. وستتجادلان، هل تريدان بنين أم بنات، وأنت تفضلين البنين. كان هو يفضل أن يكسو السقف بشقاف من الفخار، وأنت تفضلين - - - ولكنكما سرتما على شاطىء النهر، وبعدتما، فأوغلتما فى البعد. ويتملككما الفزع. ولقد توارت السقوف المكسوة بالشقاف الخشبية البيضاء على الناحية الأخرى، ولم تعدد العين ترى إلا مروجاً ومراعٍ غضة رطبة. وهنا؟ تنبها إلى الطريق. وأسفر الفجر بحمرة شفقية فارغة لا تأتى إلا فى الصباح. لقد مضى المستقبل. والمستقبل طريق على امتداد النهر الذى ينتهى إلى المروج. عودا أدراجكما!

إلام تصير الحال الآن؟

لن يعود بعد ثلاثة أيام يجرؤ على أن يحيط كتفيك بذراعيك، وبعد ثلاثة أيام أخرى سيسألك عن اسمك، كذلك أنت ستسألينه عن اسمه. لم يعد الواحد يعرف عن الآخر حتى اسمه، ولم تعودا تسألان. الوضع هكذا أجمل. أما أصبحتما سراً؟

وانتهى الأمر بكما الآن إلى حيث أصبحتما تسيران صامتين أحدكما بجوار الآخر. ولو سألك عن شيء، فإنه يسألك عن الدنيا هل ستمطر. ومن الذى يستطيع أن يعرف إذا كانت الدنيا ستمطر؟ وتزيد غربتكما بعضكما عن بعض. ولقد كففتما منذ وقت طويل عن الحديث عن المستقبل، وقلّ تلاقيكما حتى بلغ الندرة. ولكنكما لم تبلغا بعد المدى فيما اتصل بينكما من الغربة. لا عليكما، اصبرا، فستبلغان المدى يوماً ما. سيكون غريباً عنك حتى إنك ذات يوم توشكين أن تقعى فى غرامه أمام بوابة مفتوحة فى حارة مظلمة. كل شيء يحتاج إلى وقته، وقد حان الوقت الآن.

وهؤلاء الواقفون وراءك يقولون: « لن يطول بها الوقت - فهى تشرف على النهاية ! »

ماهى هذه المعرفة التى يحيطون بها؟ أما يبدأ كل شيء الآن لأول مرة؟

سيأتى يوم ترينه فيه لأول مرة. وهو يراك لأول مرة. لأول مرة يعنى: ما لن يحدث أبداً. ولكن لا تفزعا! ليس عليكما أن تتوادعا، فقد ودع كل منكما الآخر منذ زمن طويل. خيراً فعلتما إذ فرغتما من ذلك من قبل!

سيكون اليومُ يوماً خريفياً، مفعماً بالتوقع بأن تعود كل الثمرات فستحيل كما كانت ذات مرة إلى زهرات، كم هو جميل، الخريف، فهذا الدخان المشرق، وهذه الظلال التى تبدو كأنها شظايا زجاج تحت الأقدام، حتى لتكاد تجرح قدميك فى أثناء خطوك جروحاً كثيرة بليغة، وتعثرين فيها فى غمرة الأمل والفرحة عندما يرسلونك إلى السوق لتأتى بالتفاح. وهذا شاب يخف لمساعدتك، وضع السترة فوق كتفيه دون أن يلبسها، إنه يبتسم ويقلب القبعة بين أصابعه، ويتلعثم ولا يجد كلمة يقولها. ولكنكما تفرحان فرحاً شديداً فى هذا الضوء الأخير. وأنت تشكرينه، وتميلين إلى الخلف قليلاً، وتنحل الضفائر وتتدلى على كتفيك، وكانت من قبل مضمومة مرفوعة. يقول لك: « أما تزالين تلميذة فى المدرسة؟ »، ويدور إلى الخلف، ويسير وهو يصفر لحن أغنية. هكذا تفترقان دون أن ينظر الواحد منكما إلى الآخر مجرد النظر، دون ألم، ودون أن تدركا أنكما تفترقان.

لك الآن أن تعودى إلى اللعب مع إخوتك الصغار، ولك أن تسيرى معهم وأن تسلكى معهم الطريق على امتداد النهر، طريق النهر تظلله أشجار الحور الرومى، وعلى الشاطىء المقابل تلوح السقوف بشقافها الخشبية البيضاء على حالها بين هامات الأشجار. بم يأتى المستقبل؟ لا يأتيك بأولاد. لقد أتاك بإخوة، ومنحك ضفائر تهزينها على كتفيك، وكرات تضربينها فتطير. لا تغضب منها، هذا أفضل ما عندها. لا بأس بأن تبدأ المدرسة.

ما تزالين أكبر من السن قليلاً ، وما يزال عليك فى الفسحة الكبيرة أن تسيرى فى الطوابير، وأن يحمر وجهك خجلاً، وأن توارى ضحكك بأصابعك. ولكن انتظرى عاماً آخر، سيكون لك أن تنطى الحبل من جديد، وأن تعبثى بيديك فى أغصان الأشجار التى تتدلى على الجدران. لقد تعلمت اللغات الأجنبية، ولكن الأمور لا تظل على ما كانت عليه من سهولة. فتعلُّم لغة الأم أصعب بكثير : وستلقين مزيداً من الصعوبة فى تعلم القراءة والكتابة. أما الصعوبة الكبرى فتتمثل فى نسيان كل شىء. وإذا كان عليك فى الامتحان الأول أن تعرفى كل شىء، فسيكون عليك فى الامتحان الأخير ألا تعرفى شيئاً مما كنت تعرفين. هل ستنجحين فى هذا الامتحان؟ هل ستظلين فيه هادئة البال مطمئنة النفس؟ إذا خالجك من الخوف ما يكفى لكى لا تفتحى فمك، فستسير الأمور، كل الأمور، سيراً حسناً.

ستعلقين قبعتك الزرقاء التى يلبسها كل عيال المدارس على الشماعة، وتتركين المدرسة. دار الوقت فأصبح خريفاً مرة أخرى. الزهور تحولت منذ زمن طويل إلى براعم، والبراعم تحولت إلى لا شى، واللاشىء إلى ثمار. كل الأولاد الصغار، فى كل مكان، يعودون إلى بيوتهم، بعد أن نجحوا فى امتحاناتهم. لم يعد أحد منكم يعلم بعد علمٍ شيئاً . أنت تعودين إلى البيت، أبوك ينتظرك، وإخوتك الصغار يصيحون صاخبين، ويشدون شعرك، وأنت تهدئينهم، وتواسين أباك.

عما قريب يأتى الصيف بأيامه الطوال، وعما قريب تموت أمك. وأنت وأبوك تحضرانها من القرافة إلى البيت، فترقد ثلاثة أيام أخرى بين الشموع الموقدة المطقطقة، كما رقدت أنت بينها

من قبل. انفخوا الشموع كلها، اطفئوها قبل أن تصحو. ولكنها تتنسم رائحة الشمع، وترفع نصفها الأعلى متكئة على ذراعيها وتشكو بصوت خفيض من التبذير. ثم تنهض وتغير ثيابها.

من الخير أن أمك ماتت لأنك ما كنت ستستطيعين الصبر وحدك على الحياة مع إخوتك الصغار. ولكنها الآن بين ظهرانيكم، تؤدى كل الأعمال، وتعلمك اللعب على نحو يفوق ما كنت تعرفين، فالإنسان لا يبلغ الكمال أبداً. وليست هذه بالمهمة السهلة، ولكن هناك من المهام ما هو أصعب منها، هناك مهام بالغة الصعوبة.

وأصعب المهام التى بقى عليك إنجازها، هو العمل على نسيان الكلام بعد علم، ونسيان المشى بعد تمكن. ثم عليك التلعثم فى حيرة، والحبو على الأرض، والانتهاء إلى الكفولة واللفة. أصعب مابقى من مهام هو تحمل كل ألوان العطف والحنان، واللجوء إلى إطالة النظر. اصبرى. اصبرى. سينتهى كل شىء على خير قريباً. الله يعرف اليوم الذى يبلغ الضعف بك مداه.

هذا هو يوم مولدك، هأنتذى تخرجين إلى الدنيا، وتفتحين عينيك، ثم تقفلينهما من شدة النور. والنور يبث الدفء فى أوصالك. أنت تتحركين فى الشمس، أنت موجودة، حية. وأبوك ينحنى عليك.

وهؤلاء الذين من خلفك يقولون : « إنها النهاية ! لقد ماتت ! ». فالسكون.. السكون ! دعيهم يتكلمون.

أعلام وأعمال

چانّـي إبنـر :

ولدت في عام ١٩١٨ في سيدني باستراليا، ونشأت في ضاحية ڤيينا الجديدة؛ في أثناء الحرب العالمية الثانية اشتغلت بنقل البضائع، ودرست في الوقت نفسه النحت في أكاديمية الفنون بڤيينا؛ منذ عام ١٩٥٠ أديبة ومترجمة في ڤيينا؛ من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٩ محررة وناشرة مجلة «ليترتور أند كريتيك : أدب ونقد»

من أعمالها : التغني باليوم ١٩٥٢؛ إنهم ينتظرون إجابة ١٩٥٤؛ برية فصول صيف ماضية ١٩٥٨، ١٩٧٨؛ نمر الملك ١٩٥٩ و١٩٨٤؛ أشكال أبيض وأسود ١٩٦٤؛ نثر ١٩٧٣؛ محضر من مملكة انتقالية ١٩٧٥؛ ورود تجمدت في الثلج ١٩٧٩؛ أكتيون ١٩٨٣؛ نغمات ثلاث على الناي ١٩٨٣؛ مراكب من ورق. خبرات طفولة ١٩٩١؛ قصائد مجمعة ١٩٨٨؛...وحفظ سره ١٩٩١؛ حباً في الدقة ١٩٩٣.

فيلم ڤيديو : چانّي إبنر – لحظة لا تعود ١٩٩٠.

هانس كارل أرتمان :

ولد في عام ١٩٢١ في ڤيينا، ونشأ في برايتنزيه من ضواحي ڤيينا؛ جند في عام ١٩٤٠ في الجيش الألماني؛ بعد عام ١٩٤٥ علم نفسه بنفسه اللغويات المقارنة؛ كون «جماعة

ڤيينا » في عام ١٩٥٣؛ أقام في بلاد أوروبية مختلفة أديباً ومترجماً؛ واستقر منذ عام ١٩٧٢ في زلتسبورج.

من أعماله: قصائد من برايتنزيه ١٩٥٨؛ خطاب أبيض بلون الزنبق، قصائد من ٢١ سنة ١٩٦٩؛ طوطم ضائع في الغابة (نثر) ١٩٧٠؛ أجرومية الورد (نثر) ١٩٧٩؛ الباحث عن الريح ١٩٨٤؛ عندما تأتي إلى پراتر (قصائد) ١٩٨٨.

فيلم ڤيديو : هـ.ك.أرتمان – البحث عن اليوم المنقضي. ١٩٩٣.

أدولف أوپل :

ولد في عام ١٩٣٥ في ڤيينا؛ درس علم النفس والأدب في جامعة ڤيينا وجامعة أيوا سيتي في الولايات المتحدة الأمريكية؛ نشر أعمال أدولف لوس وليوبولد فون زاخارمازوك؛ منذ عام ١٩٩٠ سلسلة أفلام «كلمة حية.. عمل باق» : أفلام ڤيديو عن چاني إبنر، ألبرت دراخ، ڤيكتور فرانكل، كورت كلينجر، كارّي هاوزر، إلزه تيلش، إريكا ميترر، إريش ڤولفجنج سكوارا، ألويس فوجل، هانس هاينتس هانل، زيمون ڤيزنتال، أوتو فون هابسبورج، هـ. ك. أرتمان الخ

من أعماله: ظمأ قبل النضال ١٩٥٥ و١٩٦٩؛ ڤيلهلم فوجت – نقيب كوپينيك ١٩٧٧؛ ثلاث مجموعات مختارات من الأدب النمساوي مترجمة إلى الإنجليزية ١٩٨٩ و١٩٩١ و١٩٩٤.

إلزه أيشينجر :

ولدت في عام ١٩٢١ في ڤيينا، وشبت في لينتس، ودرست بعد عام ١٩٤٥ الطب في ڤيينا، وعملت في عام ١٩٥٠ خبيرة في دار فيشر للنشر، وأسهمت في الوقت نفسه في

مدرسة الفنون العليا بمدينة أولم؛ تزوجت في عام ١٩٥٣ الكاتب الألماني جونتر أيش، وعاشت في ألمانيا حتى عام ١٩٨٨ حيث عادت إلى النمسا.

من أعمالها : الأمل الكبير ١٩٤٨؛ خطاب تحت المشنقة ١٩٥٢؛ المغلول ١٩٥٣؛ لا وقت ١٩٥٧؛ حيث أقيم ١٩٦٣؛ إليزا إليزا ١٩٦٥؛ أوكلاند ١٩٦٩؛ كلمات قبيحة ١٩٧٦؛ نصيحة ١٩٧٨؛ كلايست، طحالب، ديوك الدرّج ١٩٨٧.

إنجبورج باخمان :

ولدت في عام ١٩٢٦ في كلاجنفورت، وماتت في عام ١٩٧٣ في روما؛ درست بعد عام ١٩٤٥ الفلسفة في إنسبروك وجراتس وڤيينا؛ عاشت من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٧ في إيطاليا؛ في عام ١٩٧٩ ألقت محاضرات عن فن الشعر في جامعة فرنكفورت ماين؛ أقامت من عام ١٩٦٣ إلى عام ١٩٦٥ في برلين؛ ثم انتقلت إلى الحياة في روما في عام ١٩٦٤ وظلت تقيم هناك حتى توفيت؛ في عام ١٩٦٤ زارت مصر ورافقها أدولف أوپل في هذه الرحلة.

من أعمالها : نداء الدب الأكبر ١٩٥٦؛ الوقت المؤجل ١٩٥٧؛ العام الثلاثون ١٩٦١؛ مالينا ١٩٧١؛ تزامن ١٩٧٢؛ الأعمال المجمعة في ٤ مجلدات ١٩٧٨؛ الحالة فرانتسا، تأبين فاني جولدمان ١٩٧٩؛ طمع ١٩٨٢؛ الأعمال القصصية الكاملة ١٩٨٨.

توماس برنهارد :

ولد في عام ١٩٣١ في هيرلين بهولندة وتوفي في عام ١٩٨٩ في جموندن بالنمسا؛ درس الموسيقى في ڤيينا وزالتسبورج وعمل في الوقت نفسه مندوباً صحفياً في المحاكم وأمين مكتبة؛ عاش منذ عام ١٩٦٨ في منزل ريفي تحيط به الحقول في جموندن. زار مصر.

من أعماله : صقيع ١٩٦٣؛ أمراس ١٩٦٥؛ ذهول ١٩٦٧؛ عند حدود الشجر ١٩٦٩؛ مصنع الجير.١٩٧؛ حفل من أجل بوريس ١٩٧٠؛ السبب ١٩٧٥؛ تصحيح ١٩٧٥؛ القبو ١٩٧٦؛ مقلد الأصوات ١٩٧٨؛ ابن اخي ڤيتجنشتاين ١٩٨٢؛ مسرحيات ١٩٨٣؛ قطع الشجر ١٩٨٤؛ أساتذة قدامي ١٩٨٥؛ إطفاء ١٩٨٦؛ قصص ١٩٨٨؛ ساحة الأبطال ١٩٨٨؛ على القمة ١٩٨٩.

كريستينه بوسنا :

ولدت في عام ١٩١٥ في ڤيينا وتوفيت في عام ١٩٨٧ في ڤيينا أيضاً؛ درست ابتداء من عام ١٩٣٣ الآداب الألمانية والآداب الإنجليزية في جامعة ڤيينا؛ في عام ١٩٣٧ قطعت دراستها لأسباب مالية؛ عملت منذ عام ١٩٥٠ أمينة مكتبة.

من أعمالها : شجرة المطر ١٩٥١؛ مصباح ودلفين ١٩٥٥؛ شونة الطيور ١٩٥٨؛ طاحونة النجوم ١٩٥٩؛ في الطريق إلى نار قديمة ١٩٦٥؛ حدائق مالحة ١٩٧٥؛ عندما ترسم رمزاً للحب ١٩٨١؛ وسط الفَنَائية ١٩٨٥؛ ملَك المطر ١٩٨٨؛ السماء في شجرة الكستنة ١٩٨٩.

سيلڤيا ترويدل :

ولدت في عام ١٩٥٩ في كريمس بالنمسا، وتقيم منذ ١٩٧٧ في ڤيينا؛ درست العلوم السياسية والآداب اليابانية؛ تعمل ناقدة في دار للنشر؛ نشرت العديد من الكتب المجمعة التي تتناول موضوعات المرأة.

من أعمالها : أحذية خيّالة لم تنضج تماماً. قصص حب ١٩٩٠؛ تسخين في توازن عارم . قصائد ١٩٩٢.

پاول تسيلان :

ولد في عام ١٩٢٠ في تشيرنوڤيتس في برموڤينا؛ وتوفي قي عام ١٩٧٠ في باريس منتحراً؛ درس الطب؛ في أثناء الحرب العالمية الثانية اعتقل وزج به في معتقل العمل الإجباري الألماني؛ في عام ١٩٤٥ انتقل للإقامة في بوخارست وعمل مترجماً؛ في عام ١٩٤٧ انتقل للإقامة في ڤيينا ونشر أعماله الأولى في مجلة پلان Plan؛ في عام ١٩٤٨ أقام بصفة دائمة في باريس حيث عمل أستاذاً في مدرسة المعلمين العليا التابعة لجامعة باريس.

من أعماله: تراب من قوارير الجثث المحروقة ١٩٤٨؛ خشخاش وذاكرة ١٩٥٢ و ١٩٧٤؛ حاجز اللغة ١٩٥٩؛ وردة لاأحد ١٩٦٣؛ تحول النفَس ١٩٦٧؛ إكراه النور ١٩٧٠؛ قصائد ١٩٧٦.

فرانتس تيودور تشوكور :

ولد في عام ١٨٨٥ في ڤيينا، وتوفي في عام ١٩٦٩ في ڤيينا أيضاً؛ درس في ڤيينا الآداب الألمانية وتاريخ الفن؛ في عام ١٩٠٥ عُرضت في بودابست لأول مرة مسرحية من تأليفه؛ في سنوات الحرب العالمية الأولى عمل في الأرشيف الحربي؛ من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٢٩ عمل مخرجاً ومؤلفاً مسرحياً في ڤيينا؛ في عام ١٩٣٨ هاجر من النمسا إلى پولنده ثم رومانيا ثم يوغوسلافيا ثم إيطاليا؛ وفي عام ١٩٤٦ عاد إلى ڤيينا وظل من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٦٩، عام وفاته، رئيساً لنادي القلم النمساوي.

من أعماله : الشارع الأحمر ١٩١٨؛ جمعية حقوق الإنسان ١٩٣٠؛ جنرال في خدمة الرب ١٩٣٨؛ مدني في حرب البلقان ١٩٤٦؛ ثلاثية أوروبية ١٩٥٢؛ أوليمپ وجلجلة ١٩٥٤؛ مفتاح الهاوية ١٩٥٥؛ في شوارع غريبة ١٩٥٥؛ صيحة الديك الثاني ١٩٦٣؛ قليل من التراب. قصص من خمسين سنة. ١٩٦٥؛ شاهد على العصر ١٩٦٥؛ اسكندر ١٩٦٩؛ لم يصل إلى البر حتى اليوم. خطابات وقصائد من المنفى ١٩٩٣.

فيلم ڤيديو : ف. ت. شوكور.. بعث الكلمات ١٩٧٨.

إلزة تيلش :

ولدت في عام ١٩٢٩ في أوشپيتس جنوبي موراڤيا؛ في عام ١٩٤٥ فرت إلى النمسا في أعقاب تراجع الجبهة ؛ في عام ١٩٤٦ انتقلت للإقامة في ڤيينا ودرست الإعلام والآداب الألمانية، وعملت إلى جانب الدراسة موظفة صغيرة في مكتب، وأعطت دروساً خصوصية للتلاميذ واشتغلت بأعمال بسيطة مختلفة لتكسب حياتها؛ كرست نشاطها للأدب منذ عام ١٩٦٤؛ تقيم في ڤيينا. زارت مصر في عام....

من أعمالها : في حديقة برتقالي؛ دعاء القمر ١٩٧٠؛ فيلٌ في شارعنا. قصص ساخرة ١٩٧٧؛ ذكريات مع أشجار ١٩٧٩؛ هرم الأجداد. رواية ١٩٨٠ و١٩٨٨؛ البحث عن الوطن ١٩٨٢ و ١٩٨٨؛ شاطيء غريب ١٩٨٢؛ سوليتير. قصص ١٩٨٧؛ ثمار الدموع ١٩٨٨؛ تحطيم الصور. رحلة لاعاطفية في ربوع بوهيميا وموراڤيا ١٩٩١؛

فيلم ڤيديو : إلزه تيلش - تسجيل لما كان وكيف كان ١٩٩١.

ألبرت دراخ :

ولد في عام ١٩٠٢ في ڤيينا، ودرس الحقوق في ڤيينا؛ في عام ١٩١٩ نشر أول كتاب له وكان ديوان شعر؛ وعمل محامياً في مودلينج قرب ڤيينا حتى عام ١٩٣٣؛ هاجر إلى جنوب فرنسا حيث عمل مترجماً في خدمة المقاومة الفرنسية

كما عمل معلماً لفنون التزحلق على الجليد؛ وفي عام ١٩٤٧ عاد إلى النمسا وفتح مكتب المحاماة من جديد.

من أعماله: الماركيز دي صاد ١٩٢٩؛ المحضر الكبير ضد تسڤتشكنباوم ١٩٦٤ و١٩٨٩؛ لعبة المعلم زيبنتوت ١٩٦٥؛ المحاضر الصغيرة وكتاب المداعبة ١٩٦٥؛ رحلة غير عاطفية ١٩٦٦ و ١٩٨٨؛ العصر الآن عصر انتقال ١٩٦٨ و١٩٩٠؛ اختبارات على البنات ١٩٧١؛

حادث ١٩٧٢؛ في مسألة دي صاد، مقال ١٩٩٧٤؛ نعم ولا ١٩٩٢؛ المواساة - عن جذذات من يوميات ١٩٩٣.

فيلم ڤيديو : ألبرت دراخ يسجل في المحضر ١٩٩٠

هايمينتو فون دودرر :

ولد في عام ١٨٩٦ في ڤايدلينجاو قرب ڤيينا وتوفي في عام ١٩٦٦ في ڤيينا أيضاً؛ عمل ضابطاً في الحرب العالمية الأولى، ووقع في الأسر في سيبريا ؛ في عام ١٩٢٠ بدأدراسة التاريخ في جامعة ڤيينا؛ وفي عام ١٩٢٣ نشر أول كتاب له وكان ديوان شعر؛ وفي الحرب العالمية الثانية جند مرة أخرى وضم في هذه المرة إلى السلاح الجوي الألماني؛ فلما انتهت الحرب عاش للأدب وأقام في ڤيينا وفي لاندسهوت في باڤاريا بألمانيا.

من أعماله : دَرَج شترودلهوف ١٩٥١؛ الشياطين ١٩٥٦؛ الميرڤنجيون أو الأسرة الشاملة ١٩٦٢؛ الرواية رقم ٧، ١٩٦٣/١٩٦٧؛ يوميات ١٩٧٦؛ تعليقات ١٩٥٧-١٩٦٦، ١٩٨٦.

ميلو دور :

ولد في عام ١٩٢٣ في بودابست، ونشأ في البانات وبلغراد؛ شارك في حركة مقاومة الألمان في أثناء الحرب العالمية الثانية؛ قبض عليه في عام ١٩٤٢ ونقل إلى ڤيينا؛ في عام ١٩٤٤ اعتقل من جديد؛ بعد أن انتهت الحرب بقي في ڤيينا وبدأ يكتب باللغة الألمانية.

من أعماله : في الطريق ١٩٤٧؛ موتى في إجازة ١٩٥٢ و ١٩٩١؛ لا شيء إلا ذكريات ١٩٥٩؛ المدينة البيضاء ١٩٦٩؛ الصيف الماضي ١٩٧٢؛ رحلاتي إلى ڤيينا ١٩٨٢؛ بحثاً عن الوطن الأكبر. مقالات ١٩٨٨؛ على الباخرة الخطأ ١٩٨٨.

جرهارد روت :

ولد في عام ١٩٤٢ في جراتس؛ درس الطب؛ عمل في مركز الحساب في جراتس حتى عام ١٩٧٨ ثم عكف على الأدب وحده؛ يعيش في شتايرمارك وفي ڤيينا.

من أعماله : قصة حياة ألبرت أينشتاين ١٩٧٢؛ رحلة شتاء ١٩٧٨؛ صباح جديد ١٩٧٩؛ بشر صور دمى ١٩٧٩؛ المحيط الهادي ١٩٨٠؛ موت مألوف ١٩٨٤؛ على شفا الهاوية ١٩٨٦؛ قاضي التحقيق ١٩٨٨؛ قصة الظلام ١٩٩٠.

ألكسندر جيزه :

ولد في عام ١٩٢١ في ڤيينا؛ بدأ في عام ١٩٣٩ يدرس في جامعة ڤيينا الآداب الألمانية والآداب الإنجليزية والتاريخ؛ في عام ١٩٤١ جند في الجيش الألماني؛ من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٤٦ في معتقل الأسر الأمريكي؛ فلما عاد إلى النمسا استكمل دراسته؛ وعمل في القسم الثقافي باتحاد النقابات النمساوية وفي الإذاعة النمساوية؛ من عام ١٩٦٧ إلى عام ١٩٨٣ عمل رئيس إدارة الثقافة والعلوم في تليڤزيون ڤيينا؛ منذ عام ١٩٩٠ رئيس نادي القلم النمساوي.

من أعماله : بين الحشائش والقمر ١٩٦٢؛ كالغريب في وطنه. رواية حول ماركوس أوريليوس ١٩٧٥؛ مثل الثلوج في الصحراء. رواية حول عمر الخيام؛ تسامحوا فيما بينكم أيها الإخوة. رواية عن سيڤيرين ١٩٧٨؛ ليريدا أو الظل الطويل ١٩٩٠؛ الماسونيون ١٩٩١؛ نور الحرية ١٩٩٣.

ماريانه جروبر :

ولدت في عام ١٩٤٤ في ڤيينا ونشأت في بورجنلاند؛ ودرست في جامعة ڤيينا الطب وعلم النفس حيث تتلمذت على يد ڤيكتور فرانكل، ودرست البيانو؛ عكفت على الكتابة منذ ١٩٨٠، تقيم في ڤيينا.

من أعمالها : الكرة الزجاجية ١٩٨٠؛ محاضر الخوف ١٩٨٤؛ محطة في الطريق ١٩٨٨.

ألبرت پاريس جوترسلوه :

ولد في عام ١٨٨٧ في ڤيينا وتوفي في عام ١٩٧٣ في بادن قرب ڤيينا؛ كان رساماً وأديباً، وكان في الرسم تلميذاً للرسام جوستاف كليمت؛ من عام ١٩٠٧ عمل في برلين ممثلاً ومخرجاً ورساماً مسرحياً؛ جند في الحرب العالمية الأولى؛ من عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٣٨ عمل أستاذاً في المدرسة العليا للفنون التطبيقية في ڤيينا؛ بعد ضم النمسا إلى ألمانيا في عام ١٩٣٨ فصل من عمله واعتبر من بين «الفنانين المنحطين»؛ في أثناء الحرب العالمية الثانية جند للعمل الإجباري في صناعة التسليح الألمانية؛ بعد عام ١٩٤٥ عمل أستاذاً في أكاديمية الفنون في ڤيينا.

من أعماله : الحمقاء الراقصة ١٩١١؛ الكاذب بين المواطنين ١٩٢٢؛ شخصية خرافية ١٩٤٦؛ أمثولات الحب ١٩٤٧؛ موسيقى من أجل سيرة حياة ١٩٥٧؛ شمس وقمر ١٩٦٢؛ هيا بنا نصنع الإنسان ١٩٦٢؛ أمثولة الصداقة ١٩٦٩؛ جنات الحب ١٩٧٢؛ رسائل إلى ميلينا ١٩٨٠.

چورچ سايكو :

ولد في عام ١٨٩٢ في زيشتادل شمالي بوهيميا، وتوفي في عام ١٩٦٢ في ريكاڤينكل قرب ڤيينا؛ درس علم الآثار وتاريخ الفن والفلسفة وعلم النفس في ڤيينا؛ عمل في العشرينيات ممثلاً ومخرجاً ومترجماً؛ نشر مقالات عن الفن المعاصر في صحف إنجليزية متخصصة حتى عام ١٩٣٨؛ بعد انتهاء الحرب عمل رئيساً لمتحف الجرافيك ألبرتينا في ڤيينا؛ كرس نفسه للكتابة منذ عام ١٩٥٠، وظل يقيم في ڤيينا حتى وفاته.

من أعماله : على الطوف، رواية ١٩٤٨؛ الرجل في السُّمَار، رواية ١٩٥٥؛ زرافة تحت النخيل ١٩٦٢؛ كراسة النذور ١٩٦٢؛ قصص ١٩٧٢؛ الأعمال الكاملة في خمسة مجلدات ١٩٨٧- ١٩٩٢

إريش ڤولفجنج سكوارا :

ولد في عام ١٩٤٨ في زالتسبورج؛ ودرس في باريس والولايات المتحدة الأمريكية تاريخ الموسيقى والآداب الألمانية والأداب الرومانية؛ عمل ناقداً موسيقياً ومرشداً سياحياً ومحاضراً في الجامعة؛ يعيش من عام ١٩٧٧ في الولايات المتحدة الأمريكية يمارس الكتابة والترجمة؛ شغل وظيفة أستاذ الأدب الألماني والأدب المقارن في سان دييجو.

من أعماله: في نار ضحتك. قصائد ١٩٧١؛ طاعون في سيينا، رواية ١٩٧٦ و١٩٨١؛ سفن شراعية سوداء ١٩٧٩؛ مَلك الموت وقصص أخرى ١٩٨١؛ فردوس الإفلاس ١٩٨٥؛ تجربة الوداع. قصائد ١٩٨٧؛ جليد على الجسر ١٩٩١؛ تريستان أيلاند ٢٩٩٢.

فيلم ڤيديو : إريش ڤولفجانج سكوارا.. ضد زمانٍ يقاس ١٩٩٣.

جيرالد سيسكوفيتش :

ولد في عام ١٩٣٨ في جراتس ودرس علوم المسرح رالآداب الألمانية في ڤيينا وباريس ووشنطن؛ في عام ١٩٦٢ عمل مخرجاً وكاتباً مسرحياً في ألمانيا وفي جراتس؛ في عام ١٩٧٢ التحق بالتليڤزيون النمساوي رئيساً لقسم الكتابة المسرحية، ثم رأس بعد ذلك قسم التمثيليات التليڤزيونية والموسيقى.

من أعماله : الرفيق بروجمان، القائد كاريجان.. مسرحيات ١٩٦٩؛ تايا، رواية ١٩٨١؛ تغيير الجوانب ١٩٨٢؛ ثلوج العنصرة ١٨٨٣؛ فورلاني أو رقة الخيانة ١٩٨٥؛ ونتيجام أو فن النسيان ١٩٨٨؛ مسرحيات ١٩٩٠؛ على الناحية الأخرى ١٩٩٠؛ موريتس وناتاليه أو الخوف من الحنين ١٩٩١؛ زمن الحب الطويل ١٩٩٢؛ الحب كلاماً مطبوعاً، أو سادة شارع السادة ١٩٩٣.

يوليان (قبل التحول : يوتا) شوتينج :

ولد (ولدت) في عام ١٩٣٧ في أمشتيتين بولاية نيدرأستررايش؛ درس (درست) التصوير الفوتوغرافي؛ ثم الآداب الألمانية والتاريخ في جامعة ڤيينا؛ عمل (عملت) بالتدريس في المدارس المتوسطة؛ منذ عام ١٩٨٩، بعد العلاج والتحول من امرأة إلى رجل تغير الاسم رسمياً من يوتا إلى يوليان.

من أعماله : في لغة الجُزُر ١٩٧٣؛ شجرة في أُو ١٩٧٣؛ تمرينات غطس ١٩٧٤؛ جريمة قتل ١٩٧٥؛ بقاع خالية في الغابة ١٩٧٦؛ صباحاً قبل الرحيل ١٩٧٨؛ الأب ١٩٨٠؛ الجاموس. قصص من الأقاليم ١٩٨١؛ قصائد حب ١٩٨٢؛ رواية غرامية ١٩٨٢؛ قلب الأسد ١٩٨٥؛ حمى السفر ١٩٨٨.

جرهارد فريتش :

ولد في عام ١٩٢٤ في ڤيينا وتوفي منتحراً في ڤيينا أيضاً في عام ١٩٦٩؛ جند في أثناء الحرب العالمية الثانية في سلاح الطيران الألماني؛ ووقع في الأسر؛ بعد الحرب درس في جامعة ڤيينا التاريخ والآداب الألمانية؛ من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٥٨ عمل أمين مكتبة؛ من عام ١٩٥٩ قصر نشاطه على الكتابة؛ من عام ١٩٦١ إلى عام ١٩٦٩ تولى تحرير مجلة «ليترتور أُند كريتيك= أدب ونقد» و«ڤورت إن در تسايت = كلمة في العصر».

من أعماله : بين كيركينس وباري ١٩٥٢؛ طين وشكل ١٩٥٤؛ طحالب على الأحجار ١٩٥٦؛ جرة الأرواح ١٩٥٨؛ كرنڤال ١٩٦٧؛ موسيقى القطط ١٩٧٤؛ قصائد مجمعة ١٩٧٨.

أنطون فوكس :

ولد في عام ١٩٢٠ في ڤيينا؛ وجند في الحرب العالمية الثانية؛ بعد عام ١٩٤٥ درس في جامعة ڤيينا الطب والفلسفة والآداب الألمانية؛ عمل من عام ١٩٥٧ إلى عام ١٩٧٢ موظفاً لدي هيئة الطاقة الذرية الدولية؛ قصر نشاطه على الكتابة وأقام منذ عام ١٩٧٢ في كلاجنفورت في إقليم كيرنتن بالنمسا.

من أعماله : هارب من الميدان ١٩٥٨ و ١٩٨٧؛ من الصباح إلى الليل ١٩٦٨؛ تقارير خيالية ١٩٧٤؛ رسالة في زجاجة ١٩٨٥.

إيلياس كانيتي :

ولد في عام ١٩٠٥ في روستشوك في بُلغاريا؛ ونشأ في مانشتر وڤيينا وزيوريخ وفرنكفورت ماين؛ من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٩ درس الكيمياء في ڤيينا؛ في عام ١٩٣٠

بدأ كتابة رواية «الإبهار»؛ ترجم إلى الألمانية ثلاثة كتب من أعمال إپتون سانكلير؛ في عام ١٩٣٨ هاجر إلى انجلترة وأقام في لندن؛ في عام ١٩٨١ حصل على جائزة نوبل للأدب .

من أعماله : الإبهار١٩٥٣؛ الجماهير والسلطة ١٩٦٠؛ مسرحيات ١٩٦٤؛ إقليم الإنسان ١٩٧٣؛ اللسان الناجي ١٩٧٧؛ قلب الساعة الخفي ١٩٧٧؛ مشاعل في الأذن ١٩٨٠؛ لعبة العيون ١٩٨٥.

باربارا فريشموت :

ولدت في عام ١٩٤١ في أتأوسزيه؛ درست الاستشراق واللغتين التركية والمجرية في جامعتي جراتس وڤيينا؛ أديبة ومترجمة تعيش من قلمها؛ تعيش في ڤيينا وأتأوسزيه.

من أعمالها : مدرسة الدير ١٩٦٨؛ كلام أولاد لا شأن للأخلاق به ١٩٦٩؛ أيام وأعوام ١٩٧١؛ عودة إلى نقطة البداية المؤقتة ١٩٧٣؛ تواري الظل في الشمس ١٩٧٣؛ قبض الريح ١٩٧٤؛ ضلال صوفي زيلبر ١٩٧٦؛ سيدة الحيوانات ١٩٨٦؛ حكايات قاتلة وقصص أخرى ١٩٨٩؛ عفاريت الماء ١٩٩١؛ حلم الأدب. أدب الحلم ١٩٩١؛ لا عليك أو المسار الذي سلكته الدنيا ١٩٩٣.

ألُويس فوجل :

ولد في عام ١٩٢٢ في ڤيينا، وتعلم ميكانيكا الآلات الدقيقة؛ جند في الحرب العالمية الثانية وعمل في وحدة هندسية في أكراينْا؛ في عام ١٩٤٥ عاد إلى الوطن بعد التسريح من الأسر؛ بدأ يدرس فن الرسم؛ اشتغل إلى جانب الدراسة في تنسيق الزهور وعمل حيناً بواباً في فندق، ومندوباً تجارياً وناقداً في دار للنشر؛ أول عمل له ظهر في مجلة «نويه ڤيجه = طرق جديدة»؛ قصر نشاطه على الكتابة منذ عام ١٩٦٠؛ وأقام في ڤيينا حتى عام ١٩٧٦ فانتقل إلى پولكاو.

من أعماله : الوجه الآخر. رواية ١٩٥٩؛ في غناء الجنادب. قصائد ١٩٦٤؛ سنة ويوم يوهانكا. رواية ١٩٦٤؛ تقرير مبدئي عن نتائج الحفريات. ثلاثة نصوص ١٩٧٠؛ العلم في العين ١٩٧٦؛ احتلال ١٩٧٩؛ إظلام شامل ١٩٨٠؛ أكلة سمك. قصص ١٩٨٢؛ تأملات عند جبل مانهارتسبرج. قصائد ١٩٨٥؛ آثار تآكل ١٩٨٧ / في تراب الزمن. محاكاة شعرية لرسوم مصرية قديمة من عصر الأسرة الثامنة عشرة حول عام ١٤٠٠ قبل الميلاد ١٩٩٠؛ لوح ثلاثي من الشمال الشرقي ١٩٩١؛ البيت الأزرق. رواية ١٩٩٢؛ محطات آخر الخط. قصائد ١٩٩٣.

فيلم ڤيديو : ألويس فوجل.. الإنصات إلى الليل ١٩٩٢.

هانيلوره ڤالينتشاك :

ولدت في عام١٩٢٩ في ولاية شتايرمارك، ودرست الفزياء في جامعة جراتس؛ من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٦٢ عملت في معمل متخصص في بحوث المعادن يتبع قطاع صناعة الصلب في كاپفنبرج؛ مستشارة في جهاز براءات الاختراع في ڤيينا؛ كرست نشاطها للأدب منذ عام ١٩٧٥؛ تقيم في ڤيينا.

من أعمالها : غدا نعرف. قصص ١٩٦١؛ مغارات سيدنا نوح. رواية ١٩٦١؛ حديقة غريبة ١٩٦٤؛ هذه الحياة فقط. قصائد ١٩٦٦. ملجأ وراء الزمان ١٩٦٧؛ ساحة أمام الواقع ١٩٧٢؛ اليوميات السحرية ١٩٨١.

كورت كلينجر :

ولد في عام١٩٢٨ في لينتس؛ جند وهو في السادسة عشر للعمل الإجباري وهرب منه عندما اقتربت الحرب من نهايتها؛ في عام ١٩٥٣ انتقل للإقامة في ڤيينا ودرس علوم المسرح

والآداب الألمانية والفلسفة؛ عمل كاتباً مسرحياً في المسارح الكبرى في البلاد الناطقة بالألمانية؛ من عام ١٩٧٨ إلى عام ١٩٩٣ تولى تحرير مجلة «ليترتور أُند كريتيك = أدب ونقد» ونائب رئيس «الجمعية النمساوية للأدب».

من أعماله : انسجام من دم. قصائد ١٩٥١؛ على أوديسيوس أن يرحل من جديد . مسرحية ١٩٥٤؛ خيط القدَر ١٩٦٠؛ الحائط الرابع. قصص ١٩٦٧؛ تخطيط حصن ١٩٧٠؛ مشاهد، ٥ مسرحيات ١٩٧١؛ رؤس السباع ١٩٧٧؛ على سور الليميس ١٩٨٠؛ المسرح والمحرمات ١٩٨٤؛ قفزة زمن ١٩٨٧؛ ذكريات عن الحدائق ١٩٨٩.

فيلم ڤيديو : كورت كلينجر – ضيف على الأرض ١٩٩١.

كريستينه لاڤانت :

ولدت في عام ١٩١٥ في جروس إدلنج بولاية كيرنتن، وتوفيت في عام ١٩٧٣ في ڤولسبرج بالولاية نفسها؛ كانت الطفل التاسع بين أبناء عامل فقير في المناجم، ونشأت في ظروف ضيقة صعبة، واضطرت إلى العمل لتكسب حياتها.

من أعمالها : الطفل ١٩٤٩؛ الجرة الصغيرة ١٩٤٩؛ باروشا، ثلاث قصص ١٩٥٢؛ صحن الشحاذ ١٩٥٦؛ مغزلة في القمر ١٩٥٩؛ صيحة الطاووس ١٩٦٢؛ نِل. أربع قصص ١٩٦٩؛ الفن من حيث هو فن حياة مشوهة ١٩٧٨؛ طائر الشمس ١٩٨٢.

ألكسندر ليرنيت – هولينيا :

ولد في عام ١٨٩٧ في ڤيينا وتوفي في عام ١٩٧٦ في ڤيينا أيضاً؛ خدم ضابطاً في الجيش في الحربين العالميتين الأولى والثانية؛ في عام ١٩٢٠ كرس نشاطه للكتابة في ڤيينا وفي سانت ڤولفجنج؛ من عام ١٩٦٩ إلى عام ١٩٧٢ رئيس نادي القلم النمساوي.

من أعماله : رعوية ١٩٢١؛ لحن كانزوني ١٩٢٣؛ مغامرات سيد صغير في پولنده ١٩٣١؛ الراية ١٩٣٤؛ القطيع الذهبي ١٩٣٥؛ المريخ في الجدي ١٩٤١؛ الجزر تحت الريح ١٩٥٢؛ البارون لونا ١٩٥٥؛ مايرلينج. قصص ١٩٦٠؛ ثلاث روايات عن خيالة ١٩٦٣؛ الساحرات ١٩٦٧؛ چو والسير الراكب على الحصان ١٩٧٢؛ الرجل في القبعة ١٩٧٥؛ الأعمال الشعرية الكاملة ١٩٨٩.

پيتر مارجنتر :

ولد في عام١٩٣٤ في ڤيينا؛ ونشأ في نيدرأوستررايش وفورآرلبرج؛ درس الحقوق والعلوم السياسية في ڤيينا؛ وعمل رئيساً لمجموعة صناعية؛ انتقل في عام ١٩٧٢ للعمل في وزارة الخارجية فكان مستشاراً ثقافياً في أنقرة، ثم في لندن.

من أعماله : البارون والأسماك ١٩٦٦؛ العم المتوفى ١٩٦٧؛ وليمة الجثث ١٩٦٩؛ جامع الجوامع ١٩٧٢؛ پيم ١٩٧٣؛ أجمل المناظر ١٩٧٨؛ السفراء الثلاثة ١٩٨٠؛ النصيب المنقذ ١٩٨٣؛ الأضداد تقف على رأسها ١٩٨٥.

فريدريكه مايروكر :

ولدت في عام ١٩٢٤ في ڤيينا ونشأت في داينتسيندورف ونيدرأوستررايش؛ وعملت من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٦٩ في مدارس ثانوية في ڤيينا؛ في عام ١٩٤٦ نشرت أولى قصائدها في مجلة «پلان»؛ كرست نفسها للكتابة منذ ١٩٦٩ وتقيم في ڤيينا.

من أعمالها : لاريفاري ١٩٥٦؛ موت على يد ربات الفن ١٩٦٦؛ قاموس الأحلام ١٩٦٨؛ الشبح فان ١٩٧١؛ في برق بطيء ١٩٧٤؛ الأحمر تحت ١٩٧٧؛ مدينة القديسين ١٩٤٤-١٩٧٨، ١٩٧٩؛ عبارات الوداع ١٩٨٠؛ انفصال ١٩٨١؛ تصبح على خير، صباح الخير. قصائد ١٩٧٨-١٩٨١، ١٩٨٢؛ رحلة عبر الليل ١٩٨٤؛ سعادة شتوية. قصائد ١٩٨٢-١٩٨٥؛ قلبي حجرتي اسمي. رواية ١٩٨٨؛ نثر ١٩٨٩؛ السن المهووس ١٩٩٣.

إريكا ميتيرر :

ولدت في عام ١٩٠٦ في ڤيينا؛ في عام ١٩٢٣ تخصصت في الرعاية الاجتماعية؛ من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٦ رسائل متبادلة مع الشاعر راينر ماريكا ريلكه؛ عملت في العشرينيات في الرعاية الاجتماعية في منطقة التيرول؛ وكرست حياتها للأدب منذ عام ١٩٣٠؛ تقيم في ڤيينا.

من أعمالها : شكرالحياة. قصائد ١٩٣٠؛ شمس الأعالي ١٩٣٣؛ أغنية الجوال١٩٣٥؛ أمير الدنيا، رواية ١٩٤٠ و١٩٨٨؛ لقاء في الجنوب ١٩٤١؛ نحن وحدنا. رواية ١٩٤٥؛ الحقيقة العارية ١٩٥١؛ ماء الحياة ١٩٥٣؛ قصائد مجمعة ١٩٥٦؛ مركز التبادل ١٩٦٨؛ إيماءة ١٩٧٠؛ تكفير عن ذنب قابيل ١٩٧٤؛ كل ألعابنا. رواية ١٩٧٧؛ الصليب المستور ١٩٨٥.

فيلم ڤيديو : إريكا ميترر.. شكر الحياة ١٩٩١.

روبرت ميناسه :

ولد في عام ١٩٥٤ في ڤيينا؛ درس الآداب الألمانية والفلسفة والعلوم السياسية في ڤيينا وزالتسبورج وميسينا؛ عمل من عام ١٩٨١ إلى ١٩٨٨ بالتدريس في جامعة ساو پاولو بالبرازيل؛ اقتصر منذ عام ١٩٨٨ على الكتابة، وأقام في ڤيينا وساو پاولو.

من أعماله : يقين حسّي. رواية ١٩٨٨؛ الاستطيقا القائمة على المشاركة الاجتماعية. مقالات عن الفكر النمساوي ١٩٩٠؛ أزمان سعيدة، عالم متكسر. رواية ١٩٩١؛ بلد بغير صفات. مقال عن الهوية النمساوية ١٩٩٢؛ فينومينولوجيا التجرد من الروح. تاريخ المعرفة الضائعة ١٩٩٤.

باربارا نويڤيرت :

ولدت في إيجنبورج نيدرأوستررايش في عام ١٩٥٨؛ قضت طفولتها في منطقة ڤالدفيرتل الغنية بغاباتها شمالي نهر الدانوب؛ تقيم منذ عام ١٩٨٨ في ڤيينا؛ درست علم الأجناس في جامعة ڤيينا؛ تتولى منذ عام ١٩٨٨ نشر سلسلة الكتب العلمية «سلسلة بحوث المرأة»

من أعمالها : في حدائق الليل. قصص خرافية ١٩٩٠؛ نهر الحياة المعتم ١٩٩٢.

يؤاخيم جونتر هامر :

ولد في عام ١٩٥٠ في جراتس، ودرس علوم الأحياء والفزياء والكيمياء وتعلم الغناء إلى جانب الدراسة الجامعية؛ في عام ١٩٦٨ حصل على بطولة الشباب في رمي القرص؛رحلات إلى جنوب أمريكا والشرق؛ يعمل حالياً مدرساً في جراتس.

من أعماله : كرنڤال ١٩٧٩؛ نافخو أبواق اللورة ١٩٨٠؛ إدراك الحقيقة ١٩٨٦؛ قصائد عن تحول ظهر مظلم ١٩٨٧؛ من بيت الكلمات ١٩٨٧؛ أشنليب ١٩٨٩.

پيتر هاندكه :

ولد في عام ١٩٤٢ في جريفين بكيرنتن ؛ من عام ١٩٦١ إلى عام ١٩٦٥ درس الحقوق في جامعة جراتس؛ بدأ ينشر في مجلة «مانوسكريبته» الأدبية؛ في عام ١٩٦٦ حقق شهرة عالمية بقطعة تمثيلية عنوانها «سب الجمهور»؛ انتقل إلى الإقامة في ألمانيا، ثي باريس، ثم زالتسبورج ثم باريس حيث يكرس نشاطه للكتابة.

من أعماله : الزنابير ١٩٦٦؛ تحية عضو مجلس الإدارة ١٩٦٧؛ كاسپار ١٩٦٨؛ خوف حارس المرمى من ضربة الأحد عشر متراً ١٩٧٠؛ الخطاب القصير للوداع الطويل ١٩٧٢؛

تعاسة لا أمل في أسوأ منها ١٩٧٢؛ قطع تمثيلية ١، ١٩٧٢؛ قطع تمثيلية ٢، ١٩٧٣؛ حركة خاطئة ١٩٧٥؛ المرأة العسراء ١٩٧٦؛ عودة بطيئة إلى الوطن ١٩٧٩؛ قصة للأطفال ١٩٨١؛ الإعادة ١٩٨٦؛ الغياب ١٩٨٧؛ قصائد ١٩٨٧؛ محاولة الكتابة عن التعب ١٩٨٩.

هانس هاينتس هانل :

ولد في عام ١٩٢٣ في أوبرندورف بولاية نيدرأوستررايش؛ درس الآداب الألمانية وعلوم المسرح في ڤيينا؛ وبدأ في عام ١٩٤٥ ينشر الشعر في مجلة «پلان »؛ فلما أتم دراسته في عام ١٩٤٨ عمل صحفياً، ثم ناقداً ورئيس قسم النقد في جريدة «أربايترتسايتونج» في ڤيينا.

من أعماله: أبواب مقفلة ١٩٥٦؛ ديمتريوس البيزنطي ١٩٧٢؛ هرب متلبساً ! ١٩٧٦؛ زها أنينجر ١٩٧٨؛ عمالقة بيزامبرج ١٩٧٩؛ القرى البائدة ١٩٨٠؛ سر آل ڤيللي ١٩٨٢؛ألا فابق ١٩٨٣؛ كلب شيكسپير ١٩٨٣؛ أدباء منسيون. مقالات ١٩٨٤؛ جدول الساحرات ١٩٩٣.

فيلم ڤيديو : هانس هاينتس هانل - هرب متلبساً ! ١٩٩٢.

كاري هاوزر :

ولد في عام ١٨٩٥ في ڤيينا وتوفي في عام ١٩٨٥ في ريكاڤينكل قرب ڤيينا؛ كان رساماً وأديباً؛ جند في الحرب العالمية الأولى ضابطاً في الجيش النمساوي؛ من عام ١٩١٩ قصر نشاطه على الرسم والكتابة وأقام في پاسّاو وڤيينا؛ هاجر إلى سويسرة وأقام هناك من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٢ لاجئاً سياسياً؛ في عام ١٩٤٧ عاد إلى ڤيينا.

من أعمـاله : ليلة الأخ دومينيكوس الكبيرة ١٩٢١؛ كتاب الليالي ١٩٢٠ و١٩٨١؛ كتاب المدينة ١٩٢١؛ كتاب الأحلام ١٩٢٢ و ١٩٧٦؛ بين أمس والغد ١٩٤٣ - ١٩٤٦ (لم ينشر)

فيلم ڤيديو : كاري هاوزر - أن تنهض دائماً من كل عثرة، تلك هي الحياة.

مارلين هاوسهوفر :

ولد في عام ١٩٢٠ في فراونشتاين بولاية أوبرأوستررايش، وتوفي في عام ١٩٧٠ في ڤيينا؛ نشأ في لينتس؛ جند في عام ١٩٣٩ وأرسلت للعمل الإجباري في بروسيا الشرقية؛ أقام منذ عام ١٩٤٧ في مدينة شتاير.

من أعماله : العام الخامس ١٩٥١؛ حفنة حياة ١٩٥٥؛ باب مغطي بورق الحائط ١٩٥٧؛ إننا نقتل شتيللا ١٩٥٨؛ الحائط ١٩٦٣؛ إخلاص فظيع ١٩٦٨؛ تحت السقف ١٩٦٩؛ لقاء الغريب. كجموعة قصص ١٩٨٥.

ڤولفجانج هرمـن :

ولد في عام ١٩٦١ في بريجنيتس، فورآرلبيرج؛ درس الفلسفة وحصل فيها على الدكتوراه؛ أقام فترات طويلة في صقلية وفي بلاد أخرى

بمنطقة البحر المتوسط ؛ يعيش حالياً في باريس.

من أعمـاله : الحياة الجميلة ١٩٨٨؛ الأسماء الظلال الأيام ١٩٩١؛ لون المدينة ١٩٩٢؛ باريس برلين نيويورك، تحورات ١٩٩٢؛ نوم في ثنايا المدينة ١٩٩٣.

جراتسبيللا هلاواني :

ولدت في عام ١٩٢١ في ڤيينا وبدأت تدرس فنون المسرح، ثم قطعت دراستها لتعمل في مجال المطاعم ؛ منذ عام ١٩٨٤ كرست نشاطها للكتابة؛ تقيم في ڤيينا والسويد؛ كتبت العديد من التمثيليات الإذاعية وترجمت الكثير من الكتب من السويدية.

من أعمالها : قصص النقطة الأخيرة ١٩٧٧؛ بوش ١٩٧٩؛ حكايات أرضية ١٩٨١؛ أرض تسير في مناكبها وهواء تطير فيه ١٩٨٩؛ رحلة الحدود ١٩٩٠.

إرنست ياندل :

ولد في عام ١٩٢٩ في ڤيينا ودرس الآداب الإنجليزية في جامعة ڤيينا؛ عمل منذ عام ١٩٤٩ مدرساً للغة الإنجليزية في المدارس المتوسطة؛ أستاذ زائر في انجلترة والولايات المتحدة الأمريكية؛ في عام ١٩٧٣ عضو مؤسس لجمعية الأدباء الجراتسية؛ جولات عديدة في النمسا والولايات المتحدة طالع فيها مختارات من أعماله وألقى محاضرات.

من أعماله : عيون أخرى ١٩٥٦؛ لاوت ولويزة ١٩٦٦؛ فقاعات كلام ١٩٦٨؛ الشجرة الصناعية ١٩٧٠؛ قبض ١٩٧٣؛ للجميع ١٩٧٤؛ فن الكتابة الجميل ١٩٧٦؛ تشغيل القبعة ١٩٧٨.

محتويات الكتاب

Inhaltsverzeichnis

Textnachweis

Ilse Aichinger, Spiegelgeschichte, in: Der Gefesselte. Erzählungen, (c) 1953, S. Fischer Verlag GmbH, Frankfurt am Main.

H. C. Artmann, mein herz; noch vier gedichte, auf eine klinge geschrieben; vater unser, aus: Literatur und Kritik, Nr. 38, Wien September 1969, (c) 1969 by H. C. Artmann.

Ingeborg Bachmann, Die ägyptische Finsternis, in: Der Fall Franza/Requiem für Fanny Goldmann, (c) R. Piper & Co. Verlag, München 1979.

Christine Busta, Unter den Nesseln, aus: Lampe und Delphin; Im Winter, Schneepsalm, An den Wänden unserer heimlichen Kirche, Zugvögel, aus: Wenn du das Wappen der Liebe malst; Welch ein Schlaf in der Wüste, aus: Der Himmel im Kastanienbaum. (c) 1955, 1981, 1989 by Otto Müller Verlag, Salzburg.

Thomas Bernhard, An der Baumgrenze, aus: An der Baumgrenze. Erzählungen, (c) 1969 by Residenz Verlag, Salzburg.

Elias Canetti, Der gute Vater, aus: Die Blendung, (c) 1969 by Carl Hanser Verlag, München.

Paul Celan: Ein Lied in der Wüste, Todesfuge, Halbe Nacht, In Ägypten, Nachts wenn das Pendel, Ins Nebelhorn, aus: Mohn und Gedächtnis, (c) 1974 by Deutsche Verlags-Anstalt, Stuttgart.

Franz Theodor Csokor, Jedes Herz hört nur sich, in: Ein paar Schaufeln Erde. Erzählungen aus fünf Jahrzehnten, (c) 1965 by Albert Langen Müller Verlag in der F.A. Herbig Verlagsbuchhandlung GmbH München.

Heimito von Doderer, 15. Juli 1927 - Das Feuer, aus: Die Dämonen, S. 1242-1249, (c) 1956 by Verlag C.H. Beck/Biederstein Verlag, München.

Milo Dor, 12. April 1945, aus: Tote auf Urlaub, S. 337-348, (c) 1991 by Otto Müller Verlag, Salzburg.

Albert Drach, aus: Das große Protokoll gegen Zwetschkenbaum, S. 87-93, (c) 1989 by Carl Hanser Verlag, München.

Jeannie Ebner, Märchen von der Unsterblichkeit, (c) 1993 by Jeannie Ebner.

Gerhard Fritsch, Ostermontag, aus: Fasching, (c) 1967 by Rowohlt Verlag, Reinbeck bei Hamburg. Mit Genehmigung von Barbara Fritsch.

Anton Fuchs, Km 8, aus: Flaschenpost. Erzählungen. (c) 1985 by Salzburger Edition, Salzburg.

Alexander Giese, Das Wirtshaus der Heiligen, aus: Wie Schnee in der Wüste, (c) 1976 by Paul Zsolnay Verlag, Wien/Darmstadt.

Marianne Gruber, Die Epidemie, in: Protokolle der Angst, (c) 1983 by Verlag Niederösterreichisches Pressehaus, St. Pölten/Wien. Mit Genehmigung von Marianne Gruber.

Albert Paris Gütersloh, Der Kaiser, aus: Eine sagenhafte Figur, (c) 1946 by Albert Paris Gütersloh.

Hans Heinz Hahnl, aus: Die verschollenen Dörfer, S. 100-107, (c) 1980 by Europa Verlag Ges.m.b.H. Wien. Mit Genehmigung von Hans Heinz Hahnl.

Joachim Gunter Hammer, Gedichte, (c) 1993 by Joachim Gunter Hammer...

Peter Handke, Die Hornissen, in: Begrüßung des Aufsichtsrats, Prosatexte, (c) 1967 by Residenz Verlag, Salzburg.

Carry Hauser, Eine halbe Sache, in: Die Presse, Wien, 3./4. Mai 1975, (c) by Heinz Hauser.

Marlen Haushofer, Die Wunde, in: Begegnung mit dem Fremden. Gesammelte Erzählungen, Band I. (c) 1985 by Claassen Verlag GmbH., Düsseldorf.

Wolfgang Hermann, Er, (c) 1993 by Wolfgang Hermann.

Graziella Hlawaty, Dünne Wände, in: Erdgeschichten, (c) 1981 by Leykam-Verlag, Graz.

Ernst Jandl, riese und berg, graues gedicht, staubfederchen, die meldung, leise unruhe, die unerwünschte, nach hause kommen, (c) by Luchterhand Literaturverlag, Frankfurt am Main. gegen abend, zwei erscheinungen, (c) 1993 by Ernst Jandl.

Kurt Klinger, Erinnerung an Gärten, in: Erinnerung an Gärten. Stationen und Reisen, (c) 1989 by Otto Müller Verlag, Salzburg.

Christine Lavant, Manchmal gelingt, Vater du gabst mir ein schwaches Gehör, aus: Die Bettlerschale; Ich will das Brot mit den Irren teilen, aus: Spindel im Mond; Kauf uns ein Körnchen Wirklichkeit, Drehe die Herzspindel weiter für mich, aus: Der Pfauenschrei. (c) 1956, 1959, 1962 by Otto Müller Verlag, Salzburg.

Alexander Lernet-Holenia, Mayerling, aus: Mayerling. Erzählungen, S. 89-99, (c) 1960 by Paul Zsolnay Verlag, Wien/Darmstadt.

Peter Marginter, Industrie und Glück, (c) by Peter Marginter.

Friederike Mayröcker, Manchmal bei irgendwelchen zufälligen Bewegungen, Dreizeiler am 21.2.1978, aus: Ausgewählte Gedichte; Menschenalter, aus: Gute Nacht guten Morgen; ein überaus schönes und blaues Manöver, Junimorgen am offenen Fenster, aus: Das Besessene Alter, (c) 1979, 1982, 1993 by Suhrkamp Verlag, Frankfurt am Main, eingeäscherter Frühling (c) 1993 by Friederike Mayröcker.

Robert Menasse, Lange nicht gesehen, (c) 1993 by Robert Menasse.

Erika Mitterer, Entsühnung des Kain, in: Entsühnung des Kain. Gedichte, (c) 1974 by Johannes Verlag, Einsiedeln; Vor der Tür, Untrennbar, in: Das verhüllte Kreuz, (c) 1985 by Verlag Niederösterreichisches Pressehaus, St. Pölten/Wien. Mit Genehmigung von Erika Mitterer.

Barbara Neuwirth, Nimm diese Rosen, Schöne, in: Dunkler Fluß des Lebens, (c) 1992 by Insel Verlag, Frankfurt am Main und Leipzig.

Adolf Opel, Wer an der goldenen Brücke das Wort noch weiß, (c) by Adolf Opel.

Gerhard Roth, Zwillinge, aus: Landläufiger Tod, S. 648-654, (c) 1984, S. Fischer Verlag, Frankfurt am Main.

George Saiko, Die Statue mit dem Gecko, in: Die Erzählungen, (c) 1988 by Residenz Verlag, Salzburg.

Julian (früher Jutta) Schutting, Cairo I, Cairo II, in: Liebesgedichte, (c) 1982 by Residenz Verlag, Salzburg. Mit Genehmigung von Julian Schutting.

Erich Wolfgang Skwara, Versuch einer Heimkehr, aus: Literatur und Kritik, Nr. 205/206, Wien, Juli/August 1986, (c) by Erich Wolfgang Skwara.

Gerald Szyszkowitz, 11. März 1938, aus: Puntigam oder die Kunst des Vergessens, S. 45/59, (c) 1988 by Paul Zsolnay Verlag, Wien/Darmstadt.

Ilse Tielsch, Eine Vorahnung, in: Ein Elefant in unserer Straße. Satirische Erzählungen, (c) 1977 by Verlag Styria, Graz/Wien/Köln.

Sylvia Treudl, die sonne, nächtelang, der letzte sommer, stierblütige kraft, rauchblutigroter mond, in: in wildem gleichmaß warmgelaufen, (c) 1992 by Sylvia Treudl, herbstpresse, Wien.

Hannelore Valencak, Meine Töchter Liane, (c) by Hannelore Valencak.

Alois Vogel, Laubgeäder, Immer wieder, Binde die Sandalen, Großes Laken, Dommel ruft, in: Im Zeitstaub. Nachdichtungen ägyptischer Fresken, 18. Dynastie um 1400 v. Chr., (c) 1990 by Verlag G. Grasl, Baden bei Wien.

ISBN 3 - 901321 - 02 - 0

Auflage/edition: 500

Bezug über Österreichisches Kulturinstitut Kairo
p.A. Bundesministerium für auswärtige Angelegenheiten
Ballhausplatz 2, 1014 Wien

available at the Austrian Cultural Institute Cairo
c/o Federal Ministry for Foreign Affairs
Ballhausplatz 2, A - 1014 Vienna, Austria

Title - page: Drawing by Austrian Artist Marino Valdez

Druck: Imprimerie Raad, 23 El Kobela (El Gomhourea), Kairo
printed by Imprimerie Raad, 23 El Kobela
(El Gomhourea), Cairo

Schriften des Österreichischen Kulturinstitutes

Kairo

Bisher erschienen:

Bd.1 Gertrud Thausing - Traudl Kerszt-Kratschann
Das Große Ägyptische Totenbuch (Papyrus Reinisch)
der Papyrussammlung der Österreichen Nationalbibliothek
1969

Bd.2 Ernst Bannerth
Islamische Wallfahrtsstätten in Kairo, 1973
ISBN 3 - 447 - 01504 - 7

Bd.3 Dorothea McEwan
Habsburg als Schutzmacht der Katholiken in Ägypten, 1982
ISBN 3 - 447 - 02052 - 0

Bd.4 Österreich und Ägypten - Beiträge zur Geschichte
der Beziehungen vom 18. Jahrhundert bis 1918 (in deutscher
und arabischer Sprache) 1993. ISBN 3 - 901321 - 00 - 4

Bd.5 Rudolf Agstner
Das k.k. (k.u.k.) Konsulat für Zentralafrika in
Khartoum 1850-1885 (mit einer Zusammenfassung in
englischer und arabischer Sprache (1993)
ISBN 3 - 901321 - 01 - 2

Bd.6 "Wer an der goldenen Brücke das Wort noch weiß"
Anthologie österreichischer Literatur in arabischer
Sprache, 1993. ISBN 3 - 901321 - 02 - 0

Bd.7 Rudolf Agstner
Von K.K. Konsularagentie zum Österreichischen
Generalkonsulat; Österreich (-Ungarn) und Alexandrien
1763-1993
1993
ISBN 3 - 901321 - 03 - 9

Bd.9 Rudolf Agstner
Die Österreichisch-ungarische Kolonie in Kairo vor dem
Ersten Weltkrieg; Das Matrikelbuch des k.u.k. Konsulats
Kairo 1908-1914
1994
ISBN 3 - 901321 - 05 - 5

Bd.10 Rudolf Agstner
Die österreichischen Konsulate in Port Said, Suez und
Ismailia und der Suezkanal
1995
ISBN 3 - 901321 - 05 - 5

In Vorbereitung:

Bd.8 Esmat Farag
Ich lerne Deutsch
Deutsch für Araber
1994
ISBN 3 - 901321 0 04 - 7

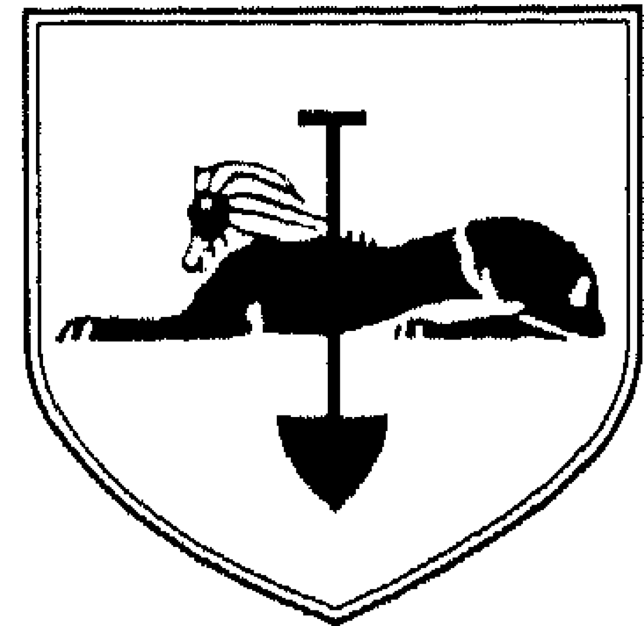
"Wer an der goldenen Brücke das Wort noch weiß, ..."

Anthologie österreichischer Literatur
in arabischer Sprache

Zusammengestellt von Adolf Opel

Übersetzung von Moustafa Maher

Schriften des
Österreichischen
Kulturinstitutes
K a i r o
Band 6



"Wer an der goldenen Brücke das Wort noch weiß, ..."

Anthologie österreichischer Literatur in arabischer Sprache

Zusammengestellt von Adolf Opel

Übersetzung von Moustafa Maher

